

مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني



الجزء الثاني

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

مذكرات

الدكتور نجيب الكيلاني

الجزء الثاني



كتاب المختار

**حقوق الطبع محفوظة
للمنشر**

رقم الإيداع : ٢٤٨٣٧ / ٢٠٠٦

جديدة ، إضافة إلى العقوبة التي لم يصدرها المدير بعد ، ولم يكن أمامي سوى الانتظار حتى يحط الليل ، ويسود الظلام ، وبعد أن صليت العشاء ، أمسكت بعلبة « التونة »؛ وأخذت أحكها بشدة في أرض الزنزانة السوداء المحببة ، وطال بي الوقت وبذل الجهد حتى تفصد جيبيني عرقاً ، وبعد ساعة أو أكثر تاكلت الحواف المعدنية لعلبة « التونا » ثم سقط غطاؤها ، ونفذت إلى خياشيمي رائحتها الشهية ، وسالت كمية من الزيت على الأرض وعلى يدي ، لكنني أسرعت وأفرغتها في « القروانة » المصنوعة من الزنك أو الألومنيوم ، ولم يكن لدى خبز ، لهذا أخذت أتناولها كما هي بشهية لا مثيل لها... حلوى.. ثم « تونة » في ليلة واحدة؟ وفي « التأديب »؟ إنه فضل كبير من الله.

شعرت بالدفء أكثر ، وأنا أجلس متلفعاً « بالبطانية » جالساً فوق البرش الخشن ، وحمدت الله.. لكن السعال يشتد ، وأسمع « جرجس » يهتف بي ليلاً: « سلامتك يا دكتور » وأنا أرد قائلاً: « تسلم يا جرجس »؛ ويمتد ليل الشتاء البارد ، وأنا أجوب الماضي البعيد بخيالي وفكري ، وأتذكر تفاصيل حياتي التي تبدو كشريط سينمائي طويل.. القرية.. الأهل.. سكان قرينتنا الطبييين البسطاء ، ثم المدينة وأيام الغربة.. والصراعات السياسية والمعارك الطاحنة.. الثورة.. الإخوان.. السجن الحربي.. ونظرات الذئاب من رجال الأمن والسياس والدماء.. والموت.. والمحاكمات والمصير الذي لا يعلمه إلا الله.. وأشعر برغبة عارمة في القراءة.. أجل القراءة ذلك العالم السحري الرائع.. إن منعي من القراءة في حد ذاته عقوبة قاسية.. ولو أنهم سمحوا لي بمصحف لكفاني ذلك.. أفكار كثيرة تدور في رأسي ، وأبيات من الشعر تتزاحم.. وتريد أن تخرج إلى الوجود كائنات على الورق.. والسعال يهزني هزاً عنيفاً ، وكأنه مديّ تمزق حنجرتي وصدرى والشعب الهوائية.. وأظلم شارداً في دنيا الذكريات والأفكار والمشاريع المستقبلية والآمال ، رغم الظلام الدامس ، والدلائل السيئة التي لا تبشر بخير ، وبرغم سياسة السحق والتكسيم والتكدير المستمر ، والإهانات البالغة التي نقاسى أهوالها ، وتذكرت حكمة قديمة لا أدرى أين قرأتها ، إنها تقول: « علمتني الحياة أن أستخرج من المر حلاوة ».. نعم حلاوة.. ربما تذكرتها بسبب « الحلوى الطحينية » التي أتى بها الحاج « فرغلي ».. لكن لماذا الحاج فرغلي بالذات؟ لا أستطيع الإجابة ، عليّ أن أكل أولاً.. وفي العمر - إن شاء الله - متسع لمعرفة ذلك فيما بعد..

جاء يوم الجمعة وأنا ما زلت في التأديب ، وسمح لي السجن بالاختلاط ببعض السجناء من أبناء الصعيد لمدة ساعة ، كانوا كرماء معي ، فقد قدموا لي في زنزانتهم كوباً من الشاي الساخن ، وحاولوا مساعدتي في حلق اللحية دون جدوى ، فقد كانت شفرة الخلاقة غير حادة بالمرة ، وبعد أن أقموا الخلاقة ، وجدت الشعر كما هو تقريباً.. لكنني شعرت أن وجهي يلتهب..

قبيل المغرب ، بعد أن أغلق السجن نهائياً باب الزنزانة ، سمعت صوت الأخ الضابط السابق السجين نجيب عطية ينادي من النافذة ، ولكي أستطيع أن أطل عليه ، أحضرت دلو الماء ، ووضعت قدمي على أطرافه حتى أستطيع الوصول إلى النافذة ورؤيته وقال لي: « لقد أحضرت لك قينة دواء سعال « بنيلين » ، وبعض الطعام.. اعذرنا.. نحن لا نستطيع الاتصال بك باستمرار نظراً لأن عبرنا الآن موضوع تحت « التكدير » ، فقد حدث صدام بين إخوانك والضابط زكي ، واحتفظوا منه المسدس.. وكادت تحدث كارثة لولا لطف الله.. إنه أخطأ بإحضاره المسدس معه ، وقد اتقن المدير بذلك.. لكن كان لابد من اتخاذ بعض العقوبات والتكدير ضدنا.. وكان ما حدث لك أحد الأسباب التي أدت إلى سوء التفاهم بين الإخوان والإدارة.. »

وودعني ومضى ، وأثناء نزولي من فوق « دلو الماء » اختل توازني ، فتدحرج دلو الماء ، وانسكب

كله على أرض الزنانة، وأصبت بالذهول وأنا أرى تلك الكارثة، وأسرعت بالتقاط «البرش» و«البطانية» قبل أن يطولهما الليل، وإلا تعذر على النوم فى ذلك الليل القارص.. ووضعت تلك الأمتعة البسيطة فوق الدلو الفارغ، ثم أخذت أغترف الماء المسكوب بيدي وأضعه فى دلو البول، لا أدري كم بقيت من الوقت أمارس هذا العمل فى سرعة وحماسة، ثم انتزعت «طاقيتي الزرقاء» من فوق رأسي، وأخذت أكمل تجفيف الأرض بها، وأعصرها من آن لآخر، كنت أسعل بشدة، والعرق يندى جبينى وأشعر به يليل جسدى، وبعد فترة طويلة استطعت أن أفرش البرش، وأتف بالبطانية، وأستعد للنوم.. لكننى تذكرت الطعام، فقد كانت معدتي - بعد ذلك الجهد المضني - يعتصرها الجوع، وقلما يشبع الإنسان فى السجن، فالتهمته التهاماً.. وفى اليوم التالى أرسلت إلى إخواني أطلب أن يبعثوا إلى بحذاء وجوب من الصوف مهما دفعوا مقابل ذلك من ثمن للسجان، وقد نجحوا فى تحقيق هذه الرغبة، ثم جاء اليوم الذى سيأخذوننى فيه إلى المدير لإصدار العقوبة.. كنت واقفاً أمام باب المدير، ومعنى سجان آخر من الإدارة غير سجان التأديب.

قال لى السجان: «اخلع نعليك..»

قلت: - «لماذا؟»

- «لأنه لا يدخل مسجون على المدير إلا حافى القدمين».

كان حذائي من القماش الرخيص، وأخذت أشرح للسجان قصة سيدنا موسى حينما قال له ربه ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾، وقلت للسجان ليس المأمور إلهاً، ولست أنا موسى، ولسنا فى الوادى المقدس.. بل فى سجن لعين، فقال السجان فى غضب: «لا نسمع منكم إلا الفلسفة.. وتغصون الأوامر دائماً».

ومر بنا فى هذا الوقت الأخ اليوزباشى «مصطفى أبو دومة» مأمور السجن، وهو كما قلت من الرعيل الأول من ضباط الإخوان فى الشرطة، وأدرك على الفور أن هناك خلافاً على نحو ما بينى وبين السجان، فسأل السجان عن الأمر فرد: «يا سعادة البك لا يريد أن يخلع حذاءه عند دخوله إلى المدير» فقال مصطفى دون أن ينظر إلى، وهو مستمر فى سيره إلى مكتبه: «وهل لائحة السجون تقول ذلك؟»

وفهمت على الفور أن لى حقاً لا بد أن أتمسك به، ورفضت خلع الحذاء مهما كان الأمر.. ودخلت على المدير «اللواء عطوة حنفى» وكان ينظر فى أوراق أمامه، كنت ثابت الخطى، رغم شحوب وجهي، وحشرجة صدرى الذى يسمع صوت أزيزه أثناء تنفسي بالنسبة للقريب مني، وألقى عليّ نظرة عجلنى ثم أصدر حكمه دون تحقيق أو حتى مناقشة وقال: «خمس أيام فى التأديب.. امش» فدفعتنى السجان فى غلظة إلى الخارج كما هى العادة المتبعة فى وجود المسؤولين الكبار.. كنت أحسب أن مدة العقوبة قد انتهت، فقد قضيت خمسة أيام فى التأديب، وهذا هو اليوم السادس، لكن للأسف فإن العسكرى - عندما قلت له ذلك - أخبرنى بأن تنفيذ التأديب يبدأ بعد تقرير المدير، وما قبل ذلك - مهما كانت المدة - لا يوضع فى الحسبان..

وعدت إلى الخندق الضيق وحدى مع الألم والضيق، لكن النجدة كانت تأتيني دائماً عندما ألوذ بذكر الله ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وأحاول أثناء عبادتي أن أنسى الدنيا من حولى، فتشرق روحى بلون من الفرح عجيب لا يمكن وصفه فى كلمات، إنها تحلق فى سماء عالية شفاقة فيها زرق مريحة تهدئ من اللوعة والأشجان، حتى لكأن ذكر الله معراج يصعد بالروح إلى آفاق طاهرة نقية

لا يشعر بها حزن ولا أسى ولا شجون.. حتى عندما كنت أناجي ربي ، والدموع تبلل أهدائي ، أشعر بتلك النشوة العجيبة.. فرح ودموع.. كيف يلتقيان؟ إنها سر من أسرار الخلق ، وكم فى النفس الإنسانية من أسرار!!

وفى نهاية أيام التأديب حملت فراشى البسيط ، ووليت وجهى شطر العنبر الشرقى الذى يقيم فيه الإخوان ، وفى الدور الثانى ، وجدت الأذرع المفتوحة ، والعيون الباسمة الفرحة ، والكلمات الحلوة ، وتجمع الأحباب من حولى ، وكأننى عائد من سفر طويل.. طويل.. أصبحوا هم أحبابى وأهلى وعشيرتى وكل دنياى.. ﴿وَأَلَفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ ها هو أحنى أنور حسنين.. ومحمود هاشم «الشهير بحاتم» ، وحسين عاشور ، والحاج عبد العزيز عبد الجواد ، وفؤاد شاكر ، وحسين عبد المعطى ، ورجب الحميسى ، وأبو بكر عثمان ، ويحيى عبد الرحمن و.. و.. وغيرهم كثيرون.. وقال لى بعضهم على طريقة السينما المصرية لمن يخرج من السجن: «كفارة يا معلم.. تعيش وتأخذ غيرها..»

ويضحكون.. وأضحك.. وأثار دموع تتألف فى العيون الطيبة الصابرة.. جلست فى ركنى المهود ، وشردت ببصرى إلى بعيد ، وقلت: «إلى متى هذا العناء؟» قال الأخ أنور حسنين «رحمه الله»: «عندما ينتهى صراع الحق والباطل ، ويتنصر الخير على الشر..»

- «أيمكن أن يتحقق ذلك؟»

- «لا يستطيع الإجابة على ذلك غيره..» وأشار بسبابته إلى السماء.

حاول أحد الإخوة التحول إلى جو المرح ، وقال مقلداً الممثل الشهير يوسف وهبى: «هيه..

ما الدنيا إلا مسرح كبير..»

وأسكتونى بكوب ساخن من الشاى ، ومر السجان صاحب المشكلة ، والذى وشى بى إلى الضابط ، وأضاف إلى ما حدث الكثير من أكاذيبه وأباطيله ، وقال وهو يرمقنى بنظرات لا تعرف الحياة: «حمداً لله على السلامة.. حقل يا دكتور.. النظام نظام..»

لم أجد مبرراً أو جدوى من أن أرد عليه ، أو أبادله الحديث ، حقيقة لقد كرهته ، إن العسكر فى الحقيقة لا يخلون من أناس طبيين ، يقدرون ظروف السجين ، ويدركون أبعاد مأساته ، ويتصرفون مع السجناء كآدميين لهم حقوق ، ولا يضخمون الخلافات ، أو يخلقون أسباباً للإيذاء ، لكن السجان «عبد اللاه» كان عنيقاً قاسياً ، ميت العواطف والمشاعر على الأقل - حسبما نرى - فى تعامله مع المسجونين ، لقد كرهته ، لأنه يجعل الإدارة الظالمة فوق مبادئ الرحمة والمبادئ والسماحة التى أوصى بها رسول الله ﷺ ، وكنت متحمساً للعمل على نقله من عنبرنا بأسلوب أو بآخر ، ولم يهدأ بالى إلا بعد أن تم ذلك.. وعلى الرغم من مشاكلنا ، وحساسية وضعنا ، إلا أن السجنانيين الذين يتناوبون فى عنبرنا يفرحون بذلك ، لأنهم يستفيدون منا مادياً.. لشد ما كانت شهيتى للقراءة مفتوحة.. وللكتابة أيضاً.. إن «الحبس الانفرادى» شديد القسوة ، وخاصة إذا حرمت من كل وسائل قضاء الوقت ، لكنه بالنسبة لى كان فترة هامة ، تعلمت منها كيف أعتكف عند الضرورة ، وأتفرغ لعمل جاد ، أو إنجاز دراسة ما ، أو لمجرد الذكر والعبادة ، وخاصة فى عقد الأربعينيات والخمسينيات من عمرى.. إن الاعتكاف أو الخلوة تعتبر ضرورة فى كثير من الأوقات للعديد من الأسباب..



[٦] مع أصدقائي المذنبين



لم تكن نعيش في السجن كإخوان مسلمين منعزلين عن باقي السجناء ، فالعزلة في هذا المجتمع الصغير غير ممكنة ، وغير مفيدة في نفس الوقت ، فضلاً عن أنها تتنافى مع أبسط قواعد الدعوة التي ندعو الناس إليها ، والواقع أن الاختلاط بالسجناء الآخرين له حدوده وتقاليده ، كما إن له نظامه وترتيباته . ولقد تخبطت سياسة الحكومة إزاء هذا الموضوع ففي المعتقلات كنا معزولين دائماً ، فلا يسمح لنا بالاختلاط بأحد ، كانت التعليمات للعسكر مشددة ألا يعقدوا معنا أية صلات أو صداقات حتى لا نجرهم إلى مساعدتنا في نقل رسائل للأهل ، أو نأخذ عنهم أخباراً ، أو نخفف من عذابهم لنا ، وهم الذين يحملون السياط ، وينفذون عمليات التعذيب أثناء التحقيق ، وفي غير أوقات التحقيق أيضاً ، فإذا أراد أحدنا الحديث مع أحد منهم تجههم وجهه وأسرع برفع سوطه ، أو انصرف عنه دون أن ينطق .

ولقد بلور ذلك المعنى أحد العسكر - وكان من بلديات أحد الإخوة - هذا المعنى بقوله: «أنا لا أرى.. لا أسمع.. لا أتكلم» ، لكننا بعد أن انتقلنا من المعتقلات إلى السجون المدنية ، تغير الوضع ، وأصبح السجناء والمسجونون - على حد سواء - يتعاملون معنا في معظم الأحيان ، ونستثنى من ذلك فترات «التكدير» والصدام..

في هذه السجون المدنية تخبطت سياسة الحكومة ، مرة تأمر بتسكيننا مع هؤلاء المساجين العاديين ، ومرة أخرى تسمح لنا بدور مخصص ، ثم تعود مرة أخرى فتأمر بتسكيننا معهم ، والحقيقة أن هذه السياسة أو تلك لم تكن بمناعة من التعامل والتفاهم والتعاون مع هؤلاء السجناء؛ لكننا كنا نفضل أن يحدد لنا مكان معين نستطيع أن نطبق فيه القواعد والشروط الصحية ، وأن نحافظ فيه على بعض خصوصياتنا ، فنحن لنا برامج في القراءة وتنظيم الأسر ، ومساعدة بعضنا البعض عند الحاجة في مجال المصروفات وإعداد الطعام والعبادات وغير ذلك من الأمور الأخرى التي لا يمكن أن تتم في سكن مختلط ، لقد دفعنا مثلاً من جيوبنا الخاصة ثمن إدخال النور الكهربائي إلى الزنانات الخاصة بنا ، وبعدها بفترة أدخلت الحكومة النور في زنازين الآخرين دون أن تكلفهم شيئاً ، وكنا نطلب الفرق الصحية لتطهير العنبر بالمبيدات الحشرية ، كما كنا نستخدم بعض المطهرات والستائر أثناء الاستحمام أو دخول دورة المياه ، بينما السجناء الآخرون لا يهتمون بمثل هذه الأمور ، رغم محاولة إقناعهم بها.

لقد كُلف الإخوة بعمل اتصالات مع بعض العسكر والمساجين العاديين وذلك لشراء - أو عبارة أدق - لتهريب بعض ما نحتاجه من المنوعات كالشاي والسكر والزيت ، وشفرات الحلاقة وبعض الملابس ، وبعض الأطعمة التي لا يسمح بتواجدها في المقصف ، وهناك أيضاً تهريب الرسائل ، لأن الرسائل التي سمح لنا بها في الفترة الأخيرة كانت لا تتجاوز نصف صفحة ، ولا بد أن يقرأها الضابط

المختص ويعتمدها، ولا يكتب في الرسالة سوى التحيات والتسليمات، لكن الرسائل المهربة كانت شاملة، بحيث نكتب فيها كل ما نريد عن إدارة الأمور المالية أو الاقتصادية، وإبداء المشورة في كثير من القضايا الأسرية، كما يمكن أن نضمنها عند الضرورة أخبارنا ومدى ما نتعرض له من تكدير وعقاب ومظالم حتى يعلم أهلونا حقيقة أوضاعنا، وقد نعرض الأهل على إرسال شكاوى بخصوص الإهمال في علاج المرضى منا، وغير ذلك من الأمور الحياتية المختلفة.

كما إن اتصالنا بالمسجونين أحياناً ما كان ينقل إلينا بعض ما تنويه الإدارة من مضايقات لنا كالتفتيش المفاجيء، أو تدمير بعض الفتن، أو الإيقاع بنا في مشاكل لاختلاق أسباب للإهانة والتكدير، ومن الطبيعي أن تلعب الإدارة معنا نفس اللعبة كأن تدس بيننا بعض عملائها من المسجونين الذين تعتقد أننا نقب بهم، كى يتقلوا إليها أخبارنا. لكن بمرور الزمن، وطول مدة الحبس، توطدت العلاقة بيننا وبين عدد كبير من المساجين، وخاصة أولئك القدامى الذين يستطيعون تقديم الخدمات لنا، وإن كان كل خدمة لها ثمنها، كما توطدت العلاقة بين بعضنا وبين عدد من العسكر والضباط، وكلما مرت الشهور تحسنت الأحوال، لكن يا ويل من يُمسك به متلبساً من المسجونين وهو يسلم لمدونينا بعض الاحتياجات الضرورية الممنوعة، إن أبسط عقوبة له هي الضرب والحجز في التأديب، ثم منعه منعاً باتاً من الاتصال المباشر بنا.

كان بسجن أسبوط سجين يبدو أبلّة، ويتصرف كما يتصرف الأطفال، وقد قرر الأطباء أن يعامل برقة كما يعامل الطفل، وكان هذا المسجون ولنسمه «س» يقلد الأطفال في حركاته وكلامه وتعبيرات وجهه ونظرات عينيه، ولهذا كان يسرح ويمرح في فناء السجن كيفما يشاء، والغريب أن هذا السجين الصعدي كان من أهم الشخصيات التي تقوم بتهريب احتياجاتنا، كنت أجلس معه أثناء التعامل، فأراه رجلاً عادياً ترتسم على وجهه سيما الجد والصرامة والرجولة، ويقوم بإجراء العمليات الحسابية بدقة وذكاء، لكن إذا ما رأى أحد الضباط قادماً ظهرت على الفور أمارات البلاهة والغباء في وجهه، ولم يكن أمره مكشوفاً إلا لنا، ولعدد محدود من العسكر الذين يتصل بهم لتسهيل مهمة الأشياء المهربة، وإيصالها إليه، ثم إلينا، أو إلى مسجونين آخرين، ولقد كنت شديد الإعجاب بذكاء هذا الرجل، وتمثيله دور الأبلّة بمهارة وثقة وإتقان.. ومن الشخصيات الأخرى السجين العائد «ذو السوابق العديدة» محمود.. كان محمود لصاً محترفاً، دخل السجن بسبب السرقة أكثر من عشرين مرة، لقيته أول مرة وأنا واقف خلف الباب الحديدي للعنبر الذي نسكن فيه، في انتظار قدوم السجان كي يفتح لي وأخرج إلى فناء السجن.. وجدت محمود يقترب مني ويقول: «هل صحيح يا أستاذ كنتم تريدون الحكم بالشرعية؟»

بدا لي السؤال تحصيل حاصل، ولم يغب عني أنه يريد أن يتحدث معي لشيء في نفسه، ومع ذلك قلت في اقتضاب: «نعم صحيح..»

اقرب مني أكثر، وقال بصوت واضح قوى: «يا سبحان الله، وهل هناك أحسن من حكم الله؟» ثم أخذ يشرح لي كيف أن انحرافه إنما كان بسبب الظلم، وأنه لم يلجأ للسرقة إلا بعد أن أعيته الحيل في إيجاد عمل شريف، أو الحصول على رزقه من طريق حلال، مما جعله يفقد الثقة في الناس.

«الناس وحوش يا أستاذ، لم أر في قلوبهم رحمة ولا إيمان»
«أنت نفسك رأيت كيف عاملوكم لأنكم طالبتهم بالشرعية.. بالعدل.. لو كان فيه عدل ما أكل

الناس بعضهم البعض»

« السجناء يعاملوننا كحيوانات.. هؤلاء بقر في صورة بشر يا أستاذ »
كل ذلك وأنا أنظر إلى وجهه الشاحب النحيل المغبر ، وإلى يديه المعروقتين اللتين تتشابكان بقضبان الباب ، وإلى إحدى عينيه المعتمة ، وعوده الضامر ، ووجدتني أقاطعه قائلاً: « هل تعرف القراءة؟ »
رد بسرعة:

- « طبعاً يا أستاذ.. ليس عندي شهادة ، لكنني أجيد القراءة والكتابة.. وأحفظ عددًا من سور القرآن .. »

وأراد أن يثبت ما يقول ، فأخذ يقرأ عددًا من السور الصغيرة ، وأنا أستمع إليه ، ثم قلت: « وما تهمتك؟ »

- « سرقة.. سرقة بالإكراه.. كل من في السجن يعرفني.. أنا محمود .. »

- « وهل يسرق من يحفظ جزءًا من القرآن؟ »

- « الجوع كافر يا أستاذ.. السرقة أو الموت ، والله لا يرضى أن أموت جوعاً.. أنا في رقتي خمسة من البشر .. »

وفجأة أمسك بيدي في ضراعة وقال: « أرجوك.. أريد مصحفًا أقرأ فيه ثم أعيده إليك.. من يدري؟ لعل الله يهديني على يدك!! قل لي.. ما اسم حضرتك؟ »

واستطاع بذلك أن يجعلني أعود إلى زنزانتى وأحضر له مصحفًا صغير الحجم ، وما إن سلمته المصحف حتى أشرق وجهه بالفرحة. ثم رفعه إلى فمه وأخذ يقبله في حرارة ، وسرعان ما فتحه وأخذ يقرأ في سورة « يس » ليثبت لي أنه يجيد القراءة.. وبعد قراءة بضعة آيات ، أغلق المصحف وقال: « ألا أجد عندك « بصلة ».. واحدة فقط »

وضحكت ، لكنني عدت مرة أخرى إلى الزنزانة ، وأحضرت له ثلاث بصلات ، وقطعة من « الحلوى الطحينية » ، ثم اختفى.. بعد أن فتح السجنان باب العنبر الذى أخذ المسجونون يتدافعون منه إلى الفناء ، وفي صباح اليوم التالي وجدت السجنان يهتف باسمى عاليًا ، فأسرعت خارج الزنزانة لأتبين ما الأمر ، ونظرت إلى الدور الأرضى ، فوجدت السجنان ممسكًا بملابس « محمود » من أعلى الكنف ، ويدفعه أمامه فى غلظة ، ويكيل له الصفعات ، وما إن رآنى السجنان حتى أخذ يحتج ويعتب على فى عنف وغضب شديد ، وما إن نزلت إلى الدور الأرضى ، حتى بدأت فى تهدئة السجنان الثائر ، فأفهمنى أنه من الخطأ أن أعطى « المصحف » لهذا المذنب اللص « النجس » - على حد تعبيره - لأنه استغل المصحف فى السرقة ، كيف؟ جلس محمود يقرأ فى المصحف بصوت منغم عالٍ بجوار المقصف ، وأثناء القراءة ، كان يغافل البائع ويمد يده ليسرق علبة سجائر ، أو علبة الطعام المحفوظ ، حتى تنبه البائع وأمسك به متلبسًا.. وأعطانى السجنان المصحف مؤكدًا على ألا أقع فى هذا الخطأ مرة أخرى ، وألا أتعامل مع مثل هؤلاء اللصوص الأوباش ، ولم يترك محمود إلا بعد أن لقننه درسًا قاسيًا ، حتى احمرّ قفاه ووجهه من الصفع وأقسم أنه لو رآه فى عنبرنا مرة أخرى لجلده ، ثم جره جزأ إلى خارج العنبر.. وأخذت أتابعه بألم وعطف رغم خطئه ، ولكن محمود لم يجرؤ على الاقتراب من عنبرنا بعد ذلك ، غير أنه كان يلتقى بى أثناء « الفسحة » فى فناء السجن عصر كل يوم ، كان يفهم فى السياسة ، وله نظرات فى الظلم الاجتماعى والفساد والطمع الذى تفشى ، وكانت له تحليلاته وتبريراته التى تتفق ومنطقه ، لكنه كان يؤكد فى كل مرة - لا أدري صدقًا أم كذبًا - أن الحكومة لو طبقت « الشريعة » لما كان هناك مجرم ولا لص ولا محتال.

وتعرضت ذات مرة للإصابة بأنفلونزا حادة والتهاب بالشعب الهوائية مما جعلنى ألزم فراشى - أعنى « برشى » فى زناتنى لبضعة أيام ، لم أستطع خلالها النزول إلى فناء السجن ، وذات يوم فوجئت بمحمود يدخل عليّ الزنانة وهو يتلفت فى خوف يمينه ويسرة ، ثم جثا إلى جوارى على ركبتيه ، وأمسك يدي فى حنان ، والدموع تترقرق فى عينيه ، بل همّ بتقبيلها لولا أنى انتزعتها منه بسرعة .. كان يقول : « سلامتك ألف سلامة .. كان لا بد أن أزورك وأطمئن عليك حتى ولو جلدونى .. »

لكنه مع ذلك كان قلقًا مضطربًا فى جلسته ، ومن آن لآخر يمد بصره عبر الباب مخافة أن يضبطه السجنان ، ولهذا أردت أن أحبيه من شر العقاب ، فشكرته وأشرت عليه بأن يمضى فى حذر وخفية كى يصل آمنًا إلى « عنبره » فى الناحية الأخرى ، ولم أنس أن أزوده ببعض الأطعمة وبرغيف وسجارة .. وبصلة كبيرة .. وأخذ ما أعطيته وهو يقول بإخلاص : « والله ما أتيت إلا لأطمئن عليك .. »

وفر محمود هاربًا فى لمح البصر ، فتنهدت فى ارتياح ، لكنى علمت بعد ما يقرب من ربع ساعة أن السجنان أمسك به ، وأشبعه ضربًا ، وأخذ منه الطعام ، ورماه فى المكان المخصص للنفايات .

إن أمثال محمود لا يزورهم أحد فى السجن ، وليست لديهم أية مبالغ من المال ليشتروا شيئًا من المقصف ، إنهم يعيشون على الغذاء المحدود الذى يصرفه لهم السجن ، لكن قد يجلس إلى جوارهم مساجين آخرون يستمتعون بأشهى وألذ الأطعمة المهربة ، ولا يفكر هؤلاء فى أن يجودوا على محمود وأمثاله بشيء منها ، فكل سجين غالبًا لا يفكر إلا فى نفسه ..

واستمرت علاقتى بمحمود فترة طويلة رغم المنقصات ومضايقات السجنان القاسى ، كنت أشعر نحوه بتعاطف حقيقى رغم جرائمه العديدة ، ولم يحاول مرة أن يسرق منى شيئًا ، أو يخدعنى ، كان يكاشفنى بما يدور فى نفسه ، وكان يطلب منى أن أساعده فى البحث عن عمل شريف عندما نخرج من السجن ، ويقسم أيمانًا مغلظة أنه لو تم ذلك فسوف يحيا حياة شريفة مستقيمة ، وسيصبح منا ، ويطالب بتطبيق الشريعة معنا ، حتى ولو سجنوه بسبب ذلك ، لأن السجن فى مثل هذا الحال - كما يقول - شرف أى شرف ..

وذات يوم سمعت « محمود » يهتف باسمى وهو فى الدور الأرضى ، وأطللت عليه ، فوجدته حزينا دامع العينين ، يحمل برشه وبطانيته تحت إبطه ، ورفع إلى وجهه الشاحب قائلاً :

- « مع السلامة .. »

- « ترحيل إلى سجن طرة .. لقد حكم على بالسجن ست سنوات أشغال شاقة .. فى الجبل .. وسأسافر غدًا .. »

كان السجنان يقف إلى جواره هذه المرة .. إنها المرة الوحيدة التى يسمح له فيها بذلك ، لأنها رغبة أخيرة .. « من يدري .. فقد تتلاقى الوجوه فى يوم من الأيام إن كانت بقية من عمر .. »

قالها والسجان يجذبه ناحية باب العنبر ، وأخذ محمود يتوارى بعيدًا ، ينقل خطاه الواهنة إلى المجهول .. كادت الدمعة تطفّر من عيني .. ست سنوات أشغال شاقة؟ ومن أجل السرقة؟ وقال أحد الإخوة الخبراء :

- « إن اللص كلما كرر جريمة السرقة ، تزداد العقوبة كل مرة .. تبدأ بشهور .. وبعد « السوابق » الكثيرة .. تتحول عقوبة السجن إلى عقوبة أشغال شاقة فى الليمان .. إن أمثال هؤلاء الناس معتادى الإجرام يعيشون فى السجون أكثر مما يعيشون خارجها .. وهكذا تصبح الحياة فى السجن هى القاعدة ، والعيش خارج السجن هو الاستثناء وهل نسيت أن بعض السجناء كان يرفض الإفراج عنه ، ويتشبث

بالبقاء فى السجن، حتى ولو افتعل جريمة جديدة قبل أن يخرج كأن يتطوع بالإبلاغ عن نفسه بأنه يحوز بعض المخدرات؟ مثل هؤلاء لا يعرفون الاستقرار إلا فى السجن فالغذاء مكفول، وإن كان فى حده الأدنى، والمأوى متوفر وإن كان زنزانة ضيقة، والفراش موجود وإن كان «برشاً وبطانية» والملابس لا إشكال فيها فهى رخيصة وتافهمة ومتوفرة بالجمان.. ومجتمع السجن هو المجتمع الذى ألفه وعرفه.. أما الطموحات والآمال فلم يعد لها جدوى أو قيمة اللهم إلا فى حالات نادرة.. عند من يهيمنون فى أحلام اليقظة..»



كان لى طوال فترات السجن أصدقاء كثيرون متنوعون، منهم من تخصص فى النصب والاحتيال، أو التزوير وتزييف العملة، أو القتل، أو تجارة وحيازة المخدرات، أو الاختلاس، لكن جرائم القتل والثأر كانت تشكل نسبة كبيرة فى سجن أسبوط، أما فى سجن القاهرة فكانت الجرائم الغالبة من نوعية أخرى تتعلق بالسرقة والانحرافات المالية والأخلاقية وغيرها، وكانت هناك جرائم غامضة يجد الإنسان نفسه حائزاً حياها، وأذكر من هذه الجرائم جريمة رجل يدعى «الشيخ عبد المجيد» وقد وردت شخصية مستوحاة منه فى روايتى «ليل وقضبان» التى أخرجت فيلمًا سينمائيًا..

كان الشيخ عبد المجيد محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وبعد أن قضى سنوات فى «ليمان طرة» يكسر الحجر فى الجبل، وتقدمت به السن، تم ترحيله إلى السجن المركزى فى محافظته وهو سجن أسبوط، حيث يعيش فى هذا السجن الأخير دون عمل، ويظل ينتظر انتهاء المدة كى يفرج عنه، ومن العجيب أن «عبد المجيد» كان يعرف الكثير من الأحكام الفقهية، وحفظ القرآن فى صغره، ويستطيع أن يجادل فى بعض الأحكام، ويدلى بالأسانيد والنصوص، لكنه كان يصاب من آن لآخر بنوبات من الخرف أو قل الجنون، فيخلط فى الكلام، ويخرج من موضوع إلى آخر، ويتحدث عن أشياء خرافية، ويحكى تفاصيل غريبة لا تُصدق، وفى بعض الأحيان تراه يتحدث بمنتهى الرزانة والمنطقية، وفى أحيان أخرى ينقلب الحال إلى النقيض، وفى حالاته الطبيعية كانت هناك عبارة تقلب حاله قلبًا فى لحظات، هذه العبارة هى «نبهة بنت حسن عرفات» حاولت كثيرًا أن أتقصى أخبار «نبهة» هذه، من تكون؟ وما علاقتها به؟ لكنى لم أجد الجواب الشافى، كان الشيخ عبد المجيد يحب الجلوس معنا أثناء «الفسحة» فى العصر، وتبادل معًا شتى الأحاديث.. وكلمًا حاولت أن أسأله عن «نبهة» سرعان ما يحتقن وجهه، وتحتفظ عيناه، وينطلق فى حديث ثائر، يصحبه الزبد والرذاذ، فنندم على أننا قد نكأنا جراحه.. كان يقول: «نبهة بنت حسن عرفات» وباء أصفر.. إنها جاسوسة يهودية.. إنها تزعجنى طول الليل، تبعث إلى موجات صوتية وإشعاعات.. أى والله إشعاعات فلا أستطيع النوم.. تريدنى أن أجن أو أموت.. الخيانة هى.. لا تستحق إلا الإعدام.. الحكومة جاهلة ولا تعرف عنها شيئًا.. انظروا كيف أسد أذني حتى لا أسمع صوتها..

ونظر فنجد إنه قد وضع على أذنيه أغطية من الصفيح مبطنة بقطعة من القطن «غالبًا ما تكون أغطية لعب الفرنيش أو الورنيش التى كانت تستعمل قديمًا لتلميع الأحذية» ثم يلف عليها شالاً أبيض حول الرأس والأذنين.

كان عبد المجيد مسليًا ومحدثًا لبقًا، لديه الكثير من القصص والتجارب، ويعرف الكثير عن تقاليد وطباع أخوتنا فى الصعيد «الوجه القبلى»، وعلى الرغم من حيرتنا حيال جريمته إلا أن الحكم عليه

بالأشغال الشاقة يعنى أنه قاتل ، وقد قيل أنه قتل « نبيهة » زوجة أخيه ، وقيل أيضًا إنه لم يقتل نبيهة ولكنه قتل أخاه ، وأشياء أخرى قيلت ، لكن الحقيقة ظلت ضائعة ، ولعل ملف القضية هو الذى يكشف وجه الصدق ، وأين هو ملف القضية؟ لكن يبقى عبد المجيد الذكى والمحدث اللبق .. المجنون فى كثير من الأحيان ، والمؤكد أن وضعه العقلى - رغم كل ذلك - ليس فى حالة طبيعية ، قد يكون ذلك بسبب ملابسات الجريمة التى اقترفها ، وظل شبحها يطارده ، وقد يكون بسبب المدة الطويلة التى قضاها فى ليمان طرة وفى سجن أسبوط الله وحده يعلم..

وهناك العم « عبد الرحيم » زميل الشيخ عبد المجيد فى زنرته ، إنه أيضًا رجل متقدم فى السن ، قضى فترة الليمان ، ثم أحيل إلى سجنه المركزى ، وأعتقد إنه كان متهمًا بالقتل ، وهو فى أثناء وجودى بسجن أسبوط فى الستين من عمره تقريبًا ، وقد أفرج عنه بعد قضاء سنوات طويلة لأنه كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، لكن الغريب والمذهل أن عبد الرحيم عاد إلى السجن مرة أخرى بعد أربعة أو خمسة أشهر ، بتهمة قتل جديدة.. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

كان عبد الرحيم صديقنا هو الآخر ، لكنه يختلف كثيرًا عن الشيخ عبد المجيد المتوتر المضطرب أو المشوش الذهن عندما تتناهب الأزمة ، عبد الرحيم مبتسم دائمًا ، يجيد لعبة العصا ، ساخر من الحياة لا يعبأ بالسن ولا بالمرض ولا حتى الموت ، لا يتهيب المستقبل ، ولا يتبرم من الحاضر ، قلما تجده مهمومًا أو مكروبًا ، لكن رجل فى مثل سنه وتجربته المريعة كيف يجزؤ على القتل مرة أخرى؟

كان عبد الرحيم سعيدًا عندما تقابلنا معه بعد إعادته إلى السجن ، لم تفارقه سحرته وابتسامته ، لكن الجريمة التى ارتكبها أمر عادى لا يثير استغرابًا ، لقد تحجر قلبه ، من جراء الأحقاد وليالى السجن وأيامه القاسية كما هو واضح ، لكن ألم تردعه شيبته وشيخوخته؟ لقد قال فى معرض الدفاع عن تصرفه ذلك: « فى المرة الأولى اتهمونى ظلمًا ، كان أخى الأصغر هو القاتل ، لكنهم ألقوا بالتهمة على ، وأجمع الشهود على ذلك ، وكان بيننا وبين أسرة القتيل ثارات قديمة ، أندرون لماذا اتهمونى أنا؟ ليضربوا عصفورين بحجر.. أدخل أنا الليمان.. ثم ينفردون بأخى الأصغر القاتل.. وقد قتلوه فعلاً وأنا سجين.. بل فى العام الأول من سجنى.. لقد ترملت زوجته وتيتيم عياله.. وكذلك زوجتى وأولادى رغم أنى حى أرزق.. لكنى فى السجن.. عندما خرجت كان لا بد أن أخذ بثأرى.. فهم حبسونى ظلمًا.. وأخذ بثأر أخى.. هذا هو قانوننا هنا.. وإذا لم أفعل ذلك فسيركبنى العار أبد الأبدىين .. »

قلت له: « سيأرون من أولادك »

- « فليفعلوا إن استطاعوا .. »

- « ولن تجف الدماء أبدًا يا عم عبد الرحيم .. »

هز رأسه وهو ما زال يبتسم وقال فى سخرية: « أعرف.. وهى لم تجف أبدًا فى يوم من الأيام.. هذا قانون يا ولدى .. »

- « إن « قانون الله » أعظم »

وضع يده على كتفى وقال:

- « وقانون الله يقول ﴿وَالْعَبِيدُ بِالْعَبِيدِ﴾ ويقول ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

لكن الحكومة لا تعرف قانون الله.. تقتل إنسانًا فيحكم عليك بالسجن سنة.. خمس سنوات.. عشرة.. وربما براءة.. ثم تخرج ويراك أهل القتل فتغلى الدماء فى عروقهم .. »

ثم قطع حديثه فجأة وقال:

- « انظر.. عيني محمّرة.. أليس عندك قطرة أو مرهم للعين ..»

- « القطرة موجودة.. لكن يؤلمني أنك لا تخرج من السجن هذه المرة حيًّا ..»

فهقه مرة أخرى فى سخرية وقال: « هيا واحضر القطرة.. عيني تدمع باستمرار ، والموت لا بد قادم.. والأعمار بيد الله يا ولدى.. يكفى أن أهل بلدى كانوا ينظرون إلى باحترام وأنا عائد إلى السجن للمرة الثانية.. وزغردت النساء.. كانت زوجتى هى الأخرى تزغرد.. وبناتها كذلك.. لكن أقول لك الحق.. كانت الدموع تنسكب من عيونهن ..»

الحقيقة أن مشكلة « الثأر » فى الصعيد ما زالت مشكلة عويصة ، وعلى الرغم من أنها تؤرق ذلك المجتمع ، وتكبده أفدح الخسائر إلا أنها ما زالت متغلغلة فيه ، وأغلب المساجين - كما قلنا - فى الصعيد بسبب مصيبة الأخذ بالثأر ، رغم التوعية والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية ورغم الدراسات الاجتماعية العديدة التى أجريت عنها ، إلا أن الشئ الهام والملفت للنظر أن الذين انضموا إلى « الإخوان المسلمين » من إخواننا الصاعدة قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأحكامه وآدابه ، وأمكنهم التخلص من هذه التقاليد وبذلوا جهودًا دائبة فى مكافحتها وحققوا قدرًا لا بأس به من النجاح ، وقد استطاع الإمام الشهيد حسن البنا فى الأربعينيات من القرن العشرين ، أن ينجح فى إتمام الصلح بين عدد من العائلات الكبيرة فى الصعيد أثناء جولاته العديدة لنشر دعوته ، وقد أشار عدد من المؤرخين المعاصرين لجهوده فى ذلك المجال حتى إن المؤرخين اليساريين أنفسهم أثبتوا شيئًا من هذا فى كتاباتهم ، أذكر منهم الأستاذ الدكتور مكى ، كما سجل ذلك أيضًا الأستاذ محمود عبد الحليم فى ثلاثيته عن تاريخ الإخوان ، والأستاذ أنس الحجاجى وهما من الإخوان وغيرهما كثيرون..

لا أستطيع أن أتناول بالتفصيل أصدقائى المذنبين ، فهم كثيرون ، وبعضهم كان يزورنى فى السجن بعد خروجه ، وإنما أردت أن أشير إلى بعض النماذج هنا ، كما أشرت إلى نماذج أخرى من أجزاء هذا الكتاب ، فضلًا عما ذكرته فى كتابى « المجتمع المريض » ، وما ورد فى بعض رواياتى وقصصى الكثيرة التى تعرضت للسجن أو السجناء فى مختلف الجوانب ، وما أكثر ما تعرضت للسجون والسجناء فى كتاباتى القصصية!



[٧] نساء مجاهدات

كانت المحنة التي عانى منها رجال الإخوان المسلمين في السجون والمعتقلات محنة قاسية لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر الحديثة، ولقد كان لهذه المحنة مضاعفات وآثار عميقة لا يمكن محوها، لكن الجانب الذي أهمله الكتاب والمؤرخون لتلك الفترة « ١٩٥٤ - ١٩٦٥ » هو الدور الذي أدته نساء الإخوان سواء أكن زوجات أو أمهات أو أخوات أو بنات، وهو دور مشرف لم يكشف عنه النقاب بصورة تفصيلية حتى الآن، ربما لزهة الإخوان في تسليط الأضواء على هذا الجانب؛ أو بسبب أن ذلك أمر واجب، وسلوك طبيعي لا يعتبر غريباً بالنسبة للبيئة أو الأسرة المسلمة، أو لأن معظم هؤلاء السيدات يعتبرن ذلك قرينة لله، ومشاركة للرجال في صبرهم ومعاناتهم، ولقد كان جهاد النساء مؤثراً وعميقاً - كما قلت - لكنه بدأ منذ وقت مبكر، أي قبل أن يحدث الصدام، وتتعدد الأمور، وتسيل الدماء على أرض السجون والمعتقلات في الرزازين السوداء.



كانت النسوة لهن تنظيم خاص في المركز العام للإخوان المسلمين، وكانت لهن محاضراتهن ونشاطهن في المؤسسات التعليمية وعلى المستوى الاجتماعي الشامل، وكانت نسبة المصاهرة بين أسر الإخوان المسلمين نسبة عالية، وغالبية هذه الزيجات اتسمت بالنجاح والتوفيق، وانعكس ذلك على الأجيال الجديدة التي تسلمت الراية في السنوات اللاحقة، لكن صمود هؤلاء النسوة قد تجلّى بصورة أقوى وأوضح إبان الأزمات والحزن، لقد صبرن واحتسبن سنوات طويلة، وعانين شظف العيش، لقلة الموارد، وانقطاع الرواتب الخاصة بالمحكوم عليهم من رجالهن، أو انهيار المؤسسات التجارية والمالية للعاملين في القطاع الخاص « غير الحكومي » منهم، بالإضافة إلى أن الحكومة كانت تقف حجر عثرة في طريق الأسر حتى تجعلهن بسبب « لقمة » العيش يخضعن أو يتمردن على رجالهن الذين حرموهن متعة الحياة وهناءها واستقرارها، ولقد سبق وأشرنا إلى موقف الحكومة من أولئك المقطوعين الذين كانوا يجمعون الإعانات والمساعدات للأسر التي سُجن عائلها، فقد اعتقلت هؤلاء المتبرعين بأعداد كبيرة، وقدمتهم للمحاكمة تحت اسم « قضية الجهاز السرى التمويلي »، وكان ذلك عام ١٩٥٥، كانت أسر المسجونين تعيش في مأزق حقيقى، لدرجة أن أحد الإخوة المسجونين في سجن أسبوط عاد باكى العينين من إحدى زيارات أهله له، ولم يفصح عن سبب بكائه إلا لإخوته في الزنزانة، وعلمنا أن أبناءه وبناته على وشك الانقطاع عن التعليم، والبحث عن عمل يدر عليهم دخلاً يكفى لتحقيق الحد الأدنى للمعيشة، وكانت هذه الأسرة تعيش في منطقة منعزلة لا يعرف عنها الإخوان شيئاً في الخارج، وألما هذا الوضع، فاقترح أحد الإخوة المسجونين وأظنه المذيع التلفزيونى « فؤاد شاكر » أن نجتمع تبرعات - مهما كانت ضئيلة - من داخل السجن، وبصورة عاجلة، ونرسلها إلى هذه الأسرة، رغم ضعف الإمكانيات المادية المتاحة لنا، وقد أقبلنا على تنفيذ ذلك بحماس منقطع النظير، ومن لم يكن لديه مال

تبرع ببعض قطع ملابسه الداخلية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أجرينا اتصالات سريعة ببعض الإخوة الأخيار المطلقى السراح كي يتدبروا هذا الأمر العاجل.

وهناك بعض السيدات من ربات البيوت واللائى لم يسبق لهن العمل فى وظيفة من الوظائف، فقد كن يركزن على رسالتهن الأسرية فى تربية أولادهن، ورعاية أزواجهن، لكن إزاء هذه الظروف القاسية، وبسبب محاصرة الحكومة لعملية جمع التبرعات، ومراقبة الأسر والعائلات مراقبة صارمة، ولم يكن هناك بد من أن تخرج الكثيرات لسوق العمل المناسب، حتى يحصلن على الرزق الحلال بالأسلوب الحلال، ويواصلن رسالة الأب السجين فى مجال تعليم الأولاد ورعايتهم بل وتزويجهم فى كثير من الأحيان، وبعض هؤلاء النسوة المحتاجات اشتغلن فى التجارة البسيطة بيعاً وشراءً، ومنهن من تكبدت المشاق فى الحصول على «ماكيته» خياطة، لتخيط للغير، وأخرىات عملن فى مجالات متعددة، صابرات محتسبات، وقد يكون الأمر هيئاً إذا كان لبضعة شهور، أما إن يمتد أحياناً لسنوات.. طويلة فهو أمر يبدو فوق الطاقة، لكن هل كانت هناك حلول بديلة لهذه الحلول؟

ويجب ألا ننسى أن هناك أسراً أخرى كانت لديها الإمكانيات أو الرصيد الكافى للإنفاق على الأسرة دون حاجة إلى معونة من أحد، ودون الاضطرار للبحث عن وظيفة، فضلاً عن إخوة السجين وأهله كثيراً ما كانوا يعملون وزوجته وأبنائه، قياماً بالواجب، وصلة للأرحام.

لكن تظل غيبة «الأب السجين»، أو الأخ الأكبر العائل، أمراً ذا أبعاد اجتماعية ونفسية كبيرة لا يمكن التهورين من شأنها، وقد رأيت أحد الإخوة من الآباء مكثباً حزناً لأن ابنته وافقت على الزواج من شخص لا يناسبها، وأنها اختصرت آمالها العريضة فى تلقى العلم، واكتفت بالثانوية العامة، وشغلت وظيفة صغيرة ولم تدخل كلية الطب كما كانت تحلم من قبل، وكان واضحاً أن الفتاة المسكينة رأت بعينها ولمست مدى ما تعانیه أمها من ضيق ذات اليد، فأرادت أن تخفف العبء وتلوذ بكنف رجل، لعلها فى المستقبل تستطيع أن تستدرك ما فاتها من فرص.

ولقد عانت بعض الزوجات والأبناء من اضطرابات نفسية مرضية اقتضت مشورة الأطباء، وأخذت علاجات لفترات ليست بالقصيرة، والأبناء فى غيبة الأب قد يشعرون بما يشبه اليتيم، ويشعرون بأن هناك شيئاً ناقصاً فى حياتهم، وخاصة عندما يعقدون المقارنات بينهم وبين زملائهم.

لقد أصيبت زوجة أخينا «غ» بمرض نفسى شديد قلب حياتها رأساً على عقب، بحيث لم تعد قادرة على متابعة رسالتها نحو منزلها وأبنائها، وكان قرار الطبيب المختص المعالج أن وجود زوجها بالقرب منها أمر ضرورى لنجاح العلاج، وأخذنا نندارس الوضع الحرج، وما المخرج الممكن؟ وأخيراً - بعد تفكير وجهود مضنية - أمكننا تدبير ترحيل الأخ «غ» من سجن الصعيد إلى سجن القاهرة لعلاجيه من انزلاق غضروفى فى الظهر، وارتفاع فى ضغط العين «جلوكوما»، وفى سجن القاهرة «قره ميدان»، أشار الأخصائى بإحالاته إلى المستشفى الجامعى «بالقصر العينى»، وعندما يكون السجين بالقسم الداخلى يوضع عادة فى غرفة خاصة، ويوضع على بابها حراسة مشددة ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى المرور الدورى لرجال المباحث لمراقبة أحواله واتصالاته، وبقي هذا الأخ فى القصر العينى ما يقرب من عام، لقد استطاع أن «يرؤى» الحراس بأسلوب أو بآخر، وبالتالي أصبح من اليسير عليه أن يقضى فترات طويلة مع زوجته وأولاده، وسرعان ما شفيت من مرضها النفسى، وعادت إلى حالتها الطبيعية، بل إنه خلال شهر رمضان كان يذهب إلى بيته فى وقت أذان المغرب متخفياً، ويعيش بين أسرته حياة طبيعية لساعتين أو ثلاثة، بل إن بعض الحراس الطبيين كانوا يتركونه فى منزله حتى الفجر، تكرماً منهم

وعطفًا، وتقديرًا لظروفه، ومهما كانت قسوة الشرطة في مثل هذه الظروف العصبية، والأوامر المشددة، إلا أنك قد تجد بعض الأفراد من ذوى القلوب الرحيمة، وخاصة بين أولئك العسكر الذين لم يعملوا فى السجون أو المعتقلات من قبل، ولم يمارسوا التعذيب كغيرهم، لكن الأمور لم تمض على هذا النحو الهين اللين، فقد داهم رجال المباحث بيته ذات ليلة، وأمسكوا به متلبسًا، ولا بد أن نفسًا حاقدة قد وشت به قال الضابط له: «أنت متهم بالهروب؟»

قال «غ»: «ليس للحارس ذنب، لقد غافلته..»

- «سوف يلقي جزاءه.. وأنت أيضًا..»

- «لا يهمنى نفسى.. لكن الحارس لم..»

قاطع الضابط قائلًا فى خشونة: «كفى.. نحن نعرف ما يجب عمله.. ستحاكم بتهمة الهروب،

وستعاد إلى سجنك الأصلي.. لقد أتيت إلى بيتك مرات عديدة.. ولقد عرفنا ذلك..»

قال السجين: «وهذا يدل على أنني لم أنو الهرب أبدًا، ولو كان فى نيتي ذلك لفعلته منذ البداية..

لقد كنت مضطرًا لعلاج زوجتى المسكينة التى لا ذنب لها..»

جذبه الضابط من طوقه، ووضع الأغلال فى يديه قائلًا: «وتنجب أطفالًا؟ يا لك من متبجح!!»

- «هذا حق شرعى.. وإنسانى..»

- «سنرى.. هيا..»

إن الحاجة تفتق الحل، والظلم الفادح الذى يقع على الإنسان، وما يتبعه من مضاعفات وكوارث، قد يدفع الإنسان دفعا للتصرف الذى يخفف من البلاء، أو يحل بعض المشاكل، ولهذا رضخت الحكومة - فى فترة من الفترات - للأمر الواقع، وأفسحت المجال للقاء الأزواج والزوجات فى «سجن الواحات الخارجة فقط»، أما باقى السجون فقد تعذر ذلك تمامًا، وخاصة أن سجن الواحات كان يقع فى قلب الصحراء، ويستغرق القطار وقتًا طويلاً للوصول إلى هناك، وقد يتوقف القطار ليوم أو أكثر أثناء الطريق من أسبوط إلى الواحات، بسبب العواصف الرملية، التى تطمر القضبان الحديدية، وكان على الزائرين أو الزائرات، وبعضهم يأتى من غزة أو الإسكندرية أو القاهرة أن يقضوا أيضًا ليلة أو ليلتين حتى يحين موعد رجوع القطار إلى أسبوط، وكان سجن الواحات الخارجة عبارة عن مخيم كبير، يقيم السجناء فى خيام نصبوها بأنفسهم، ويحيط بالسجن أسلاك شائكة، وحراس مسلحون، لكن هذا المجتمع الصغير كان بعيدًا عن توقع المنغصات، ويستحيل فيه الهرب، وإلى أين يذهب السجين إذا هرب؟ إنه يموت فى هذه الصحراء الشاسعة ظمًا أو بسبب ضربة الشمس أو الجوع، ومن ثم أعدت خيام خاصة لاستضافة الزوار إذا قضوا ليلة أو ليلتين هناك، لكن هذا السجن لم يستمر إلا حوالى أربع سنوات، وأعيد السجناء بعدها إلى السجون المغلقة الكثيرة كسجن «قنا» أو أسبوط أو غيرهما من سجون الجمهورية.

وما أكثر ما عانت النساء فى هذه الأعوام المظلمة!!!

ومع هذه الظروف القاسية لم تسجل حالات طلاق إلا فى النادر جدًا جدًا، ولظروف وأسباب قهرية، وهذا أمر ملفت للنظر، وخاصة أن عددًا من سجناء الإخوان قد قضى فى السجن ما يقرب من ثمانية عشر عامًا متصلة نذكر منهم الأستاذ المرحوم عمر التلمسانى والأستاذ محمد حامد أبو النصر والأستاذ صلاح شادى ونيرهم، بل إن الأخ الشهيد كمال السنابرى قد عقد قرانه على شقيقة الشهيد سيد قطب وهو سجين با مان طرة، وظلت تنتظره حتى خرج «زواج مع وقف التنفيذ»..

اقول إن هناك حالات طلاق نادرة جدًا حدثت ، ويجب أن يذكر ذلك من باب الأمانة ، والحقيقة التي يجب أن نسجلها بأمانة أيضًا ، أن الإخوان الذين حكم عليهم بالسجن بأحكام طويلة قد خيروا زوجاتهم بين البقاء في عصمتهم أو حرية طلب الطلاق ، لكن النساء تمسكن بأزواجهن ، وقررن أن يتحملن عبء الجهاد والمسئولية مع الرجال سواء بسواء.

كان الأخ «م» قد عقد قرانه ، لكن الزفاف لم يتم ، فقد قبض عليه بعد عقد القران مباشرة ، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا ، وتم ترحيله إلى أحد سجون الصعيد لقضاء المدة المحكوم بها عليه ، وبعد ثلاث سنوات ونصف تقريبًا نقل إلى سجن القاهرة ، وكانت هناك معرفة سابقة بين أصحابها «م» ومدير سجن القاهرة المرحوم اللواء محمود صاحب ، وذات يوم جاء المدير بنفسه ، ثم أخذ «م» معه إلى مكتبه ، وحينما عاد بعد حوالى نصف ساعة إلى زنزانته لاحظنا أنه يعاني من أزمة نفسية ظاهرة ، على الرغم من أنه التزم الصمت ، وعلمنا بعد فترة قصيرة أن المدير قد فاتحه في أمر طلاق زوجته التي لم يدخل بها بعد ، كان الأمر مفاجأة بالنسبة لأخي «م» ، فقد كان يعتقد أن الصلة الوثيقة القديمة كفيلة باستمرار الرباط بين الأسرتين ، فضلًا عن أن السجين السياسى قد يطلق سراحه فى أى وقت ، ومن جانب آخر قد يبقى فى السجن بعد انتهاء فترة الحكم ، بحجة صدور أمر جديد باعتقاله لخطورته على الأمن ، لكن الذى حدث هو أن أهل الزوجة يريدون الطلاق ، لم يمنع «م» من ناحية المبدأ ، لكنه طلب أن يسمع ذلك بنفسه من زوجه التي لم يدخل بها كما قلنا ، إننا كبشر لا بد وأن نتألم من مثل هذا الموقف ، والألم النفسى لا يعنى الانهيار ، إنه ألم صامت مع التماسك والتصبر ، أليس ذلك ضربًا من ضروب الابتلاء؟

وتم الطلاق!!

العجيب فى الأمر أن «م» صدر له أمر بالإفراج بعد حوالى ثمانية أشهر من هذه الواقعة ، وما إن ترك السجن حتى بحث عن زوجة جديدة وخطبها على الفور ، وكم كانت دهشته عندما جاءت زوجته الأولى تسبقها عبراتها وندمها وأسفها ، وتتوسل إليه أن يعيدها إلى عصمته ، لكنه لم يجد رغبة لديه ففقد فات الأوان ، وبعد أن تزوج «م» ، بقيت طليقته أعوامًا دون زواج ، ثم تزوجت من رجل متقدم فى السن ، لم يمهله الموت طويلاً ، وحينما التقيت مع «م» فى اعتقالنا الثانى عام ١٩٦٥ فيما عرف بقضية المرحوم «سيد قطب» ، أرانى صورة فوتوغرافية لأبنائه الثلاثة ، وقضى معنا هذه المرة فى المعتقل حوالى العام والنصف ثم أفرج عنه.

أعود مرة أخرى لأشير إلى الموقف الصامد المذهل لنساء الإخوان فى هذه الفترة العصيبة ، والذى يصعب أن نجد له مثيلاً فى أى مكان فى العالم الآن ، وخاصة ذلك العصر الذى سيطرت عليه الماديات والشهوات والمصالح ، وطفح بشتى أنواع الأنانية والأثرة ، وبالإضافة لهذا الدور البطولى للنساء فقد لعبن أدوارًا هامة - غير المهام الأسرية - فى الحركة الإسلامية واستمراريتها ، وخاصة أن الحكومة فى هذه الفترة كانت تنهيب اعتقالهن أو محاكمتهن ، لكن الأمر تغير فى أزمة ١٩٦٥ الطاحنة فيما بعد ، إذ تجرأت الحكومة الناصرية هذه المرة ، واعتقلت عددًا كبيرًا من النساء ، وقدمت البعض منهن - وليس كلهن - للمحاكمة ، من أمثال السيدة زينب الغزالى ومن آل قطب وغيرهما ، وكان ذلك التصرف فى عام ١٩٦٥ حدثًا غريبًا شاذًا بالنسبة للمجتمع المصرى المسلم ، لأنه يحدث لأول مرة ، وتعامل النسوة بقسوة وجرأة عجيبة ، ثم تكرر الأمر مرة أخرى. وإن كان بصورة أخف كثيرًا جدًا - فى عهد السادات ، حينما صدر أمر باعتقال «وليس محاكمة» عدد من النسوة منهن صحفيات وداعيات

وصاحبات وجهات نظر سياسية، فيهن صاحبات اتجاه إسلامي، وفيهن أيضًا من كن يعملن في تنظيمات اليسار..

ولقد عمد بعض رجالات المباحث - للأسف الشديد - إلى أسلوب دنيء، في محاولات مستميتة لتحطيم الكيان الأسرى في بعض البيوتات الإخوانية، إذ حاولوا تحريض بعض الزوجات على طلب الطلاق، وحاولوا اختراع الأكاذيب والمفتريات كي يلصقوها بأزواجهم الأبرياء، كما حاولوا أن يبعثوا اليأس في نفوس زوجات أخريات، مؤكدين لهن أن أزواجهن لن يخرجوا من السجن مطلقًا، وأنهم سوف يبقون فيه إلى أن يموتوا، ثم ألم يقل جمال عبد الناصر نفسه في إحدى خطبه «عام ١٩٦٥» وقد سمعناها من خلال الميكروفون بصوته هو، ونحن في المعتقل «اللى يلعب بديله «بذيله» من الإخوان المسلمين لن نخرجه من المعتقل أبدًا؟» ورغم بذاء الكلمة - فالذيل للكلاب والحيوانات وليس للإنسان - إلا أن مدلولها كان خطيرًا، إذ يكفي أن يكتب مخبر تافه تقريرًا عن إنسان يشير إلى أنه «خطر على الأمن العام» دون ذكر أية أخطاء محددة، ومن ثم يلقي به في المعتقل، ولا يخرج منه أبدًا..

في هذا الجو العنيف المخيف كان يعيش أبناء الإخوان وزوجاتهم وذووهم، ومع كل تلك التهديدات والمؤامرات والحروب النفسية، والجو القاتم المرعب الذى يخيم على سماء البلاد، مع كل ذلك، فقد بقيت «الأسرة الإخوانية» صابرة متماسكة، لم يروعها تهديد، أو يحطمها يأس، أو ينلها وعد أو وعيد، وبقي الرباط المقدس الوثيق، والعواطف السامية الشريفة، والوفاء الفذ، بقيت هذه المعانى النبيلة، والقيم الرفيعة، تغذى القلوب والأرواح بالأمل، وتستعذب المعاناة المريرة، وترضى بالقليل من الزاد واللباس، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله الكريم..

لقد كانت الخسائر المادية والصحية فادحة، وكانت دموع النساء المظلومات، والأطفال الأبرياء تبيل الوسائد، وتتألق في ظلمات الليالى الطويلة، واستبد الحرمان ومرارة انتظار الفرج، لكن بقى الإيمان يغمر القلوب.. وبقي الحب ذلك الرصيد الهائل الذى لا تضارعه أعظم كنوز الأرض، ولا يضاهيه السلطان وما حوله من هالات وأضواء وهتافات وبريق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٩٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٩١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿١٩٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٩٤﴾﴾

اللهم لا شماعة فى أحد.

إن أحد أركان حكم عبد الناصر، عندما قبض عليه فيما سمي بثورة التصحيح، وصدر ضده حكم بالسجن، لم تكد تمر إلا فترة قصيرة حتى طلبت زوجته الطلاق، فقد أحبت حارسه الخاص الضابط الشاب، وتركت أولادها، وجرت وراء حبيبها الجديد..

مرة أخرى.. اللهم لا شماعة فى أحد..

لقد كان الله رحيماً بالإخوان وأسراًهم إبان الأزمات المتتالية المستعرة، وهذه في حد ذاتها نعمة كبرى، وذلك فضل من الله ونعمة، ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ولقد تجرأ بعض النسوة في عام ١٩٥٧، وسرن في مظاهرة صامتة إلى قصر « القبة » لمقابلة عبد الناصر نفسه، وتقديم تظلم إليه بسبب بقاء ذويهم في السجون، وكانت من بينهن والددة الأخ الأستاذ « عبد المحسن عبد الحى » حيث جاءت لزيارة ابنها في سجن أسبوط، وشرحت له تفاصيل المقابلة، وقالت إن الرئيس قال لهن في النهاية: « سنخرجهم من السجن.. لكن علموهم الأدب!! » لكن هل أفرج عنا. ثم هل تعلمنا « الأدب »؟!.



[٨] عودة إلى الجهاز السرى

موضوع «التنظيم الخاص» أو «الجهاز السرى» كما سماه البعض، موضوع هام شغل الأعلام والأذهان بين صفوف الإخوان خاصة، وبين المؤرخين والسياسيين ورجال الأمن، والمحللين الأجانب شرقاً وغرباً، أولئك الذين تخصصوا فى دراسة الحركة الإسلامية المعاصرة، وما صاحبها من أحداث وتحولات..

فلم يكن غريباً أن يهتم الإخوان فى السجون بهذه النقطة اهتماماً بارزاً، لأن هذه النقطة كانت باباً للهجوم على الجماعة، وسبباً من أسباب اتهامها باللجوء إلى العنف، وأتياً كان الأمر، فإن هذه القضية - كما سبق وشرحت فى القسم الثانى من هذا الكتاب - لا يمكن النظر فيها، والحكم عليها بعيداً عن ظروف العصر وأحداثه وملابساته، أو بعيداً عن طرفى الصراع وأسلوب كل منهما فى التعامل والتحاور، وعن الأهداف العامة التى كان كل فريق يتطلع إليها.



ومن الأمور المعروفة أن الحكومات التى تصادمت مع الإخوان، وكذلك التجمعات والهيئات والأحزاب المضادة اتخذت من موضوع الجهاز السرى مطعناً كبيراً، ومدخلاً أساسياً للهجوم المستمر المتكرر الشديد ضد الجماعة وتاريخها، ولقد ساهمت أجهزة الإعلام المعادية للإخوان مساهمة كبيرة وشاسعة، وأطلقت لحيالها وأكاذيبها وافتراءاتها العنان، حتى أوهموا الناس أن حركة الإخوان تعنى الإرهاب والعنف والدماء، ومن يرجع إلى الصحافة المصرية فى الفترة التى تمتد من أواخر أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى الشهور الأولى من عام ١٩٥٥، ثم الفترة من أغسطس عام ١٩٦٥ إلى النصف الأول من عام ١٩٦٦ بالذات، يجد مساحات مهولة قد خصصت لهذا الموضوع، ولقد اشتركت فى هذه الحملة الضخمة أو المضخمة عشرات، بل مئات الأعلام ابتداءً من محمد حسنين هيكل إلى صغار الصحفيين من كتاب الأعمدة والتعليقات و«الريورتاج» وجامعى الأخبار، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الإذاعة والتليفزيون قد ساهما إلى حد كبير فى هذه الحملة الشرسة دون هوادة، وكيف لا يفعلون ذلك ورئيس الدولة نفسه فى ذلك الحين، كان يتكلم باستفاضة وغضب فى خطبه الطويلة عن ذلك الموضوع، حتى قبل أن تصدر الأحكام فيه، وهو يعلم طبيعة الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب والإجراءات القمعية، والمحاكمات السرية التى لم يكفل للمتهم فيها أدنى حقوق الدفاع عن النفس، وتأنى عن المعقول فى إطار الواقع والمقبول، وليس هناك دليل على صدق ما نقول إلا العودة - كما قلنا - إلى صحف ومجلات مطبوعات تلك الفترة، فهى الشاهد الأكيد الذى سيقى مسطوراً أبداً الدهر، ومن العجيب أن «صلاح نصر» مدير المخابرات العامة فى ذلك العصر، كتب فى مذكراته، وبخط يده فيما بعد أن قضية الإخوان يجب أن يعاد فيها النظر، وقال إنه رفض أن يتولى قضية «الشهيد سيد قطب» حينما طلب منه عبد الناصر ذلك، وكانت حجته فى الرفض أنه لم يجد قضية

أو جريمة بالمعنى الصحيح ، وأن عبد الناصر رد عليه قائلاً : « هو احنا كل ما نكلفك بحاجة تقول لأ ! » . كما إن الصحفي اللامع « محمد حسنين هيكل » الذى كال الاتهامات والافتراءات للإخوان إبان المحن القاسية ، عاد يقول فى كتابه عن حرب السويس إن أجهزة الأمن قد بالغت كثيراً فى اتهاماتهم للإخوان ، واستشهد فى هذا المجال « فى إحدى وثائق الكتاب » بتقرير كتبه مباحث الإسكندرية وأشارت فيه إلى أن أجهزة الأمن كان فيها أناس مفرضون وكارهون للإخوان ، استطاعوا أن يعطوا صورة غير صحيحة للإخوان ، كى يوقعوا بينهم وبين السلطة ، ويتقموا منهم .

أيًا كان الأمر ، فقد كان « الجهاز الخاص » هو الفرصة الذهبية للذين أرادوا الكيد للإخوان والانتقام منهم ، على الرغم من أن أحداث العنف التى نسبت إليهم كانت محدودة للغاية ، بحيث لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة « طبقاً لما ذكره فهمى هويدى فى جريدة الأهرام » ، وأن ظروف هذه الأحداث وملابساتها لم تؤخذ فى الاعتبار أو الحسبان .

وفى البداية يجب أن نقرر أن أسلوب الدعوة إلى الله يجب أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهو ما درج عليه الإخوان ومرشداهم الأول الشهيد حسن البنا ، وهو مثبت أيضاً فى رسائله وكتابات العديدة التى بين أيدينا حتى اليوم ، وعندما قتل النقراشى باشا أصدر حسن البنا بياناً فى الصحف استنكر فيه الحادث ، وكان فى البيان مانصه « ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين » ، ولم يثبت فى التحقيقات التى أجريت أثناء وبعد ذلك أن له أدنى علاقة بالحادث ، ونفس المعنى أعلنه المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي ، وأكدته فى التحقيقات والمحاكمة التى أجريت فى عام ١٩٥٤ ، ثم فى الكتاب الذى صدر عنه فى الستينات ، من القرن العشرين ، بعنوان « دعاة لا قضاة » ، ثم جاء المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد الثالث للإخوان وأكد فى تصريحاته وخطبه وكتابات على نفس المعنى ، وهو أن أسلوب الدعوة هو هو لم يتغير « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، بل كان رحمه الله يطوف بالجامعات « وخاصة فى أسبوط والصعيد بصفة عامة » ويحاضر الشباب ويحذرهم من اللجوء إلى العنف ، ويوصيهم بنشر الدعوة بالأسلوب العلمى الصحيح ، ثم جاء المرشد العام الرابع الأستاذ محمد حامد أبو النصر ، والتزم نفس الخط فى بياناته الرسمية ، وحينما دخل الإسلاميون انتخابات مجلس الشعب فى مصر ، وطرحوا شعار « الإسلام هو الحل » أكدوا على أن أسلوب الدعوة هو تقديم النصيحة ، وإبداء رأى الحر ، انطلاقاً من تعاليم الإسلام ، كما أكدوا رفضهم واستنكارهم لأساليب العنف والصدادات الدامية ، وأدانوا الأحداث الدامية التى حدثت فى الفترة الأخيرة دون مواربة أو غموض .

أعود مرة أخرى فأقول إن « الإخوان المسلمين » فى السجون إبان عهد عبد الناصر ، قد فتحوا ملف « الجهاز الخاص » وناقشوا الموضوع بصراحة ووضوح ، بل شكلوا لجنة لتقصي الحقائق ، ومساءلة أعضاء الجهاز المحكوم عليهم ، وكان من جراء ذلك أن حدثت خلافات عميقة ، فقد رأى البعض أن إنشاء مثل هذا الجهاز منذ البداية كان خطأ ، وأعطى فرصة للمستول عنه كى يتصرف من تلقاء نفسه ، مما أوقعه وأوقع الجماعة فى مأزق شديدة ، وأعطى الفرصة لأعداء الحركة الإسلامية كى يشيروا غبار الشبهات حول تاريخها وجهادها وتأثيرها العميق فى المجتمع المصرى والعربى والإسلامى ، واتهامها بالخروج عن الأسلوب الأمثل للدعوة إلى الله ، هذا على الرغم من قلة عدد الأخطاء التى وقعت ، أما البعض الآخر ، فلم ينكر أن الدعوة إلى الله لا بد وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنهم أشاروا إلى أن عنف السلطة فى العهد الملكى ، وما تلاه من عهود ، كان - أى عنف السلطة - يؤدى إلى ردود أفعال وتصرفات مشابهة ، وخاصة عندما تغيب الحرية ، وتكتم الأفواه ، وتلقى التهم جزافاً ، ولا يعطى

للمتهم الفرصة كي يرد أو يوضح أو يدافع عن نفسه، فضلاً عن أن ظروف إنشاء أو تشكيل « الجهاز الخاص » بدأ في فترة العهد الملكي والاستعمار الإنجليزي، واجتياح الصهيونية لفلسطين، وعبث الأحزاب والحكومات، وتفشي الفساد والانحلال والانحراف، وما زال العقلاء والمفكرون والعلماء في مصر حتى اليوم يشيرون إلى أن عنف السلطة وإجراءاتها اللاقانونية، وممارسات التعذيب هي التي أوجدت التطرف والعنف، وقد أفسحت الصحف - حتى الحكومية منها - مجالاً لنشر هذه الآراء في أكثر من مناسبة، ولم يعد خافياً على أحد مدى التهور والإجحاف والتعذيب الذي حاق بالموقوفين من الإخوان في مختلف العهود.

ومعظم الأحداث العنيفة التي اتهم بها الإخوان كانت في عهد ما قبل الثورة، أما ما جرى بعد ذلك فإن أبرزها « حادث المنشية » بالإسكندرية الذي اتهم فيه « محمود عبد اللطيف » وآخرون، وهو حادث حوله جدل كبير، كما سبق وذكر في القسم الثاني، وأما حادث اغتيال « السادات »، ثم الحوادث الأخرى التي جرت في عهد مبارك فلم يثبت أن للإخوان بها أدنى صلة، وهو أمر معروف لا يحتاج لشرح.

والواضح - من خلال لجنة التقصى التي شكلها الإخوان - أن عبد الرحمن السندى، غفر الله له ولنا، كان رئيساً للنظام الخاص، وأن مسؤولية ما جرى كانت تقع على عاتقه، كما ثبت أنه تصرف - من تلقاء نفسه - في المواقف التي ألصقت بالإخوان كجماعة كقضية الخازندار والنقراشي، وهما أشهر قضيتين في عهد فاروق، ولقد عاش عبد الرحمن السندى حتى جاء الهضيبي، وأراد تصفية « الجهاز الخاص » وكان أن عزل « السندى »، وولى مكانه « المهندس المرحوم سيد فايز » ليقوم بمهمة تصفية هذا الجهاز ودمجه مع التنظيم العام، وتجنباً للأخطاء التي جرت، وسد باب الفتنة والقرارات الفردية، ودرءاً للشبهات والاتهامات التي استغلها الكتاب والمحللون والمؤرخون أسوأ استغلال، ولم تكن تصفية هذا التنظيم بالأمر السهل فقد تمرد « عبد الرحمن السندى »، وحاول عزل الهضيبي بأسلوب القوة والقهر، وقد نشرت الصحف هذه الواقعة في حينها، وخاصة أن عبد الرحمن السندى بعد فصله من الجماعة، وضع يده في يد عبد الناصر، ولم يصدر الأمر باعتقاله كباقي قيادات الإخوان بعد حادث المنشية، وظل حراً طليقاً حتى وافاه الأجل المحتوم، وأنا شخصياً لم أر عبد الرحمن السندى في حياتي إلا مرة واحدة، أثناء وجودي في سجن القاهرة عام ١٩٥٨، حين أتى لزيارة الأخ الأستاذ على صديق، فقد عملاً معاً سنوات طويلة، وكان على صديق محكوماً عليه مثلنا، وكان عبد الرحمن يقف قبالة سجن القاهرة مستنداً إلى جدار، ونحن نطل عليه من نافذة بمستشفى السجن، ولم يدر بينه وبين « على صديق » إلا حوار مقتضب تبودلت فيه التحيات والتمنيات، ثم نزل على ليستقبله في زيارة خاصة.

خلاصة الأمر أن الغالبية العظمى من الإخوان المسجونين أدانوا العنف، ولم يقرؤا أية تنظيمات سرية بعيدة عن أعين القيادة ورقابتها، ورأوا أن مثل هذه التنظيمات أو الأجهزة تضر أكثر مما تنفع، وأن القوة الحقيقية تكمن في عظمة المبادئ، ورسوخ العقيدة، والقدرة على الإقناع بالكلمة والموقف والقدوة، ولقد كانت تجربة الإخوان الفذة على الصعيد الاجتماعي، وعلى أرض الجهاد في فلسطين والقنال، وفي التصدي لانحرافات السلطة، وتبني قضايا الجماهير وفق المبادئ الإسلامية، والاهتمام بتربية الأجيال الجديدة على مثل الإسلام وأعلامه، ونجاحهم الفردي والجماعي في مختلف القطاعات وحقوق العمل والإنتاج، والالتزام الأخلاقي دينياً ودنيوياً، أقول كانت تجربة الإخوان تلك هي الإنجاز الكبير الذي ترك بصماته حتى اليوم على توجهات أجيالنا المعاصرة، وكان من أهم أسباب الحفاظ على

شخصيتنا وانتمائنا الإسلامى ، على الرغم من محاولات المسخ والهدم والتشويه التى تعرضت لها بلدان العالم العربى والإسلامى فى العقود الأخيرة من هذا القرن.

وقد يظن ظان أن المد الإسلامى قد انحسر من جراء ما تعرض له من هجمات ، وبسبب الحملات الإعلامية المغرضة الشرسة ، والممارسات القمعية من السلطة فى العهود المتتالية ، لكن الواقع المعاش قد أثبت عكس ذلك ، فما زال المد الإسلامى يتسع ويقوى ، ويثبت وجوده وفعاليته وإيجابياته فى شتى المجالات ، ولو أعطيت الفرصة العادلة لهذا التحرك لتغير وجه الحياة ، وفى اعتقادى أن محاربة التيار الإسلامى المعتدل المتزن سياسة خاطئة ، وإهدار للوقت والجهد ، وتضييع للفائدة ، لأن حاجتنا إلى ضمائر حية ، وأخلاق فاضلة ، وإيمان صادق ، وعلم حديث ، أكثر من حاجتنا إلى استيراد أنظمة وبرامج وقروض وتحالفات مع القوى الكبرى ، فالاعتماد على الذات ، ومشاركة الأمم فى تقرير مصائرها ، والوعى بالعصر الذى نعيشه وبمتطلباته ، هو الطريق الصحيح للخروج من الأزمة الخانقة التى تشل حركة التقدم والازدهار فى عالمنا الإسلامى..

أقول لقد تمخّذ موقف الإخوان بصورة واضحة قاطعة فى رفض أسلوب العنف والتطرف ، واتخاذ أسلوب « الحكمة والموعظة الحسنة » لدعوة الناس إلى حياة أفضل وأطهر ، ولعل ذلك كان السبب فى ظهور انشقاقات محدودة عن صفوف الجماعة ، نذكر منها بالذات جماعة « شكرى مصطفى » الذى كان أحد المعتقلين الإخوان فى عام ١٩٦٥ ، ثم انشق وكوّن ما سُمى بعد ذلك بجماعة « التكفير والهجرة ».

ثم ظهرت بعد ذلك جماعات صغيرة محدودة العدد ، رفضت الاعتدال ، ورأت أن تجاهه السلطة عنفاً بعنف ، وأن تغير « المنكر » بيدها ، ما دامت الأذان قد صمت ، وما دامت السلطة قد فرضت القيود على حرية الرأى وتشكيل الأحزاب ، ووضعت لذلك قوانين صارمة تتنافى مع الحرية الصحيحة ، وصنعت قانوناً عجيباً للانتخابات ، بالإضافة إلى ما يصاحب ذلك عادة من تزوير فى النتائج وتدخل فى مسار العمل السياسى والاجتماعى لجعله ينحرف إلى اتجاهات بعينها ، وحتى بعد أن نجح عدد لا يستهان به - تحت تلك الظروف الصعبة - لم تزل السلطة ترفض السماح للإخوان بتشكيل جماعة تتولى مسئولياتها فى خدمة المجتمع فى النور ، وفى ظل الالتزام بالقوانين المرعية ، وما زالت السلطة تماطل وتسوف فى تطبيق « الشريعة الإسلامية » على الرغم من مطالبة الشعب الملحة بذلك ، بل إن الصحافة التى تمثل التيار الإسلامى لم تزل تعاني من الرفض والعراقيل العديدة التى توضع فى طريقها ، ولا شك أن هذه الأساليب الجائرة هى التى تمهد الطريق لظهور تيارات تتسم بالعنف والشدّة ، وهو ما لا يريده الإخوان ، ولا يفكرون فيه ، لا عن ضعف وخور ، ولكن عن عقيدة وسلامة اعتقاد ، وثقة بالمبدأ وبالنفس..

مما لا شك فيه أن قضية « التنظيم الخاص » أثارت العديد من التساؤلات والمناقشات ، وكانت سبباً فى حدوث خلافات بين الإخوة فى السجون وخارج السجون ، لكنها حسمت فى النهاية ، ووضعت فى إطارها الصحيح ، فكان ما كان من إعلان الجماعة على لسان قياداتها بالالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة.

بقى أن أذكر القارئ بأن جمال عبد الناصر وثمانية من أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا - كما قلت فى مكان آخر - جزءاً من هذا « الجهاز الخاص » أو « التنظيم السرى » أو « الجهاز السرى » كما يحلو للبعض أن يسميه ، وظل الجهاز السرى الخاص يعمل بعد ضربة الإخوان فى عام ١٩٤٨ ، وكان

عبد الناصر هو المسئول المباشر، لكنه طور الجهاز وفتح بابه على مصراعيه لنوعيات مختلفة من الضباط، لا صلة لها بالعمل الإسلامي، وكان هو وحده الذي يمسك بخيوط هذا التنظيم والذي لم يبلغ المائة، إلى أن قامت الثورة، وبقية القصة معروفة ولا تحتاج إلى مزيد من التفصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المرحوم حسن العشماوي «الإخوان والثورة» وقد كان عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، وإلى ما كتبه الأستاذ صلاح شادي المسئول عن الجناح العسكري للإخوان، ثم إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عادل كمال، أحد قادة ذلك التنظيم وقد سجل تاريخه بأمانة وصدق، وغير هؤلاء كثيرون، فقد عاشوا التجربة بأنفسهم، وشرحوا أهم ما يتعلق بجوانب هذه القضية الحساسة، التي أخذت أكثر مما تستحق من اهتمام، وسودت بسببها عشرات الآلاف من الصفحات، على الرغم من محدودية عدد الحوادث التي جرت، وعلى الرغم - من جانب آخر - مما قدمه الكثيرون من تضحيات وجهاد على أرض المعركة مع الصهيونية والاستعمار، وعلى الرغم أيضا من مشاركة ضباط الثورة أنفسهم - وعلى رأسهم جمال عبد الناصر - في تشكيل ذلك النظام، والإفادة منه في الحركة التاريخية التي تركت بصماتها وآثارها العميقة - إن سلبا أو إيجابا - على تاريخنا المعاصر.

إنني ما قصدت بالعودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى إلا لكي نأخذ العبرة، ونفهم حقيقة الظروف والملايسات، ونصدر أحكامنا في روية واتزان، بعيدا عن الأهواء، ثم ننظر بعد ذلك إلى الأمام، حتى نستطيع أن نمضي على وعي وبصيرة في مرحلتنا الجديدة، وأمامنا الغايات النبيلة، والأهداف السامية، التي نتطلع إليها، وحتى تصبح كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.



[٩] حادث خطير



إن طبيعة الحياة في السجون متقلبة، يكتنفها الخوف، وتعصف بها المفاجآت، فمهما صفت السماء، وبدت الأمور مستقرة، فإن ذلك لا يبدو أن يكون خدعة أو إجراء مؤقتًا، وسرعان ما يحدث التوتر، وتقع الواقعة، فيتعرض النزلاء لشتى أنواع العقوبات كالضرب، أو الحرمان من الخروج إلى الفناء، والحرمان من مختلف الأشياء التي سبق السماح بها، مثل الأكل الإضافي الذي نشتره من المقصف، والكتب والأقلام والمراسلات والزيارات والملابس الداخلية والرياضة والهوايات.. كل هذه الأشياء تمنع، وتصبح في مستوى المنوعات الأخرى كالخردات وشفرات الخلاقة وحياسة العملة، يضاف إلى ذلك قطع الكهرباء عن الزنازين، لا يملكون غير السترة الزرقاء وسروالها، والبرش، ويطانية واحدة، وجرولاً لماء الشرب وآخر لقضاء الحاجة، ولا تمنح الفرصة لأحد كي يستحم في الأسبوع مرة، ويصبح الغذاء قاصرًا على ثلاثة أرغفة وقطعة صغيرة من الجبن أو ملعقة من العسل الأسود، وكمية قليلة من العدس أو الفول المدمس، وبعض الخضار المطبوخ المجهول الهوية في المساء، مع حلق شعر الرأس والشارب واللحية إن وجدت..

إن «التكدير» - كما يسمونه - أمر وثيق الصلة بحياة «السجين السياسي»، حتى ينشغل بالأمور الصغيرة من أكل وشرب ورياضة، ولكي يظل متوترًا مترقبًا لما سيجد من أحداث مرهقة نفسيًا وجسديًا.

لكننا بمرور الوقت تعودنا على هذه المنغصات والمضايقات، وأصبحنا نتوقعها في أي وقت من الأوقات، ولم يكن أماننا سوى الرضى بقضاء الله وقدره، والانكباب على القرآن حفظًا وقراءة ودراسة، والانشغال بالصلاة والصوم ومختلف أنواع الذكر والعبادة، حتى تنجلي الغمة وتعود الأمور إلى مجراها العادي مرة أخرى.

وكان من المعروف أن لكل تكدير سببًا لا يصعب علينا التوصل إليه، قد يكون هذا السبب هو الاحتكاك أو الاختلاف في الرأي مع ضابط من ضباط السجن أو سجان عادي، إن لإدارة السجن دائمًا أسلوبها الجاف في التعامل مع السجناء، وهذا الأسلوب كثيرًا ما يجر إلى الصدامات معنا، مع أنه يعتبر أمرًا مألوفًا مع السجناء العاديين «غير السياسيين»، لأنهم يتقبلون المعاملة الجافة أو اللا إنسانية دون تذمر يذكر، لكن الأمر يختلف عند السجناء السياسيين الذين يأنفون من الإهانات والمعاملات التي لا تليق.

ومع ذلك فقد حدث ذات يوم لنا تكدير «غير مبرر»، لم نفهم له أي سبب، لقد أغلقوا أبواب الزنازين في الصباح، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه، أو الخروج إلى الفناء في طابور الصباح، بل انقضوا على الزنازين وجردوها من كل شيء حتى الطعام الإضافي والملابس الداخلية والكتب وغيرها، وكنا نتساءل: «لماذا؟» لكننا لم نجد الجواب.. وبقينا نعانى آلام الحيرة والقلق إلى أن استطعنا

الاتصال بوكيل السجن النقيب مصطفى أبو دومة ، وهو من الإخوان السابقين فى تنظيم الشرطة قبل الحل الرسمى للجماعة كما سبق وقلت ، وصدمنا بأخبار مزعجة غاية الإزعاج جعلتنا نتوقف ونفكر ونعيد النظر فى مواقفنا كلها من جديد.

فماذا جرى؟

قيل لنا أنه حدث صدام بين الإخوان المسلمين فى « ليمان طرة » وبين إدارة السجن ، ونتيجة لهذا الصدام الداخلى صدرت الأوامر لإدارة سجن طرة وللكتيبة التى تحرس السجن خارج الأسوار بإطلاق الرصاص على السجناء من الإخوان ، واستمرت المعركة بين المسلحين من الجنود والعزل من الإخوان بضع ساعات ، بقيادة وإشراف كبار مسئولى وزارة الداخلية والمباحث العامة « أمن الدولة » ، وكان زكريا محيى الدين هو وزير الداخلية فى تلك الفترة « يونيو ١٩٥٧ » ، وما إن انتهت المعركة حتى كان حصاها واحداً وعشرين قتيلاً من الإخوان المسلمين وأكثر من عشرين جريحاً ، وبعدها أذاعت الحكومة بياناً مقتضباً نشر فى الصحف جاء فيه « أنه حدث احتكاك بين بعض المسجونين فى ليمان طرة وبين الحراس ، ونتج عنه بضع إصابات فى كلا الجانبين . » هذا كل ما نشر فى الصحف المصرية ، كما نقلت وكالة « تاس » السوفيتية نفس الخبر الرسمى الذى نشرته الحكومة المصرية ، لكن إذاعة بغداد فى تلك الفترة روت المأساة كاملة ، وكذلك بعض الصحف العربية الحرة أو المعادية لمصر ، كما صدرت فيما بعد كتب خارج مصر تروى القضية تفصيلاً ، وتسجل أسماء الشهداء وأعمارهم والوظائف التى كانوا يشغلونها ، ونلاحظ فى البيان الرسمى الذى أذاعته الحكومة المصرية آنذاك أنه:

أولاً: حاول إيهام الناس بأنه صدام بسيط بين السجناء دون تخصيص ، وبين الحراس.

ثانياً: لم يذكر البيان أسباب ذلك الصدام.

ثالثاً: لم يذكر البيان أن هناك قتلى من طرف واحد وأنهم واحد وعشرون شهيداً.

رابعاً: لم يشر البيان من قريب أو بعيد إلى الإخوان المسلمين أو أنهم هم الضحايا وبالتالي لم يذكر

أسماء القتلى أو الجرحى.

وهذا يعطى فكرة عن مدى مصداقية البيانات الرسمية فى تلك الفترة ، كما يعطى صورة محزنة

عن الصحافة القومية الخاضعة للسلطة ، والمؤثرة بأمرها دون وازع من ضمير.

وقد قيل الكثير عن هذه المذبحة المروعة ، لكنى بعد شهر تقريباً من حدوثها تم ترحيلى من سجن

أسيوط إلى سجن القناطر الخيرية ، وفى القناطر الخيرية التقيت بسجناء ليمان طرة الذين نجوا من

الحادث ، ونقلوا بعده مباشرة من طرة إلى القناطر ، وكان بينهم المصابون أيضاً الذين شفوا من أثر الجراح

التي لحقت بهم نتيجة إطلاق الرصاص أو الضرب بالعصى الغليظة ، وكان من بين الناجين الأخ الأستاذ

حسن دوح زعيم الطلبة وأحد قادة معركة القناة ضد الانجليز ومعركة فلسطين ، كما كان بينهم الأخ

المهندس مجدى زهدى نجل المستشار إسماعيل زهدى ، والشيخ حسن أيوب الداعية الكبير والذى

قضى سنوات فى الكويت والمملكة العربية السعودية بعد خروجه من السجن ، والأستاذ أحمد البس

أحد قيادات الإخوان البارزين ، والشيخ عبد الرزاق أمان الدين ، والأستاذ عبد المنعم محمد سليم ،

والأستاذ محيى الدين عطية محمد رئيس تحرير مجلة « المسلم المعاصر » حالياً ، والأستاذ الدكتور

سليمان حجر الأستاذ حالياً بكلية التربية الرياضية بالقاهرة ، وضابط الجيش السابق عبد الكريم عطية

وغيرهم كثيرون ، كما كان بينهم أربعة من الشيوعيين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة فى إحدى

قضايا الإخوان ، لأنهم كانوا قد انضموا إلى الإخوان كى يتجسسوا عليهم ، فوقعوا فى كمين مع

الإخوان، وسيقوا إلى المحاكمة حيث صدرت ضدهم أحكام باعتبارهم من التنظيم الإخواني، لكنهم كانوا يعيشون في السجن منزولين عن الإخوان، ويعلمون تمسكهم بالمبادئ الشيوعية.

في سجن القناطر علمت قصة ما جرى، فقد بدأ الصدام عندما كان بضعة أفراد من الإخوان في استقبال أهليهم الذين جاءوا لزيارتهم في السجن، وأثناء الزيارة تحرش بعض الضباط بالمسجونين الإخوان أمام ذويهم، مما اضطر الإخوان للرد على كلماتهم البذيئة، وتحول الكلام إلى اعتداء وضرب وتشابك بالأيدي وأنهيت الزيارة بصورة سيئة.

وفي هذه الأيام كان الإخوان المسجونون قد تقدموا بطلب لإدارة السجن جاء فيه أنهم قضوا في الجبل يقطعون الصخر لسبعة وعشرين شهراً، والمسجون غير السياسي عندما يصل لهذا الحد يعفى من الخروج للجبل، ويوكل إليه أعمال أخرى داخل السجن، تكون أخف وطأة مثل العمل في الحياطة أو المطبخ أو النجارة أو غيرها من الحرف الأخرى، لكن إدارة السجن لم تهتم بالطلب؛ مما جعل الإخوان يهربون خطابات فردية إلى النائب العام يطلبون منه التحقيق في الأمر، ويشعرون بأنهم في خطر، وأن الإدارة تتحرش بهم، وتوشك أن تقضى عليهم، وفعلًا وصلت هذه الخطابات للنياذة.. وقبل أن تتحرك النياذة حدثت مشكلة الزيارة وما تبعها من إهانات، وفي اليوم التالي طلبت الإدارة من الإخوان الخروج إلى الجبل كالمعتاد، وكان الجو متوترًا ولا يوحى بالثقة والأمان، بل نما إلى علم الإخوان أن الحكومة قد بيتت أمرًا خطيرًا، وأنه من المحتمل أن يطلق عليهم الرصاص أثناء تواجدهم بالعمل في الجبل، وسوف تدعى الإدارة أنهم قد تمردوا.. والتمرد خارج السجن «في الجبل» معناه إطلاق الرصاص فورًا، وهنا تردد الإخوان في الاستجابة للخروج إلى الجبل، وطلبوا من إدارة السجن أن تحضر النياذة للتحقيق، وهذا من حق أي سجين، لكن الإدارة رفضت، فاعتصم سجناء الإخوان بالزنابزين، وتم إغلاقها عليهم، وبعد فترة جاءت فرقة من الضباط والسجانة، وأخذوا يفتحون الزنابزين واحدة واحدة، وكلما فتحوا غرفة انهالوا على من فيها بالضرب والإهانة، وقيدوهم بالسلاسل، كى يخرجوهم إلى الجبل عنوة، وتنبه أحد الإخوة إلى خيوط المؤامرة، فاختطف مفتاح الزنابزين من السجناء، وفتح أبواب جميع الزنابزين بسرعة، وساعده في ذلك من خرج من الزنابزين الأولى، وتراص الإخوان أمام زنابزينهم طالبين النياذة، ورافضين للدخول بعد أن ثبت سوء نية الإدارة، وحدث شيء من الهرج والمرج داخل العنبر الكبير، في الدور الذي يسكنه الإخوان، وفي هذا الوقت طلب مدير الليمان عددًا من الإخوان للتفاهم، وكان من بينهم الأستاذ حسن دوح، كما كان الشهيد سيد قطب مقيمًا في مستشفى السجن في تلك الفترة، بعيدًا عن عنبر الإخوان.. ونزل حسن وإخوانه للتفاهم مع الإدارة، لكنهم فوجئوا بأن الضباط وضعوهم في زنابزين التأديب، وقد كان هذا نافقًا لهم كما سيتضح فيما بعد.. وبعد دقائق ذهل الإخوان المتراصون أمام الزنابزين؛ إذ بدأ العسكر في إطلاق الرصاص فجأة، وأخذ المصابون يتساقطون وسط الدهشة والذهول، ولم يجد سجناء الإخوان مناصًا من الدخول مرة أخرى إلى الزنابزين للاحتماة في داخلها من وابل الرصاص، بل وأغلقت أبواب الزنابزين، وهي أبواب قوية سمكة، وزادوا من قوة إغلاقها بأجسادهم، لكن الرصاص المنهمر لم يكف، كان العسكر يوجهون رشاشاتهم من النوافذ، ومن نظارات الأبواب السمكة، بل أطلقوا الرصاص على الأبواب نفسها حينما اكتشفوا أن السجناء يحكمونها بأجسادهم.. حتى إن ظهور بعض الإخوة تلقى دفعات من الرصاص عبر الأبواب حتى أصبحت هذه الظهور كالغريال عند من عاش منهم بعد ذلك، وانبعثت التأوهات والاستغاثات.. وانتصر العسكر.. ولفظ عدد من أرباء الإخوان آخر أنفاسهم.. ولجأت

أرواحهم إلى الله الذى لا يظلم عنده أحد.. وسبق الذين امنوا فى أغلال السلطة إلى ساحات التعذيب مرة أخرى.. قالوا للعالم الكبير « قل أنا عائشة... » لم ينبج الجرحى من التعذيب.. حضرت النيابة أخيراً للتحقيق.. وليتها لم تحضر.. قال المستشار إسماعيل زهدى لابنه السجين الذى أصيب إصابة بالغة فى الحادث: « لقد أثبت التحقيق أن الحكومة مدانة تمامًا، لكن صدر الأمر من الجهات العليا بحفظ التحقيق » وحفظ التحقيق.. واستمر التعذيب فى سجن القناطر أيضًا بواسطة « الشلقامى » - حضرة الصول - وعدد من العسكر الذين أصيب بعضهم بانهميار عصبي لهول ما رأوا..

عندما كان الرصاص يزغرد فى أروقة اليمان، كان النسوة من أهالى المسجونين اللاتى حضرن للزيارة يصرخن ويستغثن.. ولا مجيب.. ودفنت جثث الضحايا بإشراف الحكومة، دون أن يسمح لأهليهم بإلقاء النظرة الأخيرة.. مات أحمد حامد قرقر صاحب الشجاعة والصمود المبهى أثناء المحاكمة.. ومات العزب صوان عامل بشركة المحلة الكبرى وبطل حمل الأتقال.. ومات خيرى عيطة بن العالم الفاضل، وفهمى نصر.. وغيرهم.. مع ذلك نجد اليوم زبانية عبد الناصر الأحياء يتحدثون فى مذكراتهم وكتاباتهم عن طهارة الثورة التى لم تلوث يديها بالدماء، وعن معاملتها الكريمة الرقيقة للثورة المضادة والمعارضة..

وقيل يومها فى تفسير هذا الحادث المروع الغريب، أن جمال عبد الناصر أراد أن يلحق بالإخوان درسًا جديدًا، بسبب مشاركة إخوان المملكة الأردنية الهاشمية فى إفشال الانقلاب الذى قام به الضابط أبو نوار ضد الملك حسين.. وقيل أيضًا أن زكريا محيى الدين كان يشرف بنفسه على المعركة العجيبة داخل سجن طرة، وما أكثر ما قيل من أشياء لم تتضمنها بالطبع وثائق الكاتب الهمام محمد حسنين هيكى الذى اكتفى بالإشارة إلى الظلم الذى حاق بالإخوان ونسبه إلى الجهات الأمنية، ولم يقدم سوى وثيقة يتيمة كتبها مباحث الإسكندرية، وسجلها فى كتابه عن حرب السويس، ونسى الكاتب الهمام مقالاته وتشهيره بالأبرياء المضطهدين من الإخوان على صفحات جريدة الأهرام الغراء فى تلك الحقبة السوداء من تاريخ مصر العزيزة..

نعود مرة أخرى إلى سجن أسبوط، فقد بلغت أبناء مذبحة طرة، ونصحننا الضابط مصطفى أبو دومة بالركون إلى الهدوء والروية داخل السجن، لأن الظروف ليست فى صالحنا، وأن الحكومة على استعداد لتكرار مأساة طرة فى أى وقت من الأوقات، وفى أى مكان من الأمكنة التى يتواجد فيها الإخوان المسلمون، ولقد كان وقع الحادث علينا أليماً، كما كان له أسوأ الصدى فى نفوس أهلينا، وعلى الرغم من ذبوع الخبر، وانتشاره فى كل الأنحاء إلا أن أحداً لم يجزؤ على مناقشته علانية، بل إن البعض كان يعبر بخلاف ما يعتمل فى داخله، فيمتدح الحكومة، وهو يلعننا بينه وبين نفسه، وأهل القتل انطوا على ذواتهم يجترون أحزانهم المريرة دون أن يفكر أحد فى رفع قضية ضد الحكومة، لقد كانت الحكومة فى أوجها، والقومية العربية تتألق، ألم يهزم عبد الناصر جيوش العدوان الثلاثى منذ بضعة شهور، ويسكت المعارضة - كما يبدو - إلى الأبد، ويضرب بيد من حديد على كل من يفكر فى نقد أو حتى مجرد التعرض لنظامه بالنصيحة البريئة؟

لعل هذه الفترة كانت من أسوأ الفترات التى مرت بنا داخل السجون، فقد كان واضحاً أن الأمور قد بلغت منتهاها من التبجح وعدم الاكتراث، فماذا بعد أن يسمح الحاكم بقتل سجناء الرأى علانية وبالرصاص داخل السجون؟ إن هذا التصرف ذروة البطش والجبروت وسوء النية والحقد، ولقد كان من المتوقع أن يحدث عكس ذلك، فماذا تريد الحكومة بعد أن كسرت شوكة المعارضة فى الداخل،

ونجحت - ولو مرحلياً - ضد الغزو الخارجي؟ كان يفترض أن تمنح الشعب مزيداً من الحرية أو الديمقراطية، وأن تلتزم بالقوانين الرسمية، والشرائع الأخلاقية، في دولة إسلامية، وإذا كانت الحكومة قد تجاوزت الحدود في تعاملها مع الإخوان أثناء الصدام في عام ١٩٥٤، فربما كان ذلك من جراء الحادث المريب، والتوتر السائد، ورغبة الحكم في حماية نفسه، وتدعيم أسسه، أما اليوم وقد انتهت الجولة لصالح الحكم الشمولي المطلق، فلا مبرر لمزيد من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.. لكن ما قد حدث جاء بعكس المنطقي والمعقول، ولعله ناجم عن الغرور الذي انبثق بعد انسحاب القوى الغازية، أو نابع من الحقد القديم الذي يكنه عبد الناصر للرجال الذين بايعهم من قبل على المصحف..

كاذب.. كاذب من يزعم أن عبد الناصر لم يكن يدرى شيئاً عما يحدث، لأن أمراً خطيراً كهذا الذي حدث في ليمان طرة لا يمكن أن يتم على مستوى إدارة السجن ومديره، والمعروف أن المساجين السياسيين يتبعون أساساً مباحث أمن الدولة «المباحث العامة آنذاك»، ولا يمكن أن يصدر أمر إطلاق الرصاص عليهم بدون المباحث العامة، والمباحث لا تستطيع أن تبت وحدها في أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر، بل إن وزير الداخلية زكريا محيى الدين لا يجرؤ على فعل ذلك إلا بأمر «سيادة الرئيس»، فهل في هذا التقرير شك أى شك؟ قد يحدث الأمر كحالة فردية طارئة.. أما إن يحدث بالنسبة لمئات من السجناء، وفي داخل العنبر فلا يصدق أن يتم دون أمر من رئيس الجمهورية شخصياً.. لقد قامت الدنيا وقعدت عندما قتل «شهدى عطية» أحد زعماء الشيوعيين في السجن في بداية الستينات، من القرن العشرين، واحتج الاتحاد السوفيتي وسكرتير عام الحزب، وحدثت أزمة دبلوماسية، لكن ضحايا الإخوان المسلمين سقطوا شهداء دون احتجاج رسمي أو غير رسمي من أحد، ومر الأمر وكأنه لا يعدوا أن يكون حدثاً عابراً لا قيمة له، ولا يصح أن يخلف وراءه أية تساؤلات، وهل كان في مصر عندئذ من يجرؤ على الاحتجاج أو مجرد التساؤل؟ إن الدكتاتورية لا تحب أن تسمع كلمة «لماذا؟» أو كلمة «لا»، حتى مجلس الوزراء كما يقول العلامة الأستاذ فتحى رضوان زعيم الحزب الوطنى، وأحد وزراء عبد الناصر، يقول كان الوزراء يجلسون فى الاجتماع الأسبوعى ليسجلوا أوامر عبد الناصر لينفذوها دون نقاش.. كانوا مجموعة من السكرتارية.. ومر الحادث المؤسف.. حادث مذبحه طرة مرور الكرام.. ولم يترك غير الحسرة والدموع لعدد من الأسر الصغيرة المحدودة فى مصر الصبور..

أكاد أقول إن أحلام النجاة من قبضة الطغيان قد تبددت فى تلك الفترة العصيبة، لكننا كنا نقاوم اليأس والإحباط بتوجهنا إلى الله، ولجؤنا إلى رحابه، كنت أقول لنفسي إن العمر قصير، وإن نهاية الحياة لا بد ستأتى إن عاجلاً أو آجلاً، فلماذا نجزع أو نياس؟ ستمر الأيام، وينقضى العمر بالنسبة لنا جميعاً.. حكماً ومحكومين.. سجناء وسجانين.. ظالمين ومظلومين.. وعند مالك الملك يشرق صبح العدالة الأبدى، وينال كل ذى حق حقه، وتشمل رحمة الله جراح المعذبين والمحرومين، ويؤخذ بناصية كل جبار عنيد.. أليس ذلك اليوم هو يوم الجزاء؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صدق الله العظيم..

أليس غريباً أن تكون مصر ذات الملايين من السكان، وعشرات، بل مئات الآلاف من المفكرين والعلماء وأصحاب الماضى العريق، أقول أليس غريباً أن تصمت مصر هذا الصمت الرهيب طوال تلك السنوات الكئيبة؟

وركنت إلى زنزانتي أقرأ وأكتب.. لعلى أعبر عما يجيش فى صدرى، وأخفف عما ألم بى من هم وكمد، والقراءة بالذات عالم رحب فسيح يهيم فيها العاشق فينسى كل ما حوله، ويجوب الآفاق،

وينتقل من المشرق إلى المغرب ، ويخالط العديد من الأفكار والأجناس والشخصيات ، إنها رحمة من الله لمن يعيشون خلف القضبان ، والحرمان منها يعتبر أقصى عقوبة لمن يقرءون.. شيثان لا غنى لنا عنهما ذكر الله والقراءة.. أما متع الحياة الأخرى ، فقد حرمانا منها ولا حيلة لنا فى ذلك حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً..

يا لها من أيام!! كنا ونحن جياع - وما أكثر ما نجوع ! - نقبل على خبز السجن والملح والبصل وكأننا نقبل على الحمام المحشو ، وكنا نأكل بشهية غريبة تغمرنا السعادة.. وكانت أجسامنا النحيلة نشطة.. خفيفة الحركة.. وقلما نعانى من أى مرض من الأمراض.. والآن من ينجيننا من أكذاس الشحم ، وفقدان الشهية ، وتصلب الشرايين ، وعسر الهضم ، وعذاب الأرق؟ فى أحد الأيام جاءنى الأخ الكريم زينهم حسن على من إخوان «إمبابة» ، وقدم إلى مجلة أدبية مصورة وقال: «خذ يا عم.. اقرأ..»

كانت مجلة « الرسالة الجديدة » ، ولعلها أول مجلة أتحصل عليها منذ سجنحت حتى تلك اللحظة ، وتصفحتها فوجدت فيها العديد من القصص والقصائد والمقالات النقدية ، وأحاديث متنوعة مع بعض مشاهير الأدباء فى تلك الفترة.. لكن الذى لفت نظرى أكثر ، هو ذلك الإعلان الكبير المنشور داخل المجلة عن المسابقة الأدبية الكبرى التى تجريها وزارة التربية والتعليم كل عام ، وترصد لها جوائز ضخمة.. وكانت المسابقة تنقسم إلى أبواب عديدة منها القصة القصيرة والرواية والنقد والدراسات الاجتماعية وأدب الرحلات ، وعشرات الموضوعات الأخرى كالتراجم والشعر وتاريخ الأدب.. الخ. شعرت بنشوة غريبة..

وأغمضت عيني.. كنت أحلم.. لم يكن أخى زينهم حسن على يعرف أن هذه المجلة التى أخذها من زواره القادمين من القاهرة ، سوف تنحو بحياتى منحى جديدًا ، وتضعنى على أعتاب مسيرة جديدة ، ورحلة طويلة.. إلى آخر العمر..

لم أتم جيدًا فى تلك الليلة ، وكنت فى نفس الوقت عازفًا عن الكلام مع الإخوة فى الزنزانة.. ليس فى رأسى بعد أن صليت وتعيشيت وألقيت بجسدى على البرش سوى إعلان المسابقة وشروطها وآخر موعد لها ، هل أستطيع خلال شهر واحد أن أعد نفسى لهذه المسابقة؟ وهل فى الإمكان قبول اشتراكى فيها أصلًا؟ وكيف أخرج مواد المسابقة من السجن إلى وزارة التربية والتعليم؟ قلت فى نفسى المهم أن أبدأ خطوة خطوة وعلى الله «التساهيل»..



[١٠] شعاع من نور



كان لدى من الحماسة والطاقة ما يكفي لإنجاز هذه المهمة الطارئة بأسرع وأفضل ما يمكن، قررت أن أتقدم للمسابقة الأدبية بكتابين، الكتاب الأول جاهز بكامله، وقد كتبت عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، فقد أعجبت بفلسفته أشد الإعجاب، كما شدني إليه شعره السلس العميق المترجم إلى اللغة العربية، واقتنعت أن فكر هذا الرجل وآراءه تتفق تمامًا مع الصيغة العامة التي تبناها جماعة الإخوان المسلمين، أو بمعنى آخر كان فهمه للإسلام فهمًا مستنيرًا شاملًا موثقًا، أما الكتاب الذي انتويت إعداده فهو رواية تحت عنوان «الطريق الطويل» تتعرض للأوضاع العامة في مصر إبان الحرب العالمية الثانية، وكان من الضروري أن تمتد أحداث القصة حتى معركة السويس طبقًا لشروط المسابقة.

وفي اليوم التالي مباشرة ابتدأت في كتابة الصفحات الأولى من الرواية التي تجري أحداثها أساسًا في قرية مصرية، وقد استطعت بحمد الله إنجاز الرواية في فترة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع، وهو رقم قياسي في تصوري، ولعل ذلك كان راجعًا للاستعداد النفسي ووفرة الأحداث، وعمق التجارب التي تتصل بهذا الموضوع، وانتعاش الأمل بعد أن أظلمت الآفاق، وكاد اليأس يستحكم.

وكان من الضروري أن أعد نسختين من كل موضوع، وأن أرسل المادة إلى وزارة التربية مسجلة قبل انتهاء الموعد، ومن شروط المسابقة أن يكتب المتسابق على مؤلفاته اسمًا مستعارًا ورقمًا سرّيًا، ثم يرفق بها خطاب مغلق به الاسم الحقيقي للمتسابق وعنوانه، وقد تعاون معي بعض الإخوة في نسخ الأصل وأذكر على رأسهم الأخ محمود الصواف العامل بشركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج والمحكوم عليه معنًا بالسجن عشر سنوات، وكان محمود ذا خط جميل.

وساعدنا الزميل والضابط السابق بالجيش نجيب عطية، عن طريق باشكاتب السجن الأستاذ محمود أبو الروس، ولم يتكلف التسجيل أكثر من نصف جنيه، وشعرت بعد ذلك بالارتياح الكبير، ولم يعد أمامي سوى أن أنتظر النتيجة، وهي فترة لا تقل عن بضعة شهور بالطبع، وذلك لضخامة المسابقة وكثرة موضوعاتها المتنوعة.

لقد عشت فترة الكتابة وأنا متفرغ لها تمامًا، حتى في أوقات الراحة، كنت أعيش في جو الرواية، وقد تخطر لي فكرة أو حدث أو حوار، فأترك طعامي، وأنسل من بين إخواني كي أسجلها على ورقة صغيرة قبل أن تهرب.. إن الفكرة بقوتها وحرارتها تظل متوهجة إذا سجلت في حينها، أما إذا أرجئت لوقت آخر، فقد تفقد الكثير من عمقها وجمالها.. وفي حياتي الأدبية ضاعت مني أفكار كثيرة؛ لأنني تكاسلت عن تسجيلها في حينها، وفي حالات كثيرة كانت المبادرة بتسجيل الأفكار بداية نجاح في الإبداع، وإنني لأذكر، وأنا أكتب رواية «اليوم الموعود» بعد ذلك في عام ١٩٦٠، كنت قد انتهيت من كتابة الفصل الثالث، وتوقفت لأبحث عن حدث أو شخصية تكون لها القدرة على بث مزيد من

الحرارة والتشويق أو الإثارة في الرواية.. وفي أثناء عودتي من كلية طب القصر العيني ذات يوم، وثبت إلى ذهني شخصية «ياقوتة» العجربة، وكانت رواية اليوم الموعود رواية تاريخية عن الحروب الصليبية، وأسر الملك لويس الفرنسي في «دار ابن لقمان» بالمنصورة، وكنت ملتزمًا لححد كبير بالأحداث التاريخية، لكن «ياقوتة» كانت شخصية «موضوعة» تمثل واحدة من بنات الشعب المصري، وفي «الترام» سارعت بتسجيل ما تخيلته عن هذه الشخصية المثيرة، وما إن وصلت إلى البيت حتى أخذت في الكتابة، واكتشفت بعد الانتهاء من الرواية بعد فترة، أن شخصية هذه العجربة قد أعطت الرواية نكهة خاصة، وكانت سببًا من أسباب نجاحها..

وبينما كنت أقرأ تفسير ابن كثير للقرآن الكريم، جذبتني قصة هاروت وماروت التي وردت في سورة البقرة، وخاصة عندما أغوتهما امرأة من «بابل» القديمة تسمى «أناهيد»، كانت القصة تحفل بطبيعة الإنسان وغرائزه، وقضية العدالة وقداستها، ومداخل الانحراف عند من يسكون بأمن المجتمع واستقراره، وفكرت في أن أكتب مسرحية تدور أحداثها حول هذا الموضوع، وفعلاً أتممت كتابة الفصول الثلاثة للمسرحية، ووضعت لها عنوان «حساء بابل»، ومن سوء الحظ أن هذه المسرحية استولى عليها العسكر في إحدى حملات التفتيش ولم أستطع العثور عليها بعد ذلك.

ولقد قمت بجمع شعري في تلك الفترة في كراسة واحدة، وأطلقت على هذه المجموعة من الشعر «أغاني الغرباء»، وفي حملة أخرى من حملات التفتيش استولى عليها الضابط «زكي»، وكأنه عثر على كنز ثمين، وبعد أن قرأها أحالها إلى مدير السجن مطالبًا بتقديمي مرة ثانية للمحاكمة نظرًا لما يتضمنه الديوان من هجوم على الحكومة وأسلوبها، وكان من حسن الحظ هذه المرة أن مدير السجن الجديد «صدقي محمود» كان رجلًا مهذبًا، وتعاطف مع موقفى، وساعدنى في ذلك أيضًا ضابط شاب آخر هو الملازم أول عبد المنعم، وحلًا للإشكال تقرر إحراق الشعر، والاكتفاء بذلك، فأبدت اعتراضى الشديد، وتم إبلاغه للمدير عن طريق عبد المنعم الذى جاءنى بعد يومين وقال: «هذا هو الشعر.. خذه.. ولا تطلع عليه أحدًا.. وأخرجه من السجن بأية وسيلة.. لأننا أخبرنا الضابط زكى أنه تم حرقه..»

كان موقفًا نبيلًا لاشك، ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى جاء أحد الأقرباء لزيارتى من وراء الأسلاك، فأخبرته بأنى سوف أرسل إليه كراسة الشعر بعد الزيارة، وعليه أن يحتفظ بها حتى نخرج من هذا الحب.. ربما بعد عام أو أعوام.. الله أعلم.. وكان هذا القريب هو الأستاذ حلمى الشافعى الذى كان يعمل وقتها مدرسًا فى الصعيد.. لكن الضابط زكى ظل على اعتقاده بأن الشعر قد أحرق، وكثيرًا ما كان يأتى إلى فى تشفى ويواسينى فى الشعر المحروق، وهو لا يعلم حقيقة ما جرى. وقد شاء الله أن تصدر هذه المجموعة من الشعر فى بيروت بعد سنوات أى فى أوائل السبعينات، من القرن العشرين، كما أعيد طبعه فى مؤسسة الرسالة ببيروت أيضًا.



هذه الفترة كان السيد الوالد رحمه الله يذلل قصارى جهده فى نقلى من سجن أسبوط إلى سجن القاهرة حتى أكون على مقربة منهم، بحيث تسهل الزيارة ومختلف المعاملات الأخرى، وقد نجح الوالد فى ذلك أخيرًا بتوفيق الله، لكن الخطاب الذى جاء بأمر ترحيلى أشار إلى أنى سأذهب إلى سجن القناطر الخيرية وليس سجن القاهرة، وكنا نعلم أن إخواننا الذين كانوا فى «ليمان طرة» قد نقلوا بعد

الحادث إلى سجن القناطر الخيرية، وأنهم يعيشون تحت ظروف عقابية وتكديرية شديدة، فأشفت من الذهاب إلى القناطر الخيرية لدرجة أنني فضلت البقاء في سجن أسيوط، لكن لم يكن لي في الأمر حيلة، لقد صدر القرار وانتهى الأمر، ولا بد من التنفيذ، فأرسلت رسالة إلى الوالد أخبره فيها بمكاني الجديد، وأصر إخواني على إقامة حفل «وداع» لي بعد أن أخذوا إذنًا من الإدارة، على أن يكون الحفل داخل العنبر، في مكان رحب لحد ما بالدور الثاني عند بسطة الدرج..

كان وداغًا حارًا أسال دموعي، وكانت الكلمات تحتبس في حلقي، وكان بين المودعين الأستاذ أحمد شريت عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، الذي قدم من الواحات للعلاج في أسيوط، وكان رحمه الله رجلًا شهيرًا من رجالات الصعيد المرموقين، والدعاة المخلصين، ومنهم أيضًا المرحوم الأستاذ الشاعر الداعية «أحمد نار» وقد حضر أيضًا للعلاج من الواحات لاشتباه وجود ورم خبيث بالأمعاء؛ وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات في الرأي حيال بعض الموضوعات الفكرية والتنظيمية، إلا أن الجميع جلسوا على صعيد واحد، في مودة صادقة، وكانت الكلمات التي قيلت في هذا الصباح معبرة عن صدق العزيمة، والالتزام بالمبادئ، والتواصي بالصبر، وأخذ العبرة مما يجري، أما كلمتي الأخيرة فقد كانت تركز على الاعتصام بالرابطة العقائدية في ظل الإخاء والحب والتفاهم، على ألا يكون الخلاف في الرأي مدعاة للقطيعة.. ودعوت أصحاب الآراء المتصادمة إلى التصالح فورًا والآن، وكان مشهدًا رائعًا حينما تعانق الإخوة وتصافوا.. فكان ذلك إيذانًا ببداية جديدة..

وفي فجر يوم صيفي لعله في شهر أغسطس عام ١٩٥٧، خرجت من سجن أسيوط والدموع تختنقي، كان الإخوان خلف أبواب الزنازين المغلقة يبعثون بتحياتهم، وأنا عاجز عن الرؤية أو النطق لشدة الانفعال، وهبطت الدرج تسبقني عبراتي، وقال لي السجان وهو يضع الأغلال «الكليشات» في يدي: «هكذا الدنيا.. لقاء وفراق.. هنا سجن وهناك سجن.. لكن على الأقل ستري الدنيا ولو لساعات..»

كانت حراستي مكونة من ضابط وصول واثنين من العسكر، ومضى الضابط الشاب أمامنا حتى وصلنا إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار، إنها المرة الأولى في حياتي التي أجلس في الدرجة الأولى، واستأذنت من الضابط أن أشتري الصحف والمجلات فوافق على الفور، كنت جائعًا لمثل هذه الوجبة الثقافية، وأخذ الضابط يسألني عن عملي، وقضيتي والحكم الصادر ضدي، وأخيرًا نظر إلى الصول وأمره بأن يفك الأغلال، فكانت لفتة طيبة منه..

وجاء أحد الركاب واستسمح الضابط في أن يعطيه مكانًا بالصالون لعدم وجود أماكن أخرى شاغرة بالقطار، فتردد الضابط قليلًا في البداية، ثم سمح له، وجلس الوافد الجديد صامتًا، يتصفح الجريدة، لكنه انتهاز فرصة خروجهم وسألني: «ما هي حكايتك؟»

- «سجين.. ألا ترى السترة الزرقاء؟»

- «يبدو أنك متعلم، فلماذا سجنك؟»

قلت باقتضاب: «من الإخوان المسلمين..»

وبدت عليه الدهشة وقال: «ألم يزل في السجون إخوان؟»

قلت له: «طبعًا.. ألا تعلم؟»

فمط شفثيه وسكت..

هذا الحوار الموجز أصابني بألم نفسي شديد، حتى أمثال هذا الرجل من المثقفين لا يعرفون عنا

شيئاً؟ هل العيب فى الصحف التى لم تعد تشير إلى قضيتنا من قريب أو بعيد ، أم العيب فى الأخلاقيات الجديدة التى جعلت كل فرد ينطوى على خصوصياته ، ويعد عما قد يجلب له المتاعب؟ كانت تنتظرنا فى محطة السكة الحديد بالقاهرة سيارة « جيب » تابعة لوزارة الداخلية ، ومن القطار إلى السيارة مباشرة ، ومضت « الجيب » فى طريقها إلى سجن القناطر ، كنا فى وقت الغروب الحزين ، والسجن صامت صمت القبور ، واستقبلنا أحد ضباط السجن وبعد التسليم والتسلم وعمل التسجيلات الدفترية ، أخذت إلى الداخل بعد أن شكرت حراسى الكرام المرهقين من طول السفر.. كان الصول شلقامى يجلس خلف مكتب حقير ، ونظراته الجامدة مسددة نحوى ، وقال: « مرحباً.. شعرك طويل.. لايد من حلاقته غداً.. »

أعوذ بالله ، أهذه هى البداية؟ إن شعرى لا يزيد عن سنتيمترين ، لم يزعجنى ذلك كثيراً ، فقد تعودت على مثل هذه التفاهات ، والأمر لله ما شاء يفعل.. وقال لى الشلقامى: « هنا سجناء طرة.. وهؤلاء لهم معاملة خاصة.. إنهم شياطين.. والاتصال بهم ممنوع منعاً باتاً.. طبعاً سمعت عن حادث « طرة ».. مفهوم؟ » لم أجب بشيء ، هذا هو أسلوبهم المقيت الذى قلما يتغير.. وسلمنى الشلقامى « برشاً » من السعف وبطانية ، ثم أخذنى إلى الزنزانة المجاورة لمكتبه ، وما إن فتحها حتى وجدت فيها إخوة لى أعرفهم من قديم: على محمد عبد المنعم ، وعبد الوهاب السقا ، وسمير الغندور.. كانوا معنا فى سجن أسبوط قبل ذلك ، ثم تم ترحيلهم إلى هنا منذ زمن ليس بالطويل.. وكان الترحيب والعناق.. وشعرت بالارتياح.. لأنى لن أكون وحدى فى حبس انفرادى.. وقال الشلقامى وهو يغلّق علينا الزنزانة: « اشرحوا لأخيكم التعليمات .. » وانفجرنا من الضحك ، والدموع تملأ عيوننا..

وأخذت استفسر عن إخوان طرة المتواجدين فى الزنازين المجاورة لنا بنفس الطابق ، وأخبرنى الإخوة أن الشلقامى يمنع الاتصال بهم ، وقال على عبد المنعم: « الشلقامى هذا كالوحش ، ونحن نحاول ترويضه بشتى الطرق ، ونقدم إليه الهدايا والمنح التى يأتى بها زوارنا ، ونشترى له السجائر والبولوييف ، وذلك حتى يسمح لنا بإرسال بعض أقراص الأسبرين وأدوية المغص وغيرها إلى إخواننا القادمين من ليما ن طرة عقب الحادث المؤلم.. والأمر يحتاج منا إلى الكثير من اللباقة والكياسة حتى نستطيع أن نقدم أية خدمة ممكنة لهم ، ونحاول جاهدين أن نجعل الشلقامى وعساكره يقللون من الإهانات والضرب بالنسبة لهم .. »

قلت: « هل معاملتنا تختلف عن معاملتهم؟ .. » قال على: « بالطبع.. لأننا لم نكن ممن حضروا الحادث.. ويبدو أن هناك أوامر بمعاملتنا بصورة طبيعية .. »

عندما فتحت الأبواب فى الصباح ، نبه علينا الشلقامى ألا نخرج أثناء خروج الآخرين ، ورأيت إخوان طرة يجرون فى طاوور طويل ، حاملين جرادل الماء والبول ، متجهين إلى دورة المياه ، كانوا شاحبي الوجوه ، حليقي الرؤوس ، متسخى الثياب ، يختلسون النظرات إلينا عبر بابنا المفتوح ، وسمعت بعضهم يقول بصوت هامس: « حمداً لله على السلامة يا نجيب .. »

قلت: « كيف عرفوا بمجيئى؟ » قال على: « كلهم يعرفون.. نحن ننتهز فرصة غياب الشلقامى ، وننصل بهم خفية ، ونبعث إليهم بما تيسر من أخبار ودواء .. »

وانتشرت في هذه الفترة «الانفلونزا الآسيوية» في مصر، فكان هذا سبباً وجيهاً لمنع الزيارات عن المسجونين، وفي هذه الفترة لم تكن نعرف شيئاً عما يجري في الخارج، حتى عنابر السجن الأخرى لم يكن يسمح لقاطنيها بالاقتراب منا، والأعجب من ذلك أننا نشغل الطابق الثاني، وهناك ثلاثة طوابق أخرى اثنان فوقنا، وواحد تحتنا، ومع ذلك لم يكن يجرؤ أحد من سكان هذه الأدوار على الحديث أو التعامل معنا، وكان الطابقان العلويان مخصصين لكبار السن والمرضى والعجزة أو أصحاب العاهات، وكان الطابق الأسفل مخصصاً للعاملين في النظافة. ولقد سمحت الإدارة لأفراد زنزانتنا بالخروج صباحاً حوالي الساعة التاسعة كل يوم للشمس في فناء السجن لمدة ساعة تحت إشراف أحد السجانين، والحقيقة أن الإدارة أخذت تخفف الضغط تدريجياً على إخوان طرة، فقل الضرب، كما خفت حدته، وسمح لهم بالاستحمام، ونتيجة للإكراميات التي نفرق الشلقامي بها، كان يسمح لنا باستضافة واحد أو اثنين منهم لربع ساعة مثلاً، ولم يعد يعارض مدهم بالأدوية..

في أحد الأيام أرسلت الإدارة في طلبى، واستدعاء السجنين للإدارة في مثل هذه الأوقات العصيبة أمر مخيف كما سبق وأشرت، هذه الأوضاع السائدة الفاسدة تجعلنا دائماً نفكر في الجوانب السوداء من المفاجآت، ونظّل دائماً نشفق من المجهول..

قال الضابط سامى وهو يهيم لمصافحتى على غير العادة: «مبروك يا نجيب..»

- «خير يا سعادة البك؟»

- «لقد فزت بالجائزة..»

لم أكن أصدق، دارت بى الأرض، نظرت إلى الورقة التي قدمها لى كى أوقع عليها بالعلم، إنها من مصلحة السجنون بالقاهرة، ومضمونها أنني فزت بالجائزة فى مسابقة التراجم والسير، والتي تقدمت فيها بكتايبى عن «إقبال»، وفزت أيضاً بالجائزة عن روايتى «الطريق الطويل».. لقد انهمر الخير على دفعة واحدة.. ومجموع الجائزتين مبلغ كبير من المال، كيف تم الأمر بهذه الصورة التي لا تصدق؟ هل أنا فى حلم أم فى يقظة؟ شعرت أن شعاعاً من النور ينبثق فى حياتنا المظلمة.. كانت الكلمات والسطور تتداخل على الورقة وأنا أقرأ.. ترى ماذا سيقول أبى وأمى وأصدقائى وهم يقرءون الخبر فى الصحف.. إن فرحتهم ستكون ممزوجة بالأسى.. لا أستطيع أن أصف هذه اللحظات المثيرة العجيبة، قد يبدو الأمر معقول التأثير فى الظروف العادية، لكنه بالنسبة لسجين محكوم عليه بالسجن عشر سنوات، ويعيش فى جو رهيب من المعاناة والمكابدة، وليس له ماضٍ أدبى يذكر.. عندئذ فإن الأمر يختلف.. إن روحى تخلق إلى بعيد.. إلى آفاق أرحب وأوسع.. ولم لا؟ ألا نتحدى اليأس والألم والفناء؟ اعتذر الضابط عن إعطائى نسخة من الخطاب، وقال أنه سيضعها فى ملفى بالسجن، لكنه سألنى كيف تسلم هذا المبلغ الكبير من المال؟

قلت: «أحيله إلى أهلى»

قال: «وإذا رفضت الإدارة؟»

قلت: «فليوضع فى أماناتى بالسجن..»

وطرت إلى إخوانى لأزف إليهم النبأ..

وانقضوا على عناقاً وتقبيلاً.. وضرباً أيضاً.. لحظة من العمر لا تنسى..

قال الأخ عبد الوهاب السقا وهو يضيق عينيه فى حصافة وعمق وتفكير: «قد يكون فوزك فاتحة

خير كبير»

- « كيف؟ »

- « قد يفكرون في الإفراج عنك... »

- « لا أظن.. في السجون العديد من المفكرين والأدباء.. يكفيني هذه المكافأة من الله ، والعجيب أن المباحث العامة قد سمحت بذلك الفوز.. إنه أمر ملفت للنظر ولا شك ، ويحتاج لمزيد من التفكير والتحليل.. »

لم يكن الفرح من أجل الجائزة المالية.. بل فرح من نوع آخر لا يقدر بثمن ولا مال ، إنه تأكيد الذات ، والقدرة على النجاح رغم العوائق والسدود ، والإصرار على الإيمان والأمل ، وفي الصحراء الجرداء قد تثب نبتة خضراء ، وفي الأرض الخراب قد تتجلى زهرة حلوة العبير ، لأن الإنسان لا يموت ما دام معتصماً بالإيمان والأمل..

وفي اليوم التالي قابلني الضابط سامي في فناء السجن أثناء فترة الفسحة ، ودعاني لأن ألعب معه مباراة « راکت » في ملعب صغير من أطراف الفناء ، إنه تصرف يدعو للعجب ، وأخذت ألعب معه بتحفظ رغم أنني أجيد اللعبة ، ومن آن لآخر أوجه الكرة بطريقة فنية يعجز عن ملاقاتها ، وكان يعلق باسمًا ، ممتاز في الأدب وفي الرياضة أيضًا..

وفي نفس الأسبوع سمح لإخوان طرة لأول مرة بالنزول إلى طابور الفسحة كما سمح لنا بالاختلاط بهم ، وكان يومًا سعيدًا بالنسبة للجميع ، ولعبنا كرة السلة وجرينا وعرضنا أجسادنا لشمس أكتوبر ، وأصبحت الحياة في سجن القناطر أكثر راحة وألفة..

وطلبت من الضابط سامي أن يستأذن الإدارة في أن أكتب رسالة إلى الأديب الراحل الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، لعله يرشدني إلى الطريقة التي أطبع بها قصتي وأنشرها ، ولم أجد ممانعة في ذلك ، فكتبت الرسالة ، لكن الرد لم يكن إيجابيًا ، حيث أخبرني أن دور النشر مؤسسات تجارية ويهمها الربح بالدرجة الأولى ، وإنهم ينشرون لكبار الكتاب ، ويترددون كثيرًا في النشر للنشئين الأدباء ، لكنني لم أياس ، وأخذت أفكر في طريقة أخرى لنشر كتيبي..

في هذه الفترة جاءني كاتب السجن خفية ، وأخبرني أن الأخ الصديق دكتور عبد الأحد جمال الدين « رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة حاليًا » ، قد جاء على رأس مجموعة من طلبة حقوق عين شمس لزيارة السجن ، وكان عبد الأحد وقتها يعمل في هيئة التدريس بالكلية ، وقد رتب هذه الزيارة ليراني ، وخاصة أنه مسافر إلى إيطاليا في بعثة دراسية قريبًا ، لكن الإدارة لم توافق على زيارته لي ، فأرسل لي بطاقة صغيرة مع هذا الكاتب..

ولم تكد تمر فترة أسابيع قليلة على تغيير المعاملة إلى الأحسن ، حتى انفجرت الأمراض النفسية بين مسجونى ليمان طرة السابقين كالوباء.. نعم كالوباء.. إن الحادث الرهيب وما تركه من أثر ، وكذلك المعاملة القاسية التي تعرضوا لها عقب الحادث قد أفرزت حالات من الانهيار العصبي والهستيريا والاكتئاب وغيرها من الأمراض النفسية ، وقد تفاقمتم حالات البعض ووصلت إلى درجة خطيرة تكاد تكون جنونًا.. كان عدد هؤلاء المرضى أربعة أو خمسة..

وكان الدكتور مصطفى النحاس طبيب السجن آنذاك ، وطبيب الرئيس عبد الناصر فيما بعد ، أقول كان رحمه الله طبيبًا على خلق كريم ، فقد تفهم الوضع وأوصى بأن يوضع المرضى النفسيون تحت الإشراف الطبي الدائم فى مستشفى سجن القناطر ، وتم اختياري لكي أكون مرافقًا لهم بالمستشفى ، لكوني طالب طب سابق في المرحلة النهائية من الدراسة ، والحقيقة أن هذه الفترة كانت عصيبة بالنسبة

لى ، كان هؤلاء المرضى يشكلون مأساة أخرى مجسدة لمظاهر القهر والعنف والوحشية التي تعرضوا لها ، فالسجين « معوض » مثلاً ، كان يجلس صامتاً طول اليوم ، قلما يأكل أو يشرب ، وفجأة يقف عند نافذة فى المستشفى ، ويؤذن للصلاة بصوت عالٍ ، وقد يكون الوقت منتصف الليل أو الساعة العاشرة صباحاً ، وبعد أن ينتهى من الأذان ، يصيح : « لن تمنعنى من الأذان يا عبد العال » وهو ضابط بالسجن « سأقوم بالأذان غصباً عنك »

ولقد تعرض معوض لضرب مبرح لأنه أذن للصلاة أثناء التكدير وهو فى زنزانته ، ولقد أتت « زينب » زوجة معوض لزيارته لكنه لم يتعرف عليها ، ورفض التحدث معها ، ومن المؤسف أن معوض بعد ذلك أصيب بنزيف دموى فى المثانة دون أن يشعر به أحد ، وظل يتزف فى مستشفى آخر حتى مات رحمه الله .

لا أريد أن استطرد فى شرح مآسى هذه المجموعة من المرضى ، ويكفى أن نقول لن هذه الظاهرة الحزنة ، كانت دلالاتها خطيرة على ما يحدث خلف القضبان من مآسى تجل عن الوصف .. وفى أحد الأيام جاءنى لأول مرة مدير السجن اللواء « عباس قطب الغايش » ، حسبته فى البداية يقوم بمرور عابر فى نواحي السجن ، وأخذ العسكر يجرون هنا وهناك ويصدرون النداءات العالية « انتباه » ، وينفخون فى صفاراتهم بشدة تتناسب مع قدوم شخصية كبيرة ، وكانت التعليمات قد صدرت لنا كمسجونين أن نظف الزنازين ، ونرتب فراشنا ، ونلبس الطواقى الزرقاء ، ونجلس فى هدوء ونظام ، فإذا ما دخل علينا المدير وقفنا « انتباه » ، وإذا تكرم المدير وسألنا عن أحوالنا قلنا : « كل شىء تمام يا افندم »

وإذا استفسر عن مطالبنا قلنا : « ليس لنا أى مطالب يا افندم »

لم يمر المدير كما توقعنا ، لكن قصد الزنزانة التى أقيم فيها ، فانتفضنا واقفين حسب الأوامر ، وأخذ يجوس خلالتنا بنظراته الفاحصة ، وأشار الضابط نحوى ، عندئذ ابتسم سعادة المدير اللواء وقال لى : « سيأتى لزيارتك اليوم مندوب من مجلة « المصور » ليجرى حديثاً صحفياً معك .. طبقاً ستعطيه الانطباع الطيب عن المعاملة فى السجون .. ولولا هذه المعاملة الكريمة لما اشتركت فى المسابقة وفزت بها .. إن الصحف فى الخارج تتحدث عنك باحترام .. ويبدو أنك رجل طيب .. مؤدب .. سنتفلك الآن إلى المستشفى ، لأن المكان أنسب هناك »

- « متشكر يا افندم .. »

وانصرف المدير - كما جاء - محاطاً بكل مظاهر الاحترام الرسمى ، ثم أخذنى الضابط سامى إلى مكتبة السجن ، وطلب منى أن أختار مجموعة من الكتب لا تزيد عن عشرة من أمهات الكتب ، وصعدت إلى المستشفى ، فوجدتهم قد أدخلوا الصالة الشرقية من المرضى تماماً ، وهى تتسع لأكثر من خمسة عشر سريراً ، واختاروا لى سريرًا بفرش جديد نظيف ، ووضعوا إلى جواره باقة من الزهور التى قطفت حديثاً من حديقة السجن ، ثم أشار الضابط بأن أضع صف الكتب على « الكوميديو » المجاور للسرير ، ثم صعدت إلى السرير وجلست أنتظر ..

وبعد ما يقرب من ربع ساعة ، جاء صحفى ومعه مصور ، يسبقهما الضابط سامى ، وأجال الصحفى العجوز بصره فى أنحاء المكان وابتسم ، كان قصيراً تبدو على وجهه إمارات الطيبة والوقار ، وصافحنى فى ود بالغ ، وجذب أحد المقاعد وجلس ، وأخذ يسألنى عن صحتى وأحوالى ، وانهز فرصة ذهاب الضابط لبعض الوقت وسألنى عن السبب فى الحكم على بالسجن ، ولما أخبرته هز رأسه وتنهَّد

وقال: «أدعوا الله أن يفرج كربك»، ثم أخذ يسألني عن المسابقة وقصة فوزي بها، وعن قراءاتي، واهتماماتي الأدبية، والموضوعات التي أنتوى الكتابة فيها مستقبلاً، وغير ذلك من الأمور الأخرى المتعلقة بالفن والأدب بصفة عامة، ثم أمر المصور بالتقاط بعض الصور لي من زوايا مختلفة، وجاء الضابط سامي وهو يسألني: «ماذا تكتب الآن؟» فقلت له بأدب: «إنني أنتظر موافقة الإدارة بالسماح لي بالأوراق والأقلام حتى أبدأ» فنظر الصحفي وكان اسمه الأستاذ حسنى الحسيني «دار الهلال» إلى الضابط سامي متسائلاً: «لماذا لا تسمحون له بالأقلام والأوراق؟» فأجاب بسرعة: «سوف نسمح له في الحال»، فأخرج الصحفي قلماً ثميناً من جيبه وقال لي: «هل تقبل هذا هدية مني؟»

كانت مجاملة رقيقة منه ملأت قلبي بالامتنان، ومددت يدي لأتناول القلم الهدية لكن يد الضابط سامي كانت أسبق مني، إذ أخذ القلم وأكد للصحفي إنه سوف يسلمه لي فيما بعد عن طريق المدير، حسب النظام واللوائح..

قضى معى الصحفي أكثر من نصف ساعة، ثم صافحني مودعاً، وعلى وجهه تبدو علامات الانفعال الصادق، والمشاركة العاطفية العميقة، وبعد دقائق، أعيدت الكتب إلى المكتبة، وحملت باقة الزهور بعيداً، وأخذت أنا إلى العبر في زناتى المعهودة..

وبعدها بأيام زارنى الأستاذ «عبد الحميد العتريس» موظف العلاقات العامة بمصلحة السجون، وأحد المشرفين على مجلة السجون، وأجرى معى تحقيقاً صحفياً رائعاً كان من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع، وقدم للتحقيق عبارات قوية شيقة مؤثرة.

وصدرت بعد ذلك مجلة المصور، وفيها صفحة عن حكايتي، وكان العنوان الرئيسى: هل وجدت قصة أغرب من هذه القصة؟ لكنها كتبت عن قضيتي إنني حاولت إثارة طلبة الجامعة ضد الثورة فى عام ١٩٥٥، فكان أن قدمت للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن عشر سنوات مع الشغل، مع أن التهمة لم تكن كذلك، ويبدو أن الإدارة هى التى ألزمت المجلة بذلك، وعلى كل فإن بعض وكالات الأنباء قد نقلت خبراً صغيراً عنى، فتلقفته إذاعة إسرائيل، وقدمت حديثاً إذاعياً عنى، أشارت فيه إلى أن عبد الناصر يلقي بالأدباء والمفكرين خلف الأسوار، ويعاملهم أسوأ معاملة، وضربت بي مثلاً لذلك، وتحدثت باستفاضة، وأذيع الحديث مرتين فى أسبوع واحد، وسمعه الكثيرون حتى إن مدير سجن القاهرة اللواء محمود صاحب فاتحنى فى الأمر بعد أن انتقلت إلى سجن القاهرة، فقلت له: «وما ذنبى فى ذلك؟ لو علمت إسرائيل أن قصة «الطريق الطويل» التى فزت فيها تتعرض للصهيونية ومخازيها وعنصريتها لما أعادوا هذا الحديث.. إنهم يستغلون كل خبر ويستثمرونه لصالحهم، وهذا أمر معروف...»

وتمر الأعوام تلو الأعوام، وأنشر الجديد والمزيد من الكتب بعد خروجي من السجن، وتضعنى إسرائيل ضمن «القائمة السوداء» التى يمنع كتب أصحابها من الدخول أو التداول فى إسرائيل، وكنت فى هذه الفترة أعمل طبيياً بدولة الإمارات العربية المتحدة، ومن أهم الكتب التى أغضبت إسرائيل كتاب «دم لفظير صهيون» وكتاب «عمر يظهر فى القدس» وكتاب «أرض الأنبياء» وغيرها من الكتب..

فى سجن القناطر تحسنت الأحوال كثيراً، وسمح لنا بالذهاب إلى المكتبة واستعارة الكتب، كما سمح لنا بالأوراق والأقلام، وبدأت أمارس حياتي الأدبية كالاعتاد قراءة وكتابة، وكتبت عدداً من الصفحات فى رواية جديدة بعنوان «فى الظلام»، ولقد كنت فى هذه الفترة أفكر فى أن أنسب مكان

لى حاليا هو «سجن القاهرة»، لأن على رأسه رجل مثقف، وإنسان كبير القلب، هو اللواء محمود صاحب، فضلاً عن أن سجن القاهرة آنذاك، كان يفسح الطريق أمام المواهب، ويعامل السجناء بطريقة إنسانية، ووسائل الاتصالات والزيارات متيسرة لحد كبير، كما أنه لم يكن سجناً للسياسيين تقريباً، ولهذا فكرت فى العمل جدياً للانتقال إلى سجن القاهرة بحجة العلاج، وتكرم طبيب السجن بكتابة تقرير طبي أكد فيه على ضرورة نقلى إلى سجن القاهرة للعلاج، ثم العودة بعد الشفاء مرة أخرى للقناطر، وإن كان أمر العودة هذا لم يتحقق كما سنرى، إذ بقيت فى سجن القاهرة حتى قرار الإفراج عنى..

كان معنا فى سجن القناطر مجموعات شتى من السجناء، ومن ضمنهم مجموعة اتهمت بالتجسس بينهم «الخواجة وليم» وهو صحفي لبنانى متقدم فى السن، كان يلتقى بنا كل يوم ليخفف من بؤسه وشقائه، ويتحدث معنا فى شتى الموضوعات، وكثيراً ما كان يردد باللغة الإنجليزية «إنها حياة بائسة»، وكان كلما مر «الخواجة وليم» أمام مشرحة السجن يصاب بالذعر، ويقول: «لشد ما أخاف أن أموت فى السجن ويشرحون جثتى هنا..» فكنت أقول له ضاحكاً: «يا خواجة.. وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟» فيلوح بيده فى غضب، ويستنكر ذلك ويهرول بعيداً عن المشرحة.. ومن عجائب الصدف أن يموت وليم فى السجن، وتنقل جثته كالمعتاد إلى المشرحة للتشريح..

كان الضابط «ع.س» من أخطر الضباط فى سجن القناطر، فإلى جانب أنه شارك فى أحداث ليمان طرة، فقد انتقل مع المسجونين بعد الحادث إلى سجن القناطر، وكان هو المشرف الفعلى على التعامل مع السجناء، كما لعب دوراً خطيراً فى الدس والوقية بين الإخوان، وإثارة الشكوك الكبيرة فى صفوفهم، وظل يمارس هذا الدور فى سجن طرة والواحاح والقناطر، ثم فى عام ١٩٦٥، ١٩٦٦ فى سجن أبى زعبل، ثم أصيب فجأة بداء عضال أودى بحياته، لكنك إذا تعاملت معه تجده يبدو رقيقاً باسماً مهذباً ناعم الملمس.. وأخيراً تم ترحيلى إلى سجن القاهرة، فودعت سجن القناطر وسط حفاوة بالغة من الإخوان.. كانت الابتسامات تملأ الوجه، لكن قطرات الدموع تبلل الأهداب.. ويبدو أنهم فى سجن القاهرة كانوا على علم بحضورى إليهم، فما إن دخلت السجن «وكان معى زميلان آخران» حتى قال الضابط المناوب بعد الظهر، وهو يتفحصنا: «من فيكم نجيب الكيلاني؟»

فهززت رأسى مبتسماً، فأقبل نحوى فرحاً، وصافحتى بحرارة.. كان هذا الضابط هو مأمور السجن، واسمه «سمير قلادة»، رجل مسيحى نبيل.. وكان هذا اللقاء مع سمير قلادة بداية صداقة طويلة جداً.. امتدت حتى يومنا هذا، إنه الآن على التقاعد برتبة لواء، ويعيش فى مدينة طنطا معنا، ولقد ارتبط بوالدى وبأسرتنا، بل بقرية «شرشابة» بلدنا ارتباطاً قوياً، وكان يزورنا فيها كثيراً هو وأسرته، ولقد قدم لى هذا الرجل الكثير من الخدمات الجليلة، بل إنه عرض نفسه لخطر كبير عندما سمح لى ذات مساء بالاتصال بأحد المعارف عن طريق تليفون السجن.

كانوا يطلقون على سجن القاهرة «اللوكاندة» أى الفندق، لما فيه من تسهيلات ومعاملة حسنة، وذلك راجع بالطبع إلى منهج المرحوم اللواء محمود صاحب فى الإدارة، وهناك التقيت مرة أخرى بالأخ المهندس المرحوم «محمود عجوة» المتهم الأول فى قضية الجبهة الوطنية، وقد أشرت إلى ذلك من قبل، كما التقيت بعدد آخر من الإخوة الذين قدموا من سجون أخرى لإجراء عمليات جراحية، وبعدد من ضباط المدفعية الذين سبق تقديمهم للمحاكمة بتهمة محاولة الانقلاب ضد عبد الناصر فهم المصرى والصاوى والدمنهورى وغيرهم كما سبق وأشرت.

واستدعاني اللواء صاحب في اليوم التالي ، ورحب بي ، وطلب مني المساهمة في تحرير مجلة « السجون » التي يتولى الإشراف عليها ، ولما سألتني إن كان لي أية طلبات كي يحققها لي ، فقلت في إيجاز: أولاً: زنانة خاصة بي ، ثانياً: مكتب خشبي صغير ومقعد ، ثالثاً: أن أستقر في سجن القاهرة ، ولا أذهب إلى سجن القناطر أو أى سجن آخر.. فوعدني الرجل خيراً.. وانصرفت..

وكنت أذهب إلى مكتبة السجن وقمنا أشاء باستثناء فترة المساء من الخامسة عصراً وحتى السابعة صباح اليوم التالي ، وفترة الظهيرة بين الواحدة والنصف ظهراً حتى الرابعة ، وكان أخى محمود عجوة هو أمين المكتبة ، ووضع تحت تصرفي كل ما أريد من كتب وصحف ومجلات ، كما إن مدير السجن أصدر أمراً بأن يسمح لي بزيارة في يوم يحضر فيه أحد من أهلي ، وأن تكون الزيارة شخصية وليست « سلكية » أى بدون حواجز وقد تصادف وجاء والدى والدتي في يوم عيد الأم لزيارتي ، وكان زحام الزيارة شديداً ، مما جعل المدير يأمر بأن تكون زيارتي في المستشفى ، وهناك استقبلت والديين ، ووجدتهما في حالة أفضل كثيراً من ذى قبل ، وفوجئت أثناء جلوسى معهما بصحفي من مجلة التحرير يحاول التقاط صورة لي ، فأصرت والدتي على أن تغطي وجهها بالशल الأسود الرقيق وكانت ، الصورة التي نشرت في المجلة على هذا النحو من الذكريات الطريفة..

ألا شتان بين سجن القاهرة الآن ١٩٥٨ وسجن القاهرة عام ١٩٥٥ حينما نقلنا إليه من السجن الحربى المشنوم..

وشمرت عن مساعد الجد.. كان لا بد أن أعمل أغلب الليل والنهار في القراءة والكتابة ، وأن أسابق الزمن ، ومن خلال المعاملة الطيبة في تلك الفترة ، كنت أعتبر نفسي بلا قيود ، أشعر أن نفسي حرة ، وأنتى أنطلق بروحى أينما وكيفما أشاء ، ومن الأمور التي أثرت في نفسي أنتى وجدت أحد السجناء يضع صورة لي قصها من إحدى المجلات في حافظة نقوده معتزلاً بها ، كما إن بعض السجناء وضعت صورتي على باب مكتبة السجن كما روى ذلك ضابط منقول من سجن « شبين الكوم » وزارني في السجن أيضاً « الأستاذ فهمى عمر » الإذاعى الشهير لتسجيل حديث في برنامجه « مجلة الهواء » ، وأجرت صحفية من دار أخبار اليوم تحقيقاً صحفياً معى ، كما تعرضت الأهرام والجمهورية والاكثواليتية التي تصدر بالفرنسية نبذة عن حياتى وأدبى.

شعرت أن المسئولية أصبحت ثقيلة ، وأخذت أستعد للمسابقة الجديدة التي تجريها سنوياً وزارة التربية والتعليم ، كما اشتركت في مسابقة نادى القصة ومسابقة الشبان المسلمين وغيرها من المسابقات ، وكنت مهتماً بمسابقة وزارة التربية بصفة خاصة ، وأعددت لها ثلاثة كتب:

- الأول عن أمير الشعراء شوقي.

- الثانى دراسة إجتماعية نفسية عن السجن تحت عنوان « المجتمع المريض » ، مدعماً بالصور والإحصاءات والوقائع ، ومن أهم موضوعات هذا الكتاب فصل بعنوان « مجتمع له قيمة الخاصة » وفصل آخر بعنوان « الفنون فى السجن ».

- والثالث رواية سياسية بعنوان « فى الظلام » أخرجت مسلسلاً إذاعياً فيما بعد.



لقد كانت فرحتى غامرة حينما فزت بجوائز الكتب الثلاثة فى وزارة التربية والتعليم لعام آخر كما فزت بجائزة مجلة الشبان المسلمين عن القصة القصيرة ، وإحدى جوائز نادى القصة ، لقد كان التوفيق

كبيراً، وخاصة أن كتاب «المجتمع المريض» قد استحق الفوز في فرع دقيق اشترك في مسابقته بعض الدكاترة من الأساتذة المتخصصين وعدد من الكتاب المرموقين في مصر..

نعود مرة أخرى إلى مشكلة نشر الكتب الفائزة التي كانت تشغلني كثيراً، والواقع أن هناك عدداً من الشخصيات التي أسهمت بجهد كبير في هذا الموضوع، على رأسهم شقيقة الشهيد الأستاذ سيد قطب التي تولت التنسيق والتعاقد مع مكتبة مصر بالفجالة «السحار وشركاه» كما ساهم في ذلك المرحوم اللواء محمود صاحب والضابط سمير قلادة وغيرهم.

وأشار على بعض الإخوة بأن أحاول الخروج إلى القصر العيني لعلاج ركبتي التي أصيبت منذ فترة، وحدث كسر في شوكة عظمة الساق، لكنه حدث ضمور في عضلات الفخذ، وما زالت آلام الركبة ترعجني، وفعلاً اتصلت بالدكتور إبراهيم زكي جراح مستشفى السجن، فأبدى تعاطفاً كبيراً، وكتب تقريراً لإدارة السجون المركزية يطلب فيه عرضي على أخصائي عظام بالقصر العيني، وتمت الموافقة على التقرير..

عندما ذهبت إلى القصر العيني، وقفت جياش العواطف، ففيه كنت أتلقى دراساتي الطبية.. المباني التي عشت فيها سنوات من عمري، الأساتذة الكبار الذين نسي أغلبهم اسمي ورسمي، زملاء الدراسة وقد تخرجوا وأصبحوا أطباء امتياز ونواباً في مختلف الأقسام، إنهم يقابلونني بالأحضان والقبلات، وتبدو أمارات الألم الشديد على وجوههم وهم يرون يدي في الأغلال، والملابس الزرقاء فوق جسدي، وأنا أبتسم متكلماً في مرارة، ويتسابقون لخدمتي، رغم وجود رجال المباحث العامة في أزياء مدنية يتابعون خطواتي ولقاءاتي، ويسجلون بعض الأسماء وخاصة من يأتي من الأهل أو الأصدقاء لرؤيتي.

كان على أن أذهب للقصر العيني مرتين أسبوعياً، وكان ذلك فرصة لتدبير أمورى، وإنجاز نشر الكتاب الأول «الطريق الطويل»، وجاءت شقيقة الشهيد سيد قطب ووقفت على مقربة مني بزيها الشرعى المميز، كنت خائفاً عليها من رجال الأمن، وكان هناك رسول يذهب ويجيء بيننا وهى إحدى قرياتي وأرسلت إلى عقد «مكتبة مصر» فقامت بالتوقيع عليه، وأخذت العقد وانصرفت بسرعة دون أن أتكلم معها شخصياً كلمة واحدة، إن أخاها الشهيد كان سجيناً آنذاك فى سجن طرة، وكان رجال الأمن يكتنون له - رحمه الله - أسوأ المشاعر..

وفى أحد الأيام استدعانى اللواء محمود صاحب مدير السجن، وأخبرنى أن وزير الثقافة والإرشاد الأستاذ الكبير فتحى رضوان قد اتصل به تليفونياً، وأعلمه بأن وزارة الثقافة ستقوم بنشر كتاب «الطريق الطويل» على نفقتها، مقابل مكافأة مجزية وسوف تطبع منه عشرة آلاف نسخة، وهذا رقم كبير فى ذلك الوقت «١٩٥٨»، وبدا الأمر مفاجأة سارة جداً بالنسبة لى، لكنى فكرت كيف أتصرف حيال العقد الذى وقعته منذ فترة مع مكتبة مصر.. وشرحت الأمر للمدير، فوعد بأن يتفاهم معهم، لكنى لم أطق صبراً، وتفاهمت مع صديقى الضابط سمير قلادة.. ففكر قليلاً، ثم قال: «ما رأيك فى أن تتفاهم بنفسك مع مكتبة مصر؟»

قلت: «كيف؟»

قال: «بالتليفون؟»

أدركت أنها مجازفة خطيرة قد تضره لو انكشف أمرها، وخاصة أنى سجين سياسى ولست سجيناً عادياً، وأثناء القيلولة، انفتح باب زنزانتي، وأخذنى سمير إلى مكتبه، واتصلت بالمكتبة، وأبدى

الناشر « الأستاذ غريب » عدم ممانعته فى ذلك ، لكنه اشترط على أن تتولى مطبعته طبع الكتاب لحساب وزارة الثقافة والإرشاد ، حيث إن الوزارة لابد وأن تكلف إحدى المطابع وهم أولى بذلك ، عندئذ يلغى العقد الموقع منى .. وعندما أبديت تشككى فى قدرتى على فعل ذلك قال الناشر: « كيف وخالك الأستاذ عبد الرافع الشافعى هو مراقب عام الوزارة؟ »

نعم .. تذكرت ... وأجريت اتصالاً سريعاً بالأهل ، ونجح مسعانا ، ولم يكدر شهران حتى صدر الكتاب فى طبعة أنيقة ، بمقدمة كتبها الوزير باسم وزارة الثقافة والإرشاد ، ويوم أن تسلمت النسخ الهدايا لأول مرة ، كنت هائماً فى دنيا من السعادة لا مثيل لها ، وجاءنى مندوب من الوزارة يحمل عقدًا وشيكاً بمائتى جنيه ..

كان نشر الطريق الطويل خطوة هامة فى حياتى الأدبية .. كان بداية خير .. وسوف نرى فيما بعد مدى النجاح الكبير الذى حققه هذا الكتاب ..

وذات مساء ، بعد ذلك بأيام ، قالوا لى فى السجن: « استعد سوف نأخذك الليلة إلى مقر نادى القصة لاستلام جائزتك من السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم .. »

لم أكن أصدق ما أسمع ..

أيمكن أن تسمح الحكومة لى بهذا كله؟ إن الأمر غريب غاية الغرابة!!

وهل سأرى القاهرة فى المساء ، وأقف تحت الأضواء بعد غيبة عن الحياة دامت أكثر من ثلاث سنوات؟

وماذا ألبس وليس لى فى السجن ثياب مدنية؟ أم إنى سأذهب مرتدياً بدلة السجن الزرقاء ..

قال لى الضابط سمير قلادة: « اطمئن .. سوف ندير الأمر .. سعادة اللواء الباشا مهتم شخصياً

وسيحضرون لك بدلة .. وحللاً .. وستخضع لكشف الهيئة قبل ذهابك إلى نادى القصة وجمعية

الأدباء .. سيكون هناك الوزير وصحفيون .. ونخبة من كبار الأدباء فيهم الحكيم وطه حسين

وغيرهما ... »

شعرت بالارتباك والحيرة ..

يا أَلطاف الله ماذا يجري؟ إنه شئء كالحلم بالنسبة لفتى قروى مثلى ..



[١١] اللفظة في علم جميل

كنت كمن يعيش حلمًا زاهيًا جميلًا ، لم يخطر ببالى قط أن تمضى الأمور على هذا النحو المذهل ، ولا تصورت أن تتوالى الأحداث بهذه السهولة واليسر ، لكنى كنت أرفع وجهى المندى بقطرات الدمع إلى السماء وأحمد الله ، وكل ذرة فى كيانى تسبح بحمده . لقد رأيت بنفسى كيف يولد الأمل من قلب اليأس ، وينشق النور من بحر الظلمات الرهيب ، وتتجلى إرادة الحق لتملأ القلوب بالإيمان والثقة والرضى ..



احضروا لى بدلة خواجة أجنبى متهم بتهرب العملة الصعبة ، وعندما لبستها بدت وكأنها أعدت خصيصًا لى ، واستعاروا لى حذاء ورباط عنق وقميصًا قيمًا ، وأخذونى إلى المدير الذى ابتسم وقاسنى بنظراته الودود وقال : « لا يبدو عليك أى أثر من آثار سنوات السجن .. لكن شعرك قصير .. لا بأس .. ضع منديلًا فى جيب الجاكيت بصورة هرمية .. ابتسم أفضل من ذلك .. أريد ابتسامة حقيقية .. إذهب عشرة على عشرة .. » .
جاء المساء وقلبى يدق رهبة وإشفاقًا ..

جلست أنتظر فى زنزانتي .. إن الموعد فى الساعة الثامنة مساءً .. والدقائق تمر بطيئة .. أريد أن أنتهى من هذا الأمر المربك بأسرع ما يمكن .. لماذا القلق والتوجس ؟ وحن الموعد ..
وأخذونى من الزنزانة إلى مكاتب السجن ، كان فى انتظارى الصاغ « الرائد » صلاح طه مدير العلاقات العامة بمصلحة السجون آنذاك ، وكان هناك ضابط من المباحث العامة واثنان من المخبرين يتميزان بالقامة الطويلة والعضلات المفتولة ، وجمود الملامح ، وأنا بينهم كدمية شاحبة مضطربة ..
ثلاث سيارات كنت فى واحدة منها مع المخبرين والساغ صلاح طه ، أخذت أنظر إلى القاهرة فى المساء ، الأضواء تتلألأ بألوانها المختلفة الجذابة ، والرجال والنساء والأطفال فى الشوارع ، والحافلات والسيارات تنساب فى هدوء ويسر ، لم تكن حمى الزحام والضجيج قد غشيت المدينة فى ذلك الزمان .. الحياة تبدو ذات نكهة غريبة لم أتبينها فى سنوات العمر التى مضت .. لها حلاوتها وإغراؤها وسحرها ..

قال لى الصاغ صلاح طه : « أنت رجل أديب .. وعاقل وتدرى أبعاد الأمور ، ولا يصح أن توقعنا فى أى حرج .. » .

قلت ببراءة : « مستحيل أن يحدث ذلك .. ماذا تعنى ؟ »
قال وهو يتنحى : « لا تذكر لأحد أنك من مساجين الإخوان المسلمين .. لدينا تعليمات بذلك .. هل فهمت ؟ »

- « بالطبع .. اطمئن .. » -

واستطرد: «يكفى أن الحكومة سمحت لك بالكتابة، والاشتراك في المسابقات، وطبعت لك بعض مؤلفاتك.. وما هي الليلة تفتح أبواب السجن ليلاً - وهذا لم يحدث قط من قبل - لتخرج وتشارك في مهرجان أدبي لتسلم الجوائز.. وتلتقى مع كبار المفكرين.. ومع وزير هام من أعضاء مجلس قيادة الثورة «كمال الدين حسين»..»

- «إنى مدرك لكل ما تقول، ولن يحدث إلا كل خير.. وليس من المعقول أن أفسد كل هذا بكلمة واحدة...»

كنت أمعن التفكير فيما يقوله مرافقى الضابط الذى أصبح فيما بعد مديرًا عامًا لمصلحة السجن، إن طبيعة الموقف أبعد ما تكون عن الصدام مع السجن ونظامه، ومع منطق السلطة وتصوراتها، وفي ظنى أن الأمر لا يحتاج إلى تحد أو إعلان، فسيعرف الجميع الحقيقة بأسلوبهم الخاص، وجميع الصحف والمجلات التى كتبت عنى تعرف هويتى العقائدية، وإن كانوا لا يشيرون إليها فيما يكتبون، وكذلك النقاد الذين كتبوا عن روايتى «الطريق الطويل» ركزوا على فنية القصة ومضمونها، ولم يلتفتوا إلى الكاتب وظروفه الخاصة.. بل إن إحدى الصحف ذكرت - كذبا - أنني دخلت السجن منذ سنوات، ولم أكن أعرف القراءة والكتابة، وتعلمتها فى السجن، وأصبحت أدينا، لم أتضايق من مثل هذه الأخبار المضحكة، فنحن نعرف أن بعض الصحف تحفى بالطريف والغريب من الأخبار، وإذا لم تجد أيًا منهما انتحلته انتحالاً.. لكن مثل هذه الترهات تذهب أدراج الرياح، وتذوب تحت شمس الحقيقة التى لا تعرف الكذب أو المجاملة، فسيان قيل أننى صاحب قضية، أو أننى ارتكبت جريمة من الجرائم العادية، لأن الناس دائماً تعرف الحقيقة مهما استترت وراء الحجب.

دخلت نادى القصة بمقر نادى الأدباء «٦٨ شارع القصر العيني»، بجوارى المخبران، وأمامى الضابط المكلف بحراستى من قبل مصلحة السجن، فى زيه المدنى، كان النادى غارقاً فى الأضواء، مكتظاً بشباب الأدباء، ويبدو أن بعض المخبرين الآخرين كانوا فى انتظارنا، ولم يتركنى الضابط حراً وسط هذه الجمهرة وإنما أخذنى إلى سكرتارية المرحوم الأستاذ يوسف السباعى، حيث يجلس الأديب الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، والسكرتير «حسين رزق»، كما استقبلنى الأستاذ يوسف السباعى بابتسامة حلوة وترحاب، واقترب منى شاب لا أعرفه، وقدم نفسه إلى قائلاً: «أنا صلاح المراكبى» صحفى، وشد على يدى فى حب، كما قرأت فى عينيه الكثير، ولم يعترض مرافقى، ولقد أصبح صلاح فيما بعد مديرًا لتحرير جريدة «الجمهورية» عندما كان الأستاذ حلمى سلام مسئولاً عنها، وبعد سنوات ذهب صلاح إلى السعودية وأشرف على تحرير إحدى المجلات، لكن هذا اللقاء كان بداية لصداقة وطيدة امتدت حتى اليوم.. وصلاح كان واحدًا من شباب الإخوان..

وحضر وزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين وسط عاصفة من التصفيق، ثم قام بتسليمنا الجوائز، وقد أبدى اهتمامًا ملحوظًا بى عندما جاء دورى، وسمعت منه بعض كلمات المجاملة الطيبة، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال انتقلنا إلى صالة واسعة يجلس فيها كبار الأدباء رأيت منهم - على ما أذكر - الدكتور طه حسين، والأستاذ توفيق الحكيم والأستاذة أنيس منصور وعباس خضر وغيرهم، وجاءت جلستى إلى جوار الأستاذ أنيس منصور، الذى أخذ يفيض على بعذب حديثه، وينتقل من حكاية إلى أخرى، ويسرد الطرائف والذكريات العديدة عن أسفاره دون تحفظ، فلا بأس أن يروى عن مغامرة عاطفية لأحد أصدقائه فى إحدى العواصم الأوروبية، وهكذا أشعرنى بإسقاط الكلفة بينى وبينه، لدرجة أنه أنساني مرارة السجن، وخيل إلى أننى صديق يجلس معى فى مكتبه بأخبار اليوم، وقطع علينا

الحديث قدوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله الروائي المعروف ، وطلب أن أصبح له لمصافحة الدكتور طه حسين ليتعرف على ، وذهبنا إليه ، وهمس الأستاذ عبد الحليم في أذنه فهب واقفاً ماذا يده ، وبعد أن حياني وهنأني قال: « لماذا سجنتم يا نجيب؟ »

وتلفت حولي ، كان ضابطي يقف إلى جوارى ، هذا هو المأزق ، لكنني اعتصمت بالصمت ، ويبدو أنه ظن أنني لم أسمع سؤاله ، فأعاده مرة أخرى ، فقلت في شيء من الارتباك الواضح: « أبداً.. أعني.. حاجة بسيطة .. »

وأصر قائلاً: « ما هي؟ »

وأقنذني الأستاذ عبد الحليم من ورطتي ، فمال على أذنه هامساً ، وبعدها رأيته يهز رأسه ويهمس « هيه » ، ثم أردف ذلك بكلمات للتشجيع وأمل في أن يحقق الله لى الفرج ، وعدت إلى مكاني لأشرب الشاي وأتناول بعض قطع الحلوى والفطائر ، ولكنني كنت في عزوف تام عن أى طعام ، بسبب ما أعانيه في هذه اللحظات من توتر شديد ، وتحدثت مع الأستاذ عباس خضر ، ومع الأستاذ يوسف السباعي ، الذى كتب في اليوم التالي مقالة جيدة عن المسابقة ، عنى وعن الأستاذ صبحي الجيار الذى فاز معنا وبقي ملازماً لفراشه بضعة وعشرين عاماً لعدم قدرته على الحركة ، وكانت المقالة بعنوان « السجين.. والمريض » ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك في أحد كتبه.

قبل أن ينتهي الاحتفال جاءت صحفية أعتقد أن اسمها « سلوى حبيب » وطلبت من الأستاذ عبد الحليم أن يسمح لى بالذهاب إلى الصحفيين في غرفة خاصة احتشدوا فيها كي يجروا معي تحقيقاً صحفياً مشتركاً ، ولم يعترض الضابط ، وذهبت إلى الحجرة ، كان فيها أكثر من عشرة صحفيين ، وتواترت أسئلتهم عن أفكارى الأدبية ، والقصص أو المؤلفات التى أنجزتها ، والمشاريع التى أعترمت تنفيذها فى المستقبل ، والمهنة التى أنتويها ، وبدت عليهم الدهشة عندما علموا أنني طالب فى المرحلة النهائية بكلية الطب ، وما إن انتهى هذا المؤتمر الصحفى الصغير حتى يمت وجهى شطر القاعة السابقة ، لكن الصحفية سلوى جرت خلفى وقالت: « سؤال أخير .. »

قال الأستاذ عبد الحليم وهو يمسك يدي وكأننى أحد أبنائه: « ما هو؟ »

- « لماذا سجنوك؟ »

- « أظن أن هذا لا يهم .. »

قالت: - « بل مهم جداً .. »

وبعد إلحاح منها ، ورفض منه ، قال لها فجأة ، ودون توقع: « إخوان مسلمين.. هل استرحت؟ » ومضى بى مسرعاً ، والضابط يتتسم ، وقال رحمه الله: « لن تستطيعي أن تكتبي حرفاً واحداً عن ذلك .. »

كان العرق يتقاطر على وجهى رغم أن الجو يميل إلى البرودة ، وكان قلبي يدق فى انفعال ، لم أزل أعيش فى حلم غريب ، والناس من حولي كأنهم أشباح تتحرك فى الضباب .. أقول الحق.. تمنيت أن ينتهى هذا المشهد بأسرع وقت ممكن ، فقد تعبت أعصابى ، وشعرت بالإرهاق ، وجاء صوت الضابط يقول بنبرات خفيضة: « يجب أن نعود الآن »

- « تحت أمرك .. »

وصافحتهم..

كان صلاح المراكبى على مقربة منى طوال الوقت..

وبقى معنا الأستاذ عبد الحليم عبد الله حتى الباب ، كما كان معي الأستاذ محمد حسن عبد الله الذي كان طالباً آنذاك بكلية دار العلوم ، ونال جائزة القصة الأولى والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين ، وهي نفس الجائزة التي نلتها أنا في العام التالي « ١٩٥٩ ».

وهنا أتى الأستاذ عبد الحليم بصدر الطريق الطويل ، ودعا لي بحرارة أن يفك الله أسري ، وأن تكون فترة السجن بالنسبة لي تجربة مفيدة..

وحينما ركبت السيارة متجهاً إلى السجن ، كان هناك عدد من رجال الأمن لا يقلون عن خمسة ، وعندما وقفت أمام السجن من جديد ، أطلت عينا السجن من خلال كوة صغيرة ، ثم فتح.. وتنهد الضابط في ارتياح.. ثم جاء الضابط النوبتجي وتسلمني ، وأخذني إلى العنبر.. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً.. وسمعت عشرات النداءات من الإخوان.. كانت الأبواب مغلقة ، لكنها عبارة عن قضبان ، تستطيع من خلالها أن ترى وتصافح وتتكلم ، وفي الدور أكثر من ستين زنزانة.. ومن الواجب أن أمر عليهم بسرعة.. لأنهم متلهفون لسماع الأخبار.. وبعضهم يلمس البدلة التي ألبسها.. بدلة الخواجة.. ويقولون: « ربنا يجعلنا من بركاتك يا عم .. »

« كيف الدنيا هناك؟ »

حسبنا إنك ستنال الحرية الليلة..

ماذا يقول الناس عنا؟

هل ما زال أحد يذكركنا؟ »

وأنا كالأصم في الزفة ، وكيف أستطيع أن أجيب على أسئلة كهذه؟ بل كيف أجيب على

عشرات الأسئلة في وقت واحد؟

جاء السجن وفتح باب الزنزانة ، وما إن دخلت حتى درت بنظراتي في أنحاء هذا العالم الضيق..

لقد عدنا من جديد إلى المقر ، والمكتب الخشبي الكالح ، والمقعد المتهالك ، وأرغفة جافة ، وقطعة من الجبن « القريش » ، وجردل الماء والبول ، وأقلام وأوراق ، وخلعت البدلة الأنيقة ، ولبست سترة السجن الزرقاء.. ومن الغريب أنني شعرت بجوع شديد.. أقبلت على الخبز والجبن بشهية عجيبة.. تذكرت أطباق الحلوى والفطائر.. أكانت حماقة مني حينما عزفت عنها؟ وشربت كأسين من ماء الجردل « الدلو » وحمدت الله.. وألقيت بجسدي المنهك على الفراش ، كنت في حاجة ماسة إلى النوم ، ولكي أستطيع أن أستيقظ في الفجر فلا بد أن أنام فوراً ، لكنني كنت أشعر أن رأسي يلتهب ، والنوم يعاندني ، فأخذت أتقلب على الفراش دون جدوى ، ولكنني في النهاية استسلمت لنوم عميق لا أدرى متى..

وفي اليوم التالي نشرت الأهرام صورة كبيرة تظهرني وأنا أتسلم الجائزة من السيد كمال الدين

حسين ، في الصفحة الأخيرة ، وتحتها كتبت الجريدة شيئاً عن المناسبة ، وأنهت تعليقها حسباً أتذكر

« وغداً يعود الكيلاني إلى المجتمع أدبياً لامقاً... » ، كما نشرت الصحف والمجلات الأسبوعية شيئاً من

هذا القبيل ، وتنبأ بعض الإخوة بأن هذه المظاهر كلها مقدمة للإفراج عني ، لأن الحكومة إذا كانت

لا تعترم ذلك فعلاً ، لما سمحت بنشر أي تعليق أو صورة لي ، لكن الحقيقة المؤكدة هي أنني لم أزل في

السجن ، وإن تحسنت المعاملة لدرجة لا تصدق في مثل هذه الظروف..



[١٢] الشيوعيون يكرموني في السجن ثم يقدمون شكوى في حقى



أصبحت فى سجن القاهرة «قره ميدان» شخصية بارزة معروفة لدى الجميع، فالضابط والسجانون يكونون لى الاحترام الوفير، وزعماء المسجونين على اختلاف جرائمهم يتقربون إليّ وقيمون معى علاقات وطيدة، وإذ كنت من الشخصيات المرموقة فى السجن فإن ذلك يلزمك ببعض الواجبات التى لا فكاك منها، فسوف يأتى الكثيرون إليك فى زنزانتك ليزوروك، ولا بد أن تقدم لهم الشاى وبعض المأكولات كتحية، ومنهم من يطلب معونة مالية أو ملابس داخلية قديمة أو حذاء، وبعضهم يطمع فى علبة سجائر، وهذه الواجبات لا تؤدى للمسجونين فقط ولكن للسجانين أيضًا، إن خفر الليل لا يحلو لهم السهر إلا أمام زنزانتى، كى أقدم لهم البيض المسلوق أو «معلبة بولوييف» وما إلى ذلك، وكان على أن أرضخ لهذا الوضع وإلا ساءت سمعتى داخل السجن، لأنهم يحصون على الجوائز التى أحصل عليها، وليس فى السجن أسرار، فكل شىء معروف.

وكان عدد من المسجونين الشيوعيين يقيمون فى عنبر آخر مجاور لنا، وكنا على علاقة معتدلة أو شبه عادية معهم أثناء التقائنا فى الفسحة اليومية، مع اتخاذ كافة الاحتياطات والحذر الواجب، وذلك ناتج عن تلك الصراعات الناشئة بيننا وبينهم على الساحة السياسية منذ سنوات طويلة، لكن المصائب يجمعن المصائب، وليس هناك مانع من قيام علاقات إنسانية متوازنة مهما كان خلاف الرأى والمبادئ.

وذات يوم جاءنى أحدهم، وأخبرنى بأنهم يدعوننى على مأدبة غذاء أقيمت على شرفى بمناسبة الجائزة وصدور كتاب الطريق الطويل، والحقيقة أننى وافقت على ذلك لأول وهلة، لكنى اشتترط أن يأخذوا إذنًا بذلك من الإدارة فى السجن حتى لا تقع فى حرج، لكن بعض الإخوان - عندما طرحت عليهم الفكرة - رفضوها بشدة، ودار حول الموضوع جدل تشعب، لكن بعض الإخوة الذين نكن لهم الاحترام، رأوا أنه لا مانع من ذلك..

وفى اليوم المحدد ذهبت إلى عنبر الشيوعيين بعد الظهر، ودخلت إلى غرفة فسيحة نظيفة، يبدو أنها رتبت بطريقة جيدة استعدادًا لهذه المناسبة، كان الطعام مما يتوفر عادة فى مقصف السجن «الكاتين»، علب من السمك المحفوظ والحلوى الطحينية والجبن والبيض وغيره، وما إن انتهى الطعام، حتى أقاموا ما يشبه الندوة حول رواية «الطريق الطويل»، وكان من بينهم الدكتور شريف حتاتة، وهو طبيب وشيوعى قديم محكوم عليه بالسجن عشر سنوات، وكان فيهم أحمد الزرقم وهو شاعر درس فى كلية دار العلوم، وكان يكتب بعض القصائد فى مجلة السجن، ومحمود يوسف وهو طالب بكلية الحقوق ومهتم بالأدب وعدد آخر لا أذكر أسماءهم بعد مرور تلك السنوات الطويلة..

وكان مما لفت نظري أنهم أثنا ثناء عاطفًا على الرواية، وأضافوا عليها الكثير من الصفات التي لم أكن أتوقعها منهم، وكان مجمل قولهم أن الرواية قد احتفت بالقرية وأحوال الفلاحين التعساء في فترة الحرب العالمية الثانية، وأنها صرخة في وجه الظلم الإقطاعي، والفساد الاجتماعي، ثم قال أحدهم: «إن هذه الرواية تمثل مذهب الواقعية الاشتراكية»، واندھشت لهذا التعليق.. لقد كنا آنذاك في عام ١٩٥٨، ولم تكن شعارات الاشتراكية التي نادى بها عبد الناصر قد رُفعت بعد، وأنا في الحقيقة لم يخطر ببالي قط وأنا أكتب هذه الرواية شيء من هذا التصور المذهبي الذي يشيرون إليه، وهم يعلمون تمام العلم وجهة نظري في أشياء كثيرة، نظرًا للمناقشات التي كانت تحدث بيني وبينهم قبل ذلك داخل سجن القاهرة، وبعد قليل قلت لهم: «لا تحاولوا أن تضعوا أدبي في هذا القالب أو ذاك، إنني أردت فقط أن أكون أمينًا في التعبير عن حياة شعبنا في هذه البيعة.. إن «عبد الدائم»، «أحد شخصيات القصة» فلاح بسيط، يجاهد في حياته في صبر وإيمان وصلابة، ويضرع إلى الله.. ويلتزم بقيم الخير والدين والعدل.. إنه فلاح مؤمن في قرية مصرية لا يعرف المذاهب الأدبية ولا الشعارات والمظاهرات، على النقيض من رواية «الأم» لمكسيم جوركي الكاتب الروسي المعروف.. حينما جعل من امرأة من أعماق الريف تحمل علمًا، وتقود مظاهرة، وتتحدى السلطة.. إنني هنا أكتب عن فلاح آخر.. في وطن آخر.. ذي طبيعة خاصة».

وطال بنا الحديث وتشعب عن الأدب المعاصر، والتيارات الصاخبة فيه، وأعلام الأدب في تلك الفترة، وتقييم الأدباء ودورهم، والثورة وعلاقتها بالأدب والأدباء، وأحلام المستقبل أو الصورة المتوقعة لأدب الغد.

وانتهت الزيارة وشكرتهم على هذه المبادرة الطيبة، أملًا أن أعودهم لوجبة عندي، وإن كانت الظروف لم تسمح بذلك لأسباب عدة..



بعد أيام فوجئت بمدير مستشفى السجن يمنعي من الذهاب إلى القصر العيني لتكملة علاجي في قسم العظام، وكان هذا التصرف غريبًا من وجهة نظري، فأنا لم أته من العلاج الطبيعي الذي أخضع له، ولم أرتكب مخالفة تغضب المباحث العامة، فكنت عريضة أتظلم فيها من هذا الإجراء الجائر، ورفع الأمر للديوان العام لمصلحة السجون التي أمرت بتشكيل لجنة طبية من ثلاثة أطباء «أحدهم طبيب شرعي» لفحصي وتقرير ما يجب عمله..

عقد اجتماع لجنة «القومسيون» الطبي، وقاموا بالفحص بدقة، واطلعوا على «الأشعات السينية»، ثم خرجت لأترك لهم فرصة المداولة، وبعد نصف ساعة استدعوني للمناقشة، وزعموا أن العلاج الذي سبق يكفى، ولم أجد في قولهم عدالة أو اقتناعًا، وبعد نقاش حار مستفيض استقر الرأي على إحالتي مرة أخرى على القصر العيني لتحديد مدة العلاج المتبقية حسب تقرير أخصائي العظام، وكتبوا رسالة بهذا المعنى أرفقوها بأوراقي، وسلموها لضابط الحراسة الذي ينقلنا من السجن إلى القصر العيني، وهناك نظر الطبيب المختص إلى الرسالة باحتقار وكتب بسرعة «سوف نخاطركم عند انتهاء العلاج»، وحاولت أن أشرح له أن مثل هذا الرد لن يرضيهم، لكن رفض إجراء أى تعديل قائلاً: «هذا شغلنا، ونحن لا نتلقى الأوامر من أحد» والحق أننى أكبرت هذا الرجل، وأخذت أقارن ما فعله الآن، وما كان يفعله زملاء أطباء منذ سنوات قليلة في السجن الحربي، حيث كانوا يشهدون المذابح المروعة،

وصنوف التعذيب ، دون أن يجرؤا على الاعتراض ، أو حتى إثبات إصابات التعذيب فى ملف المعتقل .. أما كان يجب على نقابة الأطباء - على الأقل - أن تتحقق معهم؟

وفشلت مؤامرة منعى من الذهاب إلى العلاج .. أما كيف عرفت أنها مؤامرة ، فقد همس الدكتور إبراهيم زكى - جراح السجن - فى أذنى قائلًا: «إن الشيوعيين هنا قد كتبوا شكوى ضدك ، ذكروا فيها أنك لست مريضًا ، وأنت تخرج للاتصال بالإخوان فى الخارج ، وتحمل معك بعض الرسائل ، وطالب الشيوعيون أيضًا بأن يسمح لهم بالكتابة فى الصحف والمجلات والاشتراك فى المسابقات » وعجبت لهذا السلوك الغريب ، فكيف يكرموننى بالأمس ، ثم يكيدون لى فى الخفاء ، ومن قال أن الحكومة سمحت لى بالكتابة فى الصحف والمجلات أو وافقت على اشتراكى فى المسابقات الأدبية الكبرى؟ إن ما حدث فى الحقيقة خلاف ذلك تمامًا ، فقد اشتركت فى المسابقات الأولى سرًا ، وهربت المادة الأدبية دون علم من الإدارة ، لأننى لو اتبعت الطريق الرسمى ، فسوف يأخذون ما أكتب إلى الإدارة العامة للسجون ، التى ستحيلها بدورها على إدارة المباحث العامة ، والتى لن تتصرف فى أمر هام كهذا إلا بعد أخذ رأى الوزير شخصيًا ، وبذلك يكون قد فات الموعد المضروب للمسابقة ، حيث إن تلك الإجراءات تحتاج لشهور طويلة ، وتنتهى فى الغالب بالرفض ، أما وإن اشتراكى فى المسابقة قد مضى خفية ، وأعلنت النتيجة ، فقد بدا واضحًا أن المسئولين نظروا إلى ذلك دون اكتراث ، بل أغمضوا الطرف عنه كلية ، وخاصة أن أمور الأمن العام أصبحت شبه مستقرة ، ولا شك أن اللواء صاحب مدير سجن القاهرة قد لعب دورًا فى إقناعهم بالسماح لى بالخروج لتسلم الجائزة ، وأكد لهم أكثر من مرة حسن سيرى وسلوكى ، وأنه يضمّننى شخصيًا ، حيث لا أشكل - فيما أكتب - أية خطورة على الأمن ..

واستمر ذهائى إلى القصر العينى رغم أنف الأصدقاء الأعداء الشيوعيين ، ولم أفكر فى عتابهم أو مؤاخذتهم ، فهم رجال سياسة ، ويعتقدون أن لهم الحق كل الحق فى أن يتخذوا أحط الوسائل وأقدرها للوصول إلى أهدافهم الشريرة ، وتسألنى: هل قاطعتهم بعد ذلك؟ فأقول لا .. لقد مضيت فى طريقى وكان لم يحدث شئ ، أبادل معهم الكتب ، وأدير معهم الحوار حول الأدب والنقد والسياسة ، وحول الإسلامية والماركسية دون حرج ، والغريب أن بعضهم ظل على علاقة محددة بى بعد الخروج من السجن ، وخاصة بعض العاملين منهم فى مؤسسات الدولة الصحفية والمؤلفين.

لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة ، ليعطلوا أعمالى فى الصحف التى يعملون بها ، أو فى المؤسسات الحكومية التى يحتلون فيها بعض المناصب القيادية ، وكمثال لذلك ، فقد كانت مؤسسة السينما « مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى » تنتج بعض القصص الهامة كأفلام للعرض ، وحدث أن طلب الأستاذ الكبير نجيب محفوظ بعض رواياتى لإخراجها للسينما ، ولقد وقع الاختيار على رواية « اليوم الموعود » التى تتناول حقبة هامة من تاريخنا الإسلامى والعربى وهى فترة الحروب الصليبية ، وكانت هذه الرواية قد نالت جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فى مسابقة كبرى أعلن عنها فى عيد المنصورة ، وقام عبد الناصر بنفسه بتسليم الجوائز فى عام ١٩٦٠ ، وكان من الفائزين أيضًا الأستاذ على أحمد باكثير عليه رحمة الله . المهم أن مؤسسة السينما قررت إنتاج هذه الرواية التاريخية فى أفلام الدرجة الأولى بالألوان ، وكانت ميزانية الإنتاج مليون جنيه حسب اقتراح الفنانين ، ومضى المشروع فى طريقه ، تم كتابة العقد والتوقيع عليه منى ومن المسئول عن المؤسسة .. وطال الانتظار .. وذات يوم كنت أمر بمسجد « الكخيا » الشهير بميدان « الأوبرا » بالقاهرة ، والتقيت بأحد الأصدقاء الشيوعيين الذى

أخبرني بكل تشفي ، أنه أوقف العمل في الإنتاج ، قلت : « لماذا ؟ »
 وضع يديه في جيب معطفه الصوفى الثمين وقال : « لأن البطولة في الرواية بطولة فردية .. »
 - « هذا غير صحيح يا أستاذ « ب.ش » ، فالشعب كله يخوض معركته ضد الصليبيين ، ولست
 أدرى من أين أتيت بهذا الفهم ؟ »
 ثارت الدماء في رأسي حينما سمعته يقول بعنجهية : « ذلك رأيي ، وأنا صاحب الكلمة .. »
 قلت بهدوء ظاهري : « لا يهم .. سواء تم إنتاجها أو لم يتم .. »
 واستأذنت منصرفاً

وجاء بعضهم ومنع نشر تحقيق صحفي كبير عنى في جريدة الجمهورية بعد خروجي من السجن ،
 وقد قام بإجراء هذا التحقيق المرحوم الأديب وحيد النقاش ، شقيق الناقد المعروف الصديق رجاء
 النقاش ، بل استصدر بعضهم قراراً بعد خروجي من السجن ، بعدم استضافتي في أى برنامج من برامج
 الإذاعة ، حيث تعمل شقيقة زوجتي السيدة نفسية شاهين مذيعة هناك ، وبعد ذلك بفترة أمكن التغلب
 تلقائياً على بعض هذه الحواجز وليس كلها ..

وفى ندوة نجيب محفوظ الأدبية ، ومقهى الأدباء في ميدان الدقي ، كان يجتمع الأدباء ، وكنت
 أذهب إلى هذين المكانين وغيرهما بعد خروجي من السجن ، وكنت أجلس بين الكتاب الشيوعيين
 وأتسامر معهم دون حرج أو حساسية ، وعلى الرغم من حرصى الشديد إلا أنني كنت أتعامل معهم من
 خلال معتقداتي الإسلامية بوضوح تام ، وكانوا يعرفون ذلك جيداً ، ويصرون على مناقشتي في بعض
 الأمور العقّدية ، وأشرح لهم بعض الحقائق حول تصوراتهم الخاطئة بالنسبة للإسلام ، ومن الملفت للنظر
 أن عدداً منهم كان يكثر من الاطلاع بعمق على بعض الفترات الحاسمة ، والمواقف المشهودة في التاريخ
 الإسلامى ، ويفسرها بطريقتين ، متسلحاً بالكثير من النصوص وآراء بعض المستشرقين ، مثال ذلك
 موضوع « الناسخ والمنسوخ » وموضوع « الأحكام الشرعية » ، وعدداً من المسائل الاقتصادية في
 المعاملات الإسلامية وغيرها ، وكانت جوانب الخطأ والخبط في تحليلاتهم لاتخفى على ، حتى
 أصبحت خبيراً في محاوراتهم ..

لقد سبقت الأحداث ، لكن ما الحيلة .. والشئ بالشئ يذكر ؟



نعود مرة أخرى إلى السجن ، فقد التقيت في سجن القاهرة بعدد من الشخصيات التي لا تنسى ،
 ومن بين هذه الشخصيات المنوم المغنطيسى الشهير « س » أو مستر « إكس » ، ولقد اشتهر هذا الرجل ،
 وأصبح مادة صحفية حتى إن إحدى كبريات الصحف الكبرى قد أفسحت له صدرها كي يكتب
 مذكراته ، وقد كان مستر « إكس » هذا صديقاً حميماً لرئيس تحرير الجريدة ، وقد رأى في صاحبنا المنوم
 المغنطيسى مادة للإثارة ، واستغلال العامة والبسطاء ، ومن ذاع صيته ، وأصبح معروفاً في كل مكان ،
 كما أصبح يقصده أصحاب المشاكل والحاجات ليقدّم لهم الحلول ، وكان لقب الدكتور يسبق اسمه
 دائماً ، حتى ظن القراء أنه دكتور فعلاً ، ولست أعرف السر وراء انكشاف أمره فجأة ، وتقديمه
 للمحاكمة ، واتهامه بانتحال صفة طبيب ، وقيامه بعمليات نصب وتحايل وإغراء ، ويبدو أن موضوع
 التصدي له قد صدر من جهة لها وزنها في السلطة والله أعلم ..

المهم أن سيادة المنوم المغنطيسى قدم للمحاكم ، وأدين في بعض التهم الموجهة إليه ، وحكم عليه

بالسجن عامين على ما أذكر، وأتوا به إلى سجن القاهرة، وكان اللواء مدير السجن يعطف عليه، ولاحظت أن مستر «إكس» يتقرب مني يومًا بعد يوم، ويحرص على مجالستي كلما ذهبت إلى مكتبة السجن، وأخيرًا أفصح عن طلبه الذي ظل يخفيه.. لقد طلب شيئًا عجيبًا، فأخبرني أن لديه بعض القصص والوقائع التي عرضت له في حياته «المغناطيسية»، لكنه لا يستطيع أن يصوغها في أسلوب أدبي راق، وأنه يستحلفني بالله أن أساعده في ذلك من باب الإخوة الإنسانية والعطف على مأساته حيث إنه كان بالأمس يربح الآلاف من الجنيهات شهريًا، وهو الآن في حالة من الفقر يرثى لها.. كنت في حيرة.. وجلست أستمع إليه، وهو يروي خرافات غريبة لا تصدق، فإذا ما استفسرت منه عن شيء أجاب بعبارات لا تقنع الأطفال.. فأخذت أشرح له طبيعة التنويم المغناطيسي، والمجالات التي يمكن أن يتحرك فيها، والفوائد التي يمكن أن نجنيها منه، فرد في ذكاء: «هل تستطيع أن تكتب لى هذه الأمور كلها حتى أستفيد منها؟ فعلاً هذا هو العلم الصحيح..»

وحمدت الله على أن الله قد هداه على يدي، وقدمت له في اليوم التالي ما أريد، وكم كانت دهشتي حينما قرأت بعد فترة نفس الأفكار بنصها منشورة باسمه في إحدى المجلات، وعندما قابلني بعدها كان سعيدًا غاية السعادة، أما أنا فقد كنت أشعر بالارتباك والحجل، وكأني أنا السارق لا هو.. ومرة أخرى أخذ يسألني عن الإيحاء في العلاج النفسي، ودور التنويم المغناطيسي في ذلك، وأكد لى أنه لن يستغل ذلك مطلقًا في النشر، إنه فقط يريد أن يصل إلى الحقائق العلمية، وتكررت المأساة مرة أخرى، وعندما عاتبته على ذلك قال: «ألا تريد أن تنصدق على قلمك؟»

قلت: - «ليس بهذه الطريقة»

قال: - «الرئيس نفسه لديه من يكتب له الخطب والتصريحات الصحفية.. وأنا أحق بالعطف من أى رئيس.. أنا الآن مسكين محتاج..»



[١٣] ضباط وأطباء وطلبة... في السجن

فى أحد الأيام من عام ١٩٥٨ أتى ضابط عنبر «ج» الذى تقيم به فى سجن القاهرة، وأخبرنى أن شخصية مهمة سوف تقيم معنا، أى فى الطابق الخاص بالإخوان المسلمين الذين قدموا من مختلف سجون الجمهورية للعلاج، وفهمت منه أنه هذه الشخصية ضابط من ضباط الصف الثانى للثورة، وأنه قد حكم عليه بالسجن لمدة عامين أو ثلاثة، كما أخبرنى أن معه مهندس بدرجة مدير عام حكم عليه أيضًا فى نفس القضية، كنت مندهشًا لما أسمع، وسألت ضابط العنبر: «أهى محاولة لقلب نظام الحكم؟»



قال دون إكتراث: «لا.. إنها قضية تبديد أو اختلاس أو نحو ذلك»
لقد رفض الضابط الكبير المحكوم عليه أن يعيش وسط المسجونين العاديين، فقد قضى بينهم ليلة كانت أتعس ليلة فى حياته كما يقول، لدرجة أنه كان يفضل الموت على البقاء وسطهم لما طبعوا عليه من إهمال واستهتار وقذارة وفوضى، وأخيرًا تداولت فى الأمر مع إخوانى لأنها المرة الأولى أن يأتى سجين من غير الإخوان ليقيم معهم هنا، ورأينا أنه - من وجهة النظر الإنسانية البحتة - لا مانع من ذلك، ومن ثم أخذنا له زنزانة صغيرة، وقدم الضابط السجين مع زميله المهندس المدير العام بعد نصف ساعة، كان يخطو فى اعتداد وغضب، ولم يكن شعره حليقًا كباقي السجناء، واستقبلناه بابتسامات وترحيبات مجاملة لا بد منها، وقدمنا له قدحًا من الشاي، كان يلتفت يمنة ويسرة، ويراقب تحركات الإخوان وأحاديثهم فى اهتمام، ثم قال: «من هؤلاء؟ إنهم يختلفون تمامًا عن باقى المسجونين» وبعد أن أجبنا على أسئلته قال وقد بدا الارتياح على وجهه: «إن الصورة تختلف تمامًا عما كنت أعرفه طوال السنوات السابقة..». لم نعلق كثيرًا على قوله، فعاد يقول: «هل بينكم محام من الإخوان؟»

- «نعم معنا محامون.. وأطباء.. ومهندسون وعمال وطلبة.. من كل الأصناف..»

ثم قدمت له أخانا الحامى الأستاذ حسن دوح، فكان سعيدًا بذلك... وعرفنا فيما بعد أن الضابط السجين كان مسئولاً عن «لجنة الجرد» بالقصور الملكية، وأنه اتهم بالاستيلاء على بعض الأشياء الثمينة لنفسه، كما باع البعض الآخر بأثمان زهيدة أو رمزية، فقد باع سجادة أعجمية فاخرة بمبلغ ستة وثلاثين جنيهًا فقط لإحدى الراقصات المعروفات..

قد عرض الضابط السجين الملف كاملاً على الأخ حسن دوح، فوجد الملف متخفًا بالعديد من المخالفات، وكان رأى حسن أنه لا أمل فى إعادة نظر القضية، وظل هذا الضابط السجين فى عنبرنا، لم يكن لديه أى عمل سوى الحديث عن ذكرياته فى الثورة، وعن علاقاته بجمال عبد الناصر وعن قائد البوليس الحزبى، وعن المكيدة التى دبرت له، كى يتخلصوا من شخصيته القوية، وتحديه للمفاسد

والمهازل التي كانت تحدث ، وكيف طرد وكيل النيابة الذي جاء للتحقيق معه في البداية ، وطلب قائد البوليس الحربي وكال له السباب عبر التليفون ، كما كان يؤكد دائماً أنه برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، حتى إننا مللنا السماع لهذه القصة التي لا تتغير ، والتي يرويها بمنتهى الحماسة والقوة والثقة ، مع أن ملف القضية الذي يحمله معه يؤكد عكس ذلك تماماً..

وعندما كنت أرى الدموع تترقق في عينيه أرق لحاله وأواسيه بشتى الطرق ، فأنا ضعيف أمام الدموع ، وما ظنك برجل كان ملء السمع والبصر ، وتنظر إليه أسرته كمثال ناجح ذى نفوذ ومكانة ، وفجأة يجد نفسه نزيل السجن مع العديد من المنحرفين والمجرمين ، ويرتدى تلك البدلة الزرقاء الكالحة ، ويأتمر بأمر السجنان الذى لا يزيد عن كونه واحداً من عشرات أو مئات الجنود الذين كانوا يلبون إشارته.. « ارحموا عزيز قوم ذل ».

وهناك ضابط سجين آخر برتبة نقيب ، كان يعمل بشرطة الآداب ، وقد عرف عنه العنف ، ومطاردة المنحرفين والبيوت السرية دون هوادة ، حتى إن رؤسائه كانوا يكونون لنشاطه كل تقدير واحترام ، ولم يكن يتورع عن مdahمة البيوت المشبوهة حتى ولو كان بها بعض الشخصيات المرموقة.. كما كانت أخبار غزواته الموفقة تنشر فى الصحف ، وشعر تجار « الرقيق الأبيض » بالحيرة حياله ، وأخذوا يدرسون وضعه بدقة ، ويعقدون معه الصلات ، ويدعونه - بحق الصداقة - إلى الحفلات ذات المستوى الرفيع ، وأدركوا بخبثهم أنه فقير ، وبدءوا فى مغالته بالهدايا ، وتقرب بعض النسوة إلى زوجته دون أن تعرف حقيقتهم ، بدافع الجوار أحياناً ، وبالصدقة أحياناً أخرى ، واكتشفوا أن لعاب حضرة النقيب يسيل خاصة أمام بريق الذهب والساعات الأنيقة والبدل المستوردة..

وبعد أن تعمقت الصلة معهم ، اتخذت العلاقة مساراً أوضح ، قالوا له أن العديد من المسئولين ينالون جعلاً أو راتباً شهرياً كى يغمضوا أعينهم قليلاً ، فتجار المخدرات يدفعون ، وتجار الرقيق الأبيض يدفعون ، ومخازن التموين الغذائى أيضاً.. وهم على استعداد لدفع المبلغ الذى يريد ، ولن يحرموه من ضبط بعض القضايا التافهة الراتبية ، بحيث لا تكون الإدانة فيها ثابتة.. وهكذا أوقعوه فى قضية رشوة ليتخلصوا منه. عندما حكم على هذا النقيب المتهم بالسجن ثلاث سنوات ، كان منهازاً انهياراً تاماً ، والدموع تتساقط من عينيه بغزارة ، ولا يستطيع تناول الطعام أو النوم قلت له : « وما نتيجة ذلك كله ؟ »

أخذ يدق رأسه بقبضته فى عصبية ويقول : « أنا انتهيت .. »

فى مثل هذه الأحوال - مهما كانت الجريمة - لابد من المواساة والتخفيف ، قلت له : « تستطيع بعد خروجك أن تجد العمل المناسب فى الشركات أو الأعمال الحرة .. الوظيفة الحكومية قيد ، وليس فيها غير المظاهر الكاذبة والراتب الضئيل ، ولابد أن وزارة الداخلية سوف تساعدك ».

قال فى مرارة : « أنا لا أفكر فى ذلك »

- « فيم تفكر إذن ؟ »

- « زوجتى .. زوجتى .. هل ستقبل الانتظار والعيش معى بعد ذلك ؟ »

قلت فى دهشة : « إن كانت وفية مخلصه فستقف إلى جوارك حتى النهاية ، وهذا أمر يطمئن ،

وإن كانت غير ذلك فلا تستحق البكاء عليها .. »

على الرغم من أن كلامي كان منطقيًا معقولًا، إلا أنه كان في حالة اضطراب نفسي شديد، ويريد التشبث بزوجه مهما كان الأمر، كان يحبها بجنون، وعلمت أنها جميلة وغنية ومثقفة، واستطعت بعد جهد جهيد أن أبعث في نفسه قدرًا من الأمل.. وبمرور الأيام ألف الواقع المر، وتكيف على الجو القائم في السجن، لكنه كان كثير الشرود، يعود إلى الحديث معي عن زوجته كل يوم، حتى جاء اليوم الذي كانت ترتعد فرائصه منه، لقد طلبت زوجته الطلاق، وهو حقها القانوني، لكنه ثار وفار، ورفض الموافقة على الطلاق، فلجأت إلى القضاء كي تحرر نفسها من الحياة معه، كان - وهو ضابط شرطة سابق - يعلم أن المحكمة ستحكم لصالحها، لكنه كان يريد مضايقتها بتطويل الإجراءات، ثم لجأ إلى الادعاء بأنها أخذت كذا وكذا، وأنه يطلب استرداد هذه الأشياء، وكثيرًا ما حاولت إقناعه بإسدال الستار على هذه القضية، والموافقة على الطلاق، لكن دون جدوى، لقد تحول حبه العميق إلى كراهية بشعة، لدرجة أنه كان يهدد بقتلها عندما يخرج من السجن، وكنت أحاول بلباقة أن أشعره بأنه هو الذي أخطأ بقبوله الرشوة، وأن القانون أعطاها الحق في طلب الانفصال، لكنه عسى عن إدراك الحقائق الجلية في عنفوان غضبه وحقد، وعدت أؤكد له: «ألم أقل لك أن امرأة كهذه لا تستحق الاستمسك بها؟ وكيف تصر على العيش مع امرأة ترفضك على هذه الصورة، وفي تلك المحنة؟»

وكان يقول في تعاسة: «الرشوة في كل مكان.. لكن التعساء وسيئ الحظ هم الذين يقبض عليهم متلبسين.. الكبار والصغار يرتشون.. وأبوها من المرتشين الكبار.. وهي نفسها لم تكن تهتم بمصدر الأموال التي اشترى بها الهدايا لها، هي تعلم أن مرتبي أصغر من ذلك بكثير.. كانت تعلم كل شيء.. إنها ملعونة.. لو كانت الرشوة سببًا للطلاق لكان في البلد ملايين المطلقات الآن..»

قلت له ذات صباح: «لماذا لا تؤدي الصلاة؟»

قال في استهتار: «وما الفائدة؟»

- «ستؤدي فرضًا، وترضى ربك، فقد يغفر لك، وتشعر بالرضى والاطمئنان..»

أدار وجهه بعيدًا عني وقال: «لا أمل في شيء.. العالم غابة.. والناس وحوش..»

- «قد يكون الأمر كذلك.. لكن الاستمسك بحبل الله هو الأمل.. وبابه دائمًا مفتوح.. وهو

الغفار والرحيم.. وأنت في حاجة إلى الغفران وإلى الرحمة.. تلك هي الحقيقة.. وهي البداية الصحيحة

لحياة جديدة.. ثم ماذا كنت فاعلاً لو أنك مكاني؟ تهتمى تافهة.. والادعاء تافه.. والحكم عشر سنوات

سجنًا.. أتسمع؟ عشر سنوات سجنًا..»

طأطأ رأسه وقال: «ليتني مثلك!!»

- «كيف؟»

- «أنت يمكنك أن تعترف وتفخر بالتهمة الموجهة إليك.. أنت صاحب مبدأ.. أما أنا..»

لم أجد ما أجيب به، كان يدرك أبعاد الموقف جيدًا، لكن عواطفه الثائرة، تدفعه إلى العناد،

وكبريائه العمياء، تحرضه على التمادي في الانتقام، وكنت أدعو له بيني وبين نفسي أن يهديه الله إلى

الصواب.. لكأن الله قد استجاب لدعائي، إذ سمعته يقول وقد هدأت أعصابه: «حسنًا.. إن ما أريده

منك هو أن تعلمنى الوضوء والصلاة ..»

وشعرت بفرح غامر، لكننى تعجبت كيف لمسلم فى مثل هذه السن لا يعرف كيف يتوضأ أو يصلي؟ ألم يتعلم شيئاً من ذلك فى بيته أو فى المدرسة؟

ليس هذا فحسب، بل لاحظت أيضاً أنه لا يهتم بقراءة أى كتاب، ولا يفكر فى تصفح الجرائد اليومية أو المجلات، ولا يفهم فى الأمور العامة أو السياسة إلا الذى كان يلقي له من خلال رئاسته أثناء الخدمة، لكننى لاحظت أيضاً أنه «معلم» فى حبك الحيل والخداع والإغراء، وسبحان من جعل فى كل قلب ما يشغله، لقد تبين لى أن مثل هذا الصنف من الناس يعيش حياته الوظيفية من خلال التعليمات الرسمية الصادرة إليه، وليس لديه رصيد من الفكر كى يناقش أو يبدى رأيه، أو يطور العمل الحساس الذى يشارك فى أدائه..

أما الضابط الثالث فقد كانت حكايته طريفة، وجريته أعجب، لقد كان ضابطاً فى الحرس الملكى، ومقرّباً من الحاشية فى القصر، وعندما قامت الثورة صدر قرار بإحالة إلى التقاعد وهو برتبة صاغ «رائد»، لكنه قدم التماسات عديدة لمجلس قيادة الثورة، وأكد لهم أنه لم يشترك فى أى عمل يتنافى مع الكرامة والشرف أثناء خدمته فى القصر الملكى، وبعد أخذ ورد وافقوا على إلحاقه بوظيفة مرموقة فى إحدى المؤسسات الصحفية بمرتبة مجز، وبقي فيه حتى ارتكب جريمته.. وقصته كما رواها لى بنفسه هى أنه اشترى من شقيقته ثلاثة أفدنة ودفع لها الثمن، وعندما أراد استلام الأرض لزرعتها. اعترضه أخوه الأكبر - وهو من أعيان القرية - وأخبره أنه اشترى هذه الأرض نفسها قبله وسجلها فعلاً باسمه.. فجن جنون الضابط، وأنذر أخاه بأن هذا التلاعب والتزوير لن يودى إلا إلى الكوارث التى ستدمر الأسرة، وفى النهاية عرض الأمر على القضاء الذى حكم لصالح أخيه، فما كان من الضابط السابق إلا أن قام باختطاف ابن أخيه، وأخفاه فى مكان سرى، وقرر أنه لن يسلم الطفل لأخيه إلا إذا دفع ثمن الأرض أو سلمه الأفدنة الثلاثة، وبعد مفاوضات ووساطات وافق الأخ الأكبر على دفع مبلغ كبير من المال، وعند إتمام الاتفاق انقضت الشرطة وأمسكت بالضابط السابق متلبساً.. ثم قدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمس سنوات تقريباً..

كان يقول لى: «أنا لست قاطع طريق.. ولا زعيم عصابة.. لقد فشلت فى أخذ حقى بالحسنى، فاضطرت لأخذه بطريقة أخرى.. لم أكن أعلم أن أخى قد تواطأ مع النيابة والشرطة للإيقاع بى.. ويوم أن قبض على بكيت.. لكن أخى الأكبر لم يرحم صلة الرحم ولا الدموع.. هل كان من المعقول أن ألحق الأذى بابن أخى؟ إنه مثل ابنى تماماً.. لكن العدالة كما يقولون معصوبة العينين.. أقسم لك أنى مظلوم.. مظلوم وجلال الله ..»

وفى السجن كل الناس «مظالم»، ويصعب على أى إنسان أن يعرف الحقيقة، ولهذا فإن السجن لا يصدق أحداً من المسجونين، ويرمى وراء ظهره بكل القصص والحكايات التى يسمعا، ولا يكثر للدعوى التى يذرفها المظلومون.. فالسجن عالم من الشك والريبة والغموض.. وصدق الشاعر الذى يقول:

لا يدخل السجن إنسان فتسأله ما بال سجنك إلا قال مظلوم

وهكذا يخيل للرائي أن السجن ليس فيه سوى المظلومين، وأن خارج السجن هو العالم الواسع الذي يعج بالظلمة من البشر..

أما القضية التي هزت مشاعرنا، فقد كانت قضية طالب الطب «ع»، وقد اهتمت بها الصحف في تلك الفترة، ونشرتها بالتفصيل، وكنا نتابع مراحل هذه القضية جلسة بعد جلسة، فقد كان لطالب الطب «ع» صديق عزيز يدرس معه في الكلية، وكثيراً ما كان «ع» يذهب إليه في منزله ليذاكر معه حيث يسكن هو وأمه وحيدتين بعد أن مات والده، ولم يكن أحد يتصور أن «ع» يمكنه أن يقع في حب أم صديقه، لكن هذا ما حدث بالفعل، وتسلسل ذات يوم إلى بيت صديقه في غيبته، وأخذ يطرح الأم الغرام، فصدمته بعنف ووجهت إليه أشد اللوم، لكنه لم يرتدع، فهددته بالكشف عن نذاته أمام أهله وأمام ابنها، غير أنه استمر في تذله وإبداء حبه، وعدم القدرة على العيش بدونها، ولما يس منها أخرج مسدسه وأفرغ في السيدة المسكينة عدداً من الرصاصات القاتلة، وبالطبع قبض عليه وقدم للمحاكمة..

كان وقع الحادث أليماً بالنسبة لأبيه الأستاذ الجامعي والذي يحظى بالاحترام والتقدير، كما كان أشد إيلاماً بالنسبة لأمه، التي ماتت بعد فترة وجيزة. وفي نهاية المطاف حكم على «ع» بالسجن خمسة عشر عاماً «أشغال شاقة»، عندئذ سقط مغشياً عليه في قفص الاتهام، وعندما حاول مصورو الصحف التقاط صورة له، تصدى لهم أحد أشقائه وكان يعمل ضابطاً بالمخابرات العامة، وانتزع منهم آلات التصوير وأتلف الأفلام على مرأى ومسمع من هيئة المحكمة والنظارة، واحتجت الصحف في اليوم التالي، المهم أن المتهم نقل على الفور إلى مستشفى سجن القاهرة لعلاج من أثر الصدمة قبل ترحيله إلى «ليمان طرة» ليقطع الصخر في الجبل، ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من الهرولة إلى المستشفى لنشاهد هذا الشاب العجيب التصرفات.. كان كما هو متوقع منهازاً يكي، ولا يستطيع أن يتصور أن مستقبله قد دمر، وأنه سوف يقضى خمسة عشر عاماً بين القتل والسفاحين في محاجر ليमान طرة، وأخذ كالعادة يزعم أنه مظلوم وأنه لم يكن يقصد قتلها.. وأنها هي التي أغوته وحطمت حياته.. وأخيراً اتهم القاضى بالظلم والتحيز، وكان متواجداً معنا الأخ الصديق السجين عبد الوهاب السقا، فسد إلى «ع» الراقد على السرير نظرات احتقار، وقال له في حدة: «فعلاً القاضى قد يكون متحيزاً.. لكن لصالحك»

- «كيف؟»

- «لأنك تستحق الإعدام..»

فأسرعنا بإبعاد عبد الوهاب بعيداً عنه وهو يزمر ويتحدث عن بشاعة الجرم، ويستغرب تلك الأحكام المخففة التي تصدر في مثل هذه القضايا الواضحة مع توفر الدليل والاعتراف والقصد الجنائي، والحقيقة أن القاضى يطبق القانون مستنداً - في تكييف القضية - على ما يراه من أدلة ووقائع، وللمحامين حيل عديدة في النيل من تصور الادعاء، وبيانات الشهود، وتلقين المتهم بعض الأقوال التي تخفف من الحكم المتوقع..

الحقيقة أنني التقيت ساعات طويلاً مع المسجون «ع»، وكنت أشفق عليه من الحديث والتلميح

عن القضية، ولم أستطع أن أكتشف أمورًا تساعدني على اكتشاف بواعث الجريمة، لكنه بالتأكيد مندفع وعاطفي في تصرفاته، ويحاول دائمًا أن يعلق أويدي بوجهة نظر في الموضوعات، قبل أن تكتمل الصورة بأبعادها المختلفة في ذهنه... وبعد بضعة أسابيع رحل عنا إلى «ليمان طرة».. ولم نعد نسمع عنه شيئًا، وذات يوم بعد أن أفرج عني من السجن، كنت أتصفح جريدة الأهرام، فقرأت في صفحة داخلية خبرًا صغيرًا داخل مربع جاء فيه: أن طالب الطب السجين «ع» قد ألقى بنفسه من الدور الرابع في أحد مباني سجن طرة وأسلم الروح على الفور.

أما والده الأستاذ الدكتور الجامعي، فقد علمت أنه بينما كان يلقي إحدى محاضراته في المدرج الكبير، سقط ميتًا إثر نوبة قلبية مباغتة.. وهكذا أسدل الستار على واحدة من المآسي العديدة التي تحدث في مجتمعنا كل يوم، ولا تخلف وراءها سوى الحسرة والألم..

وننتقل بالحديث من طالب الطب، إلى اثنين من شباب الأطباء، كانت لهما أيضًا قضية مثيرة، تناولتها الصحف في حينها، فقد كانا على علاقة آثمة بإحدى المرضات كانت تعمل معهما في عيادتهما، وعندما اكتشفت الحمل فكرتا في إجراء «كحت وتفرغ» - «إجهاض» لها كي يتخلصا من الجنين، لكنها أصيبت بالتنزيف أثناء العملية الجراحية، مما اقتضى إجراء نقل دم بأسرع ما يمكن، واستعاننا بأحد الأطباء التخصصيين، لكن المرضة أسلمت الروح بعد أن اتهمتهما، فأبلغ الطبيب المختص عنهما وسيقا إلى المحاكمة التي حكمت عليهما بالسجن عامين لواحد وثلاثة أعوام للآخر، مع فصلهما من الخدمة، كما سحبت النقابة العامة للأطباء منهما تصريح مزاولة المهنة..

وأمام مكتبة السجن التقيت برجل وقور أشيب الشعر، يلبس ملابسه المدنية الأنيقة، ويضع الطربوش على رأسه، وكنت أشعر بالعطف والألم لهذا الرجل المسن الوقور، ولم أجروا على سؤاله عن الاتهام الموجه إليه، والذي يحاكم بسببه آنذاك، وذات مرة كنت أتصفح مجلة «البوليس» ووقعت عيني على صورة كبيرة بالألوان لنفس الرجل العجوز، وتحتل الصورة نصف الصفحة طولًا، ومكتوب إلى جواره عنوان بارز يقول: «إمبراطور النصب في الشرق» لم أصدق ما أرى.. أيمكن أن يكون هذا الوجه الطيب البريء الذي يشبه وجه جدي في طبيته وصلاحه أيمكن أن يكون وجه نصاب كبير؟ وأخذت ألتهم كلمات التحقيق الصحفي التهامًا.. وسائل غريبة.. لا من حيث النوع أو المبالغ الضخمة فحسب، بل من حيث عدد الجرائم أيضًا..

وفي مرة أخرى أشار الأخ الصديق محمود عمجوة إلى رجل يجلس في الشمس مع زمرة من المسجونين المتقدمين في السن وقال: «انظر إلى هذا الرجل.. وقل ماذا تلاحظ عليه»

نظرت، وقلت: «لا شيء.. إنه مثل من يجلسون معه، لا فرق بينه وبينهم..»

قال: - «إنه مدير عام إحدى الوزارات الهامة، اختلس عشرين ألفًا من الجنيهاات وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت»، وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.. أكان هذا الرجل يومًا مديرًا عامًا، يجلس على مكتب أنيق، ويتحلق حوله الموظفون وطاقم السكرتارية والسعادة وكبار الزوار؟ أكاد لا أصدق.. لقد مسخه السجن مسخًا شديدًا، وها هو يلبس رداء متسخًا كالحا أزرق اللون، يتفق تمامًا مع ذقنه غير الحليق، ووجهه المتهدل، وعينيه ذات الزوايا الحمراء الملتهية، ثم جاء السجن وأخذ يدفعهم باحتقار

والإهمال كى يذهبوا إلى «العنبر».. يا إلهى اللعنة على المال الحرام الذى يستعبد الإنسان، ويسقط هيئته، ويدمر مظهره ومخبره..». وأمام المكتبة أيضًا كان يعقد مؤتمر لكبار اللصوص المسجونين كل صباح، يناقشون فيه أهم القضايا الجديدة التى ضبطتها الشرطة، وأسباب فشل عملية السرقة أو السطو، ويستخلصون العبر من هذه الحوادث اليومية التى ترد إلى السجن، وكنت تشعر وأنت تستمع إلى أحاديثهم وأفكارهم أنك أمام مجموعة من المختصين والخبراء المحترفين حتى لكأن اللصوصية نشاط وطنى اجتماعى له أحكامه وتقاليده ومبرراته، ولا تسمع منهم كلمة حرام أو حلال، ويبدو أنهم ينظرون إلى اللصوصية كمهنة تحتاج إلى موهبة وفن، وليست انحرافًا خطيرًا يبعث على التقزز والتستر.

أما تجارة المخدرات داخل السجن فهى على أشدها، فأصحاب المزاج يجدون ألف حيلة وحيلة للحصول على الأفيون والحشيش، بل والخمر أيضًا، والتجار - أو المعلم الكبير - معروف لجميع المسجونين، بل وللسجانة أيضًا، والدليل على ذلك أنهم يفاجئون مروجى المخدرات داخل السجن من آن لآخر، وكثيرًا ما يكون المروج على علم مسبق بالحملة، ولقد أشرت إلى هذه الظاهرة بشيء من التفصيل فى كتاب لى عن السجن بعنوان «المجتمع المريض»، وكان المتهمون فى قضايا المخدرات - كما سبق وأشرت - يلتقون بى كثيرًا، لأننى كنت أكتب بعض القصص عن هذه السموم فى مجلة السجن، وأعرض لحياتهم وسلوكهم بشيء من الدقة، مما جعل أحد زعمائهم يقول عني: «هذا المسجون يعرف الكثير عنا، ولو بحثنا وراءه لتبين لنا أنه «صاحب مزاج...» وحاولوا دعوتى على مأدبة غداء فى يوم عيد، وبعد الأكل همس أحدهم فى أذنى قائلاً: «الصنف موجود»، وانفجرت ضاحكًا.. وأكدت لهم أننى لم أجرب هذه الأشياء طول حياتى، وأن ما أكتبه عنهم إنما أستمد حقائقه من الدراسات الطبية عن المخدرات فى علوم الفاركولوجيا والطب الشرعى.. وعلى الرغم من الأيمان المغلظة التى كنت أقسم بها على صدق كلامى، إلا أننى كنت أقرأ الشك فى عيونهم..»



[١٤] مهرجان الحرية المؤقتة

لا أنسى ما حييت ذلك المفكر الهمام الكبير الأستاذ «أمين الخولي»، وهو واحد من الأساتذة المجددين في الجامعة، وأصحاب الرأي الحر، والبحث العميق، ورئيس جمعية الأبناء، وكان يصدر في هذه الفترة مجلة «الأدب»، وقد أفسح الرجل رحمه الله مكاناً لي في هذه المجلة أكتب فيه الشعر أو القصة وأنا سجين، بل أرسل إلى خطاباً مؤثراً ما زلت أحتفظ به، بدأه بقوله «تحية إليك في معقلك»، وكلمة المعتقل - وليس المعتقل - تحمل الكثير، ثم استطرده قائلاً: «إن الفلك دوار، ولم يدق فيه مسمار».

الحقيقة أنني شعرت بالارتياح لرسائله العميقة الشجاعة، لأن من يغامر في تلك الفترة ويتصل أو يرسل سجيناً يعرض نفسه فيها لمشاكل لا حصر لها، ولقد حرصت بعد خروجي من السجن على الاتصال بهذا المربي الأصيل، وبحرمه السيدة الدكتورة بنت الشاطي، وما أكثر ما ذهبت إليه في بيته بمصر الجديدة؛ كما كان حريصاً على أن يدعوني إلى الحفل السنوي الذي تقيمه مجلة «الأدب» كل عام.



ولقد تعرض الرجل لأزمة صحية شديدة، إذ أصيب بورم في المصراع الغليظ، وأجريت له عملية جراحية كبيرة، وأشهد أن الرجل في محنته المرضية كان مؤمناً قوياً بآسماً دائماً، لا يرهب الموت، ولا ترتعد فرائضه أمام مرض خطير كهذا، وقد شفى بعد ذلك، لكنني أعتقد أن وفاته بعد ذلك ربما تكون بسبب هذا المرض نفسه.

وكان على في تلك الفترة أن أخطط بصورة أدق وأوسع لحياتي في السجن ما دام الأمل في الإفراج لم يتحقق، ولهذا أعددت عدداً من المشروعات الأدبية منها ما يتعلق بالكتابة، ومنها ما يتعلق بدراسة بعض العلوم الإنسانية والموضوعات الإسلامية التي أراني في حاجة إلى الاستزادة منها، والمسئولية تكبر وتثقل كلما حققت خطوة في طريق النجاح، وكلما ازدادت مؤلفاتك انتشاراً، وخاصة أن النقد - وهم لا يرحمون - بدءوا النظر الدقيق فيما أكتب.. إن النجاح يؤدي إلى مزيد من القلق، والمضي قدماً يحتاج إلى عرق وسهر وصبر وأناة..

كان الأخ السجين البكباشي حسين حمودة أحد ضباط الإخوان الذين ساهموا بجهد مشكور يوم قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وقد شرح هو بنفسه دوره وعلاقاته وتاريخه مع الثورة في كتاب صدر عن دار الزهراء بالقاهرة مؤخراً، ونظراً لاستمساكه بوجهة النظر الإخوانية فقد غضب ضباط القيادة منه، وأدخلوه في زمرة المقدمين للمحاكمة من الإخوان المسلمين، وحكم عليه بالأشغال الشاقة هو والبكباشي فؤاد جاسر، والصاغ جمال ربيع وغيرهم، وعاش حسين حمودة في سجن الواحات بالصحراء مع إخوانه بضع سنين، ثم نقل في عام ١٩٥٨ إلى سجن القاهرة معنا، وذات يوم استدعى حسين حمودة وكان الوقت بعد العصر، ثم حان موعد التمام، وأغلقت الزنازين، وانصرف سجانة النهار، وجاء بعدهم خفر الليل.. لكن حسين حمودة لم يعد.. وأخذنا نضرب أحماًساً في أسداس،

ترى أين ذهب؟ هل أخذه إلى إحدى المستشفيات؟ لكنه والحمد لله لم يكن مريضاً، هل رحلوه إلى سجن آخر؟ ليس هناك ما يدعوا إلى ذلك، الحقيقة أن ذهاب حسين هكذا فجأة أثار العديد من التساؤلات المقلقة.

وفي حوالي العاشرة والنصف صباحاً وجدنا حسين حمودة يدخل علينا عنبر «ج» مرتدياً أفخر ثيابه، إذن قد خلع لباس السجن، وارتدى بدلة مدنية، فتجمهر الإخوان حوله وهم يتساءلون: «ماذا جرى؟»

وأخذ يشرح كيف جاء أحد ضباط الداخلية الكبار مساء أمس ومعه عدد من الحرس، وكيف ساروا به في شوارع المدينة، ثم أدخلوه أحد الأمكنة، وهناك وجد وزير الداخلية زكريا محيي الدين جالساً في انتظاره، وتعانق الإخوة الأعداء، وأعادوا ذكريات الصداقة القديمة والكفاح الطويل، كان حسين مبهوراً لا يكاد يصدق ما يجري، وقال له زكريا محيي الدين حسب روايته: «لم يكن في إمكاننا كثورة أن نواصل مسيرتنا وننفذ خططنا وأنتم تعارضوننا وتتصدون لنا، ومن ثم لم يكن هناك مناص من حجزكم في السجن فترة حتى لا نشغل بمعارك ثانوية.. والآن قد استقرت الأمور، وأستطيع أن أقول لك، مبروك، لقد أمر الرئيس بالإفراج عنك.. وتستطيع الآن أن تذهب إلى بيتك..»

كنا نستمع إلى حسين في ذهول، لم يتركنا حسين لكي نناقش ونستنتج ونستقرأ الأحداث المفاجئة، فاستطرد قائلاً: «وقد أخبرني الوزير أن الإفراجات عنكم ستوالي تباعاً..»

الإفراج بالنسبة للسجين السياسي حلم، وهو لا يأتي عادة إلا وسط دراما مثيرة، فقد يخرج السجين السياسي غداً، وقد يبقى سنوات طويلاً، وقد لا يخرج أبداً، إذ إن العبرة ليست بالحكم الصادر في حقه، ولكن الأمر يتوقف على الوضع السياسي العام، وتطور الأحداث ومدى المعارضة وما فيها من لين أو شدة، ولهذا فإن الإفراج عن حسين حمودة على هذا النحو قد هزنا هزاً من الأعماق.

ولم تكد تمر أيام قليلة حتى أفرج عن معظم ضباط البحرية الذين كانوا مسجونين معنا على ذمة قضيتنا، وكذلك أطلق سراح عدد من الضباط الآخرين منهم جمال ربيع ونجيب عطية وفؤاد جاسر، ثم توالى الإفراجات بأعداد قليلة في سجن أسبوط، وسجن بني سويف، ثم توقفت فجأة، ولم تدم الفرحة طويلاً، وأخذت الشكوك تراودنا من جديد، إن ما جرى من إفراجات ليست له صفة الإفراج العام، أو العفو الشامل، لكنها جاءت كعينات منتخبة محدودة..

في هذا الأثناء استدعاني الصديق الضابط سمير قلادة لأتسلم من المكاتب طرداً من الكتب كنت قد أوصيت أهلي بشرائها، وحينما كنت جالساً في مكتب الإدارة كان يتواجد به حوالي أربعة ضباط، وفجأة سمعت أحدهم يقول لي: «ما رأيك في الثورة؟»

ارتجى الأمر على، ولم أدر بماذا أجيب، فابتسمت في اضطراب وقلت: «أهو تحقيق يا «زايد» بك؟»

قال: «لا والله.. وإنما أردت أن أستمع إلى رأي مفكر مثلك..»
كان من الصعب أن أراوغ أو أصمت، كما كان من غير اللائق أن أثني على الثورة على طول الخط، فسوف يدركون أنني أخدعهم، وكان من الخطر أيضاً أن أشن على الثورة هجوماً يورطني فيما هو أكبر وأنا ما زلت سجيناً، عندئذ فكرت وتمالكت أعصابي وقلت بمنتهى الوضوح: «من الخطأ أن أصدر رأياً واحداً شاملاً على الثورة..»

قال: والضباط من حولنا يتابعون الحوار - وهو يتسم: «كيف ذلك؟»

قلت: «إن الحكم الصحيح على الثورة لابد وأن يكون مجزئاً.. أو يتناول كل قضية على حدة.. ودعني أشرح لك الأمر بضرب الأمثلة.. إخراج الإنجليز من مصر عمل عظيم.. وكذلك تأمين قناة السويس، وخطوات التصنيع، أما موضوع الحريات العامة والمحاكم الاستثنائية، وبقاؤنا في السجن، والمعاملة التي عوملنا بها.. فهذه أمور سيئة لا يقرها عدل.. ذلك هو حكمي على تقييم الثورة.. أشياء طيبة، وأشياء أخرى على النقيض.. ولا أستطيع أن أقول غير ذلك.. ولا مجال للتفصيل.. وكل لبيب بالإشارة يفهم». وتبادل السادة الضباط النظرات، وعلق الضابط زايد قائلاً: «كلام منطقي معقول، ولا خلاف عليه..»، قال ضابط آخر: «لقد كنا نتوقع أنك ستكون من أوائل المفرج عنهم..»

فقلت وأنا أهم بالخروج: «الأمر لله ما شاء يفعل..» والواقع أن خروج البعض منا فتح شهيتنا للرجعة في الحرية، وكثرت الأقاويل والتحليلات السياسية، فهناك من قال أن الثورة تحاول إرضاء الضباط المحبوسين في البداية، وتجعل لهم الأسبقية في الإفراج، وهناك من قال أن المجموعة التي خرجت لم تصطدم بالإدارة أو توجه انتقادات جارحة للحكومة أثناء فترة السجن، وهناك من أشار أيضاً إلى احتمال وجود «واسطة» من شخصيات كبيرة بالنسبة للبعض، وتعبنا من كثرة الكلام والتحليلات.. فآثرنا العودة إلى ما كنا فيه قبل حركة الإفراج المحدودة التي مرت بسرعة..

وجاء أبى متلهفاً لزيارتي وليسألني عن مصيري، قلت باسمًا: ما المسئول بأعلم من السائل، وقد وعد خالي اللواء منذ شهور بأنني سأكون من أوائل المفرج عنهم بإذن الله، ولكن وعده لم يتحقق، وبان الضيق والغضب على وجه أبى الذي ازدادت تجاعيد وجهه عمقاً وعدداً، ولم يعلق بكلمة، كنت أقرأ كل ما يريد قوله على وجهه الطيب وعينيته الحائرتين.

وخرجت ذات يوم إلى القصر العيني لمتابعة العلاج بقسم العظام، وفي هذا اليوم جاء لأول مرة جدي محمود وهو عم والدتي، وكان رجلاً متقدماً في السن، كما جاء أبى أيضاً للزيارة ومعه أخى الصديق الأستاذ مصطفى عبد الحافظ. وكان طالباً آنذاك في كلية اللغة العربية، ويرتدى زيه الأزهرى المميز، وأثناء جلسة العلاج، وكانوا جميعاً يجلسون إلى جوارى قدم ضابط الحراسة وسألني: «هل أنت فلان؟». قلت: «نعم»

قال: «أنت مطلوب للسجن حالاً»

ودق قلبي.. آه يا قلبي المعنى!! دائماً تعيش بين الخوف والرجاء، واليأس والأمل، مضطرباً هائماً كطائر يعلو ويعلو حتى يعانق السحاب، ويهبط ويهبط حتى يصطدم بصلاية الأرض وقسوتها..

قال لى الضابط مسرعاً: «هيا حتى أوصلك ثم أعود لباقي إخوانك المسجونين..» وحينما أراد الضابط أن يعلق الأغلال «الكلبشات» على يدي كما هو متبع، انحسرت فيها قطعة من جلدي فانسكبت قطرات من دماء، تأوّهت دون وعي، فقال الضابط في ارتباك: «أسف.. يبدو أنني تعجلت.. هل تحتاج إلى ضماد؟»

قلت: «لا داعي فالإصابة سطحية..»

كنت شاردًا طوال الطريق، لم يكن يعلق بيصرى شيء من المشاهد العديدة التي تتوالى على مع أني كنت أركب سيارة مكشوفة ويجلس إلى جوارى شرطي حراسة واحد، يبدو على وجهه أن الأمر لا يعنيه في شيء.

تطلعت إلى باب السجن من بعيد، كان يقف أمامه ضابط طويل القامة، كبير المقام، وما إن

أقربت حتى تبينت أنه القائم مقام إبراهيم عزت ، وعندما رأيته ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، فوثبت من فوق السيارة ، فإذا به يستقبلني فاتحاً ذراعيه ويقول: « مبروك يا بني .. لقد صدر أمر بالإفراج عنك .. » احتضنتني الرجل الطيب ، ذو الوجه الأبيض ، والابتسامة الحلوة ، والشيب الوقور ، وطبع قبلته الأبوية على جبينى ، لقد امتلأت عيناى بالدموع ، وعجزت تماماً عن النطق ، كنت أتحرّك كآلة ، أخذنى نائب المدير إلى مكتب المدير ، حيث يتواجد معظم الضباط ، وتسابقوا فى تقديم التحية إلى ، وكان المدير يقف على مقربة من مكتبه ، ولاحظت وجود رجل غريب يرتدى الزي المدنى يجلس مكان المدير ، وكان يشهد الترحيب والتهانى بكثير من الاهتمام ، قلت فى نفسى لعله ضيف طارئ ، ولم أركز كثيراً على ملامح وجهه ، ودهشت إذ سمعت هذا الضيف يقول مبتسماً: « ما دمت تمحبونه هذا الحب الشديد ، فسوف نقيه معكم ولاداعى إذن للإفراج عنه .. » .. وضحكوا .. وشاركتهم الضحك .. ونظرت إلى وجه الرجل الضيف .. من هو؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل .. أين؟ أين؟ ولم تطل حيرتى فقد قال المدير: « أحمد بك صالح داود ... »

وانتهت تماماً .. إنه هو .. الرجل الذى كان له دور كبير فى عنف التحقيقات التى جرت فى السجن الحربى ، كان اسمه يبعث الرعب فى النفوس ، ها هو يجلس أمامى مبتسماً هادئاً وكأن لم يحدث شئ .. وتماكنت أعصابى قال: « هل تعرفني؟ »

- « بالطبع ... »

- « لم تنس بعد .. »

لم تكن حالتى النفسية تسمح بالبحث وراء الكلمات التى يتفوه بها ، ولا النظرات الثاقبة التى يسدها إلى ، وعاد يقول وهو يبعث بشئ فى يده لا أذكر ما هو: « البلد ليست بلد جمال عبد الناصر وحده .. ولكنها بلدكم أيضاً .. »

كنت أفأف « انتباه » كأحد العساكر الجدد فى معسكر للتدريب ، ورددت باقتضاب: « نعم .. »

فاستطرد: « الرئيس لا يحب أن يحبس أو يعتقل الكفاءات الممتازة .. »

- « نعم »

- « ولهذا أمر بالإفراج عنك .. »

- « متشكر يا فندم .. »

- « ويجب أن تنسى ما مضى ، وتبدأ حياة جديدة .. أنت لم تخسر الكثير ، بل استفدت خبرات ودروساً .. » . وأضاف وهو يبتسم: « وجوائز أدبية ضخمة .. وأصبح لك اسم معروف فى عالم الأدب .. ولقد كان ملفك بين يدى خلال الأيام الماضية .. وكل السجنون التى عشت فيها تشهد لك بحسن الخلق .. »

واختتم حديثه بقوله: « وأنا مكلف بأن أحل لك أى مشكلة تعترضك فى الخارج .. لكن لا تنس أنك ستخرج إفراجاً صحياً .. أتعرف معنى الإفراج الصحى؟ معناه أن نعيدك إلى السجن إذا ما صدر منك أى تصرف خاطئ ، بحجة أن صحتك قد تحسنت .. وهكذا ستظل معلقاً بكلمة منا .. تذكر أنه ليس عفواً شاملاً ، ولكنه إفراج صحى .. » . وأعطونى إذناً بالانصراف ..

خرجت من مكتب المدير ، وخطواتى مرتبكة ، والعرق يسيل على وجهى رغم أننا فى الثلث الأخير من شهر نوفمبر ، وفى فناء السجن لحق بى الضابط سمير قلادة الصديق المخلص وقال: « أنا كنت أول من قدم البشرى لوالدك .. إنه - وعدد من أهلك - بباب السجن ، وقد سألتنى عما يجرى ،

وأخبرته أنه سيتم الإفراج عنك فى خلال يومين أو ثلاثة ، وأخبرته أن يحضر لك بدلة وحذاء والذى منه ...». كان سعيدًا جدًا لنبا الإفراج عنى ، وأخذ على عهدًا أن أقبل دعوته لتناول الغداء فى منزل أسرته بمصر الجديدة بعد خروجى ، فرحبت على الفور ، وصحبنى حتى باب العنبر ، كان السجناء غير السياسيين يلتقون فى الطريق ، ويقدمون التهاني ، وعندما صعدت إلى الطابق الثانى بعنبر «ج» تراحم الإخوان من حولى مهنيين ، ولم أستطع كبج مشاعرى فانهمرت من عيني الدموع..

قال أحد الإخوة: «لماذا البكاء؟»

- «كنت أتمنى أن نخرج جميعًا..»

- «أنت اليوم.. وغداً غيرك.. كلها آجال..»

جلست فى غرفتى صامتًا استعيد ما تشئت من مشاعرى وأفكارى ، وأطل السجنان الأسمر بوجهه الباسم على من الباب قائلاً: «لا تنس الحلاوة.. نحن حلاوتنا كبيرة جدًا.. أكلنا معك عيش السجن.. أم أنك لن تهتم بنا عندما تلبس الملابس المدنية وتصير دكتورًا؟»

- «من عيني يا شاويش محمد»

وعلمت أن أربعة من الإخوة سيخرجون معى فى نفس اللحظة وهم سمير فهمى الغندور طالب الطب البيطرى ابن الأميرالاي فهمى الغندور المفتش العام بوزارة الداخلية ، وعبد الرحمن شفيق الطالب بكلية العلوم ابن العلامة المتخصص فى اللغة والأدب وشارح بعض الدواوين الشعرية الهامة ، والأخ عبد الوهاب السقا ، وأخ رابع لا أتذكره الآن...

فى اليوم التالى قدمت إلى السجن «لجنة طبية» مشكلة من عدد من الأطباء لفحصنا طبيًا ، وتقرير الإفراج الصحى ، وكان الموضوع مجرد إجراء شكلى ليس إلا ، وجلست أمام اللجنة ، وأخذوا يوجهون إلى بعض الأسئلة وهم يكتبون دون أن ينتظروا إجاباتى ، أخبرتهم أنى مصاب بالتهاب عظمى مفصلى فى الركبتين ، وبواسير نازفة ، وضعف فى كفاءة الكبد وغير ذلك من الأعراض أو العلامات التى كنت أعانى منها فعلاً... وفى نفس اليوم جاء أبى لزيارتى ، ومعه بدلة جديدة وملابس داخلية وحذاء ، وكانت السعادة تغمر وجهه الطيب ، وقال جدى العجوز محمود: «لقد تصادف الإفراج عنك فى أول زيارة أزورك فيها.. وهذا من فضل الله..»

وفى اليوم الثالث بقى أبى منذ الصباح أمام السجن ، كان يصلى ويأكل وهو جالس على مقهى شعبى صغير مقابل السجن العتيق ، وكان سمير قلادة يذهب من وقت لآخر إليه ليجامله ببعض القهوة أو الشاي.

حانت لحظة الخروج مساءً بعد صلاة العشاء ، وودعت أعز الأحباب داخل السجن وأنا أبكى من جديد ، كنت أشعر أن فرحتى ناقصة ، وأننى لن أستطيع مهما فعلت أن أمحو صورة هؤلاء الأحباب - بأرديتهم الزرقاء ووجوههم النحيلة الشاحبة داخل الزنازين - من ذاكرتى ، لقد ترسخت مشاهد السجن فى روحى وعقلى ، حتى إننى بعد ذلك لا أكاد أكتب رواية إلا وفيها شىء من ذلك إلا النادر. عندما خطوت إلى الخارج ، كان هناك حشد كبير من الرجال والنساء والأطفال ، وانطلقت الزغاريد ، وامتدت الأيدى ، واختلطت الكلمات ، لم أكن أستطيع أن أفرق بين أهلى وغيرهم من أهالى الإخوان الآخرين.. وبحثت عن أبى ، وأشاروا إلى مكان قريب.. كان يفترش عباءته الصوفية ، ويصلى لله شكرًا.. كانت عمامته البيضاء تشع فى الضوء الخافت ، وجبهته ساجدة على أرض الله ، وانتظرنا لحظات حتى انتهى أبى من صلاته ، ثم قدم نحوى ، واحتضنى يديين واهنتين ، وكان التعبير عن فرحته

بالدموع التي تسيل صامته على وجهه المغضن.. إننى أبكى الآن وأنا أسجل هذه الكلمات.... و... واقتضت الرسميات أن توضع الأغلال فى أيدينا ، لكى تنتقل إلى وزارة الداخلية ، ودخل موكب السيارات إلى الساحة الكبيرة ، وصحبنا الضابط إلى المكاتب الداخلية ، كان أحمد بك صالح داود يجلس فى مكتبه الصامد وأمامه عدد من التعهدات التى يجب أن أوقع عليها ، وهذه التعهدات تشمل عدم الاشتغال بالسياسة حيث إننا معزولون سياسيًا ، وعدم الاتصال بأعضاء الإخوان المسلمين الذى سبق اعتقالهم أو سجنهم أو قيامهم بأنشطة قديمة ، وضرورة إبلاغ المباحث العامة عن أى سفر من مقر الإقامة أو إليها قبل أن يبدأ السفر بوقت كاف ، وعدم تغيير السكن أو عنوان العمل إلا بعد الاتصال بمكتب المباحث المختص.. وخرجنا من المباحث العامة بميدان «لاظوغلى».. شعرت أننى أتنفس هواء جديدًا لأول مرة.. الهواء هو الهواء.. لكن هكذا خيل إلى.. وذهبنا إلى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمصر الجديدة حيث احتشد الأهل والأقارب والمعارف الموجودين فى القاهرة والقادمون من القرية.. وبعد التهاني والتبريكات وقف خالى ، رحمه الله ، وسمى بسم الله ، وأثنى على ثم قال: «نحن لا نحتفل بخروجك من السجن ، ولكننا نحتفل بتخرجك من جامعة.. وسوف تكون السنوات التى قضيتها داخل الأسوار وأنت تعاني وتتألم ستكون مصدرًا لعطاء وفير ، وخبرات فذة ، وستؤثر على أنكارك ومسيرتك فى الحياة أعمق تأثير.. وسيكون ذلك كله خيرًا إن شاء الله.. وأنت ضربت أروع المثل فى صبرك ، وفى محاولتك العديدة للتغلب على الصعاب والعقبات ..»

هذا بعض ما تذكرته من كلماته المؤثرة ، ثم مدت الموائد ، وتناولنا طعام العشاء ، وبعد انقضاء السهرة كان على أن أذهب لأنام ، فغدا أمامنا سفر ليس بالقصير على قريتنا التى تبعد عن القاهرة أكثر من تسعين كيلو مترًا.. لكننى تسللت فى نفس الليلة مع أحد أقربائى وزرت العالم الوقور الجليل الشيخ محمود شاهين والد زوجتى فيما بعد.

فى اليوم التالى وصلنا إلى القرية بعد العصر أو قبيل المغرب بقليل ، وعند القنطرة الغربية التى تؤدى إلى داخل قريتنا شرباه رأيت حشدًا هائلًا من أهل البلدة.. كانت السيارات تشق طريقها بصعوبة.. إنه مشهد لم أره طول حياتى بعد ذلك.. لم أكن زعيمًا من الزعماء ، ولا عضوًا فى البرلمان ، ولا حتى موظفًا ذا شأن.. مجرد طالب فى كلية الطب.. وابن رجل فقير يشتغل بالزراعة.. وتلك هى القرية.. حب.. وتلاحم ، إخلاص ووفاء ، فطرة صادقة ترفض الظلم ، وعندما يدخل الفرح بيتًا تفرح القرية كلها ، وعندما يلامس الحزن قلوب أسرة من الأسر ، تحزن القرية كلها.. الهتافات تشق عنان السماء.. وزغاريد النسوة تملأ سماء القرية.. عندها عاهدت الله بينى وبين نفسى أن أعيش خادمًا لهذه القرية الأمانة الآمنة ، وعندما تخرجت طبيبًا فيما بعد قررت أن يكون عملى فى هذه القرية ، وأن أقدم خدماتى دون مقابل ليلاً ونهارًا.. مما أرهقنى وأرهق الذين أتوا للعمل كأطباء بعدى ، وقد سجلت بعضًا من ذلك فى رواية «الذين يحترقون».. وقد أعدت الوالدة رحمها الله مجموعة من الأغاني الشعبية بهذه المناسبة ، وكانت الفلاحات يرددنها وهن يطفن شوارع القرية فى تلك الليلة المشهودة ، على الرغم من وجود عدد كبير من الشرطة السرية فيها..

كان خروجى بالنسبة لأهل القرية يعتبر أمرًا غريبًا غاية الغرابة ، فلم يحدث فى تاريخها قط أن خرج سجين دون أن يكمل المدة القانونية للسجن ، وهم فى تلك الأيام لا يعرفون الفرق بين السجين السياسى وغير السياسى ، ولهذا نظروا إلى خروجى نظرهم إلى شىء غير مألوف.. وأرجعوه فى النهاية إلى لطف الله وقدرته وعظمته..

وبقيت حتى منتصف الليل واقفاً على قدمي أستقبل الفلاحين في «الدوار الكبير» وكل واحد يصر على معانقتي وتقبيلي حتى تسلخت أجزاء من بشرة وجهي، لكنني كنت سعيداً بهذا الحب الذي لا يقدر بذهب الدنيا كلها، وفي اليوم التالي قدم أهالي القرى المجاورة كفر السنادية، كفر حسين، ميت المخلص، كفر الجزيرة، ميت ميمون، شناق، السنطة، سنباط وكفر العرب.. وبقيت على هذا الحال أسبوعاً. وبعد عشرة أيام تقريباً أخبرت أبي بأني لا بد أن أعود للقاهرة كي أستكمل دراستي في كلية الطب القصر العيني، وأواصل المسيرة من جديد، فدعا لي بالتوفيق، وأشار على بأن أذهب إلى عمي عبد الفتاح كي يدبر لي مسكناً، لأن المدينة الجامعية لن تقبلي مقيماً بها بعد ما حدث، وأوصاني - رحمه الله - بأن أنفرغ للدراسة تفرغاً تاماً، حتى أعوض السنوات التي قضيتها داخل السجن، وهكذا عدت إلى القاهرة، بعد أن أبلغت «مباحث طنطا» بأني سأسافر حسب التعهد المأخوذ علينا..

حينما وصلت إلى مبنى الكلية، تدفق الحنين القديم إلى قلبي، لقد أصبحت جزءاً من كياني وحياتي وتاريخي، وتذكرت المؤامرات السياسية الصاخبة، وأيام النضال ضد الملك والإنجليز، ثم الصراع مع الثورة من أجل الحريات، وصحف الحائط التي كانت تلهب بالمقالات العنيفة، والشعر الثائر.. لكن الكلية تبدو اليوم هادئة كالشيخ الوقور الذي يحمل على كاهله عبء السنين الثقيل..

ودخلت مكتب المسجل «كامل أفندي»، نظر إلى طويلا وقال: «أنت...»

- «نعم أنا هو... وهذه هي وثائق الإفراج الصحي...»

أشرق وجهه بالفرحة ونهض من فوق مقعده، وصافحني بحرارة قائلاً: «ألف مبروك». وقدم لي الشاي، ثم أخرج سجلاته القديمة، وأطال فيها النظر، وظل صامتاً بعض الوقت، فمددت رأسي بالقرب من السجل.. كان اسمي مكتوباً، لكن مشطوب بالقلم الأحمر، وفي خانة الملاحظات قرأت:

«فصل لأسباب سياسية»

قال الرجل بألم: «تعرف أنها أوامر...»

- «والحل يا كامل أفندي؟»

- «الحل في وزارة الداخلية..»

قابلني المرحوم الأستاذ إبراهيم نوار رئيس تحرير جريدة الجمهورية وعرض على وظيفة كبيرة بدار التحرير مقابل مرتب معجز، فقلت دون تردد: «أنا لا أفكر إلا في شيء واحد وهو العودة إلى الكلية...» ذهبت إلى خالي ضابط الشرطة الكبير وعرضت عليه الأمر، وبعد بضعة أيام أخبرني أن إعادة قيدي أمر مقرر، لكنه يستغرق بعض الوقت، وسوف يصدر أمر للكلية بالسماح لك بالحضور حتى تنتهي الإجراءات..

دخلت أحد أقسام الجراحة كالغريب.. لم أجد أحداً من الوجوه القديمة، لقد تخرجوا وأصبحوا أطباء، وتحلق الطلبة حول أحد المرضى، ثم جاء الأستاذ ليناكش الحالة.. الكلمات التي أسمعها من الأستاذ تبدو كطلاس.. لقد أنستني هموم السجن ولياليه الطويلة معظم ما تعلمته.. لا بأس.. فلأعتمد بالصبر.. وبالإرادة.. ولأبدأ من جديد.. وعلى بركة الله.

دبي في ٢٩ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ

١١-١٢-١٩٨٧ م

الدكتور نجيب الكيلاني



الجُزءُ الأوَّلُ

[١] حياة جديدة



كنت بعد أن صدر أمر الإفراج عني كالمبهور ، فحياة السجن شديدة الاختلاف عن خارجه رغم ما في الحياة من منغصات وأعباء ومسئوليات ، وكان يسيطر على ذهني وأنا أخطو خطواتي الأولى في حياتي الجديدة عدة أمور هامة منها العودة إلى كلية الطب جامعة القاهرة (القصر العيني) بعد أن فصلوني منها ، وهناك أيضًا المضي قدمًا في مجال الأدب وخاصة القصة والشعر والدراسات التي تبلور أفكارى وآرائى فى الحياة ، ثم هناك قضية الزواج التي يجب أن تحسم فى أسرع وقت ، فقد بلغت مرحلة من العمر تقتضى أن أكوّن أسرة تحقق لى ما أصبو إليه من استقرار وسعادة على الرغم من أنى لم أخرج من الكلية بعد ، هذا ولا أستطيع أن أنسى القيود السياسية المفروضة على ولباقة التعامل معها بشيء من الحكمة والكياسة وإلا تعرضت لمتابعب كثيرة . أهمها أن يعيدونى إلى السجن مرة أخرى . كما كان على أن أدبر حياتى المعيشية واعتمد على الله وعلى جهودى الخاصة فى توفير الدخل الذى يكفل لى حياة مناسبة ، ويكفى ما تكبده أبى - رحمه الله - من نفقات وآلام نفسية طوال فترة سجنى ، فضلًا عن أنه يتحمل مسؤولية باقى أفراد الأسرة .

أشاروا عليّ أن أذهب إلى الإسكندرية ، ونحن فى بداية فصل الشتاء . لقضاء فترة استجمام لدى خالى الأستاذ عبد المالك الشافعى ، ولم أمانع ، كانت الإسكندرية فى هذا الوقت هادئة جيدة الطقس الذى يميل إلى البرودة ، وكان الأقارب يذهبون إلى أعمالهم فى الصباح ويتركوننى ، فأخرج إلى شوارع المدينة وشواطئها وحدى ، مستخدمًا الترام فى تنقلاتى ، أتطلع صامتًا إلى المباني والناس فى الشوارع ، وكأنى استطلع عالمًا جديدًا غريبًا عني ، يشدنى إليه ما فيه من بساطة وسلاسة ، كما كنت حريصًا على قراءة الصحف والمجلات التي حرمت منها طويلًا بشغف وتعمق ، وتبين لى من خلال قراءاتى ومشاهداتى أن الدنيا تغيرت كثيرًا خلال الأعوام القليلة التي قضيتها سجينًا ، كما لاحظت أن الإسكندرية على الرغم من جمالها قد أصبحت أقل مستوى ونظافة وجمالًا بالمقارنة إلى حالها قبيل الثورة المصرية ، كما بدا الناس أكثر عزوفًا عن الحديث فى السياسة وأحوالها اللهم إلا فى المؤسسات الحكومية التي تتبع التنظيم السياسى للحكومة وهو التنظيم الوحيد المسموح به ، لكن الإنسان لا يعدم أن يجد هنا أو هناك فردًا أو أفرادًا يكون جمال الزمان الغابر ، وينحون باللائمة على الثورة وأيامها القائمة فى صوت خافت ، وتوجس يّين ، وأصبحت الشعارات تملأ الشوارع والصحف وأجهزة الإعلام ، وبدا أن الفن والأدب أصبحا يخضعان للسلطة وتوجيهاتها ، وغدت خطب الرئيس مادة رئيسية فى برامج

الإذاعة التي تعيد إذاعتها مرارًا وتكرارًا، ولم يعد لرجل الشارع المصرى مجال للتنفيس عن آرائه الحقيقية سوى « النكتة » حتى جاء اليوم الذى أصبح جهاز الأمن فيه يتابع ما يتردد من « نكت » ، وكثيرًا ما يسوق قائلها إلى التحقيق والحبس ، وكانت النكتة بمضمونها تضارع مقالًا كاملًا يحتل مساحة كبيرة من الصحيفة أو المجلة ، أما « النكت » الرسمية فى صحافة الحكومة فكثيرًا ما كانت تتضمن هجومًا على أعداء الثورة والرجعية والاستعمار ، أو تروج لسياسة الحكومة ومشاريعها ، وكان على أن أكون حذرًا جدًا إزاء هذه الصور الخفية للمعارضة .

وقبل سفرى إلى الإسكندرية كان على أن أذهب إلى أحد رجال الأمن المسؤولين لأستأذن منه فى السفر ، وأسجل العنوان الذى سوف أذهب إليه ، كما كان على أن أذهب عقب وصولى إلى الإسكندرية . إلى المباحث العامة هناك لأخطروم بمجيئى والفترة التى سأقضيها فى الاستجمام . وفعلاً ذهبت فى اليوم التالى إلى مقر المباحث بناءً على موعد حددوه لى ، وقضيت بعض الوقت فى أمور روتينية ، وأسئلة عن شعورى بعد الإفراج ، وخطواتى المقبلة ، والمدة التى سأقضيها فى الإسكندرية وما إلى ذلك .

وقد لاحظ عليّ الأقرباء أننى أطيل الصمت ، وأكثر من الشرود ، ولا أشارك فى المناقشات العادية أثناء السهر بالقدر الكافى ، بل إنى علمت فيما بعد أنهم لهذا السبب كانوا معتقدين أن السجن قد أثر فى تفكيرى وسلوكى وعقلى ، ويبدو حقيقة أننى كنت أعانى من قيود ومحاذير وهمية ، ترسبت فى أعماقى أثناء السجن ، ولم أستطع أن أتخلص منها بسرعة ، وخاصة أننى قضيت عامى الأخير فى السجن - كما سبق وقلت - فى الحبس الانفرادى ، مستغرقًا فى كتاباتى وقراءاتى ، ولم يكن معى بالترزانة من يشغلنى عن ذلك ، فضلاً عن الحرص المبالغ فيه الذى التزمت به بعد الأهوال التى رأيناها .

وأخيراً عدت إلى قريتي (شرشابة) وقضيت بضعة أيام مع الأهل ، ثم عزمت على الرحيل إلى القاهرة لاستئناف دراستى وأعمالى هناك . وكانت أمى رحمها الله متشبثة بى ، وتقول : « لم أشبع منك بعد » ، كما كانت زوجة جدى العجوز التى أصيبت بالشلل متمسكة ببقائى بحجة أنها قد تلقى الله فى أى وقت ، وقد لا ترانى مرة أخرى ، أما أبى فقد قال : « مصلحتك أهم ، سافر على بركة الله » كانت القاهرة . رغم ما عانيته من أهوال . لها مذاقها الشهى ، القاهرة بكل ما فيها من علم وثقافة وأجواء روحية خلاصة وذكريات حلوة ، وآمال كبيرة ، ولم أكن أستطيع العيش وحدى فى هذه الفترة ، ولهذا أثرت أن أسكن مع شقيقتى وزوجها المرحوم محمد السعدنى الذى كان يعمل مدرباً فى الحرس الوطنى ، واتخذنا مسكنًا مشتركًا فى حى شبرا شارع « كنيسة الراهبات » ، وقد قاما على خدمتى خير قيام ، ولم أشعر معها بالآلام الوحدة أو الغربة ، وعدت إلى الكلية طالبًا منتظمًا ، وبدأت فى مجموعة تدرس أمراض العيون على يد الأستاذ الشهير الدكتور « عبد المنعم لبيب » ، كان أستاذًا دقيقًا فى عمله ، ماهرًا فى علمه ، وكان يسجل الحاضرين بدقة ، ويشرك الطلبة فى الفحص والدراسة ، لكنى بقيت ملتزمًا بالصمت فى الأسابيع الأولى ، لأن علومى القديمة . بمرور الزمن فى السجن لم يبق منها إلا القليل ، فكان عليّ أولاً أن أراجع ما مضى من تعليم فى المراحل السابقة ، ويبدو أن الأستاذ أدرك ذلك ، فقال لى ذات يوم وهو يسجل اسمى فى الحضور « إنك تعيش معنا كضيف ، لماذا لا تشارك فى المناقشة » وابتسمت دون أن أجيب ، فلم يكن المجال يسمح بشرح ظروفى ، لكنى حرصت فى قابل الأيام أن أقرأ الدرس قبل أن أذهب فى الصباح إلى الحلقة العلمية ، وهكذا بدأت فى الاشتراك فى المناقشات العلمية ، وذات يوم نشرت الأهرام فى صفحتها الأخيرة خبرًا عنى وصورة تحت عنوان

«طالب طب يكتب بحثًا عن فيلسوف». وفي هذا اليوم كان الأستاذ يسجل أسماءنا كالعادة، وعندما جاء دورى قال: «أهو أنت؟» ونظر نحوى بشيء من المودة والتقدير، وفي فترة دراسة العيون أيضًا، كنت أهرول ذات مرة إلى الحلقة الدراسية. ووجدت زميلي السابق فى السجن الأستاذ يوسف هارون يعترض طريقى قائلاً: «هل قرأت الأهرام اليوم؟ لقد أعلنت نتيجة مسابقة القصة القصيرة ونلت أنت الجائزة الأولى والميدالية الذهبية، وستسلم الجائزة من الرئيس» وكان يوسف هارون ما يزال على ذمة السجن، وتحت العلاج، وحوله الحراس.

والواقع أن هذه الأخبار السارة قد فتحت شهيتى لمزيد من الكتابة، وأدخلت السرور إلى نفسى، وجعلتنى أمضى فى طريقى بثقة وأمل، كما جعلتنى معروفًا فى أوساط الطلبة وهم جيل غير جيلى الذى سبق وتخرج قبلى بأكثر من ثلاث سنوات.

ورعانى عدد من الأدباء وكبار الصحفيين للكتابة معهم، وهذا شيء هام، فما أقل ما يحدث ذلك عبر التزاحم الشديد لناشئة الأدباء فى ذلك الوقت على أبواب الصحف والمجلات والإذاعة، الحقيقة أنى وجدت الطريق ممهدًا، فوجدت الفرصة سانحة لاتخاذ مكانى وسط شباب الأدباء حتى أصبحت أكثر شهرة من كثير من قدامى الكتاب الذين هم فى سن أبى والحمد لله. ويبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تعوضنى عما فاتنى من فرص أثناء سجنى، كما كانت أدعى لبعض الندوات فى الإذاعة، ولبعض التحقيقات الصحفية، بل إن الاستفتاء الذى أجرته مجلة آخر ساعة فى أواخر عام ١٩٥٨ على ما أذكر عن أشهر أدباء العام أسفر عن فوز الأستاذ توفيق الحكيم بالأغلبية العظمى، لكن المجلة ذكرت فى عددها الصادر بهذا الخصوص أن بعض من اشتركوا فى الاستفتاء ذكروا اسمى.

لقد تركت العمل بالسياسة فى هذه الفترة، لكن هل تركتها فعلاً؟

لقد كنت «معزولاً سياسيًا بأمر السلطة، أى لا يحق لى الاشتراك فى أى عمل سياسى أو الانضمام حتى لحزب الحكومة، وقد كنت مرتاحًا جدًا لذلك، إذ يصعب على نفسى أن أصفق وأهلل لأولئك الذين أذاقونى وأذاقوا إخوانى الأهوال، ومع ذلك فقد كنت فى قرارة نفسى أجدنى مقتنعًا وملمتزمًا بالنهج الإسلامى، ولم يقف الأمر عند هذا الاقتناع الداخلى، بل تعداه إلى كتاباتى المتنوعة، فلم يكن غريبًا فى ذلك الوقت أن أفكر فى خط حديث لأدبنا المعاصر، وهو «الأدب الإسلامى» وأصدرت فى ذلك الموضوع أول دراسة لى بهذا الخصوص تحت عنوان «الإسلامية والمذاهب الأدبية» ونشرته فى دار النور بطرابلس ليبيا لدى الصديق الأخ محمد نشونش، ثم فكرت أيضًا فى الوحدة الإسلامية، فى وقت كان الجميع يتحدثون فيه عن القومية العربية وأصدرت فى نفس دار النشر المذكورة كتابًا تحت عنوان «الطريق إلى اتحاد إسلامى»، وقد صودر هذا الكتاب فى القاهرة ولم يسمح بتداوله، وسبب لى العديد من المشاكل، هذا بالإضافة إلى بعض القصص والمقالات فى الداخل والخارج، وكنت أسأل نفسى من وقت لآخر: لماذا أجز نفسى إلى المشاكل التى لا يعلم إلا الله عواقبها؟ ولكنى أدركت أننى أقدم على الموضوعات الإسلامية بحماسة بالغة، ودون تقدير للعواقب، وكأن هناك قوة خفية تدفعنى دفعا إلى ذلك.. فأقول إنها إرادة الله.. وأقول قد يثاب المؤمن رغم أنفه، وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى كتابة القصة التاريخية (قصيرة أو طويلة) وأودعها ما يؤمن به من أفكار وآراء، وكان أحد أصدقائى يقول لى: «لن تتغيروا.. يموت الزمّار وأصبعه يلعب» كناية عن التشبث بالمبادئ التى تربينا عليها.

ولقد كان من الأمور المحرمة علينا أن نلتقى بأحد من الإخوان المسلمين القدامى أو لنجالسهم

أو تنزاور معهم، وهذه من الناحية العملية قضية شاقة وشائكة، لأن معظم صداقاتي كانت معهم، وتعاملت في شتى أنحاء الحياة كان معهم، وخاصة ما يتعلق بالمصالح والبيع والشراء، انطلاقاً من الثقة والمحبة التي تجمع بيننا، لم يكن الأمر سهلاً في الحقيقة بالنسبة لي، فأنا أريد ناسراً لكتبي الجديدة ممن تتحقق فيهم صفة «الإسلامية» فهم أحرص على حقوقى، وأسرع فى تنفيذ رغباتى، ولقد نشرت كتابى الأول «الطريق الطويل» لدى مكتبة مصر (السحار) وهى دار محايدة، وكان للمرحوم سيد قطب ولنجيب محفوظ علاقات وطيدة بهم، ونشرت كتابى الثانى فى الشركة العربية للطباعة والنشر، وصاحبها لبنانى اسمه حسن إيرانى وكتاباً ثالث فى دار القلم لصاحبها محمد المعلم، ولم أتوجه إلى دار إسلامية إلا فى وقت متأخر نوعاً، فنشرت فى دار العروبة (التراث حالياً) وصاحبها إسماعيل عبيد، ومكتبة وهبة وصاحبها الحاج وهبة، ثم نشرت فى دار النور (ليبيا) كما سبق وأشرت، وكان المكان الأثير الذى أجلس فيه كثيراً فى أيام الخميس هو مكتبة العروبة (التراث) فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقاً) وبحض الصدقة علمت أن أحد رجال الأمن السريين يتابعنى فيها، فقد سقطت مفكرة ذلك الرجل (الخبير) فى منزل أخى وصديقى الفنان الرسام على عثمان، فالتقطها خفية، وأخذ يقرأ ما فيها، فعثر على تقارير عنى، وعن تحركاتى من بينها زياراتى المتكررة للمكتبة، ولقد كان لذلك علاقة فى حادثة وقعت بعد ذلك، فقد أمسكت الحكومة بمنشور يوزع سرّاً بعنوان «فرعون مصر الصغير»، وكان المنشور يهاجم عبد الناصر وسياسته، وينحى باللائمة عليه فى تعامله الجائر وقوته البالغة على جماعة الإخوان المسلمين، وظن رجال الأمن أن الذى يروج لهذا المنشور هو صديقى المرحوم أسعد سيد أحمد الذى يعمل بمكتبة دار العروبة، كما توهموا أن كاتب المنشور هو أنا.. لكنهم لم يكونوا متأكدين من هذه المعلومات، ومع ذلك فقد قبض على الأخ أسعد سيد أحمد وأرسل إلى معتقل القناطر الخيرية للتحقيق، أما أنا فظل رجال الأمن يطاردونى فى مقر عملى حيث كنت حينذاك «طبيب امتياز» بمستشفى «أم المصريين» بالجيزة (١٩٦١)، وكانوا يجالسونى ويناقشونى فى سكن الأطباء، حتى إنى هرعت إلى خالى اللواء محمود الشافعى وهو ضابط كبير بالداخلية، فشرحت له شكواى من الخبرين. فطمأننى، ثم جاءنى أحد زملائى فى العمل وهو الدكتور إبراهيم عبد الله، وقال لى أنه قدم شهادة طبية لصالحى حيث إن أحد الخبرين من أقربائه، ونصحنى بالحيلة والحذر، وعدم الالتقاء بالإخوان القدامى لأنى تحت المراقبة الدائمة، وكانت الدهشة تبدو على وجهى. وأنا أستمع إليه، فإن آخر ما كنت أفكر فيه أن يستغلوا زملائى المحترمين فى جمع المعلومات عنى، وأحد الخبرين قال لى: «أنصحك أن تبعد عن ابن ال.. الملعون أحمد سيد أحمد، لأنه سيسبب لك المشاكل» ولم أستطع أن أجيب إلا بكلمات قليلة مؤداها أننى لا ألتقى به إلا فى إطار المصالح فهو يشارك فى نشر بعض كتبى، ويقوم بالترويج لها وتوزيعها، ثم أخذ حسابى وأنصرف، وليس فى علاقتى به غير ذلك..

واستطاع أسعد سيد أحمد أن يقنع المحققين بأن هذا المنشور لم يطبع فى مصر. وأنه مهرب من الخارج، من لبنان على الأرجح، واستشهد فى ذلك بطريقة الطباعة ووضع نقطتين تحت الياء فى كلمة «فى» ومثيلاتها، وغير ذلك من الأمور الفنية الأخرى، كما أكد لهم بالتالى ألا صلة لى بهذا المنشور وأنى لم أكتب حرفاً واحداً منه، ومع ذلك لم يفرج عن أسعد سيد أحمد إلا بعد ثلاثة أشهر.

وقبل ذلك بفترة كنت أقطع الجسر الذى يفصل بين ميدان باب الحديد وشارع شبرا بالقاهرة، متجهاً إلى منزلى سيراً على الأقدام، فلاحظت وجود شاب أسمر اللون يلاحقنى أينما ذهبت، ويتوقف

إذا توقفت عند أحد المتاجر . وظل يقترب مني حيث واجهته قائلاً : « ماذا تريد ؟ » .
- « ألا تعرفني ؟ » .

قالها في شيء من السخرية ، ولما أخبرته أنني لم يسبق لى التعرف عليه أفصح عن هويته قائلاً :
« أنا من المباحث العامة ، في مكتب محبى الدين بك شفيق » أصابنى شيء من الضيق ، لكننى تماسكت ، ومضيت فى طريقى وهو يسير إلى جوارى .
قال لى : « تعلم أن كل حركاتك وسكناتك محسوبة » .
قلت : « أنا لا أفعل ما يمكن أن تؤاخذونى عليه » .

نظر إلى نظرة ذات معنى وقال : « إنك خرجت من السجن بدون ثمن » .
لم أفهم ، وأدرك هو ذلك فقال : « المفروض أن ترشد عن أية تحركات مشبوهة للإخوان » .
قلت على الفور : « لقد أخذتم عليّ إقراراً ألا أتصل بأحد منهم » .
عاد ينظر إليّ بخبث ويقول : « نستطيع أن نعيدك إلى السجن فى أى وقت ، هل نسيت أننا أفرجنا عنك إفراجاً صحياً ، وفى الإمكان إلغاء الإفراج بحجة أنك شفيت من المرض ، ثم تعود إلى السجن لتكمل باقى السنوات العشر المحكوم بها عليك ؟ » .

لم يكن هناك جدوى من الحوار معه فى هذا الموضوع ، فهو يعلم جيداً من ملفى لديه أنني لم ولن أكون أداة طيعة لخدمة أهدافهم الخبيثة ، ربما يكون لى بعض الأفكار الخاصة بى فى هذه القضية أو تلك ، لكنها لا تتداول إلا مع إخوانى ، باختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، وهو درس تعلمناه من رسولنا الكريم ﷺ ، ومن صحابته الأجلاء ، لكن لا دخل للحكومة فى مثل هذه الأمور ، والغريب أن بعض إخواننا كانوا ينظرون إلى الاختلاف فى الرأى على أنه مروق وخروج على النظام .. المهم أن رجل الأمن أخذ يلقي بالتهديد تلو التهديد وأنا فى حيرة من أمرى ، ولا أدرى ماذا أفعل له ، وعدت إلى بيتى مكتئباً ضائق النفس ، إذ أدركت أن الحرية التى خيل إلى أنى حصلت عليها يشوبها الكثير من النقص والمنغصات ، وأن الحياة على هذا النحو ستكون شقية مقلقة ، وفى العادة كنت أثبت همومى لخالى ضابط الشرطة الكبير ، فكان يطمئننى برقته المعهودة دون أن يفصح لى عما سيفعل ولم تكذبتمضى على هذه المقابلة الحافلة بالتهديد ثلاثة أيام حتى استدعيت إلى المباحث العامة بوزارة الداخلية لمقابلة محبى بك شفيق الضابط المعروف هناك . ولم أكد أجلس أمام مكتبه على المقعد حتى انبعث صوت من خلفى يقول : « دكتور نجيب .. لقد رأيتك فى مسجد السيدة زينب » .

التفتت إليه فوجدته يقف أمام خزانة الملفات ، إنه الصول « سليمان » على ما أذكر ، وكان يرتدى زياً مدنياً ، فقلت : « وماذا فى ذلك ؟ » .

فرد فى صوت يتصنع الخنكة والدهاء والمعرفة : « فيها الكثير » !! لقد كنت تجتمع مع بعض الإخوان المسلمين المعروفين بمشائباتهم « وفاجأنى صوت محبى بك وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه وقال : « دعه يا سليمان يفعل ما يشاء .. يبدو أنه نسى أنه على ذمة إفراج صحى وأنا نستطيع أن نعيده إلى زنزانة السجن فى أية لحظة » .

استبد بى الغضب والضيق ، لكننى كبْتُ مشاعرى ، إنهم يحاولون استدراجى لكى أقع فى الفخ بأسلوبهم الساذج ، وقلت لسليمان : « متى رأيتنى فى مسجد السيدة زينب ؟ » .
- « منذ أسبوعين » .

- « ماذا تقول إذا علمت أنني لم أدخل هذا المسجد منذ أكثر من ستة شهور » ثم التفت إلى

الضابط الكبير وقلت بثقة : « يا محبى بك ، أنا لست جاهلاً ولا ساذجاً ، وهذا الأسلوب لا يليق بى ، وليس فى حياتى شئ يعاب أو أحاسب عليه سياسياً .. » .
فابتسم محبى بك وقال : « هل تضايقت ؟ لا .. لا .. نحن نمزح يا رجل .. احضر له الشاى يا سليمان » .

وذاث يوم كنت فى مسكنى بشبرا ، وفوجئت بعدد من إخوانى جاءوا لزيارتى ، كان فيهم الأستاذ محمود هاشم (وشهرته حاتم) والأخ محمد نصار والأخ حسين عاشور (رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامى حالياً) والأستاذ فوزى عبد المنعم وغيرهم ، وجلسنا نحتسى الشاى وقت العصر ، وانزلق بنا الحديث إلى الأحداث السياسية ، وفى هذا الوقت الدقيق دق جرس الباب ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت المخبر (رجل الأمن) يقف أمامى بلحمه ودمه .. يا للمصيبة ! ! ماذا أفعل الآن ؟ إن إخوانى لا يعرفونه ، وسوف يدخل ويستمع إليهم ، وبالطبع سيعتقدون أنه أحد أقربائى ، ووقعت فى حيرة قاتلة ، فأنا لا أستطيع أن أتركه هكذا واقفاً بالباب ، ولم يكن أمامى سوى حل واحد غامرت بالإقدام عليه ، لقد أدخلته عليهم فهبوا مصافحين ، وقبل أن ينزلقوا إلى ما كانوا فيه من أحاديث فى السياسة قلت بصوت عالٍ : « سوف أعرفكم ببعض .. هذا فلان .. وهذا فلان .. » وأخيراً قلت : « وهذا فلان من المباحث العامة » ألقىت العبارة الأخيرة كالقنبلة .. المخبر أخذ يتصفح الوجوه بنظراته العميقة الكريهة ، أما الإخوة . وكانوا فى حدود ثمانية أفراد . ساد وجوههم القلق والشحوب ، فهذا المخبر يستطيع أن يسوقنا جميعاً إلى التحقيق ، ويفتح علينا باباً من أبواب الكوارث التى تلاحقنا .

قال الأخ حاتم أبو بكر موسى (محمود هاشم) وهو يدعى الجهل : « ما معنى المباحث العامة » .
قاسه المخبر بنظراته النارية وقال : « صحيح ؟ ألا تعرف المباحث العامة ؟ والنبي إيه « يا رجل .. » وساد الصمت العاصف ، وحاولت جاهداً أن أتقمص شخصية الرجل الذى يتصرف بتلقائية لا تثير أدنى شك ، وأخذت أفتح الحديث فى موضوعات شتى لا تمت إلى السياسة بصلة ، وطوال الجلسة كنت أرزح تحت عبء ثقل ، وأنفاسى تتلاحق ، وبعد ساعة انصرف الجميع ، وجلست وحدى أجفف عرقى ، واستعيد هدوئى ، وأدعو الله ألا يكون لهذه الجلسة عاقبة سيئة .
ألم تكن الحياة على هذا النحو مريرة ؟ ألم يكن من الضرورى أن أفكر فى الأمر بطريقة أخرى ؟



[٢] دنيا الأدب والأدباء

قلت من قبل أنني ولجت باب الأدب عن طريق المسابقات والجوائز، وأصبح لي مكان في هذا العالم العجيب المليء بالشخصيات والأفكار والأحداث والتقلبات، ولقد ظهر كتابان لي وأنا سجين؛ الأول رواية «الطريق الطويل» والثاني «عذراء القرية»، وكانت الخطوة التالية أن أعيش هذه المجتمعات، واندمج فيها، لأن المؤلفات وحدها لا تكفي لربط الأديب بالمجتمع الأدبي، ثم إن المؤلفين لا يكتبون في كتبهم ومقالاتهم كل شيء، فالكتابة مهما كان الأمر عمل له طقوس ومواصفات وآداب فنية واجتماعية وسياسية أيضًا، لكن حديث الأدباء في المقاهي والمجالس له طبيعة خاصة، إذ يتخفف الكتاب من رسمياتهم ويبدون لحد ما على صورتهم الطبيعية وهم يتحدثون ويأكلون ويشربون ويتفكهون. ويلعبون الشطرنج أو النرد، ويوجهون النقد لهذا أو ذاك، فضلاً عن وجود عدد من الكتاب لم يكتب لهم الشيوع أو الذبوع بعد على الرغم من كفاءتهم ومستواهم الفني الجيد ومجتمعات الأدباء ليست حرة أو سوية بصفة تامة،



إذ لاحظت فيها بعض الأمور:

أولاً: نظام «الشُّلُل» أو التحزب، وأعني به مجموعة مترابطة من الأدباء يجمعهم مذهب سياسي معين، قد يظهره وقد يخفونه، لكنه غالباً ما يكون واضحاً بكثرة الحوار والمجالسة، هذه «الشُّلَّة» أو تلك لها أدباؤها ونقادها، وهم يشايعون كتابهم ويروجون لهم بالحق أو بالباطل، ويهاجمون من يخالفهم في الرأي أو الفكر، وعلى الرغم من أن الكتاب من حزب الحكومة الناصرية كانوا أكثر من غيرهم إلا أنهم لم يكونوا فصيلاً واحداً، فقد كان فيهم الماركسيون والوجوديون والكلاسيكيون، ولن تعدم أن تلمح تياراً إسلامياً خفياً بين الحكوميين لكنهم يبدلون قدر ما يستطيعون من جهد لإخفاء هويتهم.

ثانياً: الكتاب في تلك الفترة يحذرون البوح بآرائهم السياسية مخافة القمع سواء في أحاديثهم أو كتاباتهم، ونادراً ما تسمع همسة نقد، أو نقطة جارحة لاذعة تتناول النظام، بل إن بين هؤلاء الكتاب بضعة أفراد مجندين لدى المباحث والمخابرات ينقلون إليهم أخطر الأحاديث في تقارير دورية.

ثالثاً: ارتبطت أفكار معظم الكتاب وإبداعاتهم بسياسة الحكومة وشعاراتها، حتى أولئك الذين يكتبون إبداعات تاريخية، كانوا يوظفونها فيما يعنى التأكيد والتأييد لمبادئ الثورة وزعيمها، ومن وقت لآخر كنا نسمع عن أديب من هذا الاتجاه أو ذاك اختفى فجأة، ثم نعلم أنه قد سيق إلى المعتقل أو السجن بسبب مادة كتبها، أو بسبب انتمائه لإحدى التنظيمات السياسية الممنوعة كما يقال، وقد يطول اختفاؤه، وقد يظهر مرة أخرى دون أن يتحدث عما جرى له، وعند ظهوره نجده أكثر حرصاً، وأهدأ شخصية، يفضل الصمت على الكلام، ويهجر الكتابة، لكنه قد يعود إليها على هيئة كتابات رمزية قد يستعصى علينا حل رموزها.

رابعاً : أصبح الهجوم على الإسلام أسلوباً سائداً ، من خلال ربطه بالرجعية والجمود ، أو من خلال نسبة الإرهابيين والمتطرفين إليه ، وتراجع دور الأزهر وعلمائه ، ولم يبق على الساحة في الغالب إلا نسبة ضئيلة من العلماء التزمت الحياد ، وتجنبت الموضوعات الحساسة ، لكن العلماء الأعلى صوتاً هم من كانوا يدافعون عن سياسة الحكومة ويررون مواقفها وأفعالها .

خامساً : استولى النقاد الماركسيون (الذين شاركوا في إصدار بيان تأييد ومبايعة للثورة والتخلي عن شيوعيتهم) على الساحة الأدبية ، وعلى مناصب هامة في الصحف والمجلات والمسرح والسينما والنقابات الفنية ، ولم ينبج من شرهم إلا اتحاد الكتاب في معظم انتخاباته .

سادساً : كان الوجه الثقافي للوطن مشوهاً لكثرة ما وضع فوقه من « مكياج » أو مساحيق وعمليات تجميل (أو تقييح إن صح التعبير) ، وانعكس ذلك كله على الجيل الجديد الذي أنشأت له الثورة منظمات خاصة ، تسقيه فيها مبادئها وشعاراتها . وأصبحت النماذج والمثل العالمية المستوردة تملأ الساحة ، فقرأ الكثير عن « تشي جيفارا » و « هوشى منه » و « فيدال كسترو » ، و « ماوتس تونج » و « الشهيد لومببا » !! ، ونادراً ما تقرأ شيئاً عن قادة الفتح الإسلامى ، أو زعماء التنوير المسلمين ، بل إن حملات ضاربة شنت على كتاب معاصرين لهم وزنهم مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين وغيرهم . ومع ذلك فقد ظلت الآثار الأدبية التي سبقت الثورة المصرية زائدة للكثير من القراء ، كما كثر عدد طباعاتها ، بينما ركبت مطبوعات الحكومة في مخازنها حتى أصبح عدم توزيعها مشكلة من المشاكل ، ولم يجد نفعاً عمليات الدعم والترويج التي دفعت الحكومة الكثير في سبيلها لتوزيع تلك المطبوعات الرسمية .

سابعاً : كانت أدبيات تلك الأيام مكتظة بالتعبيرات الحاقدة ضد الماضي ورموزه وفكره وطبقاته الاجتماعية ، وكان هناك تسابق مجنون بين الكتاب لإدانة كل ما مضى لصالح العهد الثورى الجديد ، فتشوهت في النفوس وحدة الوطن وأبنائه ، واتصال حاضره بماضيه ، وزادت مشاعر البغضاء والتفرقة . ثامناً : لم يصاحب هذه المفارقات الفكرية والمضمونية تجديداً في الأشكال الفنية أو الأساليب ، بل إن الأساليب الأدبية قد انحطت لغتها ، وكثرت الكتابة بالعامية في حوارات القصص القصيرة والروايات والمسرحيات ، وكان للأدب الروسى عامة ، ولما ذهب « الواقعية الاشتراكية » خاصة تأثير كبير في قبولية الأشكال الفنية ، أو دمجها بالتقليد للنماذج المستوردة ، أذكر في تلك الفترة أن أحد شباب الكتاب قد ترجم مجموعة من القصص البلغارية إلى اللغة العربية ، وألح على أن أكتب لها مقدمة بقلمى ، وقرأت المجموعة فوجدت أن قصصها لا ترقى إلى المستوى الفنى المناسب الذى يدفع إلى ترجمتها ، بل وجدت بعض القصص لا تصلح بالمرّة لأن تندرج تحت « فن القصة القصيرة » فماداً أفعّل في هذا المأزق ؟ لقد كتبت المقدمة عن فن الترجمة ، وما يجب ترجمته وما لا يجب ، وضوابط الترجمة والهدف منها ، وأشرت إلى أن بعض قصص المجموعة التي تدور أحداثها في مزرعة جماعية لا تخرج عن كونها « ريبورتاج صحفى » عن تلك المزارع ، وبعد أن صدرت المجموعة في كتاب لاحظت أن المترجم قد حذف من المقدمة المقطع الخاص بالمزارع الجماعية ، لكن الأهم من ذلك أننا ونحن نناقش هذه المجموعة في ندوة « الأستاذ نجيب محفوظ » في ميدان الأوبرا كازينو بديعة قال الأستاذ الأديب الناقد المرحوم عباس خضر بالحرف الواحد : « أهم ما فى هذه المجموعة القصصية المترجمة مقدمتها ... » .

تاسعاً : الكثرة الغالبة من الكتابات في هذه الحقبة اتسمت « بالقلق الفكرى » وعدم وضوح الانتماء ، مضمون الحكومة العالى يروج لدعوى القومية العربية (حرية وحدة اشتراكية) ، هناك فئة أقل

تؤمن بالوطنية المصرية وتروج لها على استحياء، أما أصحاب الاتجاه الإسلامي فكانوا يعيشون تحت حصار قاتل، ورجالات الأحزاب القديمة لا يقلون حصارًا عن الإسلاميين، والشيوخ يلبعون على الحبلين، فهم عقائديًا ضد القوميات، لكنهم يسلكون سلوكًا غير ما يعتقدونه لتجنب شر الحكومة، أو لأنهم آمنوا بفكرها، أو لمجرد تكتيك مرحلي، سرعان ما يغيرون جلودهم بعده عندما تحين الفرصة، ولقد لوحظ في خلال تلك الفترة العدوان على التاريخ حتى القريب منه، وأخذ مؤرخو الثورة يكتبون التاريخ وفق مقتضيات الظروف الراهنة، فيضيفون ويحذفون، ولا حسيب ولا رقيب..

عاشرًا: انعدم المرجع الدائم، وأصبحت المراجع التي يلجأ إليها المفكرون والأدباء مراجع متغيرة متناقضة، وهكذا انطمست هوية الناس أو كادت، ولم يبق سوى فئة قليلة من الكتاب والمفكرين حافظت على توازنها، والتزمت بمنهجها، فكان مصيرها الإهمال أو الطرد أو الملاحقة البوليسية. لكن أى منتدى أو ندوة أو جمعية أدبية يمكننى أن أذهب إليها؟ ! لم أقف طويلًا عند هذا التساؤل، وقلت لنفسى لماذا لا أذهب إلى أكبر عدد ممكن من هذه التجمعات الأدبية لأعرفها عن كثب، وأستفيد من إيجابياتها إن وجدت، وأتخاشى سلبياتها عندما أدرکها؟

فى أحد أيام الجمع، تركلت على الله، وقلت لنفسى: «لأذهب إلى ندوة نجيب محفوظ التى يطلقون عليها «الحرافيش»، والحرافيش كلمة وردت فى تاريخ «الجبرتى» خير من أرخ للحملة الفرنسية على مصر، والكلمة تعنى الطبقة الدنيا من الناس كالحرفيين والعمال وعامة الفقراء.

كانت الندوة تنعقد كل يوم جمعة ابتداءً من الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا، فى مكان يطل على ميدان الأوبرا (ميدان إبراهيم باشا) وسط القاهرة، وتقع الساحة التى تجلس فيها فى الدور الثالث، وجدرانها من زجاج، ولا يجلس فيها أحد غير أعضاء الندوة، وكان هذا المكان يستغل فى المساء «لسمار اللبالي» وأصحاب المزاج، أما فى صباح الجمعة فيخلى المكان تمامًا، ويكون أول الحاضرين إلى الندوة هو الأستاذ نجيب محفوظ وصديق له هو الأستاذ «هارفى» وهو محام مهذب لا أعرف له إنتاجًا أدبيًا، وكثيرًا ما كان الأستاذ على أحمد باكثير هو الآخر يأتى مبكرًا، وهو ممن كانوا يواظبون على حضور هذه الندوة، وهناك صداقة قديمة وطيدة تربط بينه وبين الأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ عبد الحميد جودة السحار والأستاذ المرحوم سيد قطب والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، حيث كانوا يلتقون فى لجنة النشر للجامعيين وفى مكتبة مصر التى يمتلكها آل السحار بشارع الفجالة، والتى نشرت العديد من مؤلفات هؤلاء الكتاب، وكان الأستاذ عبد الحميد السحار يأتى إلى الندوة هو الآخر ولكن بصورة غير منتظمة، ومن الأدباء والصحافيين الذين رأيتهم فى هذه الندوة أيضًا: الأستاذ عباس خضر، الأستاذ أحمد عباس صالح، الأستاذ عبد الله الطوخى، الأستاذ صالح مرسى، الأستاذ فاروق منيب، الأستاذة سناء جميل «المثلة»، الأستاذ صوفى عبد الله، الأستاذ نظمى لوقا، الأستاذ توفيق حنا وغيرهم، كما كان يأتى إلى الندوة عدد من الكتاب العرب اللاجئين إلى مصر فى بعض الأوقات، وبعض الزوار الأجانب من أوروبا وأوروسيا.

دخلت عليهم لأول مرة كانوا يتراصون حول طاولة مستطيلة طويلة، على يسار الداخل تجد الأستاذ نجيب محفوظ جالسًا فى الطرف المجاور للنافذة، ووجهه إليك، وقبائلته الأستاذ على أحمد باكثير الذى لا ترى سوى ظهره، الحقيقة أننى دخلت وهم منهمكون فى المناقشة فلم أشأ أن أقطع عليهم الحديث، فاخترت طاولة صغيرة مستديرة على مقربة منهم وجلست.. كنت أشعر بالخجل، وأخذت أستمع إليهم، وبعدما يقرب من نصف ساعة سمعت أحدهم يشير نحوى ويقول: «لماذا

لا يأتي الأخ ويجلس معنا؟». ابتسمت في ارتباك ونهضت مسرعاً، ثم حيتهم وجلست إلى جوار المرحوم باكثر وأنا أعرف نفسى بهم، وسرعان. حسبما أدركت. ما تذكروا حكايتي عن الجوائز والسجن وما إلى ذلك، وضحك الأستاذ نجيب محفوظ ضحكته المشهورة وهو يقول «حمداً لله على السلامة»، وفهمت أنه يشير إلى خروجي من السجن، وانتهزت الفرصة وقدمت إليه كتابين من مؤلفاتي هما «الطريق الطويل»، و«إقبال الشاعر الثائر» فقبل الهدية شاكرًا، ثم أخذ يبادلني الحديث عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، ويبدو أنه كان مهتمًا به جدًا، أما الأستاذ على باكثر فقد وضع يده على كتفي وشد عليه بحرارة تغني عن أى بيان.

وابتسم لى الأستاذ السحار ابتسامة أبوية حانية ثم قال موجهاً الحديث للأستاذ نجيب محفوظ «نحن الذين قررنا طبع روايتي «الطريق الطويل» قبل أن تتولاها وزارة الثقافة والإرشاد القومى وهو لم يزل فى السجن.. تصور هربنا له العقد إلى هناك ليوقع عليه، كانت هذه الجلسة الأولى جلسة ودية فيها رقة ومواساة، وكان الزملاء الشيوعيون ينظرون إلى دون أن يعلقوا، لكننى عمومًا شعرت بالارتياح.. كان «مسجد الكخيا» الشهير على مقربة منا. وسمعنا صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة، فتلفت حولي، كنت أريد أن أقوم للصلاة، ولما لم يتحرك أحد، وقفت فجأة وقلت: «ياذنكم» وكان سبب استئذاني واضحًا، وعقب قيامي رأيت عددًا قليلًا من الجالسين يتبعني إلى الخارج. وبعد أن أدت الصلاة فكرت فى العودة إلى الندوة مرة أخرى، وعندما دلفت إلى المجلس ابتسم الأستاذ نجيب محفوظ وقال «حرماً» وابتسم البعض ولم يعلق البعض الآخر بشيء.

أصبحت هذه الندوة عادة أسبوعية أحرص عليها كل جمعة، كانت ندوة حرة، تطرح فيها شتى القضايا الفنية والأدبية والفكرية، ونسمع فيها عن آخر الانتاجات العالمية فى الأدب والمشاهير من الكتاب والنقاد، لم تكن هناك قيود على الحوار، كل واحد يعبر عما يريد، بالأسلوب الذى يريد، قد يكون التعليق جادًا عميقًا، وقد يكون ساخراً ضاحكاً، وقد يكون تأييداً أو هجومًا، وقد يشتبك المتحاورون ويختلفون، ونجيب محفوظ يستمع أكثر مما يتكلم بحيث لا يلحظ أحد أنه رئيس الجلسة، إنه يعلق بقبية الحاضرين دون أن يظهر أستاذيته أو تفوقه، متواضع، رقيق الحاشية، لكن إذا كان الكلام غير منطقي علق بنكتة ظريفة لا تخرج.. وما أكثر المشاغبين والمتحمسين والمتشجنين فى الندوات الأدبية.. والحقيقة أننى معجب بشخصية الرجل، وكنت أتابع ما يقول بدقة، وأقرأ ما يصدره من كتب، أو ما تنشره له الصحف من قصص وآراء وأفكار.

لم أكن لأتغيب عن الندوة إلا لعذر شديد، وإذا غبت. وهو نادر الحدوث. أتعرض لسين وجيم، وأصبحت جلستى فى مواجهة الأستاذ نجيب محفوظ مباشرة، لماذا؟ لأنه بمرور الوقت كلبنى الأستاذ نجيب محفوظ بقرأة الكتب التى ترد إليه وإلى الندوة من المؤلفين، كى نناقش واحدًا منها فى الجلسة القادمة.. فكنت أقرأ الكتاب المختار قصصًا أو رواية أو غيرها، ثم أ طرح موجزًا عن الكتاب فى الجلسة، وأجيب على الاستفسارات التى توجه إلى، ثم بعد ذلك يبدءون فى مناقشة الكتاب والمؤلف.. بمعنى آخر.. أصبحت «سكرتير الندوة».. وكان كلما أتى أديب وأهدى كتابه إلى نجيب محفوظ، أخذه شاكرًا، ثم سلمه لى كى أعده للحوار.. وتكرار ذلك فقد أصبح الكتاب يأتون لى أنا الآخر بنسخة هدية.

كانت هذه الندوة تنفصًا لى، وكنت أجعلها جدًا، وأصطحب بعض أصدقائى معى، لكننى كنت فى نفس الوقت أذهب إلى ندوات أخرى أهمها نادى القصة واتحاد الكتاب بشارع القصر العينى

(عمارة سيف الدين) المقابلة لشارع المبتديان بالقاهرة، كما كنت أذهب إلى مقهى الأدباء بالدقي .
ورابطة الأدب الحديث، والجمعية الأدبية المصرية وغيرها، وإلى دار الأمناء لدى الأستاذ الكبير أمين
الخولي وحرمة الأستاذة الدكتورة بنت الشاطي، ومع ذلك فقد بقيت ندوة نجيب محفوظ عميقة الأثر
في نفسي رغم ما كان فيها من تيارات متصارعة، وأذان خبيثة، وأقلام مستأجرة، شغفت بكتابة
التقارير عن خلق الله المساكين، والحق أن تقديري لنجيب محفوظ . رغم اختلاف التوجهات في بعض
الأمر تقدير لا يمحي، فهو كإنسان حلو المعشر، رقيق الحاشية، خفيف الظل، لا يسىء إلى أحد،
ويحاول ألا يكره أحدًا ..



[٣] رجال الأمن يعصفون بالندوة

كانت ندوة «نجيب محفوظ» متنفساً حقيقياً للأدباء والمفكرين، كما كانت غنية بالجديد من الآراء حول الاتجاهات الأدبية المعاصرة، وكثيراً ما تشعب الحوار حول أدباء في مختلف أنحاء العالم لهم شهرتهم وآثارهم الهامة، ولم تغفل الندوة ما يجرى من أحداث أدبية وفنية في مصر وفي العالم العربي، ولم يكن في استطاعة مجلة من المجلات . مهما كبرت . أن تغطي الموضوعات الكثيرة المتنوعة التي يطرحها المتحاورون في حرية وشمول، وكثيراً ما كان يطرح اسم من الأسماء الجديدة ليس لغالبية الحاضرين علم به، فينبى أحد المتخصصين من ذوى الدراية، فيعطى فكرة كاملة عنه، ويكون هناك مجال للدراسات المقارنة .

فى أحد أيام الجمع اتفقت مع صديقى المدرس الأستاذ لطفى صقر لنذهب معاً إلى الندوة، وكان يحضرها لأول مرة، وقصدنا إلى المكان المعهود، وما إن عبرنا الميدان ووصلنا إلى باب «الكازينو» حتى برز إلينا رجل غريب، أتى من الشرفة المطلّة على الميدان وقال : «إلى أين ؟» .



قلت : «إلى ندوة نجيب محفوظ» .

فأشار إلينا أن نتبعه، لم أكن أفهم السبب، ولم استطرد فى التفكير طويلاً، إذ وجدت نفسى . ومعى صديقى . أمام رجل يضع نظارة سوداء على عينيه، ويجلس خلف طاولة صغيرة عليها فنجان من القهوة، وييده سيجارة مشتعلة، وإلى جوار الفنجان قداحة ذهبية اللون، وعلبة سجائر، ونظر إلينا فى تمن وقال : «البطاقة الشخصية» ... أخرجت بطاقتى الشخصية، وقدمتها إليه، وقد أدركت أنه بلا شك واحد من رجال الأمن، وكذلك فعل صديقى، وأخذ يتصفح بطاقتى، ثم أمسك بقلم وبدأ ينقل البيانات المدونة عنى .

المعروف أن رجال الأمن فى المباحث العامة بوزارة الداخلية أقسام متخصصة، قسم يتولى السياسيين من الإخوان المسلمين، وقسم آخر للشيوعيين وفصائلهم المختلفة، وقسم للأحزاب القديمة، ورابع لحزب البعث، وخامس لتنظيم «الأمة القبطية» وسادس يتقصى النشاط اليهودى أو الصهيونى، وسابع للفلسطينيين ومنظماتهم وهكذا ... أدركت للوهلة الأولى أن رجل الأمن هذا ليس من الضباط المختصين بالإخوان المسلمين، وتبادر إلى ذهنى أنه من القطاع الذى يتولى متابعة الشيوعيين وملاحقتهم، ولقد علمت أن ندوة نجيب محفوظ متهمّة بأن أغلبها من الشيوعيين، ومعنى ذلك أن هذا الضابط سوف يضع اسمى بين أسماء الشيوعيين، وهذه كارثة .. لأنهم عندما يفكرون فى اعتقال الإخوان المسلمين فسوف يعتقلوننى على أساس إنى واحد من تنظيماتهم القديمة، وصدر ضدى حكم بالسجن لذلك فى عام ١٩٥٥، وعندما يفكرون فى اعتقال الشيوعيين مستقبلاً فمن المحتمل جداً أن يعتقلونى معهم أيضاً، وأدركت أن الأمر لا يمكن السكوت عليه فقلت لضابط الأمن : «اسمح لى أن أوضح بعض الأمور ... إننى فى الواقع من انتموا إلى جماعة الإخوان .. ولم أكن فى أى يوم من الأيام مع أى

تنظيم آخر.. وضباط الأمن عندكم بالداخلية المختصون بالإخوان يعرفونني جيدًا.. أذكر منهم أحمد بك صالح داود ويحيى بك شفيق والغمراوي بك وغيرهم.. واعتقد أنك فى قسم آخر، وأظن أن من حقى أن أوضح الأمر لك، حتى لا تضعنى بين أسماء الشيوعيين وأنا منهم برىء. وإلا فسأكون مطارداً هنا وهناك..» ... وضحك الضابط فى سعادة، ويبدو أنه أعجب بتحليلى للموقف، وإدراكى ما ينطوى عليه من مفارقات، ثم استدركت قائلاً: «أما صديقى هذا فلا صلة له على الإطلاق بالسياسة أو التنظيمات، وهو يحضر اليوم الندوة لأول مرة..».

وبعد إتمام الإجراءات، وتوجيه بعض الأسئلة والإجابة منى عليها، سمح لنا بالانصراف، واستفسرت منه عما إذا كنت أستطيع الصعود إلى الندوة، فرد وهو يتفحصنى بنظراته المنذرة: «عد إلى بيتك، ليس هناك ندوة بعد اليوم».

وأثناء انصرافنا تطلعت إلى أعلى، رأيت وجه الأستاذ نجيب محفوظ يطل من النافذة فى الدور الثالث والأخير من المبنى، وإلى جواره المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ولوحت ييدى مودعاً.

وكان موضوع إغلاق ندوة نجيب محفوظ فى الأيام التالية حديث المحافل الأدبية، وخاصة على مقهى الدقى الذى يجتمع فيه بعض الأدباء، وفى نادى القصة بشارع القصر العينى، وقيل يومها أن ندوة نجيب محفوظ تضم مجموعة من الشيوعيين القدامى الذين سبق لبعضهم الاعتقال، والواقع كما سلف وأوضح أن الندوة كانت تضم أشخاصاً من اتجاهات مختلفة بينهم كتاب وصحفيون وممثلون وفنانون تشكيليون، وكان بينهم الإسلاميون والشيوعيون والمستقلون والناصريون، وكان هناك أعضاء طارئون فى الندوة، يأتون إليها لما لا تعرف هويتهم، بل هناك من الأعضاء من كان من ضباط الشرطة العادية، ومن ثم فإن الحكم على الندوة بأنها ذات صفة شيوعية حكم يجانبه الصواب.

وهكذا أغلق باب هذا المتنفس الذى كان ملاذاً لنا فى النصف الأول من عقد الستينيات، والذى تميز عطاؤه بالفائدة والجدية وسعة الأفق، وخاصة أن «عمدة» الجلسة كان نجيب محفوظ النجم اللامع فى عالم الرواية، وصاحب الإطلاع الواسع على الآداب العالمية والعربية، وصاحب الرأى المتزن البعيد عن الهوى، بصرف النظر عن اختلاف الناس حول صواب هذه الآراء أو خطئها^(١).

ولقد شعرت بإحباط شديد من جديد، لأن دولة ليس فيها أحزاب أو معارضة رسمية مثل مصر، كان المفكرون والكتاب يجدون ظللاً يلجئون إليه للترفيه والترويح فى ذلك المناخ العصيب الذى يقتصر إلى الحرية والتعبير الصادق عن وجهات النظر لقد كان الحديث عن الحرية فى تلك الأيام أكذوبة كبرى، رغم كل ما يدعيه أيضاً ذلك العهد، فلم يكن هناك سبب إنسانى جدى يحرم الناس من حقهم فى الحرية، ولا معنى للحرية إذا كانت فى إطار التعليمات والسياسات والنظم الذى يضعها الحزب الحاكم، وأية حرية تلك إذا كان الناس يساقون إلى المعتقلات من أجل «نكته» ناقدة أو ساخرة، أو رأى يعبرون به عن ذواتهم، أو مجرد رواية أحداث حقيقية يتهم قائلها بنشر الإشاعات الكاذبة؟ كان العنف الثورى الحكومى طاغياً بصورة مخيفة، ألجمت الأفواه، وحطمت الأقلام الحرة، فأوى الناس إلى الصمت والعزلة، حتى لا تعرض كرامتهم للخطر، وحتى لا يتهموا بالرجعية والخيانة، وهذه ليست افتراءات نلصقها بهذا العهد، ولكنها حقائق أكدها رجال عبد الناصر فيما بعد، كما أشار

(١) كتبنا هذا الكلام قبل أن ينال نجيب محفوظ جائزة نوبل.

إليها مؤرخه الشهير محمد حسنين هيكل فى أكثر من موقع فى كتبه ، بل واستغلها الأستاذ نجيب محفوظ نفسه فى كثير من قصصه القصيرة ورواياته بطريقة رمزية فيها الكثير من الوضوح ، حتى إن نجيب محفوظ نفسه تعرض للاعتقال ، وكان أن تطوع الدكتور ثروت عكاشة بإنقاذه ، وإقناع عبد الناصر بخطأ حسبه ، (ولقد روى نجيب محفوظ نفسه هذه الوقائع فى تصريحاته بعد فوزه بجائزة نوبل) وما رواه نجيب محفوظ تلك الواقعة الخاصة باعتقاله ، وكذلك ذكر أن عبد الناصر عند زيارته لجريدة الأهرام ومصافحته لنجيب محفوظ ، قال هيكل للرئيس : « إن كتابات نجيب محفوظ تودى فى داهية » . فرد عبد الناصر ضاحكاً : « إللى يروح فى داهية رئيس التحرير » .

وتضاحك الجميع ، ومعروف أن رئيس التحرير للأهرام هو « هيكل » ، وهناك عشرات الأحداث تؤكد إلمام عبد الناصر بالانتهاكات الإنسانية التى تعرض لها أصحاب الرأى والفكر من مختلف الاتجاهات ، ولقد كان معنا فى السجون والمعتقلات الكثير من هؤلاء ، وإن كان العنف الأكبر كان موجهاً لجماعة الإخوان المسلمين بالذات . وإنى أقول بأمانة تامة ، بأننى استفدت كثيراً من ندوة نجيب محفوظ ، وخاصة أننى فى فترة ما قبل اعتقالى كنت بعيداً عن الأجواء الأدبية ، وكانت كل علاقاتى بالأدب هو الكتب التى أقرأها ، ولم تتح لى فرصة للقاءات المباشرة بالأدباء إلا بعد حصولى على الجوائز الأدبية فى المعتقل . والحكمة ضالة المؤمن ، يستفيد منها أنى وجدها ، ولقد أعجبنى فى نجيب محفوظ الحزم الذى أخذ به نفسه ، والانضباط الذى فرضه على حياته ، وإطلاعه الواسع وخاصة ما يتعلق بفن القصة وباللغة العربية ونحوها وصرفها ، وقراءاته المتنوعة فى التراث وفى بعض اللغات الأجنبية ، كما كان دقيقاً فى عمله الفنى ، فهو يحكم صناعته ، ويجيد الإعداد للموضوع الذى يكتب فيه ، ويعمل « أرشيفاً » لأبطال قصصه ، ثم يراجع ما يكتب ، ويحتفى بالأسلوب ، ويحرص على الفصحى حتى فى الحوار ، وكان نجاحه راذاً مفعماً لدعاة الكتابة بالعامية ، كما أنه أحسن الاستفادة من حياته فى الطفولة والصبا والشباب ، ومن البيئة الاجتماعية والسياسية التى عاش فى ظلها ، وسجل أهم أحداث البلاد فى رواياته ، ففى ثلاثيته مثلاً (وقد كتبها قبل الثورة) يعرض للتيارات السياسية فى مصر وتطورها ، ولا يغفل الأحزاب المصرية التقليدية ولا الشيوعيين ، ولا الإخوان المسلمين وغيرهم ، كما أشار إلى الأمراض الفتاكة التى تهدد أمن وسلامة المجتمع على مختلف المستويات ، وعزى النفاق والرياء والوصولية والجشع وإن كان لى بعض التحفظات على بعض أفكاره المتضمنة فى قصصه .

ولقد أتيت لى مناقشة مجموعة قصصى القصيرة فى الندوة ، وكذلك رواية اليوم الموعود ، كما قرأ لى نجيب محفوظ عدداً من الروايات الأخرى التى أعجبت ، واختار واحدة منها للسينما وهى رواية ليل وقضبان ، وكان له فضل إخراجها إلى مشاهدى السينما عن طريق مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى (شبه حكومية) ، والتى أعد لها السيناريو والحوار الأستاذ مصطفى محرم ، وأخرجها الفنان أشرف فهمى ، ومثل فيها من النجوم سميرة أحمد ومحمود ياسين ومحمود مرسى ومجدى وهبة وتوفيق الدقن وغيرهم ، وقد فاز الفيلم بالجائزة الأولى فى مهرجان طشقند الدولى فى أوائل السبعينيات من القرن العشرين ، ولأن الفيلم كان ذا رمز سياسى ، فقد اعترضت عليه الرقابة بشدة ، ولكاتب السيناريو الأستاذ مصطفى محرم حديث حول الرقابة وفيلم « ليل وقضبان » نشر فى جريدة الخليج ، أوضح تفاصيل اعتراض الرقابة .

بعد انقضاء ندوة نجيب محفوظ سمعت أنه يجلس فى مقهى « ريش » بالقاهرة ، وفكرت أن أذهب إليه ، وكنت متردداً ، ولكنى حزمت أمرى وذهبت إلى هناك ، وخيل إلى أن هناك عبوراً ترصد

حركاتنا، وأذناً تتابع أحاديثنا رغم خلوها مما يضايق الحكومة، ولهذا آثرت في النهاية الانقطاع عن الحضور وأنا حزين.. لم يكن نجيب محفوظ بقادر على أن يترك المقاهي الأدبية، لأنه لم يكن يستقبل أدباء في بيته، ولم تكن له هوايات أخرى سوى الجلوس مع أصدقائه خارج المنزل. وذلك يشكل جانباً أساسياً في حياته، إنه يشرب القهوة، ويقرأ الصحف، ويتحدث مع أصدقائه في الأدب والفن خاصة، ويجد في ذلك متعة كبيرة، ثم ينصرف إلى بيته للعمل قراءة أو كتابة، لقد أخلص لفنه وأعطاه الكثير من الوقت والجهد والإعداد، ولهذا تجد مستوى متميزاً مقبولاً في مختلف قصصه ورواياته، على عكس الكثيرين من الكتاب الذين تتفاوت إجادتهم من عمل لآخر، كما كان متفرغاً تقريباً لفنه لا يشغله عنه شاغل، وأعتقد أن هذا التفرغ لم يتح إلا لعدد قليل من أدبائنا ومفكرينا نذكر منهم الأساتذة توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ومحمود تيمور والدكتور طه حسين.

ولم تنقطع صلاتي بنجيب محفوظ إلا بعد أن سافرت للعمل بدولة الإمارات العربية المتحدة في عام ١٩٦٨، وإن بقيت على إطلاع دائم بمؤلفاته وخاصة مسلسلاته التي ينشرها في الأهرام، وفي أثناء وجودي بإمارة دبي قرأت له في مجلة المصور القاهرية تصريحاً يتحدثون فيه عن أجيال القصة المصرية، فذكر الجيل الأول ومنهم طه حسين والعقاد وتيمور.. إلخ، ثم الجيل الثاني وذكر منهم نفسه وعبد الحليم عبد الله والسباعي وغيرهم، ثم الجيل الثالث وأورد أسماء، ثروت أباطة ويوسف إدريس ومصطفى محمود، وذكر اسمي بينهم، ثم الجيل الرابع وهم جيل الشباب الجدد وطرح بعض الأسماء. وعندما حصل على جائزة نوبل كتبت عنه مقالة في مجلة «المتندى» التي تصدر في دبي، وفي تصريح صحفي له حول أهم الكتابات التي أعجبهت عن أدبه، أشار إلى مقالتي بحماس، وأكد أنها من أحسن ما كتب عنه، ثم أردف قائلاً: «إن نجيب الكيلاني من التيار الإسلامي، وهو منظر الأدب الإسلامي الآن» (مجلة المصور ١٣ أكتوبر ١٩٨٩).

وفي خلال فترة وجودي بالإمارات كتبت عدداً من المقالات النقدية عن بعض رواياته.

والحقيقة أن نجيب محفوظ. دون شك. القمة الباذخة للقصة العربية المعاصرة، وهو التطور الطبيعي المزدهر لهذا الفن، بعد أن تلقاه على أيدي من سبقوه، وبعد أن استطاع أن يستفيد من التراث العالمي القصصى العظيم، وليس هناك من استطاع مطاوعته في فنه ذاك إبان هذا العصر، ولقد استطاع نجيب محفوظ بحنكته وذكائه ألا يقع في إغراء الحداثة المفرطة في الغموض والرموز والكوابيس والهلوسات غير الهادفة، وظل متماسكاً ومتمسكاً في فنه، ولم ينس قط أن يحتمل عمله القصصى فكرة من الأفكار، أو يحرص على موقف من المواقف، أو بمعنى آخر كان صاحب رسالة وإن اختلفنا أحياناً في مضمون الرسالة، وطبيعة الخطاب، ولقد تعلمت من نجيب محفوظ في هذا المضمار أنه فعلاً « وراء كل فن عظيم فكر عظيم »، وأن الفن لا بد وأن يؤدي دوراً إيجابياً في الحياة غير الاستمتاع والتذوق الجمالي، ومن غريب الصدف أن نجيب محفوظ عندما سأله عن « الأدب الإسلامي » بعد فوزه بجائزة نوبل، ذكر آراء وأفكاراً تتفق تماماً مع وجهة نظري في ذلك، تلك التي حرصت على ترديدها وكتابتها في مؤلفاتي ومحاضراتي طوال الثلاثين عاماً الماضية، مع اختلاف طفيف في بعض الجزئيات والتقريمات^(١).

(١) أضيفت إلى هذا الفصل فقرات خاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل.

[٤] اتحاد الكتاب ونادى القصة

كان اتحاد الكتاب، وبه نادى القصة، فى البناية المقابلة لشارع المتديان (٦٨ شارع قصر العيني)، وكان يؤمه العديد من شباب الكتاب. شعراء وقصاصين ونقاداً. وموعد اللقاء فيه يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكان النجم اللامع فيه دون شك هو الأستاذ القاص محمد عبد الحليم عبد الله، والذي يتواجد مساء كل الثلاثاء فى النادى، وهو الذى يقوم بافتتاح الأمسية أيّاماً كان موضوعها، ويقدم المتحدثين، وكثيراً ما يقوم بالتعليق، وهو الذى يختتم الأمسية فى النهاية، ففى إحدى الأمسيات مثلاً يختار ثلاثة من كتاب القصة، يقرأ كل واحد منهم قصة جديدة، ويعلق عليها أحد الفقهاء المتخصصين، ويشارك فى المناقشة جمهور الحاضرين كل حسب توجهاته ورأيه.



وقد تكون الأمسية شعرية، فيتتابع الشعراء لإلقاء قصائدهم، ويتناوب المعلقون بعدهم للتحليل والنقد، وقد يكون الشعر عمودياً، وقد يكون من شعر التفعيلة الحديث، وقد تركز الأمسية على شخصية من الشخصيات على كتاب من الكتب الأدبية الهامة، وكمثال على ذلك فقد أقيمت أمسية خاصة بالشاعر أحمد رامى، وأمسية أخرى عن أدب الرافعى، وثالثة عن كتاب «فن القصة» للدكتور رشاد رشدى، ورابعة عن الأدب أو الفن الشعبى، وقد تجد فى اتحاد الكتاب أفراداً ممن يداومون على ندوة نجيب محفوظ أو رابطة الأدب الحديث، أو الكتاب المصريين وغيرهم، ونظراً لأن الأستاذ المرحوم يوسف السباعى هو سكرتير عام الاتحاد ونادى القصة، والدكتور طه حسين هو رئيس الشرف، فإن الاتحاد. وهو مؤسسة شبه رسمية. كان يحظى بالدعم والحماية من الدولة، وكان أعضاؤه المسجلون يدفعون اشتراكاً شهرياً، كما كان للانضمام إلى الاتحاد (أو نادى القصة) أسلوب محدد؛ إذ لا بد أن يكون للعضو إنتاج أدبى مقبول، وأن يركبه ثلاثة من كبار الأدباء حتى يصبح عضواً عاملاً، وهناك من يفوزون بالجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة، فهؤلاء يقبلون أعضاء فى النادى، وكان نادى القصة يجرى مسابقات كل عام من أبرزها مسابقة القصة القصيرة، ومسابقة الرواية، وتوضع لهذه المسابقات الشروط الخاصة بها، والمواعيد المحددة لها، وتمر الأيام وأصبح بعد سنوات قليلة عضواً فى التحكيم بهذه المسابقات (القصة القصيرة والرواية).

وهناك قصة طريفة قد يكون من المفيد تسجيلها، فقد رأيت فيما يرى النائم ذات مرة أننى أجلس فى مدرج مكتظ بالناس، وكنت أجلس على ما أتذكر فى الصف الثالث، وأمام الجمهور وضعت منصة كبيرة يجلس عليها أشخاص ذوو حيثة لكن لم أعرف شخصية أحد منهم، وفجأة صدر أمر من الجالسين فى المنصة أن انتقل من الصف الثالث إلى الصف الأول الذى وجدت نفسى وحيداً فيه.. وأفقت من نومي وأنا أتذكر الرؤيا جيداً، لكن فشلت فى إيجاد تفسير لها فتناسيتها آيئاً من تأويلها.. وذات يوم قرأت فى الأهرام نبأ فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لعام ١٩٥٩، وبالميلادية

الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين .. وأسرت بالذهاب إلى النادي مساء، فاستقبلوني بالتهاني والترحاب، وكان فراش النادي «عم حسين» رحمه الله، من أشدهم سعادة، والتف حولي الأصدقاء، وإن كان بعضهم أبدى سخطه على الفائزين العشرة وخاصة الأول، لا أدري لماذا؟ جلست مع الأستاذ حسين فؤاد سكرتير المرحوم يوسف السباعي في مكتبه، وسألته عن تفاصيل النتيجة، فقام وأحضر نسخ القصة الفائزة، كان عدد واضعي الدرجات في اللغة الفرعية واللجنة النهائية ستة من كبار الكتاب بعضهم كتب عشرة على عشرة ممتازة ممتازة وآخر كتب تسعة على عشرة، أما الأستاذ الصديق الأستاذ عبد الحليم عبد الله للأسف فقد كتب: خمسة على عشرة لا بأس، لكن الثلاثة الأعضاء في اللجنة النهائية فقد أعطى كل منهم النهاية الكبرى (عشرة على عشرة)، وبذلك فزت بالجائزة الأولى .. ومن خلال إطلاعي على أوراق المسابقة أدركت أن اللجنة الفرعية كان مجموع درجاتها ٢٤ درجة من ٣٠ أما اللجنة النهائية فقد كانت ٣٠ درجة من ٣٠ درجة معنى ذلك أنني تحولت من الرتبة الثالثة في اللجنة الفرعية، إلى الرتبة الأولى في اللجنة النهائية، وحكمها هو الفصيل في المسابقة، وكان على رأسها الأديب الكبير الأستاذ يحيى حقي. وهنا تذكرت تلك الرؤيا الغامضة الغريبة التي لم أستطع تأويلها منذ أيام، لقد أصبحت في غاية الوضوح .. كانت رؤيا صادقة مهما قال علماء النفس، فإن التجربة أقوى برهان، وكيف تشك في ذلك وفي القرآن الكريم الدليل الحاسم الصادق على مختلف أنواع الرؤيا؟

وتسابت الصحف والمجلات على نشر قصتي الفائزة، وأذكر أنني سمحت بنشرها عندما قرأت هذه القصة واسمها «شجاع» في ندوة نجيب محفوظ لمناقشتها، استمع الحضور جيداً، وكان نجيب محفوظ يضع يده خلف أذنه، ويوجه صيوانها نحو الصوت كعادته. وأخيراً أجمع المتحدثون على تميز القصة، وقال على أحمد باكثير فيما أذكر «إن هذه القصة قدمت أنموذجاً إنسانياً واقعياً مؤثراً، في إطار قضية كبرى، قدمت تقديمًا فنيًا بارعًا» وعلق الأستاذ نجيب محفوظ مؤكداً على نفس المعنى البارز في القصة، أما الأستاذ عباس خضر فقد أفاض في الشرح والتحليل بما لا يخرج عن خلاصة الرأي العام، وتطرق إلى دقة الحوار وإيجازه وتوظيفه توظيفاً جيداً في إطار القصة القصيرة التي هي مكثفة بطبيعتها ...

ولقد تحمست جداً للاشتراك في الأمسية التي أقامها اتحاد الكتاب عن أدب الرافعي، حيث انقسم المعلقون إلى فريقين متضادين، أحدهما يثنى ويؤيد الرافعي في أسلوبه ومنهجه، والآخر يعارض ويرفض، ولقد كنت قد كتبت عن الرافعي كتاباً كاملاً أثناء وجودي في السجن، تناولت شتى جوانب إنتاجه الأدبي، وخاصة في مجال القصة والشعر، والمقالة بالطبع، ووجدت عناء كبيراً في تصنيف هذا الكتاب، ولكن المخطوط للأسف الشديد فقد بعد ذلك ولم يكن لدى نسخة منه، وكان أحد المتحدثين يهاجم شعر الرافعي (وأظنه الأستاذ المرحوم عباس خضر)، ويرميه بجمود العاطفة في تعبيره الفني، فقامت بعد فترة لأوضح مكانة الرافعي بين أدباء عصره، ثم ارتباط قصصه بالواقع المؤلم في ذلك الوقت، وبالأحداث الكبار، وركزت على براعته في تحليل النفس الإنسانية وتحولاتها، في وقت لم يكن «علم النفس» قد شاع مثل أيامنا هذه، وكان ردى على العاطفة في شعره، بأن ألقى بعض أبيات من شعره الرقيق الرومانسي، وخاصة قصيدته الشهيرة التي بدأها بالبيت التالي:

من للمحب ومن يعينه والحب أهناه حزينه

أنا ما عرفت سوى قساوته فقولوا كيف لينه . . . الخ، فضجت القاعة بالتصفيق .

وختمت كلماتي بأن الرافعي بأسلوبه المتميز الرصين، وتشبهه بلغة الآباء والأجداد، لغة القرآن الكريم، كان حارسًا يقظًا مثابرًا يسهر على تراث لغتنا، ويحميها من المخربين والأوغاد من دعاة العامية، وأعداء الإسلام .

ولقد أثار كتاب الدكتور رشاد رشدي عن « فن القصة القصيرة » عاصفة من النقد والتعليقات، ولعله كان أهم كتاب صدر في هذا الباب وقتذاك، وكان واضحًا أن رشاد رشدي من دعاة « الفن للفن »، ويركز على « الجمالية » وحدها في العمل الفني، ويرفض أن يكون الفن بوقًا من أبواق الإيديولوجيا أو المذاهب، وكانت الجلسة في تلك الأمسية مكتظة بالحاضرين وكبار النقاد والكتاب من مختلف المشارب والأهواء، لكنه، أي رشاد رشدي، بعد أن قدم عرضًا لكتابه وأفكاره، اصطخب الجدل، وبرز عدد من المعارضين لفكره، وأنا لا أخوض في تفاصيل ذلك، فقد تعرضت لطرف منه في بعض كتبي، ولكنني عندما وقفت لأدلي بدلوى في المعمة قلت ما معناه، إننا لا نتنكر للقيم الجمالية في الفن لأنها أساسية، ولكننا نصر ونؤكد على قيام الأدب بدور إيجابي لدى المثقلى، وبالتالي لدى المجتمع، وأعلنت بصراحة أن الفنان « متحيز لموقف » ولا بد أن يكون كذلك وإلا فقد الكثير من تميزه وهويته وقيمه .

وفى أمسية المرحوم الشاعر أحمد رامى، وقف أحد النقاد اليساريين ووجه إليه نقدًا لاذعًا بخصوص أشعاره العاطفية، وخاصة الأغاني العاطفية التى كان يكتبها للسيدة أم كلثوم، ولامه على قلة شعره الوطنى والنضالى، إلى غير ذلك من التهم التى يروجها الماركسيون حول من لا يتفقون معهم فى الرأى والمسيرة .. وبدأ الألم على وجه الشاعر الكبير، وهو يستمع إلى هذا الهجوم الضارى، وامتنع وجهه، وكنت على مقربة منه، والواقع أننى تأملت لأله، وخاصة عندما أغرورت عيناه حينما سمع الناقد يقول إن أغاني رامى عن الهمام والهجران والدموع وعذاب الحبين وأرق العاشقين، قد علمت الشباب والمراهقين الميوعة، ودفعتهم إلى ارتكاب جرائم الانتحار من فوق مبنى « مجمع التحرير » . وضحك البعض ..

كانت كلمات قاسية ..

ووقف رامى حزينًا لى ذكرنا بشعره العذب، وقصائده الكثيرة عن الوطن والناس والقيم والمبادئ، وعن صفحات كثيرة له تشهد بنبوغته وتاريخه الأدبى، والحقيقة أنه وجد استجابة وترحيبًا حارًا من المشاركين. تجلّى فى تصفيقهم له تصفيقًا طويلًا، كما تجلّى فى تعليقات كبار النقاد والأدباء الآخرين الذين أعطوه حقه، ولم تفتنى هذه الفرصة، فقد خطوت إلى المنصة، وقلت: لماذا نحاول أن نقيم الأدباء من خلال وجهة نظر ضعيفة لا عصمة لمنهجها، وليس هناك دليل مؤكد على صحتها، وماذا يمنع أن يهتم شاعر بالعواطف الإنسانية ويترجم عنها بل وقد يتخصص فيها؟ لماذا لا ندع البلابل تغرد بالحب والوطن وعواطف الإنسان المختلفة .. لماذا لا ندعها تدعو وتضرع لله، وتبكي وتضحك؟ ثم ختمت كلمتى بالثناء على تاريخ شاعرنا الكبير، وبأبيات من إحدى قصائده التى تترنم بحب الأوطان والإنسان والحياة .

ما أكثر الأمسيات الأدبية الرائعة التى قضيناها فى نادى القصة واتحاد الكتاب، وما أكثر الأدباء

البارزين الذين استمعنا إليهم وحاورناهم .. كان بعضهم قممًا شامخة ، وتاريخًا عريقًا ، وتجربة أصيلة ، وجهدًا رائدًا ، لقد سعدنا أيما سعادة ونحن ننهل من فيضهم على اختلاف مشاربهم ، وكنا نحبههم ونشعر بالارتواء والشبع ونحن نجالسهم ونراقب حركاتهم وسكناتهم وانفعالاتهم ، لم يخطر ببال أحدنا أن نسيء إليهم ، أو نسخر ، غرورًا ، منهم ، وكنا نرى أننا أكثر حظًا من غيرنا ؛ إذ نراهم ويروننا ، ونحادثهم ويحادثوننا .. إنه لأمر عظيم أن ترى العبقريّة مجسدة أمامك ، فتراها بعينيك ، وتسمعها بأذنيك ، وتمثلها في فكرك اليقظ .

لقد مرت الأيام ، ومات أغلب هؤلاء ، لكن ما زالت ذكراهم العطرة عالقة بذهني ، وما زلت أتذكر أحاديثهم ومجالسهم وتعليقاتهم الجادة والضحكة .. لكم أتمنى أن تعود تلك الليالي الحلوة .. لكن الماضي لا يعود .

والواقع أن تاريخي السياسي لم يكن عقبة في طريق الانطلاق إلى هذه المجتمعات ، كانوا يعرفون عني الكثير ، وكانوا يخالفونني في الرأي والموقف ، لكننا عشنا كأصدقاء ، يحترم كل منا الآخر ، لكن ذلك لم يمنع البعض من اتخاذ الحيطة والحذر ، فقد تجرّى صداقتي لهم بعض الأضرار والشكوك حولهم .. كنت أصافح اليد التي تمتد لمصافحتي أيًا كان صاحبها ، وأعذر من يزورون عني ، وفي كل الأحوال لم أتلبس فكراً غير فكري ، أو أحمل شعاراً غير شعاراتي الراسخة ، دون ضجيج أو إعلان .. نعم حاولت أن أبقى مسلماً .. ففي هذه الفترة العاصفة المتوترة أصدرت في ليبيا كما قلت كتابين لهما أهميتهما هما « الطريق إلى اتحاد إسلامي » و « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ثم مجموعة قصصية اسمها « العالم الضيق » إنني كل عام أو عامين أطل على نادي القصة ، فأرى الوجوه قد تغيرت .. لقد ذهب الكثيرون .. وجاءت أجيال جديدة .. ومصطلحات جديدة ... وموظفون جدد .. وهكذا الدنيا ...



[٥] لقاء الأدباء مع عبد الناصر

فى شهر فبراير ١٩٦٢ انعقد بالقاهرة مؤتمر «كتاب آسيا وأفريقيا» وقد اختارنى اتحاد الكتاب فى مصر لأكون من الأعضاء المشاركين فى المؤتمر ومعى عدد كبير من الأدباء، وكنت أعمل كطبيب امتياز بمستشفى أم المصريين آنذاك، وقد حشد المؤتمر عددًا لا بأس به من المشاهير فى فنون الأدب المختلفة وعلى رأسهم الشاعر التركى الشهير «ناظم حكمت» وأدينا الكبير نجيب محفوظ وغيرهما من روسيا والهند واليابان والصين والدول الأفريقية وغيرها، ولقد تحدد يوم يلتقى فيه الأدباء مع الرئيس جمال عبد الناصر فى قاعة العرش بقصر عابدين الخاص بالملك السابق فاروق الأول، وفى اليوم المحدد حملتنا السيارات الرسمية إلى ساحة عابدين.



وعلى باب القصر كان الضباط يأخذون ما معنا من حقائب يد قبل الدخول، ويتفحصوننا جيدًا، ثم احتشدنا فى القاعة الواسعة، التى ليس فيها سوى «كرسى العرش» وحده، وليس هناك مكان للجلوس، وفوق رأس الكرسى كتب بالذهب عبارة أظن أن منظوقها يقول «بالعدل تساس الرعية» أوشيًا من هذا القبيل، وتناثرنا فى القاعة، وجاء الرئيس ومعه عدد من رجال الثورة والوزراء والحرس، ثم وقف فى الاتجاه المقابل لكرسى العرش، وألقى بيانًا تاريخيًا بهذه المناسبة أشار فيه إلى أهمية الأدب، ودوره فى رفع مستوى المجتمعات والتقريب بين الشعوب، ومناصرة قضايا التحرر ومكافحة الاستعمار وما إلى ذلك، واستقبله الحضور بعاصفة من التصفيق، وكانوا جميعًا وقوفًا كما سبق وأشرت، وكان إلى جوار الرئيس وهو يخطب المرحوم الأستاذ يوسف السباعى سكرتير عام المؤتمر، ثم سمعناه يقول لنا إن الرئيس سوف يصافحنا فردًا فردًا، وطلب منا أن نذكر أسماءنا ونحن نصافح الرئيس وأن نقف صفوفًا منتظمة استعدادًا لذلك.

وكان من بين الحضور فى ذلك اليوم أعنى تلك الليلة الصحفيان الكبيران على أمين ومصطفى أمين وإلى جوارهما الأستاذ أنيس منصور، ولقد عجبنا لهذا الأمر، ذلك لأن الثلاثة كان الرئيس قد غضب عليهم ونحاهم منذ فترة، فكان لظهورهما المفاجئ بيننا مدى كبير من الدهشة والتساؤل.

وبدأ عبد الناصر يصافحنا، كان إلى يميني المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير، وعلى يسارى الصديق الأستاذ رجاء النقاش، وعلى مقربة منا الأستاذان على أمين ومصطفى أمين، ولاحظت من موقعي أن الرئيس صافحهما بفتور وبسرعة، وعندما جاء الدور على الأستاذ باكثير صافح الرئيس صامتًا دون أن يذكر اسمه له، أما أنا ورجاء النقاش فقد عرفناه بأسمائنا، قلت للأستاذ باكثير: لماذا لم تذكر له اسمك؟ فلوح بيده دون اكتراث، ونطق بكلمات قليلة لم أفهمها، وفى اليوم التالى كتب رجاء النقاش مقالة جميلة فى الصفحة الأولى من جريدة الأخبار بعنوان «رأيت جمال».

وبعد ذلك انتقلنا إلى قاعة تناول العشاء، حيث وضع الطعام على «البوفيه»، وكان كل واحد منا يذهب ويأخذ طبقًا، ثم يتجه إلى الطعام ليأخذ ما يشاء، ثم تناول طعامنا وقوفًا، كان إلى جوارى

رجل طيب ذو لهجة مغربية ، وكنت أتبادل معه الحديث ، وفجأة رأيت الرئيس يتجه بصره نحونا ، وكان لا يأكل ، وأشار بأصبعه ، فأصابني ارتباك شديد ، وبقيت جامداً في مكاني ، أما الزميل الذي كان يحادثني فقد وضع طبق الطعام على « البوفيه » ثم اتجه ناحية الرئيس ، وأنا مشدود البصر إليه ، ووجدته يصفحه ، والرئيس يتسم في ود بالغ وبعد دقائق قليلة عاد الرجل ، ثم تناول طبقه من جديد ليواصل الأكل .

قلت له : « ماذا قال لك جمال ؟ » .

قال : « كلمات ترحيب ومجاملة » .

قلت له وأنا أتفحص ملامحه : « من أنت ؟ » .

قال بصوت خفيض متواضع : « مهدي بن بركة » .

- « الزعيم المغربي » ؟

لم يرد ، فقد كان كفاح مهدي بن بركة على كل لسان ، وكانت صورته وتصريحاته تملأ الصحف ، وكان يجد التأييد والرعاية والدعم من رئيس مصر ، وكلنا يعرف بعد ذلك المأساة الدامية التي راح ضحيتها مهدي بن بركة بعد ذلك ، حينما تأمر « الجنرال أوفقيير » المغربي مع المخابرات الفرنسية لقتله ، بطريقة شيطانية مقززة ، ويشاء الله بعد ذلك أن يتأمر الجنرال أوفقيير على ملك المغرب ، ثم يسقط صريع طموحاته الجنونية ، وهكذا ينطبق عليه « من قتل يقتل ولو بعد حين » . بينما كنا نصافح الرئيس ، سمعت من خلفي فتاتين تقول إحداهما للأخرى : « هل رأيت عيني الرئيس ونظراته ؟ » .

- « في منتهى القوة .. حاجة تجنن » .

وضحكت أنا والأستاذ بكثير الحوارهما .

وبعد أن التقى الرئيس بمهدي بن بركة ، ودعاه لمقابلته فيما بعد ، شاهدت الشاعرة العراقية « نازك الملائكة » وزوجها الدكتور عبد الهادي يقفان مع الرئيس الذي أخذ يتبادل الحديث مع الشاعرة المبهورة به ، ثم أشار الرئيس بعد ذلك إلى رجل أفريقي يلبس الكثير من عقود الخرز ، والزي المميز ، وتحدث معه وبينهما مترجم ، وهكذا استمر الوضع في الحديث مع بعض الضيوف .

كنت أشعر بالآلام شديدة في ركبتي وساقتي بسبب الوقوف مدة طويلة ، وكنت أريد أن أجلس بضع دقائق لأخذ قسطاً من الراحة ، وتخف الآلام ، لكن كيف السبيل إلى ذلك وليس هناك مقعد ، هل أجلس على الأرض ؟ ! ونظرت إلى بعيد فوجدت في آخر الساحة المجاورة جندياً عملاقاً من الحرس ، وبالقرب منه مقعد صغير ، فتوجهت نحوه وقلت : « هل تسمح لي بالجلوس بضع دقائق ؟ » .

قال بركة : « تفضل .. » .

ومرت بضع دقائق ، شاهدت بعدها الرئيس يغادر الحفل حوله كوكبة من الرجال الكبار في السلطة ، وأصابني ارتباك شديد ، ذلك لأن الحرس قد يشك في وجودي وحدي في هذا المكان ، فماذا ستكون النتيجة لو حدث هذا الشك ، ونهضت من مقعدي واقفاً بهدوء حتى لا أثير الريبة ، ووقفت وقلبي يدق ، وعندما اقترب الرئيس من موقعي وجدت فتاتين تجريان خلفه ، فوقف وقال لهما : « ماذا تريدان ؟ » .

- « نريد صورة تذكارية معك يا سيدي الرئيس » .

قال : « وأين المصور ؟ » .

ولم يجدوا المصور ، فابتسم الرئيس وقال : « خلاص .. مرة ثانية » .

وانفض السامر ..

قلت للأستاذ باكثير بعد أن عدت إليه : « دمي نشف ، وجف ريقى وأنا أقف وحدى والرئيس

قادم » .

قهقه الأستاذ باكثير وقال : « لماذا تضع نفسك موضع الشبهات ؟ أنت موعود بالمشاكل ؟ » .

- « وعد ومكتوب يا أستاذ .. الحمد لله .. جاءت سليمة » .

وفى إحدى الأمسيات دعينا طعام العشاء فى السفارة السوفيتية ، وفكرت فى عدم الذهاب ،

ولكنى عدت وقررت الذهاب لمجرد حب الاستطلاع ، وهناك رأيت عددًا من شباب الكتاب الشيوعيين

الذين أعرفهم فى قمة النشوة والسعادة ، قلت لأحدهم : « ماذا جرى يا عبد الفتاح ؟ » .

قال لى فى حماسة : « اسكت .. سوف أشرب « الفودكا » الروسية الشهيرة أنا والرفاق ، لقد قرأنا

عنها فى قصص دستوفسكى وتشيفخوف وجوجل ومكسيم جوركى وغيرهم » .

قلت له : « وماذا تكون الفودكا ؟ إنها شراب ملعون كالخمر التى تشربونها هنا » .

- « لا تخض فى أمور لا تعرفها ، ولا تتدخل فيما لا يعنك .. الفودكا للشيوعى مثل التعميد

للمسيحى .. » .

والتقيت فى أحد الاحتفالات الأخرى بأديب الأطفال الشهير « شوجوكويد » ، وكان رجلاً

متقدماً فى السن ، تبدو عليه الدعة والحكمة والوقار ، وكان يحظى باحترام وتقدير جميع أعضاء الوفد

اليابانى الذين قدموه إلّى ، وقالوا أنه كتب للأطفال حتى الآن ما يربو على مائة وست قصص للأطفال

من أفضل ما يمكن ، وأن جميع الأطفال فى اليابان يحبونه حباً جماً ، وكان الرجل يتكلم الإنجليزية

ببساطة ووضوح ، وأخذ يجاذبنى الحديث عن قصص الأطفال فى مصر وأعلامها المشهورين ، ويطرح

الأسئلة حول هذا الموضوع ، ثم أخذ يسألنى عن الأساطير الفرعونية ، وهل جمعت فى كتاب باللغة

الإنجليزية أم لا ، ثم طلب منى أن أرسل إليه هذا الكتاب إذا وجدته ، وودعته بعد أن أخذنا الصور

التذكارية . وأثناء الاجتماعات العامة ، كانت هناك فواصل زمنية قصيرة لمدة ربع أو ثلث ساعة ، نلتقى

ونتعارف مع الكتاب الأجانب فى تلك الفسحة ، وذات مرة رأيت الأستاذ رجاء النقاش قادماً ومعه

المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ، وثالثهما مستشرق روسى لا أتذكر اسمه الآن وقال رجاء

النقاش : « إنهم يرغبون فى ترجمة بعض قصصك للروسية ، فاختر لهم الرواية المناسبة » .

قلت : « أنت تعرف مؤلفاتى ، لدى « اليوم الموعود » و « الطريق الطويل » و « الربيع العاصف »

وهناك مجموعات قصص قصيرة ..

قال رجاء : أفضل « الطريق الطويل » .

- « لماذا ؟ » .

- « لأنى أشم فيها رائحة الأرض والفلاحين ، وفيها تصوير صادق لحياتهم » وكان رجاء النقاش

قد كتب مقالة نقدية فى مجلة الإذاعة عن هذه الرواية وهى أول رواية كتبتها فى حياتى ، ونلت عليها ،

كما قلت من قبل ، جائزة وزارة التربية ، ثم قررتها الوزارة فى عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦١ على الصف

الثانى الثانوى .

وقد وافق الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى على هذا الاقتراح .

والواقع أننى كنت فى دهشة من هذا الأمر ، فالجميع يعرفون أننى من أصحاب الاتجاه الإسلامى ،

وأننى خارج من السجن منذ فترة تناهز العامين ، ولو كان الذين يترجمون الرواية من دول أخرى غير

دول الكتلة الشرقية لما عجبت ، وهذا ما حدث فعلاً عندما طلبوها لترجمتها إلى الإيطالية فيما بعد ، ورجحت أن موضوع « الطريق الطويل » واحتفاءها بمآسى الفلاحين ومشاكلهم والظلم الواقع بهم ، وكذلك تركيز الرواية على آثار الحرب العالمية الثانية على القرية وما خلفته من معاناة ، ربما كان ذلك هو الذى دفع إلى ترجمتها . وفعلاً أحضرت لهم نسخة منها وسلمتها للأخ رجاء النقاش الذى قام بدوره بإعطائها للأديب الروسى الذى سبق وتعرفت عليه ، ولعله من المفيد أن أشير إلى أن هذا الأديب الروسى كان يتكلم الإنجليزية ، ومن ثم كانت الفرصة مهيأة للحوار قال لى : « ما رأيك فى الاتحاد السوفيتى ؟ » . لم أشر فى البداية إلى قضية الدين ، ولكنى قلت له : « إنكم تهدرون الحريات ، وتنتهكون حقوق الإنسان » .

- « هذه دعاية استعمارية إمبريالية ، هل تذكر لى واقعة واحدة » .
 - « العالم كله يعرف مأساة الكاتب السوفيتى « بوريس باسترناك » الذى نال جائزة « نوبل » عن روايته « دكتور زيفاجو » ، فأولاً أنتم منعتهم نشر روايته فى بلدكم ، وثانياً لم تسمحوا له بأن يتسلم الجائزة ، وحاولتم إلصاق التهم به ، والحد من حركته وإبداعاته .. » .
 نظر إلى وجهى فى تمنن وكان يلبس نظارة طبية بيضاء ، ثم قال : « فى بلدكم ، ماذا تفعلون بأى كاتب معارض يهاجم دولته وزعماءها ؟ » .

فى البداية ، لم أدر بماذا أجيب ، فالموقف شائك ، ربما لو تكلمت بصراحة لكان ذلك مدخلاً إلى المشاكل التى أحاول تجنبها ، فقد تصل كلمائى إلى مسامع السلطة ، ولو سكت لكان ذلك إقراراً بالإجراءات القمعية التى يتخذها الحكام فى الاتحاد السوفيتى ، ووجدت فى النهاية أقول له :
 « نحاكمه ، ونرمى به وراء الشمس » .

- « نحن لم نحاكم باسترناك ، ولم نضعه فى السجن » .
- « الأمور لا يُنظر إليها على هذا النحو » .
- « كيف ؟ » .
- « يجب أن تكون الحرية مكفولة للجميع عندنا أو عندكم » .
- « أرجو ذلك .. » .

ومن الشخصيات التى لفتت نظرى فى المؤتمر الشاعر التركى « ناظم حكمت » الذى صُنِفَ فى جانب اليساريين ، ولم تكن هناك فرصة لحوار عميق معه ، لكننا كنا نستمع إلى أحاديثه الرقيقة ، وكان رجلاً سمحاً طيب المشاعر ، معظم قضايا شعره تنحاز إلى الإنسان المعاصر المقهور ، الذى طحنه الظلم والفقر ، وكان مديد القامة ، طلق الوجه ، مبتسماً دائماً ، مقبول المظهر والملاحم ، أنيقاً مهذباً ، ولم يكن شعره يصرخ بالشعارات الحزبية أو السياسية ، بل نستطيع القول أنه شاعر إنسانى المذاق ، وقد مات فى منفاه منذ سنوات . ولقد تم توزيعنا من خلال لجان المؤتمر ، وكان نصيبى فى « لجنة الترجمة » ومن بين أعلامها فى تلك الفترة الدكتور سهير القلماوى والأستاذ خلف الله (وهو غير خلف الله الكاتب العلمانى الذى أثار ضجة بكتاباتة) ، والأستاذ حلمى مراد صاحب سلسلة « كتابى » الشهيرة المترجمة وغيرهم ، وقد أنجزت هذه اللجنة عددًا من التوصيات الهامة فى مجال الترجمة لا يتسع المقام لسردها ولقد لفت نظرى ما قامت به الدكتور سهير القلماوى من جهود ، وما قدمته من أفكار ، كانت تتكلم بالإنجليزية فى المؤتمر ، ولكنها فى نفس الوقت إذا سمعت خطأ فى الترجمة الفرنسية بادرت بتصحيحه على الفور باللغة الفرنسية ، وكذلك بالنسبة للغة العربية .

ومن الأمور التي لا أنساها في هذا المؤتمر صحبتي الدائمة مع الأستاذ نجيب محفوظ، فكنا نجلس متجاورين طوال جلسات المؤتمر العامة، ونتناقش ونعلق، والواقع، والحق يقال، أن صحبتته ممتعة وثرية، فهو قليل الكلام، دقيق الملاحظة، موجز التعليق، لا تشعر معه بملل أو حرج ..

لقد مر على هذا المؤتمر ثلاثة عقود من الزمان أو أكثر، ومع ذلك فإن أحداثه ما زالت محفورة في ذاكرتي، فقد جاء في بدايات حياتي الأدبية، وكان أول لقاء موسع أحضره في مجال الأدب، مع اتجاهات وتيارات عدة، ضمن وفود أكثر من خمسين دولة أفريقية وآسيوية، وكان هذا المؤتمر يقلب عليه الطابع اليساري في جملته، وإن اشترك فيه أفراد من الكتاب لهم هويتهم وخصوصيتهم، والحققة أنني لم أشهد بعد ذلك - على كثرة المؤتمرات التي حضرتها - مؤتمراً على نمطه من حيث الموضوعات والحوار والتوصيات، ولم تفكر في عقد مؤتمرات للأدب الإسلامي إلا في الثمانينيات من القرن العشرين، مع أنني دعوت إلى ذلك في بداية عقد الستينات، والحمد لله أن أمنيته قد تحققت ..

قبل التخرج من كلية الطب وفي عام ١٩٥٩ أعلن عن مسابقة في المجلس الأعلى للآداب والفنون، في الرواية والمسرحية، حول الحروب الصليبية، حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط والمنصورة، إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجه «شجرة الدر». ثم أسر الملك الصليبي لويس، ووضعه في «دار ابن لقمان» بالمنصورة، وكانت جوائز المسابقة كبيرة، ووجدت لدي رغبة شديدة في الاشتراك بهذه المسابقة، لكن المشكلة التي كانت تواجهني هي الامتحان النهائي (درجة بكالوريوس الطب والجراحة)، وكان قد اقترب موعده، وأنا أريد أن انتهي من الدراسة بسرعة بعد الفترة الطويلة التي ضاعت بسبب بقائي في السجن قبل ذلك، ومع ذلك وجدتني مدفوعاً دفعاً لا يقاوم للاشتراك في المسابقة وخرجت إلى المكتبات كي أبحث عن المراجع التاريخية المختلفة التي تمهد لي الطريق للكتابة، وإذا كان التاريخ علم فإن القصة الأدبية فن، له أصوله وتقاليده، ومعنى ذلك أن التاريخ لا بد أن يهضم ويُمثل حتى تأتي الرواية عملاً فنياً مقنعاً .. اشتريت الكثير من المراجع التي وجدتني في المكتبات، ولكن قد يعجب القارئ عندما يعلم إنني عثرت على كتاب صغير ثمنه قرشان فقط وجدته على سور الأزيكية، يتكلم عن هذه الحرب من الوجهة العسكرية، وبه رسوم عن السفن وآلات الحرب في تلك الفترة التاريخية، وكان هذا الكتاب من تأليف خبير عسكري مشهود له بالكفاءة من رجال القوات المسلحة قبل ذلك، وله العديد من المؤلفات في هذا المجال .

وأخيراً توكلت على الله وبدأت كتابة الرواية، وكنت أقسم وقتي بين الكتابة في الرواية، والمذاكرة استعداداً لامتحان البكالوريوس، وبعد أن كنت كتبت ثلاثة فصول، وثبت إلى ذهني فكرة وأنا أركب الترام من القصر العيني إلى حي «شبرا» الذي كنت أسكن فيه، هذه الفكرة هي أن أضع في الرواية شخصية غجرية تغني وترقص، وتستطيع الدخول إلى معسكر الصليبيين، لتنقل الأخبار للمجاهدين، وهي في الواقع فتاة مصرية ادعت أنها غجرية لتحقيق غايتها، والمعروف عن الغجر أنهم لا ينتمون لوطن، بل انتماءهم الشديد يكون لجنسهم، وهذا ما يعرفه الفرنجة بالتأكيد، وكانت هذه الغجرية «ياقوتة» أو «زمردة» على علاقة عاطفية بأحد قادة الشباب المجاهدين، وكنت وأنا في الترام أسجل بعض الملاحظات والحوارات الخاصة بهذه الفتاة، وما إن وصلت إلى مسكني حتى أُلقيت بكتب الطب جانباً، وبدأت في الكتابة تحت وطأة الحماسة القائمة، ولم أضيع وقتاً، ومن العجيب أن هذه الشخصية، قد أعطت للرواية نكهة شهية، وأمدتها بالكثير من الجاذبية والتشويق، وتمت كتابة الرواية بحمد الله، ثم نسختها على آلة الطبع من ثلاث نسخ، واستطعنا أن نقدمها في آخر يوم من الموعد

المحدد، وبعد بضعة شهور كنت ذاهباً إلى الكلية في الصباح كالمعتاد، واشترت صحيفة الأهرام، وأخذت أتصفحها واقفاً حتى يأتي الترام، وفجأة وقعت عبي على نتيجة المسابقة .. الحمد لله . لقد فازت (اليوم الموعود) بجائزة أفضل رواية، وفاز في المسرحية الأستاذ يعقوب الشاروني والأستاذ على أحمد باكثير، ثم كانت هناك جوائز تشجيعية أقل قيمة من الناحية المالية للشاعر الكبير محمود غنيم والأستاذ «على شلش» والأستاذ عبد العاطي جلال، والأستاذ إبراهيم مصباح على ما أتذكر، ووضعت يدي في جيبي فلم أجد غير خمسين قرشاً (نصف جنيه) فأخرجتها وأعطيته لبائع الصحف في الميدان، وهو صديق أتعامل معه من قديم، ولم يكن يعلم السبب، فأريته الجريدة ففرح وأخذ يعانقني في ود، ولم أركب الترام، بل عدت إلى مسكني في شارع «كنيسة الراهبات»، ودققت الجرس، ففتحت أُمي - رحمها الله - الباب، وكانت عندي في زيارة، ونظرت إلى قائلة: «لماذا رجعت؟»، فرويت لها ما حدث، فإذا بها تطلق زغرودة عالية، وأخذت تقبلني وأقبل يدها، ونحمد الله على فضله، ثم قالت: «أرسل لأبيك برقية حتى يفرح».

- سوف يقرأ الناس الخبر في القرية، وسيعرف .

- الحمد لله .. كنا قد أفلسنا ..

- سوف نقترض على حساب الجائزة .

وضحكنا، ثم تركتها مودعاً متجهاً إلى الكلية، حيث استقبلني الأصدقاء استقبلاً حافلاً .. كان «المانشيت» . أو العنوان . المكتوب في الأهرام على ما أذكر .

«أبطال بلدنا، ودار ابن لقمان، واليوم الموعود تفوز بالجائزة» .

وكنت قد اخترت لروايتي عنوان «اليوم الموعود»، وكان لنتيجة هذه المسابقة صدى كبير في الأوساط الأدبية بالقاهرة، وكان الناشر يفضّلون نشر الرواية على المسرحية، ولهذا قدم إلى عدد كبير منهم، بينما لم يجد الزملاء الفائزون في المسرحية بهذا الترحيب، واتفقت مع «دار القلم» وصاحبها الأستاذ محمد المعلم على نشر الطبعة الأولى، وتسلمت منه مقدماً مبلغاً من المال قبل أن أتسلم الجائزة، ووفد إلى بيتي عدد لا بأس به من المعارف يريدون الاقتراض، ولو حسب مجموع القروض المطلوبة لوجدتها تفوق الجائزة، وقدمت للبعض ما استطعت . وكان علينا أن نتسلم الجائزة من الرئيس جمال عبد الناصر في احتفال كبير يقام في مدينة المنصورة، يحضره كبار رجال الدولة والمحافظة والفائزون الثلاثة، أنا والأستاذ باكثير والأستاذ يعقوب الشاروني (شقيق الأديب المعروف يوسف الشاروني)، وتسلمنا بطاقات خاصة، وسافرنا في قطار إلى المنصورة حيث خرجت جموع حاشدة على جانبي خط السكة الحديد، لتحية موكب عبد الناصر، وفي المنصورة نزلت ضيفاً على أسرة الصديق الأديب الحبيب الدكتور محمد حسن عبد الله حيث غمرتني بكرم الضيافة والمشاعر الطيبة التي لا تنسى .

أقيم الاحتفال الكبير في ديوان محافظة الدقهلية بالمنصورة، واصطحبنا الأساتذة يوسف السباعي، ومهدى علام، وسعيد العريان إلى المنصة، ووقف الرئيس يلقي خطاباً هاماً بهذه المناسبة، ولم يكن انتصار مصر على الصليبيين بالشىء الهين، أما نحن الثلاثة فقد جلسنا على يسار موقف الرئيس، وخلف الرئيس تراص أعضاء الوزراتين المركزية والتنفيذية إبان الوحدة مع سوريا، وكان عددهم كبيراً، ولاحظت أن زكريا محيي الدين، وعبد الحميد السراج (سوريا) يجلسان متجاورين، لكن السراج وضع ساقاً على ساق، بحيث أصبح حذاؤه متجهاً صوب زكريا الذي بدا الضيق على

وجهه ، فبادر هو الآخر بوضع ساق على ساق ، وهكذا أصبح الحذاءان متقابلين ، ويكادان يلتصقان ، وثبت الوضع على هذه الصورة ..

وطال خطاب الرئيس ، فقد تشعب إلى قضايا سياسية واقتصادية وفكرية متنوعة ، والجماهير تهدر في حماسة ، مال علي الأستاذ على أحمد باكثير وقال : « أشعر بظلم شديد ، ماذا نفعل ؟ » .

- « لا بد أن نصبر حتى ينتهي خطاب الرئيس .. » .

- « قلت لك يا نجيب لا أستطيع ، أنا مريض ، ولا بد أن أذهب إلى دورة المياه » .

- « لن يسمح لنا أحد بالحركة ... » .

ولكنني وجدت حارساً على مقربة منا فأشرت إليه فأثنى ، وهمست في أذنيه بأن الأستاذ مريض ويريد أن يشرب ، قال الحارس : « دورة المياه أسفلنا ، ويمكن أن أخذه إلى هناك » .

وجاء الفرج ، وخاصة أننا كنا قد استلمنا الجائزة ، وتلنا التكريم المطلوب .. ونزلت أنا والأستاذ باكثير إلى أسفل بصحبة الحارس ، وتركنا يعقوب وحده جالساً . شربنا في دورة المياه ، وغسلنا وجوهنا وأيدينا ، وبقينا فيها لا نستطيع الخروج حتى انتهى الاحتفال ، فخرجنا ولحقتنا بالموكب أثناء نزوله من شرفة ديوان المحافظة ..

وما إن عدت إلى القاهرة بعد ليالي المنصورة الحافلة بالجمال ، حتى تفرغت تمامًا للدراسة ، ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى وصلتني رسالة من وزارة التربية والتعليم ، تعلمني فيها بأنها قررت تدريس « اليرم الموعود » على طلبة الصف الثاني الثانوي ، وتطلب مني الحضور لتوقيع العقد واستلام مقدم المبلغ المرصود لذلك ، فكان لهذا النبأ أثر طيب جداً في نفسي وفي نفس الأسرة والإخوان ، ووفقني الله في أن أجتاز امتحان الجراحة بنجاح ، ولم يبق إلا امتحان الأمراض الباطنية بعد ستة شهور . وبعدها أنال درجة البكالوريوس في الطب والجراحة ، وعلى الرغم من هذه الظروف الدراسية الصعبة إلا أنني واصلت الكتابة في عدد من الصحف والمجلات في الداخل والخارج ، فقد أصبحت الكتابة جزءاً لا يتجزأ من حياتي لا أستطيع تجاهلها ، وكنت أفعل ذلك في أوقات الراحة ، حينما أشعر برغبة قوية في التعبير عن فكرة أو رأي ..

في هذه الفترة أصدرت كلية الطب مجلتها السنوية ، واختاروني أحد المحررين بها ، ومن الطريف أن هذه المجلة ، أعني مندوبها ، أتى إلى ندوة نجيب محفوظ ، وأجرى حديثاً قصيراً معه ، ثم طلب منه أخذ صورة تذكارية لنجيب وأنا ، ونشرت المجلة هذه الصورة ، وكتبت تحتها « النجيبان ... » .

وكانت علاقتي في هذه الفترة متوطدة مع عدد من الأدباء الكبار الذين تعلمت منهم الكثير ، وهذا حق ، وكان تعلمي من خلال قنواتي ومعتقداتي التي كنت أحافظ على جوهرها كما أحافظ على حياتي ، بل أكثر ، إن أفكار الأساتذة الكبار لا تلغى شخصية التلميذ ، بل تدعمها وتقويها ، ولا تخرج به عن دائرة قناعاته دائماً ، بل ربما يكون العكس ، المهم أن يكون التلميذ واعياً ، مدركاً لأهدافه ، متمثلاً لأفكاره ، مقتنعاً بها ، ويحاول أن يستفيد الكثير مما وراء ذلك ، إن اتجاهات عدة تخرج من تحت عباءة المفكر أو الفيلسوف أو الفنان ، وبعض هذه الاتجاهات قد تخالفه في كثير مما يؤمن به ، وهذا لا يلغى دور الأستاذ ولا أثره ، ونفس الشيء بالنسبة للأصدقاء الذين أرتبط بهم ، فقد كان فيهم اليساري واليميني ، والمسلم والمسيحي ، بل واليهودي ، كانت علاقات إنسانية ، لا تلغى الفروق ، ولا تذيب حدود التباين الفكري والمعتقدي ، لكنها كانت بالتأكيد ذات فائدة ، ذلك لأن « الآخر » مهما كان لونه وميله يعتبر مصدرًا من مصادر المعرفة ، ولم يزل هذا دأبي حتى كتابة هذه السطور ،

ولا أظننى سأترشح عن هذا الموقف فى قابل ما تبقى لى من عمر ..
ومن العجيب أن عددًا من هؤلاء الأصدقاء، بل والأساتذة، قد طرأ على مواقفهم الفكرية بعض التغيير أحيانًا، والبعض الآخر قد تحول تمامًا إلى موقف جديد يختلف تمام الاختلاف عن الموقف القديم، ولذلك كنت أنادى دائمًا بأننا لا يصح أن نحكم حكمًا نهائيًا على صاحب فكر، من خلال موقف واحد له، ربما يتحول عنه فيما بعد ..

نعود مرة أخرى إلى رواية « اليوم الموعود » فقد أرسلت إليّ مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى تطلب الموافقة منى على إنتاجها فيلمًا سينمائيًا بالألوان، وهى مؤسسة « قطاع عام » شبه حكومية، وهى المنتج الوحيد فى تلك الفترة بعد تأميم صناعة السينما فى مصر على يد رجال الثورة، كان ذلك فى عام ١٩٦٣، وتم التعاقد .

ومن الطريف أن أذكر أن أجرى فى هذا الفيلم كان مائة جنيه فقط تصرف على دفعتين، ومرت فترة طويلة من الزمن دون أن يخرج الفيلم إلى النور، وكانت الحجة التى تساق فى تلك الأيام، إنه يحتاج إلى تكلفة تربو على مليون جنيه، لأنه فيلم تاريخى، وفيه معارك، والمبلغ كبير آنذاك، ثم تدخل الشيوعيون الذين يعملون فى المؤسسة، وأجضوها المحاولة بحجج واهية، كما أخبرنا واحد منهم كان اسمه أبو بكر الشرقاوى، وفى عام ١٩٧٣ بدأت إذاعة الكويت بإنتاجها حلقات إذاعية لمدة شهر يوميًا، بإعداد الأديب عابدين بسيسو، ثم حولت حتى المادى إلى المجهود الحربى فى حرب ١٩٧٣، وبعد ذلك بسنوات تم إنتاجها حلقات تلفزيونية (إنتاج مصرى لىبى مشترك)، وكتبت الصحف والمجلات باستفاضة عن هذا المسلسل الذى يقوم ببطولته الممثل أحمد عبد العزيز، والمثلة إيمان الطوخى، ومعهما أمينة رزق المثلة الكبيرة، وللى طاهر وغيرهم من نجوم من تونس والجزائر وسوريا، وقد ذكر أن إنتاج المسلسل سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، وسيشترك فيه خمسة آلاف كومبارس، وقد جرى التصوير فى مواقع المعارك الحربية فى دمياط والمنصورة، ولم يتم عرض المسلسل بعد حتى كتابة هذه السطور .

وفى خلال تلك الفترة أيضًا (١٩٥٩ - ١٩٦٥) قدمت الإذاعة المصرية بعض التمثيليات، منها خماسية عن رواية « فى الظلام » . إن كثيرين من الخبراء يعتقدون أن معظم رواياتى، بل وقصصى القصيرة، صالحة جدًا للسينما والتلفزيون، ومع ذلك فإن عددًا من المعادين لفكرنا يتربصون بنا الدوائر، ويقفون حجر عثرة فى الطريق، ولم ينتج للتلفزيون قبل ذلك إلا مسلسل روايتى « الذين يحترقون » فى ١٣ حلقة، وكان المنتج هذه المرة هو تلفزيون دى، وقد شاهدها الإخوة فى أنحاء العالم العربى ما عدا مصر، ذلك لأن الرقابة منعت عرضها بحجة أنها توجه نقدًا لاذعًا لبعض أنواع الخدمات (الصحية)، وقامت إحدى عضوات مجلس الشعب فى مصر بهجوم على المسلسل، وعلى المؤلف وعلى المخرج واعتبرته بمثابة « نشر غسيلنا الوسخ » فى الخارج، وشاركها فى ذلك بعض الصحفيين، مع أن الرواية نشرت فى مصر قبل ١٢ عامًا من إنتاجها للتلفزيون .



[٦] لقاء مع سيد قطب

عرفت سيد قطب أول ماعرفته من خلال مؤلفاته ومقالاته فى الصحف والمجلات ، كان يكتب فى جريدة « الاشتراكية »

وفى « الرسالة » وفى غيرهما قبل أن ينضم إلى الإخوان المسلمين ، وكان على حد تعبير الأستاذ سليمان فياض فى مجلة الهلال مجدداً فى أسلوب العربية ، مثلما كان طه حسين مجدداً بطريقة أخرى ، وكانت سطورهِ تصرخ بالقوة والثورة على الأوضاع الفاسدة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، التقينا معه لقاء الروح والقلب والفكر قبل أن التقى به شخصاً لشخص ، وكان فى محاضراته وخطبه واضح العبارة ، عميق التأثير ، قادراً على الحوار والإقناع ، وكان يفسح صدره لمن يحاوره ، واثقاً بفكره وإيمانه ، رأيناه فى مدرجات الجامعة متكلماً فى المناسبات الوطنية والإسلامية ، ورأيناه فى الاجتماعات العامة للإخوان المسلمين محللاً ومريئاً ، وفى قسم نشر الدعوة بالمركز العام موجّهاً حصيفاً ، وعندما صدر ضده حكم بالسجن فى عام ١٩٥٤ أودع سجن طرة ، ثم أتينا بعده وأودعنا سجن أسيوط ، ثم سجن



القناطر ، ثم سجن القاهرة .

ولقد كانت تربطنى بشقيقه الأستاذ محمد قطب فى تلك الفترة (١٩٥٩ - ١٩٦٥) صلة أخوية وثيقة ، فقد كان محل ثقتى واحترامى وتقديرى ، ولم أكن أخفى عنه أغلب خصوصياتى ، وقبل ذلك جاءت شقيقته الفاضلة عام ١٩٥٨ إلى مستشفى القصر حيث كنت أخرج من السجن للعلاج هناك ، وأعود إلى السجن مرة أخرى بعد الظهر ، أقول جاءت ومعه « عقد اتفاق » من مكتبة مصر لنشر روايتى الأولى « الطريق الطويل » ، وقد وقعت العقد مع هذه الأخت المحجبة والمنقبة دون أن تتبادل سوى كلمات قليلة . وبعد خروجى من السجن فى المرة الأولى بعفو صحى ، التحقت بالكلية مرة أخرى ، وتزوجت وتخرجت وعملت طبيب امتياز ، وذات يوم قدم إلى الأخ محمد نشونش صاحب « دار النور » للنشر والتوزيع فى طرابلس ، وكنت قد نشرت لديه ثلاثة من كتبى ، وأبدى رغبة شديدة فى زيارة الأستاذ سيد قطب بالقصر العينى حيث كان مقيماً هناك للعلاج تحت الحراسة المشددة ، واحترت ماذا أفعل ، لو أن رجال الأمن أسكوا بى زائراً له لكانت كارثة ، وخاصة أننى تعهدت عند الإفراج عنى بعدم الاتصال مع أحد من الإخوان وخاصة ذوى المكانة ، وذهبت إلى الأستاذ محمد قطب لتبادل الرأى ، فكان أن حدد لى وقتاً بعد الظهر ، وهو وقت آمن لزيارة شقيقه ليست فيه مخاطرة تذكر ، وأخبرنى بأنه سوف يكون متواجداً هو الآخر ، وفى الوقت المحدد أخذت زوجتى السيدة كريمة شاهين ، والأخ الليبى محمد نشونش ، وتوكلنا على الله وذهبنا إلى موعدنا ..

كان لدى باب الحجرة والنافذة شرطيان لا يبدو عليهما الاكتراث لشيء ، ودخلنا ببساطة ، واستقبلنا الأستاذ سيد رحمه الله بابتسامة ودود ومحبة صادقة ، وكان شقيقه الأستاذ محمد يقف إلى

جواره، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات، وكان معظم حديثى، كما سبق وشرحت فى أحد كتبى السابقة، عن الأدب الإسلامى، كان يستمع باهتمام وخاصة عندما ذكرته بأن كتابه فى النقد الأدبى يفهم منه أنه يميل إلى نظرية «الفن للفن»، فأوضح لى أن الطبعة الجديدة من هذا الكتاب فيها تعديل، وسأجد فيها بغيتى، ثم طلب من شقيقه أن يهدينى نسخة من هذه الطبعة، وكان إلى جواره بعض مؤلفاتى فى القصة، فأمسك بها وأخبرنى أنه لم يقرأها بعد، وسوف يكون ذلك فى وقت قريب إن شاء الله، ولا أتذكر ماذا كان مضمون حديثه مع الأخ الليبى. ووجدت زوجتى تنظر إليه بألم وتكاد تبكى، كانت قليلة الخبرة بأمر الصراعات السياسية ومشاكلها، وكانت فى حوالى العشرين من عمرها، لم تكمل تعليمها الجامعى بعد، ووجدتها تقترب منه وتقول له: «أنت مريض، وفى حاجة إلى الراحة والعلاج، فلماذا لا تعقد صلحاً مع الحكومة وتخرج؟». فابتسم لبراءتها وصدق مشاعرها وقال: «الحكومة فكرت فعلاً فى التفاهم معى، لكنهم طلبوا أن أسجل رأى فى الثورة وسياستها، وطبعاً كانوا يتمنون أن أعلن تأييدى صراحة حتى يفرجوا عنى، ولكنى قلت لهم إنه من الأليق بهم أن يأخذوا رأى رجل حر، وليس سجيناً، إن قلت لكم ما يرضيكم، فستقولون أننى فعلت ذلك لكى يفرج عنى، وإن قلت غير ما تريدون فلن يتغير الوضع بالنسبة لى ..».

وهزت زوجتى رأسها فى حيرة، لكنى تدخلت واعتذرت له عما قالته، بحجة أنها ليس لديها بعد دراية بمثل هذه الأمور التى لم تمر بتجربتها، ثم استأذنا وخرجنا وتركت الليبى مع.

وصدرت الطبعة الجديدة من الكتاب، وبها التعديل النظرى الهام، الذى أعطى الأدب الإسلامى مفهوماً موجزاً واضحاً، وإن بقيت النماذج الاستشهادية كما هى، ثم صدر بعد ذلك الكتاب الموسع الشامل لشقيقه الأستاذ محمد قطب تحت عنوان «منهج الفن الإسلامى»، وهو يعتبر بحق من عمّد نظرية الأدب الإسلامى، وقد اتفق معه شقيقه فى المفهوم الشامل لهذا الأدب، ولقد كان حماسى لهذا الكتاب كبيراً على الرغم من أننى كتبت فى مقدمة كتابى «الإسلامية والمذاهب الأدبية» بعض الملاحظات على هذا الكتاب القيم.

وعندما زار «خروشوف» مصر لافتتاح «السد العالى» أفرج عن الشيوعيين المعتقلين قبل أن يصل الزعيم السوفيتى إلى القاهرة، وبعد ذلك توسط أهل الخير من كبار الشخصيات فى الدول العربية، مطالبين بالإفراج عن سيد قطب أسوة بالإفراج عن الشيوعيين، وخرج سيد قطب من سجنه بعد أن قضى فيه أكثر من ثماني سنوات، وعاد إلى بيته لا يخلد إلى الراحة، بل ليواصل إكمال كتابه «فى ظلال القرآن»، وليعقد الندوات فى بيته، ويسجل أفكاره فى كتب جديدة، وبدا أعنف وأقوى مما كان، وكان كتابه «معالم فى الطريق» هو الانفجار الكبير الذى أحدث دوياً هائلاً فى الأوساط الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر والعالم العربى، وكذلك جاء كتاب شقيقه محمد قطب تحت عنوان «جاهلية القرن العشرين»، وبصرف النظر عما قيل حول هذين الكتائين الخطيرين من انتقادات وتحليلات وآراء، فإن الأمر الذى لا شك فيه أنهما أثارا دوياً كبيراً فى نطاق واسع داخل مصر وخارجها، ونتج عن ذلك إعادة اعتقال الإخوان وسيد قطب فى النصف الثانى من عام ١٩٦٥ وبدأت مأساة جديدة لم تكن فى الحسبان، واتهم سيد قطب وعدد من الإخوان بتدبير مؤامرة واسعة النطاق

لقلب نظام الحكم ، تلك المؤامرة التي قال عنها صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق في مذكراته أنه لم يجد قضية أصلاً ، واعتذر ، كما قال ، عن تولي أمر قضية سيد قطب ، وأخبر عبد الناصر بأنه لا توجد قضية ، فقال له : « هو كل ما نقول حاجة تعتذر عنها .. خلاص شمس بدران سيتولى الموضوع » . ويمكن الرجوع إلى مذكرات صلاح نصر لمن يريد التوسع في هذه الناحية الشائكة ..

وقد أراد الله أن أعتقل أنا الآخر في السادس من سبتمبر عام ١٩٦٥ ، ولم أكن على ذمة قضية هذه المرة ، بل مجرد معتقل لا تحقيق معه ، وهذا ما سوف نتناوله إن شاء الله في الجزء التالي من هذا الكتاب ، إذا كان في العمر بقية ...



[٧] في أسواق الأدب

الواقع أن زيادة المكتبات بالقاهرة بالنسبة لى كان أمراً مفيداً لا يقل أهمية عن الذهاب إلى المتنديات الأدبية والفكرية المختلفة، فهنا أو هناك نلتقى بكبار المؤلفين فى شتى فروع المعرفة والأدب بل والفن بصفة عامة، وكانت هناك ثلاث مكتبات أذهب إليها على الأقل مرة كل أسبوع، وهى مكتبة دار العروبة (دار التراث حالياً)، ومكتبة وهبة التى كانت تنشر للعديد من المؤلفين، وخاصة سيد قطب ومحمد قطب وخالد محمد خالد وغيرهم، ومكتبة الشركة العربية بميدان الأوبرا، والمكتبات الثلاث فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقاً).



وكانت الفرصة متاحة لأن أجلس منفرداً مع أحد الكتاب وأتبادل معه الحديث على مهل، فأتزود مما لديه من علم وتجربة، وقد يجتمع فى المكتبة اثنان مختلفان فى الرأى فيتحاوران وينفعلان انفعالاً مترنّاً رصيناً، وأنا أستمع إليهما فى اهتمام بالغ، ومثل هذه اللقاءات لا تقل أهميتها عن قراءة كتاب من الكتب، فلا عجب أن ترى الأستاذ محمد قطب إلى جوار الأستاذ خالد محمد خالد، وهما آنذاك على طرفى نقيض فى التوجه الفكرى، وربما تقابل عالماً كبيراً من علماء الدين أو اللغة أو أى لون آخر من ألوان المعرفة، فى مكتبة العروبة والتقيت مع المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر، وظلت تربطنا صلة وطيدة حتى وافاه الأجل، والتقيت بالعلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر، محقق تفسير الطبرى، وصاحب مؤلفات هامة فى الفكر واللغة والحائز على جائزة الملك فيصل الكبرى، والتقيت بالموسيقار زكريا أحمد، والتقيت أيضاً فى مكتبة الشركة العربية بالأستاذ الكبير محمود تيمور، والمؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس، أما فى نادى القصة فقد التقيت بالأعلام من كتابنا عبد الحليم عبد الله، يحيى حقى، أمين يوسف غراب، د. يوسف إدريس، يوسف السباعى، توفيق الحكيم، وعدد كبير من الشعراء المرموقين آنذاك مثل صلاح عبد الصبور، فوزى العتيل، د. أحمد زكى، أنس داود، أمل دنقل، والشاعر الكبير أحمد رامى، وكامل أمين، وأحمد عبد المعطى حجازى، وآخرين لا تحضرنى أسماؤهم الآن، بالإضافة إلى شيوخ وشباب النقاد أذكر منهم الدكتور محمد مندور والأستاذ يحيى حقى، كما التقيت مع عدد كبير من رجال الصحافة ..

أذكر أنه فى أيام الوحدة مع سوريا، قام المرحوم الأستاذ يوسف السباعى بتنظيم رحلة للأدباء، والفنانين إلى مدينة غزة قبل احتلالها، واعتقد أن ذلك كان عام ١٩٦٥، وفى اليوم المحدد انطلقت بنا الحافلات شرقاً إلى القنطرة والعريش فى سناء، وأخيراً وصلنا بعد ساعات طويلة إلى مدينة غزة الواقعة على البحر، ونزلنا فى فندق الأندلس هناك، وكان هدف الرحلة هو الاطلاع على أوضاع إخواننا اللاجئين الفلسطينيين، ثم الكتابة عنهم، والتعبير الفنى عن مؤسساتهم، كان معنا من الممثلين يحيى شاهين، ومن الرسامين بيكار ورخا، ومن الإذاعيين الأستاذ يوسف الحطاب، وكان معى طوال الرحلة الأستاذ على أحمد باكثير، وعدد لا بأس به من الشعراء والكتاب والصحفيين، وفى نفس الوقت

شاركنا نخبة من كتاب سوريا وفلسطين، وأذكر أننا التقينا في هذه الرحلة مع الشاعر الفلسطيني المعروف هارون هاشم رشيد وشقيقه الأستاذ على، والأستاذ الناقد الدكتور كامل السوافيري.

وفي هذه الرحلة رأينا ما يعانيه اللاجئون رأى العين، مساكنهم الضيقة الواهنة، كدحهم من أجل الرزق، ملابسهم الرثة، الأخطار المحدقة بهم صباح مساء، وتردى الخدمات الصحية، وعلى الرغم من صبرهم وصمودهم إلا أنهم يكادون يفقدون الثقة في إخوانهم العرب، فمنذ حرب ١٩٥٦ والأحوال راكدة، والقضية لا تتحرك، قال لنا أحد اللاجئين أنهم يستقبلون وفوداً لا تعد ولا تحصى من العالم العربي والإسلامي ومن خارجهما، والجميع يطمئنونهم على مستقبل قضيتهم، لكنهم حتى الآن لا يرون بصيصاً من النور، إن الكلام كثير، والفعل قليل، ومع ذلك فهم يأملون في أن تتحرك مصر ودول الطوق لتجدهم في يوم من الأيام.

وكان بعض أعضاء وفد الأدباء والفنانين يرتجل الكلمات الحماسية، مؤكداً أن يوم النصر قريب، وأن المعركة لا بد آتية، وأذكر أن الفنان الكبير يحيى شاهين قد استأثره ما رآه، فألقى خطبة عصماء تفيض بالحماسة والقوة، وكان اللاجئون سعداء جداً برؤية أعلام الفن والفكر من النساء والرجال على السواء.

قضينا بضعة أيام نتجول في القطاع، ونشاهد المستعمرات اليهودية عن قرب دون أن ندنو منها، وكانت بيننا حوارات شتى، وكل يسجل في مذكراته بعض الأفكار، حتى الرسام بيكار شاهدته وهو يخطط لوحة جميلة بخطوطه المميزة، وقد لاحظت أن بيكار اهتم جداً بكتابه عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، والذي كان قد صدر تحت عنوان «إقبال الشاعر الثائر»، وأخذ يوجه إليّ العديد من الأسئلة حول حياة هذا المفكر الإسلامي وفلسفته، وبالطبع لم ينس أعضاء الوفد أن يذهبوا إلى أسواق غزة الشهيرة ليشتروا منها الأقمشة والبضائع المستوردة، وكان إخواننا التجار في غزة من أذكى وأبرع التجار حسبما رأيت.

أثناء عودتنا إلى القاهرة، وقع حادث عكّر علينا صفو رحلتنا الجميلة، فبينما نحن في جمرق القنطرة وأثناء التفتيش الروتيني، يبدو أن أحد أفراد الوفد كان معه قطعة من «الحشيش»، ودخله خوف من أن التفتيش قد يمسك بها، فما كان منه إلا أن رمى بها جانباً، فأمسك به المفتش، ووقعنا في ورطة محزنة، إذ إن رجال الجمرق أخذوا يفتشوننا بدقة، وأمسكوا بالأديب المتهم، واحترنا ماذا نفعل، واستطاع المسؤولون عن الرحلة أن يتصلوا تليفونيا بالأستاذ يوسف السباعي في القاهرة، وسرعان ما اتخذ الرجل الإجراءات العاجلة للمجيء إلينا في القنطرة، ولا أدري كيف جاء! المهم أنني رأيته مقيلاً نحونا في اهتمام. واستطاع بخبرته وذكائه أن ينهي هذه الأزمة، وأن يطلق سراح صديقنا الأديب المتهم، ويعود بنا إلى القاهرة بسلام، ولا أريد في هذه العجالة أن أتمتع هذا الحادث، ولكني أتذكر ما علق به الأخ الصديق الأستاذ على أحمد باكثير قائلاً: «والله يا أخى هذه مهزلة... ضحكت وقلت: «مهزلة أم مأساة؟ هل تنوى أن تكتب عنها مسرحية؟»، فلوح بيده، كعادته، في ضيق، ولم يرد.

كنت - كما سبق وأشرت في أحد أجزاء هذا الكتاب - قد زرت القدس والضفة الغربية وباقي أرض فلسطين غير المحتلة في عام ١٩٥٤ أثناء دراستي بكلية الطب. وبهذه الرحلة الأخيرة، أى بعد حوالي ثماني سنوات، زرت قطاع غزة، مما جعلني ألمّ عن كتب بأوضاع هذا البلد الحبيب، وكان حصيلة ذلك من الناحية الأدبية أن كتبت عدداً من الأعمال الأدبية منها:

- ١- رواية «أرض الأنبياء» .
 - ٢- رواية «عمر يظهر في القدس» التي ترجمت إلى الإنجليزية وعدد من اللغات الشرقية .
 - ٣- رواية «دم لفظير صهيوني» وهي خاصة باليهود وبعض معتقداتهم المساوية .
 - ٤- عدد من القصص القصيرة ، بعضها في مجموعة «عند الرحيل» .
 - ٥- بعض أجزاء في روايات أخرى لى مثل «الطريق الطويل» و«رمضان العبور» وغيرهما .
- وفي أثناء الرحلة وقف الفنان يحيى شاهين يتحدث مع باكثير حول عظمة فيلم «سلامة» الذي كتب قصته ، والذي مثلته أم كلثوم ، وأبدى يحيى شاهين رغبته في أن يقوم الأستاذ باكثير بكتابة فيلم جديد عن «الزبير بن العوام» ، فhez الأستاذ باكثير رأسه دون أن يعلق ، ولما انصرف يحيى شاهين قلت للأستاذ باكثير : «هل ستفعل ؟» فضحك ، ولم يعلق .
- وفي أثناء فترة الامتياز وجهت إلى الدعوات من عدد من مدارس الدولة على مدار عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ لعقد ندوات عن روايتي اليوم الموعود والطريق الطويل ، ولقد كنت سعيداً بهذه الندوات لوجودي أمام الأجيال الجديدة التي استقبلتني بمنتهى الحب والحماسة ، أذكر من هذه المدارس :
- مدرسة المتفوقين النموذجية بعين شمس .
 - مدرسة المعلمات في الجزيرة .
 - مدرسة الأورمان الثانوية بنات .
- ولقد كنت مبهوراً بأداء الطلبة والطالبات وهم يستعرضون الرواية أمامي ، وقد كرمني أحد أساتذة اللغة بأن ألقى في تكميمي قصيدة عصماء جميلة ، وكنت غارقاً في خجلي وأنا أستمع لهذا الإجراء ، وفي كل موقف كنت أتحدث عن الرواية والدافع إلى كتابتها ، وركزت على أن اهتمامي مُنصب على المواقف الحاسمة والهامة في تاريخ حضارتنا الإسلامية والعربية ، وذكرت أن فترة الحروب الصليبية ، ثم الهجمة الاستعمارية في العصر الحديث ، ومشروع النهضة المعاصرة ، كلها من الأمور التي تشغلني في فكري وفي أدبي ، في إطار الالتزام الإسلامي الذي أؤمن به .
- ومن الأمور الملفتة للنظر في هذه الندوات ، أن الطلبة والطالبات (الطالبات بالذات) كانوا يسألونني عن رأيي في بعض الكتاب ، وفي بعض الكتب ، وكانت مؤلفات المرحوم الأستاذ إحسان عبد القدوس تحظى بالنصيب الأوفر من الأسئلة ، ولم يسألني أحد عن نجيب محفوظ أو باكثير أو السخار مثلاً ، وكان الأمر يبدو محرجاً بالنسبة لي ، إنك تستطيع أن تتحاور مع أديب أو ناقد ، وتبدي رأيك فيما تقرأ ، ذلك أن الطالبات المراهقات في الواقع يردن الرأي حول قصص الحب والغرام والعاطفة ، ولا يستطيعون أن يفهموا مدلولاتها البعيدة ، أو رموزها الدالة ، فهم لا يعرفون عن قصص إحسان عبد القدوس إلا العشق والهيام ، ودموع الوله ، ونوبات التمرد على العرف والتقاليد ، ولا يدركون شيئاً من مراميها الاجتماعية والسياسية ، وأنا لا أستطيع أن أمنع أحداً من القراءة لأحد ، أو أصدر حكماً بحرق كتاب ، ولكني كنت أقول لهم :
- «إن كل فن أو أدب يرقى بعقولكم ومشاعركم وأذواقكم وأخلاقيكم هو المناسب لكم ، وكل ما يحرضكم على الفساد والرزيلة والانحراف فهو فن أو أدب فاسد ، يجب أن تتجنبوه ، وأنتم أدرى بأنفسكم ولن تخدعوها» .

لكن الكثير من الشباب لا يؤمن بهذه الأحكام العامة في الإجابة ، وإنما يريدون إجابات صريحة محددة مباشرة ، ولذلك كنت أسمع من يقول أن قصص الغرام والإثارة تفسد علينا حياتنا وأخلاقتنا ،

وقصص إحسان عبد القدوس فيها الكثير من ذلك ، فإرد عليه آخر يعترض على كلامه ، وتكاد تحدث معركة ..

وأذكر أن إحدى الفتيات فى مدرسة المعلمات بالجيزة ، قدمت إليّ بعد انتهاء المحاضرة ، وواجهتنى قائلة : « هناك قصص لإحسان عبد القدوس وغيره تحرضنا على الفساد ، فلماذا لا تأمر الحكومة بمنعها ؟ » .

قلت لها : « إن إحسان عبد القدوس كاتب سياسى قدير ، وله مواقف سياسية جيدة ، أما قصصه فالأمر متروك للقارئ ، وليس للحكومة ، ثم إن إحسان نفسه بدأ يتغير فى كتاباته ، صحيح أنى لا أستسيغ رواياته وقصصه الأولى ، ولكننى أمل أن تكون لديكم الحصانة والوعى لقراءة مختلف المؤلفات ، فإذا كانت لديكم الحصانة الأخلاقية والدينية ، فلن يضركم أى إغراء يتضمنه الفن والأدب » .

ولم يفتنى أن أشير إلى أن الروايات التى تقررها وزارة التربية والتعليم على طلبتها فى مختلف المراحل ، تختار بعناية ودقة ، ويجرى عليها التعديل أو الحذف عند الضرورى ، ولهذا فإن هناك أدباء كباراً ، لم تختار وزارة التربية مؤلفاتهم لتدرسها للطلبة لخروجها على المواصفات التربوية والنفسية . فأتنى أن أشير إلى أن ندوة نجيب محفوظ قبل إغلاقها ، ناقشت لى كتابين هما : « اليوم الموعود » ومجموعة قصص « موعدا غداً » .

وأذكر أن الأستاذين محمد قطب وعباس خضر قد سجلا أحاديث إذاعية فى نقدى ، كما إن نادى خريجى الجامعة المصرية قد أقام حفل تكريم لى ولبعض الإخوة الأدباء ، وكانت ليلة تكريم تجمعنى أنا والأستاذ على أحمد باكثير ، وفى هذه الأمسية تحدث الأستاذ « محمد قطب » عن روايتى « الطريق الطويل » ، وقارن بينها وبين رواية الأستاذ نجيب محفوظ الباكورة « القاهرة الجديدة » ، التى كتبها قبل الثلاثين بزمناً ، ودهشت إذ وجدت الأستاذ محمد قطب يفضل الطريق الطويل عليها ، ولم أصدق أذننى ، وكانت معى فى هذه الأمسية الجميلة السيدة زوجتى بعد زواجنا بفترة قصيرة ، كما ألقى أيضاً الأستاذ الدكتور عبد القادر القط كلمة مناسبة عن « اليوم الموعود » .. وقد كان أحد المحكمين فى مسابقتها ، كما شارك فى ندوة إذاعية (البرنامج الثانى) مع الصديق المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر ، وقد أدار الندوة الإذاعى والشاعر المعروف فاروق شوشة .



[٨] نصف الدين

حينما التحقت بكلية الطب جامعة القاهرة ، نزلت إلى المدينة الكبيرة العريقة ذات التاريخ التليد ، والمآذن العالية ، والحركة المواترة في

الفكر والسياسة والتجارة والتعليم ، وكان لى فيها عدد من الأقرباء ، وآثرت أن أنزل ضيفاً على عمى الشيخ عبد الفتاح الذى يعمل كاتباً بوزارة الدفاع ، وقد سبق وتحدثت عنه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فأكرم وفادتى لبضعة أسابيع حتى قبلتنى مدينة « فاروق الأول الجامعية » بالأورمان كمقيم فيها مقابل خمسة جنيهات شهرية للإقامة والطعام والشراب ، وكانت آية فى الجمال والنظافة والإدارة ، وقد ضمت هذه المدينة المجاورة لجامعة القاهرة نخبة من القيادات الطلابية السياسية فى تلك الفترة ، ولم تكن ثورة ١٩٥٢ قد قامت بعد ، والمدينة تضم خليطاً كبيراً من الطلبة الأغرأب ، من جميع الكليات ، وقد عشت فيها أربعة أعوام كانت من أجمل سنوات العمر . وعلمت أن أحد علماء قريتنا الكبار وهو فضيلة الشيخ محمود محمد شاهين ، قد انتقل من قرية « القرشية » التى كان يعمل بها إماماً



وخطيباً إلى مسجد بالقاهرة ، فاعتزمت أنا وابن أخيه الأستاذ فهمى شاهين زيارته فى مسكنه الكائن بشارع قدرى باشا بحى السيدة زينب ، رضى الله عنها ، وقد كان رحمه الله رجلاً سمحاً واسع الأفق ، حجة فى فقه الإمام الشافعى ، خبيراً بشئون الحياة ، عميق النظرة ، ذا رأى سياسى واضح لكنه يرفض المشاركة فى الصراعات الحزبية ، وكانت أكبر أبنائه « كريمة » التى تبلغ من العمر آنذاك أحد عشر عامًا ، وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها كانت لمآحة ذكية ، ذات وجه باسم ، وحيوية واضحة ، وعذوبة فى الكلام ، وجمال فى الملامح ، ولقد دخلت هذه البنت الصغيرة قلبى على الرغم من أنها فى مرحلة الطفولة المتأخرة ، وكانت تستجيب لنصائحى بسرعة ، وتفهم ما أشرحه لها من دروس فى محضر والدها ، كما كان لها سيطرة كاملة على إختوتها وأخواتها الذين يصغرونها سنًا ، فقد بلغ عدد هؤلاء الإخوة سبعة أربعة أولاد وثلاث بنات هى رابعتهم ، ولوحظ أنها متقدمة فى دراستها كما أنها مفرمة بالأنشطة المدرسية المختلفة ، فكانت أبرز طفلة فى فريق التمثيل بالمدرسة ، وهى التى تتولى الإذاعة المدرسية بإشراف مدرساتها ، وتجيد الكثير من المهارات الأخرى ، وترافق أباهما إلى المسجد كثيرًا وتقرأ له علوم الدين وأمهاة الكتب وتصاحبه فى الزيارات الخاصة ، لأنها كانت الأكبر سنًا وفهمًا لذلك استطاعت أن تتأثر بهذا الأب الحانى ، وتستفيد منه الكثير فى قابل حياتها .

وأخذت الأيام تمضى عامًا بعد عام ، والأحداث تترى ، والصغير يكبر ، ووجه الحياة يتغير ، وأنا دائم الاتصال بالعالم الجليل ، أرتوى من فيض علمه ، وأبادلته الحديث حول السياسة التى هى شغلنا الشاغل فى تلك الفترة ، وفى أمور الحياة ، ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكنت أنا شديد الحماس لها ، ولم أكن أعلم بأنى سوف أكتوى بنارها ، لكنه - رحمه الله - كان شديد القلق والتوتر ، ويوجس خيفة من المستقبل ، وكنت أنا لا أرضى بمثل هذه الآراء ، وأجأله بالحاح حتى يغير رأيه ، لكنه

كان يتسم لحماستي، ويدعو الله أن تكون العاقبة خيراً، ولاحظت أنه لا يثق في أخبار الصحف والإذاعة المصرية، ويلجأ إلى سماع الإذاعات الأجنبية التي تذيع النشرات باللغة العربية ويحترمها، على الرغم من أنني كنت أخالفه الرأي، وأتهم هذه الإذاعات بالعمالة والتآمر والعمل لحساب أعدائنا المستعمرين والطامعين، وكنت أرى وجهه يحتقن غضباً حينما يسمع جمال عبد الناصر يشتم الملوك والرؤساء العرب، ويوجه إليهم عبارات نابية، ثم يقول عنه: «والله ليخربها ويقعد على تلها».

وهي عبارة يرددها المصريون عادة عندما يرون التصرفات الخاطئة الفاسدة، فهم يعتقدون أن من يفعل ذلك، سوف يبدء بالخسران، ويخرب الديار، ثم يجلس على التل مذموماً مدحوراً، وكل الذين لهم صلة بالشيخ الجليل يذكرون ذلك جيداً، ويحفظون عبارته عن ظهر قلب.

وعندما اندلعت الفتنة عام ١٩٥٤ كما سبق وأشارت وعقد مؤتمر في كلية طب القصر العيني اختارني زملائي أن ألقى الكلمة الرئيسية في المؤتمر، وفي خطبتي قمت بشن هجوم شديد على الثورة وجمال عبد الناصر، ثم ساعدني زملائي في الإفلات من باب خلفي للكلية، بعد أن أجريت بعض التعديلات في ملابسى، ووضعت نظارة سوداء على عيني.. وقلت لنفسى أين أذهب؟ إذا ذهبت إلى مسكن عمى عبد الفتاح فقد يأتون إليّ، وبعد تفكير قررت أن أختفى لدى شيخنا الجليل الشيخ محمود شاهين، ولكنى كنت محرجاً، فقد أسبب له المشاكل، ولكنى توكلت على الله وذهبت إليه، وشرحت له الأمر، وأكدت له أن ذلك لن يستغرق سوى أيام قليلة، ورحب الرجل بى بشدة، وأوصانى أن ظل معتكفاً بالغرفة التى سأستقر فيها، وكانت الصغيرة كريمة تأتى إلى بالطعام والصحف، كما تفسح الطريق أمام بعض الإخوان المخلصين الذين أثق فيهم، مثل الأستاذ فهمى شاهين، والأستاذ محمد صفوت نجم وغيرهم، ولم يطل وقت الاختفاء، فقد أعادت الثورة الرئيس اللواء محمد نجيب إلى منصبه، وأفرجت عن الإخوان المعتقلين وغيرهم من المعارضين من رجال الفكر والصحافة والساسة القدامى، وهكذا استطعت أن أعود آمناً إلى المدينة الجامعية، وإلى الدراسة بكلية الطب.

فى عام ١٩٥٥ أصبح عمر كريمة أربعة عشر عاماً، وكبر عقلها وأحلامها، وأصبحت فتاة ناضجة ملتزمة، وفى شهر أغسطس من هذا العام تم اعتقالى وتقديمى للمحاكمة، حيث حكم على بالسجن عشر سنوات كما سبق وأشارت.

وفى عام ١٩٥٨ كنت أخرج من السجن بضع ساعات للعلاج فى القصر العيني تحت حراسة مشددة، وفوجئت بكريمة وأمها وشقيقها الذى يليها فى العمر وابن عمته الحاج محمد مصطفى خضر، وكان موظفاً فى إدارة جماعات نشر الرياضة بالقرى يأتون لزيارتى، حينما رأوا القيود فى يدي بكوا تأثراً بينما كنت ابتسم فقد تعودت ذلك، وعندما عدت إلى السجن بعد انتهاء العلاج وجدتنى بصراحة أفكر فيها، لقد كانت فى السابعة عشر من عمرها، وكنت أكبرها بحوالى تسع سنوات.

وبعد أن أفرج عنى ألح عليّ موضوع الزواج على الرغم من أنى لم أخرج من الكلية بعد، ومما سهل أمر التفكير فى ذلك أنى أصبح لى دخل يكفى أن أبنى حياة زوجية معقولة، وخاصة بعد أن قررت وزارة التربية تدريس بعض كتيبى على طلبة المدارس، كما إن مؤلفاتى الأخرى وكتاباتى فى الصحف والمجلات كانت توفر دخلاً لا بأس به، وفعلاً تزوجت قبل تخرجى ببضعة شهور، واستأجرت شقة فى حى شبرا، فوق الشقة القديمة.. وواضح أن زوجتى كانت كريمة...

لا أريد أن استطرد فى التفاصيل التى قد لا تهتم القارئ، وكان زواجى بعد تخرجها من المدرسة الثانوية (وقد التحقت بعد الزواج بمعهد الخدمة الاجتماعية وتخرجت منه) وأدركت أن الله قد أنعم على

بهذه الزوجة الصالحة، التي تبرأ أهلها، وتحفظ زوجها، وتقرأ القرآن، وتحب الإطلاع على المؤلفات الأدبية والدينية، ومغرفة جدًا بمؤلفات الإمام الغزالي، وخاصة كتابه «إحياء علوم الدين»، ومنذ أن تزوجنا وهي تراجع مسودة مؤلفاتي من الناحية الإملائية والمطبعية بل اللغوية أيضًا، ذلك لأن والدها رحمه الله قد أحسن تدريس اللغة لها بصورة جيدة، وتعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة خصيصًا لنسخ مؤلفاتي عليها ..

وفى العام الأول من الزواج رزقنا الله بابنتنا البكر حسام الدين، وفى العام الثانى بابنتنا الطاهرة النقية الوفية «عزة» طبيبة النساء والولادة، وفى العام الرابع جاء الابن جلال الدين صاحب الخلق القويم، والصدق والإخلاص، وهو طبيب متخصص فى أمراض القلب، أما الأصغر محمود فلم يأت إلا فى العام التاسع من الزواج وقد ولد فى مدينة دى، وهو حاصل على ليسانس الحقوق، وفاتنى أن أن أذكر أن ولدنا الأول تخرج من كلية العلوم قسم الفيزياء والرياضيات هذان وهده الله وهدى إخوته إلى طريق الخير والفلاح. واستطاعت زوجتى فور الزواج أن تدرك بذكائها وشفافيتها مسئولياتها الكبيرة نحو البيت ونحو الأطفال الذين بدأ قدومهم منذ العام الأول للزواج، ونحوى باعتبار انشغالاتى الكثيرة كطبيب وكأديب، فاستطاعت أن توفر لى الجو المناسب دون أدنى تكاسل أو مضايقات حتى فى أيام الحمل والولادة.

وفى سنة الامتياز التى كنت أقضيها فى مستشفى أم المصريين بالجيزة جاء ابنتنا حسام الدين كما قلت، وزاد راتبى جنيهاً، كما أخذت علاوة الزوجية، وأصبح مُجْمَل راتبى من الحكومة ثمانية عشر جنيهاً ونصف، واضطررنا إلى الانتقال لحي الجيزة بالقرب من المستشفى الذى أعمل به، وودعنا شبرا وشارع كنيسة الراهبات إلى الأبد، وفى الجيزة ولدت ابنتى «عزة» وأنا الذى قمت بموضوع الولادة بنفسى حيث لم يسمح الوقت باستدعاء زميلة من الزملاء إذ جاءت الولادة سريعة وسهلة، وكانت تقف إلى جوارى وتساعدنى الحاجة حماتى رحمها الله، وكنت قد انتهيت من سنة الامتياز (أو التدريب)، وقد تسلمت يوم ولادتها مبلغاً يفوق الستين جنيهاً عن راتب شهرين متأخرين لى، فقبلتها أمها وهى تقول «البنات رزقهن كثير .. مقدمها مقدم خير».

وكانت الحكومة قد أصدرت قانون تكليف الأطباء للعمل بالريف، وكان لابد أن اتخذ الوسائل للرحيل عن القاهرة، والذهاب إلى محافظة الغربية (وعاصمتها طنطا) لأبحث عن القرية التى سأعمل فيها، ومن الطبيعى أن أخذ زوجتى وابنى وابنتى معى، إذ لا أستطيع العيش بدونهم، ولقد تضايقت من هذا النقل فى البداية وطلبت من وزير الصحة الدكتور النبوى المهندس، رحمه الله، أن يكلفنى بالعمل فى القاهرة، ذلك لأن أعمالى الأدبية الكثيرة المتصلة بالصحف والإذاعة ووزارة التربية، ثم الإشراف على طبع الكتب لدى الناشرين، كل ذلك يجعلنى فى ميسس الحاجة إلى البقاء فى القاهرة، لكنه رد عليّ قائلاً: «فى الريف ستفتح أمامك آفاق واسعة للكتابة .. فلتمكث هناك عامًا على الأقل».

وصدق حدس الرجل الذى كان يعمل أستاذًا لطب الأطفال فى جامعة القاهرة قبل أن يصبح وزيرًا، وفى تلك الفترة كان تعاملى فى النشر مع الشركة العربية للطباعة والنشر، فقد تعاون معى صاحبها حسن إيرانى تعاونًا كبيرًا، ولم أكن اهتم كثيرًا بالناحية المادية، إذ كان يهمنى بالدرجة الأولى ألا يتأخر نشر مؤلفاتى، فتصل فى موعدها إلى القارئ، وكان حسن إيرانى على دراسة واسعة بأسواق التوزيع بحيث كانت كتبى تصل إلى أقصى المغرب العربى وإلى المشرق أيضًا، حتى إن بعض المكتبات الكبرى فى الدول العربية تضعها بين قوائمها مثل مكتبة «المثنى» الشهيرة ببغداد، وأخبرنى الأستاذ

عبد الحليم عبد الله الروائى المعروف رحمه الله أنه رأى بعض مؤلفاتى فى مكتبات المغرب ، بينما لم ير مؤلفات عدد من كبار الكتاب المصريين هناك .

وكان عليّ أن أرحل إلى محافظة الغربية للعمل هناك ، وسافرت وحدى فى البداية إلى طنطا ، وقصدت « المنطقة الطبية » هناك ، وأشاروا على بأن أختار بلداً أعمل فيه ، ولما ترددت قيل لى أن مقر عملك سيكون قرية « كنيشة دمشيت » القرية من طنطا ، ولكن طرأت فى ذهنى فكرة ، لماذا لا اذهب للعمل فى قريتنا شرشابة ، مسقط رأسى ؟ إن أهلى فيها ، وأهل القرية أغلبهم أحبابى وأصدقائى وأعرفهم جيداً ، وواجب عليّ أن أقدم خدماتى لهم ، ألم يغدقوا عليّ جهم واحترامهم من قديم ؟ ألم يتعاطفوا معى فى أيام المحن القاسية حينما ألقى بى فى السجن ، وأبديت رغبتى للمسؤولين بالمنطقة الطبية فرحبوا بالفكرة حيث إن بشرشابة وحدة مجمعة كبيرة ، وتحتاج لأكثر من طبيب ، وليس بها سوى طبيب واحد مثقل بالعمل ، وسعدت بموافقته على ذلك ، لكنى كنت محرجاً بعض الشيء فقد انتابت علاقتى بالأسرة بعض الفتور بسبب عدم موافقتى على مشروع الزواج من إحدى القريبات حسب رغبتهم ، مما جعلهم يغضبون لحد ما لأنى تزوجت من أخرى ، وما إن وصلت إلى القرية حتى استقبلنى أبى رحمه الله بحفاوة فقبلت يده شاكرًا ، وكذلك فعلت أمى وباقي أفراد الأسرة ، ولم يكن أمامى سوى أن أعود إلى القاهرة وأحمل أسرتى وأثاث بيتى إلى مقر العمل الجديد ، ونزلت فى البداية فى بيت الأسرة ، ثم انتقلت إلى قِلا من دورين داخل الوحدة المجمعة حتى أكون فى مقر عملى ، حيث إنى طبيب متفرغ كل الوقت ، وأستدعى لفحص الحالات فى أى وقت من الليل أو النهار .

فى الأيام الأولى لعملى شهدت الوحدة الصحية ما يشبه المظاهرة ، فقد احتشد المئات من الرجال والنساء والأطفال طلباً للفحص الطبى ، ولمشاهدة ابن قريتهم الطبيب ، الذى يعتبر أول شاب يتولى هذا العمل من بين ظهرانيهم ، لكأنما شعروا أن الوحدة الطبية أصبحت بحق وحدتهم ، والطبيب ابنهم ، وخاصة أن زميلى بالعمل ، والذى يعيش بينهم منذ سنوات كان مهتماً أكثر بالمرضى الخصوصى (الذين يدفعون أجراً) ، ولا يجرى العمليات الصغيرة الجراحية المسموح بها مجاناً إلا بعد دفع مبلغ من المال ، ورأونى أفحص المرضى بدقة دون مقابل ، وأذهب إلى البيوت لفحص وزيارة المرضى دون أن أتقاضى مالاً ، وأصرف لهم أدوية الحكومة بالمجان ، لقد رأوا الإجابة فى العمل ، دون أن يدفعا شيئاً فتشبثوا بى ، وعندما قسمت العمل بينى وبين زميلى ، بحيث أقوم بعمل العيادة يوماً ، فى الوقت الذى يؤدي هو فيه عمل مفتش الصحة (عمل وقائى) ، والعكس فى اليوم التالى ، كما قسمت عدد الأسرة بالمستشفى مناصفة بينه وبينى ، فأصبح لى سبع أسرة ، وله مثلها ، ولاحظت بعد ذلك أن المرضى يتكدسون فى اليوم الذى أعمل فيه بالعيادة ، بينما يقل عددهم كثيراً فى يومه هو ، وكذلك امتلأت الأسرة السبعة الخاصة بى فى القسم الداخلى ، وبقيت الأسرة الخاصة به فارغة ، لدرجة أننى ابتدأت أن أضع بعض مرضاى فى أسرته ، وهكذا وفد إليّ المرضى من شتى قرى المنطقة ، من « كفر الجزيرة » و « ميت المخلص » و « كفر حسين » و « كفر السنارية » و « كفر السحمية » و « سباط » و « ميت ميون » و « شنراق » وغيرها . وعانيت من إرهاق شديدة لكثرة العمل ، وكان عليّ أن استمر فى أداء رسالتى الهامة ، ولم أكن أتصور أن تحدث لى عقبات تشغلنى عن رسالتى .

وكانت الدولة قد أعلنت برنامج « اشتراكية العلاج » وأنشأت آلاف « الوحدات الصحية الريفية » ، بالإضافة إلى الوحدات المجمعة ، ووضعت فى كل وحدة طبيباً أو أكثر ، واشترائية العلاج تعنى الرعاية الصحية الكاملة وقائياً وعلاجياً للناس ، دون تقاضى أى أجر ، اللهم إلا دفع أربعة قروش

فقط عند قطع تذكرة الفحص ، ويعفى من هذا المبلغ البسيط الفقراء بعد موافقة الأخصائي الاجتماعي بالوحدة ، لكن اشتراكية العلاج كما رسمتها الدولة لم يتم تنفيذها على الوجه الصحيح ، لأن الأطباء العاملين في هذه الوحدات ، كانوا يعتقدون أن مرتباتهم غير كافية ، وأنهم يعملون في قلب الريف وسط الغبار والذباب والعزلة ، وما دام الأجر كذلك فإن من حقهم أن يبحثوا عن مصدر للدخل ، فما كان منهم إلا أن لجئوا إلى اختراع « بدعة » الفحص الخصوصي ، ومعناه أن يدفع المريض مبلغًا من المال مقابل الفحص الدقيق ، والعلاج الكافي ، ومعناه أيضًا أن يدفع المريض أجرًا على العملية الجراحية التي تجرى له داخل المستشفى ، وكانت العمليات المسموح بها عمليات صغيرة عددها سبع ، منها عملية الفتق والبواسير والدوالي والختان والأكياس الدهنية والخرايج بالإضافة إلى الإصابات الجراحية ، وهناك أيضًا الولادات الطبيعية ، من هنا نرى أن الطبيب الذي لا يلتزم بقوانين اشتراكية العلاج كما كانوا يسمونها ، يحصل من عمله الخارجى أضعاف اضعاف مرتبه ، وكان أغلب المفتشين الطبيين في المنطقة الطبية بالعواصم يعلمون ذلك ، ويغضون الطرف عن تلك المخالفات مقابل ما يقدم لهم من مال أو هدايا . لكنى كنت مصراً على تنفيذ اشتراكية العلاج بدقة ، وكان هذا مصدر المتاعب التي داهمتنى ، إذ فوجئت ذات يوم بقرار نقلى من القرية بعد حوالى شهرين ، فأصبت بالذهول ، وكان زميلى يتسم فى سخرية ، ربما ظن أنى ساذج ولا أدرك أبعاد السياسة التي أنتهجها ونتيجتها ، وفهمت بسرعة السبب وراء هذا النقل المفاجئ ، بل فهمه أهل القرية ، والعاملون بالوحدة المجمع ، لقد كان واضحاً أن المدد قد انقطع عن الكبار فى الإدارة بالمنطقة الطبية ، وكان سبب ذلك أنى قضيت على الفحوصات الخاصة والمبالغ التي تدفع فيها ، وكذلك أوقفت دفع أجر العمليات الجراحية ، ومنعت أيضًا تسرب وبيع أدوية الحكومة ، وخاصة حقن البنسلين والاستربتوميسين والفيتامينات وغيرها . وكان نتيجة لذلك أن توقفت الهدايا والأموال والمجاملات التي يقدمها زميلى للرؤساء فى طنطا ..

وما إن علم أهل القرية بما جرى حتى ثاروا ثورة عارمة ، وكتبوا البرقيات والعرائض الاستنكارية للمسئولين فى المحافظة وفى الوزارة ، وساد الهرج والمرج ، وخرج وفد كبير من أهالى القرية ، وعلى رأسهم قادة فرع حزب الحكومة فى القرية (ويلاحظ أنى كنت معزولاً سياسياً ، ليس لى الحق فى الاشتراك بأى نشاط حزبي ، حكومى أو غير حكومى) ، وذهب الوفد إلى مقابلة المحافظ المرحوم المستشار عمر زعفان وكان خال وصهر عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، وأحد ضباط الثورة السابقين ، وكان للموضوع صدى كبير على مستوى المحافظة ، فماذا يفعل رؤسائى فى الإدارة الطبية بطنطا ؟ لقد لجئوا إلى حيلة خسيسة انطلت على السيد المحافظ فى البداية إذ قالوا له : « إن نجيب الكيلانى ، مشاغب قديم ، ومن جماعة الإخوان المسلمين العدو للدود للثورة ، وأن ماضيه حافل بالمظاهرات والتمرد ، وقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات ، وأنه يريد أن يستأنف من جديد حياة التمرد والعصيان ، ونحن لم ننقله إلا للمصلحة العامة ، فكيف يكون هناك طبيبان فى وحدة ، بينما تغلق وحدة صحية أخرى ليس فيها طبيب » . واستدعانى المحافظ فعلاً وذهبت إليه على عجل ..

كنت أجلس فى غرفة الانتظار ، وإذ بالسيد المحافظ يخرج من مكتبه ، ويسدد إليّ نظرات غاضبة ويقول : « أنت الدكتور نجيب الكيلانى ؟ » .

- « نعم » .

- « ماذا تريد ؟ ألا تكف عن الشغب والفوضى ؟ لماذا لا تنفذ الأوامر ؟ » .

ابتسمت فى هدوء ، وكان يقف إلى جوارى ، الدكتور الصديق محمود جامع من أشهر رجالات

طنطا، ومدير التأمين الصحى فيها، والصديق الحميم للمرحوم أنور السادات فيما بعد، وقلت للسيد المحافظ بمنتهى الثقة والقوة: «أنت يا سيدى المحافظ مستشار قبل أن تكون محافظاً، وقد أصدرت حكماً فى قضية دون أن تسمع كلام الطرف الآخر». وفوجئ الرجل بردى، وفكر فيه، وخفض رأسه، ثم تخلى عن نبرته الغاضبة وقال بصوت خفيض: «ولماذا لم تخبرنى بالحقيقة من قبل؟».

- «أرسلت إليك يا سيادة المحافظ برقية كلفتنى خمسة وسبعين قرشاً».

- «لم أرها ..».

- «أسأل مدير مكتبك».

التفت إلى مدير مكتبه وسأله عن البرقية فقال: «نعم وصلت».

- «ولماذا لم تعرضها عليّ».

- «سيادتك كنت مشغول».

التفت إلى المحافظ وقال: «أنا ذاهب فى مهمة عاجلة إلى «الحلة الكبرى». وهى مدينة صناعية كبيرة مجاورة. واستطرد المحافظ قائلاً: «عليك أن تنفذ أوامر رئاستك أولاً».

ولم يترك لى فرصة للرد أو التعليق، ومضى فى طريقه صوب الدرج، الواقع أننى شعرت بإحباط بالغ، فماذا أفعل، وسرت فى الطريق أتوكأ على عصاى إلى جوار صديقى الدكتور محمود جامع، وقلت له: «لن أراجع أو أهادن».

- «ماذا ستفعل؟».

- «انظر.. إن ركبتي اليمنى متورمة، ولا أستطيع المشى إلا بصعوبة بالغة، وسأذهب إلى اللجنة الطبية، لكى أحصل على إجازة مرضية، وبعدها يفرجها الله ..».

أخذت إجازة مرضية لمدة أسبوعين، وعدت إلى القرية معتزماً العودة إلى القاهرة مع أسرتى لنقضى هناك هذه الفترة، وقبل أن أركب القطار إلى القاهرة جلست فى «القهوة العثمانية» بطنطا، وسطرت خطاباً هاماً لسيادة محافظ الغربية، وكان خطاباً واضحاً صريحاً قوى اللهجة، وليكن ما يكون .. جاء فى هذا الخطاب «إنكم يا سيادة المحافظ تديرون الأمور من خلف مكاتبكم، وكان حرياً بكم أن تخرجوا إلى الشوارع، وتذهبوا إلى القرى، وتلبسوا الملابس الزرقاء، وتعيشوا بين الفلاحين لتعرفوا الحقيقة على وجهها الصحيح .. سوف تكتشفون المأسى والمهازل، سترون أن عيادات ومستشفيات اشتراكية العلاج .. تباع فيها الخدمات والأدوية .. وأصبحت مؤسسات الحكومة عيادات خاصة .. وضاعت شعارات الاشتراكية التى تنادون بها، وإذا حاول إنسان مخلص أن يلفت نظرهم إلى الحقيقة اعتبرتموه متمرذاً ورجعياً وعدواً للحكومة والشعب .. لقد أبرأت ذمتى، وأدبت واجبى، وأنا على استعداد تام لأقدم استقالتي لسيادتكم، ثم أعود لقريتى لأزرع الأرض مع أهلى الفلاحين، ولن أتقاضى أجراً ما حييت من أى مريض، حتى لو استقلت وفنحت عيادة خاصة»، وفى الرسالة أشرت إلى أن الحقيقة قد تختفى وراء غبار الظنون والشبهات وزيف الأقاويل.

ولم أرسل هذه الرسالة تلك المرة إلى مكتب المحافظ بالمحافظة، وإنما أرسلتها على عنوان بيته فى طنطا، وشعرت بالارتياح بعد أن سجلتها بالبريد، وأخيراً أخذت الزوجة والأولاد، ونزلت القاهرة فى منزل صهرى الشيخ محمود محمد شاهين بحى السيدة عائشة، رضى الله عنها، وتفرغت فى البداية للإشراف على طباعة كتيبى الجديدة وبدأت كتابة قصة جديدة عن تجربتى تلك فى الوحدة الصحية، وسميتها «الذين يحترقون».

التقيت في القاهرة بصديقي الأديب الناقد الصحفي رجاء النقاش ، ورويت له قصتي في الريف ، فتحمس لها بشدة ، وبادر على الفور بكتابة مقال في جريدة الأخبار القاهرية في الصفحة الأخير تحت عنوان : (قصة واقعية مهداة لمحافظ الغربية ... من المسئول عن حماية هؤلاء الأدباء؟)

وأحدث المقال دويًا واسعًا ، وخاصة في المنطقة الطبية ، ومحافظه الغربية ، ووزارة الصحة ، وأرسل المحافظ أمرًا عاجلاً باستدعائي من قرية شرشابة ، فأخبروه أنني تركتها وسافرت إلى القاهرة ، ثم التفت إلى من حوله وسألهم : أليس فيكم من يستطيع أن يحضر لي نجيب الكيلاني في أقصر وقت ممكن ؟ » وكان إلى جواره الأستاذ الصديق إبراهيم الغندور ، وعلى الرغم من أنه من رجال التربية والتعليم ، وموجه اللغة الإنجليزية ، إلا أنه كان منتدبًا للمحافظة للقيام بعمل مدير العلاقات العامة ، فأخبر المحافظ بأنه يعرفني وأنه سوف ينفذ ما طلبه سيادته على الفور ، وانتهاز الفرصة ، وتحدث مع المحافظ حديثًا وديًا ، وأشار فيه إلى أنني رجل مشهود له ، وأن مؤلفاتي مقررّة على طلبة المدارس ، وأن .. وأن .. وقدم إلي في القاهرة الصديق « سعيد سلطان » وهو يعمل مراقب صحة بالوحدة الجمعية ، ومعه رسالة من الأستاذ إبراهيم الغندور لكي أعود لمقابلة المحافظ ، ووعدني بأنني سوف أنال حقّي كاملاً ، ولن أتعرض لأية إساءات أو منغصات بعد ذلك .. وتركت القاهرة وحدي ، وعدت إلى طنطا .

جلست في انتظار الإذن بالدخول للسيد المحافظ ، وكان للانتظار سبب ، فقد استدعى سيادته مدير المنطقة الطبية ، وكذلك المفتش الطبي المختص بي ، والذي سبب لي المتاعب ، والذي يعتبر السند والصديق لزميلي الطبيب بالوحدة ..

ودخلت على السيد المحافظ ، وعندما رأيته هب واقفًا واستقبلني بحفاوة لم أكن أتوقعها ، ووجهه يشرق بالسعادة وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، وعلى الناحية اليمنى يجلس المدير العام والمفتش الطبي ، وفي الناحية الأخرى يجلس رجل عرفت فيما بعد أنه ضابط في المباحث العامة (أمن الدولة) ، وصافحني بحرارة ، وطلب مني الجلوس وبدأنا ...

سأل المحافظ المدير العام : « ما هي مأخذكم على نجيب الكيلاني ؟ » .

- « يوزع الكثير من الأدوية .. » .

- « لمن يوزعها .. » .

- « للمرضى » .

قال المحافظ : « إذن لا يأخذها لنفسه » .

- « لم تقل ذلك .. » .

وهنا تدخلت قائلاً : « اسمح لي يا سيادة المحافظ .. إن بعض الأطباء يبيعون الأدوية ، ويضعون

ثمنها في جيوبهم ، والسيد المفتش الطبي الدكتور (س ..) يعرف ذلك » .

بدا الغضب على وجه المفتش الطبي وقال : « لا تقل مثل هذا الاتهام أنا لا أعرف شيئاً » .

- « لديك شكاوى بذلك يا دكتور (س ..) ولم تحقق فيها .. » .

اشتد الغضب بالمفتش ، وانفجر قائلاً : « نجيب الكيلاني سجين سابق .. وقد حكم عليه من قبل

بالسجن عشر سنوات » همت بالرد ، لكن المحافظ أشار إلى يده أن أصمت ، وانبرى سيادته قائلاً :

« يا دكتور (س ..) إن ما قلته الآن يدل على أنك متحيز ضد الدكتور نجيب الكيلاني .. والذي نتحدث

عنه كان قضية « رأى سياسى » ، وهى لا تشين نجيب .. إننى لا أسألك عن فكره السياسى ، ولكنى

أسألك عنه كطبيب » .

- خجل المفتش وتدارك الموقف وقال : « إنه كطبيب ممتاز فى عمله » .
- « عظيم .. وهل يأخذ من الفلاحين أجراً على الفحص الخصوصى » .
- « لا ... » .
- « هل يبيع الدواء الحكومى للفلاسين ؟ » .
- « لا .. » .
- « إذن ماذا تريدون منه » .
- « إن هناك وحدة طبية بدون طبيب ، ولذلك احتجنا إليه ليعمل بها » .
- قال المحافظ : « ولماذا لا تنقلوا الطبيب الآخر » .
- « إنه الأقدم يا سيادة المحافظ » .
- « لكنى علمت أنه قُدم للمحاكمة فى محكمة أمن الدولة ، وصدر ضده حكم بعزله من رئاسة مجلس القرية ، وقطع أجر شهرين من مرتبه ، ووقف ترقيته .. » .
- « أمرك يا سيادة المحافظ .. »
- « ليق الدكتور نجيب فى بلده ، ولا يتعرض له أحد من عندكم .. وإلا فسوف أنقله عندى فى المحافظة لكى يكون إلى جوارى ليساعدنى برأيه وخبرته » وانصرف المدير العام والمفتش وهما يتصببان عرقاً ، وانتصر الحق أخيراً ، واستبقانى المحافظ بعد أن ذهب ، وعرض عليّ العمل معه ، واعترف لى بأنه يعانى من قلة الرجال المخلصين فى محافظته ، وأنه لم يعد يثق إلا فى ثلاثة . أنا أحدهم . وألح على فى ذلك ، فقلت له : « أشكرك يا سيادة المحافظ على ثقتك الغالية ، لكنى عاهدت الله أن أبقى متمسكا بمهنتى الطبية حتى النهاية ، وليست لى طموحات فى مناصب سياسية أو إدارية حالياً ، لأننى أشعر بالسعادة القصوى مع مرضاى ، والطب - كما يقولون - مهنة إنسانية بالفعل ، يثيب الله عليها خير الجزاء ... » . وصمت السيد المحافظ برهة وقال : « لماذا لا ترشح نفسك فى الانتخابات النيابية القادمة ، وتدخل المجلس ، أنا واثق أنك ستنتجح بإذن الله » .
- قلت له : « معذرة يا سيادة المحافظ .. فأنا كما تعلم « معزول سياسى » ولا يحق لى الدخول فى الانتخابات العامة ، بسبب الحكم الذى صدر ضدى من محكمة الشعب عام ١٩٥٥ » .
- قال فى ثقة وحماسة : « سأكلم لك ابن أختى السيد عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، إنه يستطيع أن يرفع عنك العزل السياسى .. » .
- وصدقت .. وفى الانتخابات التالية قدمت طلباً للترشح .. وعلى باب المحافظة نزلت قائمة بأسماء ممنوعين من دخول الانتخابات .. وكان اسمى هو الوحيد فى هذه القائمة ..
- ذهبت إلى القاهرة ، وأحضرت أسرتى مرة أخرى ، وعدنا إلى قريتنا الحبيبة مرة أخرى .. وتلقانا الأهالى فى موكب متواضع من الترحيب والفرح والزغاريد .. لقد تحقق نصر لا بأس به فى هذه المواجهة .. والانتصارات الصغيرة تصنع فى النهاية النصر الكبير ..
- وتفرغت لكتابة رواية « الذى يحترقون » ، ألجأ إليها فقط فى المساء ، وأسجل بعض الصفحات .. وقد تضمنت هذه الرواية الكثير مما جرى لى فى هذه التجربة : فكانها جزء من السيرة الذاتية ..



[٩] الحريق الكبير



كانت «الوحدة الجمعة» مكونة من القسم الطبى وبه أطباء

وممرضون وممرضات وفنيون وكتبة وحراس وتومرجية

وفراشون، وبالوحدة الجمعة أيضًا قسم الخدمة الاجتماعية ومسؤولياته

معروفة، كما أن فيها قسم للإرشاد الزراعى والحيوانى محدود النشاط

للفاية، وهناك أيضًا القسم التعليمى حيث الناظر والمدرسون والطلبة

والطالبات، وبالإضافة إلى ذلك مجلس القرية المنتخب، والذي يرأسه

الطبيب أحيانًا، أو عمدة القرية الحاج إبراهيم الشافعى أحيانًا، وأخرى، وقد

رأسه ذات مرة بالتعيين الأخصائى الاجتماعى، وكان رؤساء هذه الأقسام

كلها يسكنون فى مساكن داخل الوحدة، الأطباء والناظر والأخصائى

الاجتماعى الذى يشرف على النشاط الزراعى والاجتماعى معًا، والمعروف

أن مجلس القرية هو الممثل للفلاحين، وممثل الحزب الذى يحكم دون

منافس. وكانت أغلب مساكن شريحة من الطوب اللبن فى تلك الفترة،

وليس فى القرية محطات للكهرباء أو ضخ الماء آنذاك، والشوارع متربة، وأسطح المنازل تتكسد فوقها

أحطاب الذرة الجافة وأعواد القطن، ومخازن الحبوب والطعام، ومعروف أن هذه الأحطاب الجافة

تستخدم فى الأفران لخبز الأرغفة، كما تستخدم فى طهى الطعام، وقلة من الناس يستخدمون مواقد

الجاز للطهى، لكن الجميع يخبزون فى الأفران البلدى.

كان يوم الخامس والعشرين من يناير عام ١٩٦٣ يومًا عاصفًا باردًا، وكان الناس يرتجفون من شدة

البرد، وحدث أن انطلقت شرارات من فرن مشتعل فى وسط القرية فأمسكت بالحطب، وسرعان

ما ارتفعت ألسنة اللهب، واتسع نطاق الحريق فوق أسطح المنازل المتلاصقة الواطئة، وأصاب الذعر

الناس، وأخذت النسوة فى الصياح والاستغاثة، وهرولوا لإنقاذ أطفالهم وبهائمهم، وكان انشغالهم

بذلك مدعاة لامتداد الحريق بسرعة كبيرة لشدة العواصف، ولوحظ أن بعض الحمام تطير مشتعلة ثم

تحط على أحد الأسطح فتشتعل النيران فيه، ولم يكن فى القرية أجهزة لإطفاء الحريق على الرغم من أنها

قرية كبيرة، فاتصل العمدة بالمطافئ فى المركز والحماظة، ولم تصل النجدة إلا بعد أن احترق جزء كبير

من البيوت، وعندما وصل رجال الإطفاء، وجدوا أن مياه الترعى قليلة بسبب الجفاف أو السدة الشتوية

فى هذا الوقت من كل عام، ومع أن نقص الماء كان مشكلة كبرى، إلا أنه ظهرت مشكلة من نوع آخر

غريب، وهو أن الفلاحين هجموا على خراطيم المياه، وكل واحد منهم يريد أن يطفى بيته أولاً، وهكذا

نشبت المعارك بين الفلاحين وبعضهم البعض، وبين الفلاحين ورجال الإطفاء من جانب آخر، وأصيب

عدد من الناس من جراء ذلك الصدام، لكن عددًا من الفلاحين تعاونوا فى نقل المياه من الطلمبات التى

تخرج المياه الجوفية، ومن الترعى فى الأوانى المنزلية والجرادال والصفائح المعدنية، وحققوا فى ذلك قدرًا

من النجاح، وحاول البعض إطفاء الحريق باستخدام العصى الطويلة والغليظة وعروق الخشب الضخمة

وأفرع الأشجار، ونثر التراب هنا وهناك، كانت الجموع تخوض معركة ضارية ضد سطوة النار التي لا ترحم، وبقي الصراع ساعات طويلة مؤلمة، والأطفال يصرخون ويكفون، وكذلك النساء، حتى الكلاب أخذت تنبح، واختلطت أصوات الحيوانات الأخرى، وأسودت الأيدي والوجوه من أثر الهباب والدخان، وأصبح جو القرية خانقاً لا يكاد يطاق، وقد نجد امرأة هائمة على وجهها في الشارع تجرى وتنادى ابنتها الضائعة، أو ولدها المفقود، تاركة الحريق والناس، فليس في رأسها إلا فلذة كبدها، وليحترق العالم كله، ومات في الحريق أربعة من الرجال والنساء، ونفقت بهائم وحمير وأغنام وماعز، ودمر الكثير من أثاث المنازل، كما احترقت الأسقف، وهي في الغالب من الخشب المغطى بالطين، ودمرت منازل، وأتت النار على جزء كبير من المحاصيل التي يخزنها الفلاحون فوق الأسطح أو في مخازن طينية، والمعروف أن كيزان الذرة تترك مكشوفة فوق البيوت .. وكانت إحدى النائحات تقول « موت وخراب ديار .. الطف يارب » . وفي أحد الأماكن تجمع عدد كبير من المستين، وقفوا يضرعون إلى الله بصوت عالٍ، والدموع تتساقط من أعينهم، وبعضهم يردد « إن ما جرى ما هو إلا نتيجة لعصياننا وغضب الله علينا، ولا نجاة إلا باللجوء إلى الله، وكان العمدة والخبراء يجرون هنا وهناك ويطلقون الصفاير، ويصدرون التوجيهات أعنى الأوامر، وليس هناك سامع أو مجيب وسط الضجيج والدخان والغبار، وتقول عجوز ترحف على يديها وركبتيها « إذا كانت هذه هي نار الدنيا، فكيف تكون نار الآخرة ؟ اللهم رحمتك بعبيدك المساكين .. » .

ومضت الساعات قاسية رهيبة، لم يكن هناك من يستطيع التوقف للتفكير، إذ لا مجال سوى العمل، ومكافحة الحريق بكل شيء حتى بالطوب، وبكل ما تصل إليه اليد، إذ لا يستطيع أحد أن يقف متفرجاً، كان الصديق التريزي « منصور السروجي » يكاد يجن وهو يرى الحريق يلتهم منزله، وحاول مراراً أن ينقذ ماكينة الخياطة التي يرتزق منها فلم يستطع أن يقتحم النار، فجرى صوب أحد رجال الإطفاء وأخذ ينتزع منه الخرطوم عنوة، وتشبث الشرطي بخرطومه، فجذبه منصور جذبة عنيفة فأفلت من يد الشرطي، لكنه اصطدم بعين منصور اليسرى، فرمى بالخرطوم وهو يستنجد بأخيه : « عين أخيك طارت يا ولد يا كامل .. الحقني » . وقدم كامل حاملاً فأسه، يريد أن يهوى بها على رأس رجل الإطفاء، لكن منصور كان قد أفاق، فاعترض طريق أخيه، وأسلك به وهو يقول : « لم يكن يقصد إيذاي يا كامل .. له الشكر على كل حال، لقد جاء لنجدتنا » .

ووقف منصور يتحسس عينه المتورمة الزرقاء، ونسى أو كاد ماكينة الخياطة التي تحاصرها النيران. وهدأت العاصفة، وأخذ الحريق يخمد رويداً رويداً، وساد الصمت وجلس الفلاحون والفلاحات على الأطلال يكون، ويرمقون الدخان المجتمع في السماء بعيون دامعة حزينة، ومن الصدفة العجيبة أن الآفات الزراعية كانت قد فتكت بالكثير من المزروعات والعام الذي سبقه، والناس يعانون الفقر وضيق الحال، ويعزون تلف المحاصيل إلى المبيدات الحشرية المغشوشة، والتي لا تؤثر في ديدان القطن أو الذرة، لدرجة أن أحد الفلاحين وضع دودة قطن وغيرها في مسحوق المبيد، وكم كانت دهشته عندما شاهد الدودة تنقلب في المبيد دون أن يصيبها أدنى أذى، وهكذا اجتمع خراب المحصول مع دمار الحريق، فيما يشبه المؤامرة للإطاحة بأمن الفلاح، وتضييع رزقه، والقضاء على آماله في الرخاء ...

وقضى أهل القرية أسوأ ليلة عرفوها في حياتهم، وتوافد إلى الوحدة المجمعة عدد من الناس، هفت بزوجتي وكانت في الطابق الثاني : « انزلى وقدمي كل ما لديك من طعام للناس، وخاصة الأطفال » . ومن فضل الله أن الحريق لم يصل إلى الوحدة المجمعة القائمة في المنطقة الغربية، والتي يفصلها عن

القرية ترعة، لكن بيتنا، بيت الوالد، في الناحية الشرقية من البلد تعرض لدمار الحريق، ذلك لأن مد الحريق كان يتجه جهة لشرق كالمدار الجبار الذي لا يقدر على مواجهته أحد، وحاولت زوجتي بأقصى ما تستطيع أن تقدم كل ما لدينا من مخزون لمن قدموا إلى البيت، وآوت الأطفال الصغار في الدور الأرضي كي يستطيعوا النوم ويكفوا عن البكاء..

في اليوم التالي قدم سيادة المحافظ ترافقه وزيرة الشؤون الاجتماعية وقتذاك الدكتور حكمت أبو زيد، وبالطبع كنت ضمن مستقبلهم، ومضى ركب الضيوف في الحقيقة يجوب شوارع القرية، وينظر بألم إلى الدمار الذي لحق بها، ولأحظت أن المحافظ يتوَدَّد إليّ بكلمات طيبة، وخاصة بعد أن علم من الناس ما بذلته من جهد، وطلبت إرسال المعونات الغذائية وخيام الإيواء والأغطية على الفور، فأكد لي أن تلك هي مهمته العاجلة والسريعة، وكانت المعونة الغذائية التي أتت في نفس اليوم منصبة على الخبز وحده، فهو أهم شيء، والناس جائعون، والبرد شديد، ونصبت الخيام، ووقفت في ساحة تنوسطها، وأخذت أوزع أرغفة الخبز، كان الفلاحون يتزاحمون بصورة جنونية «فالجوع كافر» كما يقول أهل القرية، وكانوا يتصادمون ويتضاربون وكأنهم نسوا تمامًا الداعة والألفة التي تربط بينهم من قديم، وكان الأمر يصل في بعض الأوقات للتشابك بالأيدي، لكنني كنت أبادر بفض الاشتباك بإعطاء الطرفين عددًا من الأرغفة التي تكفي، فأنا أعرفهم واحدًا واحدًا، كما أعرف حجم كل أسرة، ومعنى نخبة من الزملاء يساعدونني في ذلك، كنت ألبس «روبًا سميكًا، فوق المنامة البيجاما»، وأضع على رأسي طاقية من الصوف، لكن الغبار الناجم عن الزحام كان كثيفًا جدًا حتى كدت أختنق، وخف الزحام إلى حد كبير، واستطعنا إرضاء معظم الناس، وقد أتى إلى الوحدة لتسلم الخبز الأغنياء والفقراء على السواء، وقد انتهز بعض العاملين بالوحدة الفرصة ليستولوا على كمية كبيرة من الخبز، فاعترضت ونهرتهم، وطلبت من والدي رحمه الله ألا يحضر إليّ أحد من عائلتنا الكثيرة العدد. ورجوته أن ينظم المعونة لهم داخليًا، فأكبر في ذلك ووعدني بالتنفيذ، ومع ذلك فقد أتى عدد من فقراء العائلة، فلم أشأ أن أردهم خائبين، بل أعطيتهم مثلما أعطيت الآخرين، وفي مساء هذا اليوم (ثاني أيام الحريق السادس والعشرين من يناير ١٩٦٣) قدم نائب الدائرة المنتخب الأستاذ صلاح سعدة أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة، وجلس معنا في المخيم، وليساهم بجهوده في عبور هذه الكارثة، وكان الأستاذ صلاح رجلًا مخلصًا مهذبًا رقيقًا، ويمت لبعض أسر قريتنا بصلة قرابة. وقد أبعدته جمال عبد الناصر عن الصفوف الأولى في الثورة لخلافه في الرأي معهم، وعينه رئيسًا لمجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام، وهو من الشخصيات المحبوبة في البلد، وما ذكره أهل قريتنا أنه أثناء المعركة الانتخابية، طلب منه أهل القرية. كشرط لانتخابه. طلبًا واحدًا، وهو إخراجي من السجن، فأكد لهم أنه لن يكف عن بذل المحاولات للإفراج عني، وأقسم لهم على ذلك، وشرح لهم أن هذا يحتاج إلى قرار من مستوى عالٍ، وهو واثق أن الله سوف يحقق أمل الإفراج عني. وشيعت قريتنا شهداء الحريق، وكان منهم شاب اسمه رشدي صالح، واستقبلت وزيرة الشؤون الاجتماعية زوجته المتشحة بالسواد وكانت المقابلة مشحونة بالعواطف المؤلمة، وقدمت لها المعونة العاجلة، وفي الأيام التالية أخذنا نطوف بالمنازل لحصر الخسائر، حتى تستطيع الحكومة تحديد التعويضات المستحقة على وجه التقريب، وبعد فترة ليست بالقصيرة، جاءت التعويضات.. لكنها للأسف كانت مخيبة للآمال، وكان على الفلاحين أن يرضوا.. وأن يصبروا مثلما صبروا من آلاف السنين..

[١٠] الحياة الصعبة في القرية



بطبيعة الحال، فإن الحياة في قريتنا كانت صعبة، والمشاكل فيها

لا تنتهي، ليس بسبب صعوبة العمل وكثرته، ولكن بسبب

الأوضاع المتردية أيضًا، وكانت هناك مخلفات كثيرة من جراء الممارسات

الخاطئة لمن سبقوني في العمل، ومع ذلك حاولت جاهدًا أن أرتب

الأوضاع، وأزيل الخزازات القديمة على قدر ما أستطيع، فمثلًا كانت هناك

معونات أمريكية تسلم لطبيب الوحدة من دقيق وسمن وغير ذلك، ولم

أكن أعلم عنها شيئًا أو أهتم بها إلى أن جاءت فرقة للتحقيق مع زميلي، بعد

أن قدمت شكوى من الفقراء يتهمونه بأنه يبيع المعونات لحسابه الخاص،

ولا يعطيهم شيئًا، وكم كانت دهشة المحقق عندما وجد أن هؤلاء لم

يأخذوا المعونة على الرغم من توقيعهم باستلامها، ويجرائي لبعض

التحريات تبين لي صدق هؤلاء المساكين، وكان البعض منهم يمتون لي

بصلة قري، وأصر الفقراء على أقوالهم، وأصر الطبيب ومن معه على

الإنكار، ومع أن صحيفة التحقيق لم تُغلَق تمامًا إلا أن اللجنة قررت تسليمي العهدة، على الرغم من

عزوفي الشديد عن ذلك، ووضعت المخزن تحت مسئولية أحد الموظفين، وبدأت التوزيع بنفسى

بالعدل، وكم كانت دهشتي عندما جاء والدى إلي ذات يوم وقال وهو يلوح بيده في غضب: «أنت

نائم.. ولا تدري شيئًا عما يجري وراء ظهرك».

- «خيرًا يا أبى ..».

- «باع أمس رجالك عددًا من أجولة الدقيق، وأنت لا تدري».

- «هل هذا معقول ..».

- «أستطيع أن أصحبك بنفسى للتاجر الذى اشترى منهم».

واستبد بي الضيق، واحترت ماذا أفعل، وأسرعت بجرد المخزن، ولكن اللصوص للأسف لم

يتركوا ثغرة، فطلبت منهم المفاتيح، وقمت بنفسى بتوزيع المعونة الأمريكية حتى لم يبق منها شيء،

وقررت ألا أترك المعونة فى المخزن مستقبلًا إذا جاءت إلا لفترة قصيرة يتم توزيعها فيها، وأسفت أشد

الأسف لأننى وضعت ثقى فيمن لا يستحقونها، وتعلمت درسًا لا أنساه .. وجاءنى أحد الفلاحين

واسمه عبد الحليم أبو باشا وأخبرنى أنه معرض للسجن بسبب زميلى الطبيب، ولما سألته عن السبب قال

إن أحد المرضى واسمه أبو الفتح شعبان جاء يشكو من الحمى، فأعطاه الطبيب حقنة مات على أثرها،

ثم كتب تقريرًا ذكر فيه أن الوفاة نتجت عن نوبة قلبية مفاجئة، ودفنت الجثة، وبادر عبد الحليم بتقديم

شكوى ضد الطبيب متهمًا إياه بالتسبب فى وفاة أبو الفتح، واستطاع الطبيب أن يفلت، ولم يكتف

بذلك بل رفع دعوى ضد عبد الحليم أبو باشا بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، ومطالبًا برد

شرف، وضاق الخناق على عبد الحليم الفقير المسكين، وأخذ يعتذر للطبيب دون جدوى، فما كان منه

إلا أن وكل أحد المحامين للدفاع عنه ، واقترض أجر المحامي ، وأقسم أنه باع قطعاً من أثاث بيته ، وكان قد فعل نفس الشيء قبل ذلك ليدفع للطبيب تكليف عملية البواسير التي يفترض أن تكون بالمجان واستدعيت الممرضة المختصة ، بعد أن مضى عبد الحليم ، وسألته عن واقعة وفاة أبو الفتوح شعبان ، بعد أن أفهمتها هذه شهادة تسأل عنها أمام الله ، قلت : « أى حقنة أعطيت لأبو الفتوح » .

- « بنسلين .. » .

- « وهل مات على الفور ؟ » .

- « نعم .. » .

- « ومن الذى أمرك بإعطائه الحقنة ؟ » .

- « الدكتور » .

- « ألم يجز الطبيب اختبار حساسية للبنسلين قبل إعطائه ؟ » .

- « كلا .. نحن لا نعمل اختبار حساسية » .

- « وهل سجلتم ذلك فى دفتر استقبال المرضى ؟ » .

- « لا .. » .

- « لماذا ؟ » .

- « لأن الدكتور طلب منى ألا أسجل اسمه ، ولا الدواء الذى أخذه » .

شكى نور الزكي

- « شكراً .. » .

- « ليس لى ذنب ، وأنا لا أستطيع مخالفة زميلك .. كان يمكن أن يضرنى .. » .

عندما جاءنى المتهم عبد الحليم أبو باشا بعد يومين ، أخبرنى أن القضية أوشكت ، وأنه خائف أن يحكم عليه وهو مظلوم ، فأخرجت ورقة ، وكتبت مذكرة أشرت فيها إلى أن البلاغ الذى قدمه عبد الحليم أبو باشا ليس كاذباً ، واستدلت على ذلك بعدم تسجيل اسم المريض أبو الفتوح فى دفتر الاستقبال ، وكذلك عدم كتابة نوع الحقنة التى أخذها ، وقد ثبت أنه مات بالمستشفى بشهادة جميع أهل القرية ، لكن جرت محاولة معتمدة لطمس معالم القضية ، وما إن قرأ المحامى المذكرة حتى فرح بها جداً ، وعندما نودى على القضية قدم المذكرة للقاضى ، وكان أن حكم ببراءة المتهم عبد الحليم أبو باشا الذى صاح بأعلى صوته قائلاً « يحيا العدل .. أنا وراك يا ظالم والزمن طويل » يقصد الدكتور ، وتولت لجان التحقيق من المنطقة الطبية التحقق فى القضايا والشكاوى المتراكمة ضد زميلى ، وكان شيئاً مربكاً للغاية بالنسبة له . وجاءنى ذات ليلة منهكا حزينا ، وقال : « أعتذر إليك ، أنا تسببت لك فى كثير من المشاكل ، ولكن الله نصرنا .. وأريدك فى هذه الأيام أن تقف إلى جوارى وتنقذنى .. لقد أخطأت ودفعت ثمن خطئى ، فمجلس الدولة أداننى ، وأصدر ضدى جزاء ، وأوقف ترقيتى .. وأنا عندى طفلة أريها .. أرجو ألا تتخلى عنى .. » . وكان المحقق قد قدم لإجراء تحقيق حول تقاضى الطبيب مبلغاً من المال نظير عملية جراحية بالمستشفى الحكومى بالوحدة ، وكان المحقق يعرفنى من قبل ، وأذكر أن اسمه محمد وهدان ، فرجوته أن يصفح عن الدكتور الزميل ن فأخبرنى أنه لا يستطيع إلا إذا تنازل الشاكى عن بلاغه ، وأحضرت الشاكى وقلت له : « يا حاج يوسف .. » .

- « نعم يا دكتور » .

- « هل سلمت الدكتور المبلغ بيدك ؟ » .

- « لا ، بل عن طريق التورجى » .

- « وإذا أنكر التورجى » .
- « يبقى كذاب فى « أصل وشه » .. » .
- « ما أريده منك هو أن تقول الحقيقة يا حاج يوسف » .
- « البلد كلها تدفع للدكتور قبل أن تحضر أنت » .
- « نحن إزاء واقعة محددة يا حاج يوسف .. قل للمحقق أنك لم تسلم له المبلغ شخصيًا » .
- وهكذا استطاع المحقق أن ينقذ صاحبنا من هذه القضية ، والحقيقة أن الزميل الطبيب لم يرتكب مخالفات أخرى بعد ذلك ، وطلب منى أن أبلغ المنطقة الطبية بأنى موافق أن يبقى معى فى الوحدة بدلاً من نقله إلى مكان آخر ، حفاظًا على استقراره الأسرى ، فوافقت على الفور ، وأخطرت المنطقة بذلك ، وبعدها ساد الوحدة الجمعية جو من الهدوء والصفاء ، ولقد كانت هناك خلافات بين زميلى وغيره من الموظفين وخاصة الأخصائى الاجتماعى وناظر المدرسة وبعض أعيان البلد ، وقد استطعت بعون الله أن أعقد الصلح بين جميع الجهات المتناحرة لكى تستقر الأوضاع ، ونستطيع أن نقدم الخدمات الكافية لإخوتنا من الفلاحين . وذات يوم تقدمت مريضة كبيرة السن مرقعة الثياب ، ونظرت إلى بطاقتها فوجدت مكتوبًا عليها « بالجان » ، ولست أدرى لماذا سألتها : « هل دفعت الرسوم » .
- « نعم يا بنى .. » .
- « كيف ؟ مكتوب على البطاقة أنها بالجان » .
- « والله يا بنى دفعت أربعة قروش صاغ .. » .
- وجن جنونى ، تلك سرقة أخرى ، واستدعيت الكاتب رضوان وقلت له : « هل أخذت الرسوم من هذه المريضة ؟ » .
- نظر إليها واربتك وقال : « نعم .. » .
- « فلماذا كتبت على البطاقة « بالجان » ؟ طبعًا لتضع المبلغ فى جيبيك » .
- ووجدت رضوان ينحنى على مكتبى ، ويمسك البطاقة ، ثم يشطب على كلمة « بالجان » ويكتب فوقها « رسوم » ، وطلبت منه أن يخرج ، وأخذت أجمع بطاقات الجان من المرضى المتبقية ، واكتشفت أن رضوان زور فى الرسوم فى عشرة بطاقات أخرى ، ومعنى ذلك أنه اختلس أربعين قرشًا ، أى ما يوازى ٢ جنيهًا فى الشهر على الأقل ، وهى أكثر من مرتبه الشهرى ، وتقرب من مرتب الطبيب ، وأصدرت على الفور قرارًا بنقل رضوان إلى المختبر ، واخترت بدلاً منه رجلًا أمينًا من أهل القرية ، وكان مسيحيًا اسمه ليب » .
- وتسبب رضوان فى كارثة من نوع آخر ، فقد خاف أن أحقق معه فى البطاقات القديمة المكتوب عليها « بالجان » ، فسارع بتمزيقها ، ولم يدرك أنه بذلك قد ارتكب حماقة كبرى ، لأن تمزيق البطاقة ، يعنى عدم حصر الأدوية المسجلة عليها للمريض ، وهى أقراص وشراب وحقن ، ومعنى ذلك ، أن الجرد السنوى سيكون ناقصًا ، ويعنى أننى اختلست الناقص من الأدوية ، وضاعت نفسى ، وفكرت أن أسلمه للشرطة ، لكننى أشفقت عليه وعلى عائلته التى لا ذنب لها ، فماذا سيفعلون إذا فصل من عمله ودخل السجن ، وبادرت بحصر سجلات الصيدلة ، والعودة إلى السجل العام ، واستخرجت بطاقات جديدة « بدل فاقد » وشغلت معى فى هذا العمل المرهق عددًا من الموظفين بالوحدة .. وعندما انتهيت من هذه الأزمة ، أتيت برضوان وقلت له : « ارحل عن هذا البلد .. » .
- « إلى أين ؟ » .

- « في أية داهية » .

« لقد نزلت بلدكم من سنين ، وأصبحت هي موطنى وأهلها أهلى » . عندئذ قدم أبى رحمه الله وقال : « لتصفح عنه المسامح كريم .. وسأتمهد بأن يكون مخلصاً أميناً » .

تلك كانت نماذج من المتاعب اليومية التى تجابهنا فى العمل ، وتسبب لنا الاضطرابات التى نحن فى غنى عنها ، ويمكن تجنبها ، لكن الطمع كثيراً ما يدفع بالإنسان إلى ارتكاب الحماقات .

وفى هذه الأثناء أتى إلينا ناظر المدرسة الأستاذ عبد المنعم عميرة ، وقال إنه وردت إلينا إشارة من المسئولين فى المحافظة تطلب من كبار العاملين بالوحدة أن ينتشروا فى القرية ويدعوا كافة أهل البلد بالانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى حزب الحكومة ، وكان لابد من تنفيذ الأوامر ، وركبنا سيارة ، وأمسك الأستاذ عبد المنعم بمكبّر الصوت (الميكروفون) وأخذ ينادى والسيارة تمشى ببطء : « يا أهالى شرشابة .. بادروا بالاشتراك فى الاتحاد الاشتراكى فوراً من أجل مصلحتكم .. أيها الفلاح إذا أردت لابنك مكاناً بالمدرسة ، ووظيفة بعد التخرج ، فلتسرع للء الاستمارة الخاصة بالانضمام للاتحاد الاشتراكى ، والذى لا يشترك لا يلومن إلا نفسه » .

وأخذ الفلاحون يتدفقون على الوحدة لكى ينفذوا أوامر الحكومة ، وكان ازدحامهم أشد ما يحدث أمام الجمعيات التعاونية التى توزع السلع التموينية الرخيصة المدعّمة من الحكومة ، وسرى بينهم كثير من الأقاويل والشائعات ، مؤداها أن من لا يشترك فى حزب الحكومة الأوحّد سيتعرض للنقمة والعقاب ، وسيصبح مستقبل أبنائهم مهدّداً بالخطر قلت لأبى : « ألن تنضم للحزب ؟ » .

- « وأنت ؟ » -

- « تعلم أننى معزول سياسياً » .

- « وأنا سأعزل نفسى سياسياً » .

- « ألا ترى أنه من الأحوط أن ... » .

قاطنى قائلاً بحزم وبلهجة الشعبية : « بلاش كلام فارغ .. كلهم حرامية ونصّابين » .

على الرغم من أن القرية استطاعت أن تطفئ الحريق الكبير ، مثلما فعلت فى حريق مشابه منذ ما يقرب من ستة وعشرين عاماً ، ولعله على حد قول البعض انطفأ من نفسه بعد أن أكل كل شىء ، أقول على الرغم من ذلك ، فقد بقى الحريق مشتعلًا فى القلوب ، ولماذا لا يكون الأمر كذلك ، وقد ابتلوا بخسائر متتالية فى المحاصيل بسبب الآفات ، وفى مخزون العام والبهائم والبيوت من جراء الحريق ، والمبالغ التى يدفعونها لأولادهم فى الدروس الخصوصية هى الأخرى تلتهم جزءاً كبيراً من الدخل ، وارتفاع الأسعار يسبب لهم الضيق المتزايد ، وصغر المساحات الزراعية المتاحة لهم .. إنها ابتلاءات كثيرة تنزل عليهم من وقت لآخر ، ومع ذلك فهم مضطرون اضطراراً لأن يطيعوا الأوامر التى تصدر من أعلى ، ويستسلموا لقضاء الله ، وعليهم أيضاً أن يهتفوا بحياة الزعيم والثورة ، كفريضة كتبت عليهم تضاف إلى الفرائض الخمس التى آمن بها الناس منذ أن بعث نبي الحب والرحمة والعدل والحرية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى الرغم من الضيق العارم الذى يثقل على القلوب ، فقد حدثت فتنة بين أعز صديقين يضرب بهما المثل فى القرية ، هما عبد الحميد جاب الله وكامل أبو العطا ، إذ حدث بينهما خلاف حول بعض المسائل المالية ، وتطور الخلاف إلى حرب شعواء ، وسقط القتلى ، وسالت الدماء ، وتعمّدت الأمور ، واضطرب الأمن ، ووقف الناس فى حيرة أمام هذا البلاء الجديد ..

[١١] من ذكريات القرية



من المؤلفات التي كتبتها بسرعة في هذه الفترة كتاب «الإسلامية والمذاهب الأدبية» ويعتبر هذا الكتاب على الرغم من أنه يجمع عددًا من الأفكار والخواطر حول مذهب جديد في الأدب «الأدب الإسلامي»، من الكتب الهامة التي فتحت الطريق أمامي لكي أبدأ في كتابة قصص وأشعار في إطار التصور الإسلامي الصحيح، إيمانًا مني بأن أى اتجاه أدبي في العالم ينبع أساسًا من عقيدة أو فلسفة معينة، وعلى ضوء عقيدتنا الإسلامية التي تنظم جوانب الحياة المختلفة، يجب أن يتحرك أدبنا، وكان هذا بداية حركة فعلية نشأت لأول مرة في إطار فهم واضح، وقبل ذلك أثرت في الفصل الرابع في كتابي «الطريق إلى اتحاد إسلامي» إلى شيء من هذا القبيل، ودعوت في ذلك الفصل إلى إنشاء رابطة أو ناد أو اتحاد لحملة الأقلام الإسلامية، كما دعوت إلى إنشاء إذاعة عالمية إسلامية، ولاتحاد أو رابطة لعلماء المسلمين في العالم، ومن فضل الله أن هذه الأفكار كلها قد تحققت، وكانت بداياتها في المملكة العربية السعودية التي قدمت للمسلمين في أقطار الأرض كثيرًا من الخدمات الجليلة.

أما رواية «الربيع العاصف» فقد كتبتها قبل ذلك، أى قبل أن أخرج وأعمل طبيبًا في الريف، على الرغم من أنها تعالج قضية مشابهة للقضية التي طرحتها في رواية «الذين يحترقون»، مع اختلاف في الأهداف والتوجهات.

ومن الأمور التي أحمد الله عليها، أنني استطعت لأول مرة في الوحدة أن اكتشف عددًا من حالات مرضى السيل الرئوى باستخدام السماعة وحدها، فلم يكن لدينا جهاز للأشعة، ولا استعدادات لتحليل «بصاق» المشتبه فيهم، ولهذا أحلت إلى المستشفى الصدرى المركزى الحالات المشكوك فيها، وقد اتضح أن أغلب الحالات المحولة وُجد إيجابيًا، وهكذا وجد هؤلاء الفلاحون. نساءً ورجالاً. الفرصة للعلاج، كما أنهم أخذوا يتقاضون معونة شهرية مالية، وتصرف لهم كميات من الغذاء الضرورى لهم بالجمان، وكان لهذا الحدث وقع طيب في نفوس أهل القرية بصفة عامة، والمرضى بصفة خاصة، وكنت أحمد الله على هذا التوفيق، ولقد كان ذلك سببًا آخر من أسباب تراحم المرضى في عيادتي، وللثقة ثمنها الغالى الذى تدفعه من عرقنا وسهرنا.

ومن الطريف أن البقال الذى اشترى منه احتياجاتى المنزلية من أرز وسكر وصابون وما إلى ذلك جاءنى وأخبرنى بأنى مدين له، بما يقرب من أربعين جنيهًا، وكان يضحك لأنه يرى لأول مرة فى حياته طبيبًا مدينًا، وكان يعلم أنى أعيش بمرتبى، ولا أقبل الهدية أو أجر الفحص الخاص، وعندما علم والدى رحمه الله بذلك أحضر المبلغ المطلوب ودفعه نيابة عنى، لكن يجب أن أذكر أن حالتى المالية كانت فى عمومها جيدة، لما يرد إلى من دخل الكتب، ومع ذلك فقد كانت هناك أزمت مالية طارئة لابد أن

تحدث من وقت لآخر، ولم يكن ذلك ليسبب لى أى إزعاج ..
أخذنى أبى ذات يوم إلى أرضنا الزراعية التى تبعد عن القرية حوالى كيلو متر، وكان يحدثنى عن أهمية الأرض، وأن فيها جذورها، وأن علينا أن نحافظ عليها ونخدمها، فى أى وقت من الأوقات، لأنها رصيدنا الدائم، وذكرنى أبى بقصة لم يمض عليها إلا ثلاث سنوات، أى فى عام ١٩٥٩، حينما قدم إلى فى مسكنى بحى شبرا بالقاهرة، وأخبرنى أنه جاء لأمر هام جدًا، ولما سألته فى شغف عن ذلك الأمر قال: «أتذكر أنه منذ سنوات طويلة كانت لنا أرض فى حوض «الأربعينية» .

- «نعم أتذكر ..» .

- «وأن هذه الأرض قد سلبها العمدة وإخوته، حينما حكم لهم فى المحكمة فى قضية غبنا عنها، وصدر الحكم غيائياً .. إننا لم ننس هذه الأرض ..» .

- «هذه قصة قديمة مضى عليها عقود من الزمان» .

- «ولو مضى عليها ألف عام .. المهم أنهم يبيعونها الآن، ولا بد أن نشترىها حتى تعود لنا أرضنا ..» .

قلت فى هدوء: «يا أبى .. الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ..» .

بدأ الغضب على وجهه وقال: «إننى أعرف ذلك، هل جئت إليك لتعلمنى؟ هذه الأرض هى التى علمتلك، وجعلت منك رجلاً ..» .

اعتذرت لأبى، ورحبت بفكرته، وطلب منى أن أحضر المبلغ المطلوب ثمنًا للأرض، على أن يُكتب عقد الشراء باسمى، فهولت مسرعًا إلى الناشر، وتسلمت منه المبلغ المطلوب، ولم ييت أبى ليلتها معنا، بل توجه فورًا عائداً إلى القرية وهو فى منتهى السعادة، وتم موضوع الشراء على خير وبالثمن الذى حددوه، ومنذ ذلك اليوم، وأبى يذهب كل صباح إلى تلك القطعة الزراعية، وكأنها الأم العائدة بعد غربة مريرة، ويتناول فطوره، ويشرب الشاي هناك، وبقي على هذه العادة ما يقرب من عامين، ولم أكن أحس نحو الأرض ذلك الإحساس العميق إلا بعد هذه الواقعة، واليوم يأخذنى أبى لأسعد برؤية أرضنا وليعيد تلقين الدرس الذى يجب أن أتذكره جيدًا فى حب الأرض الطيبة ..

وأثناء عملى فى القرية جاءتنى رسالة مسجلة بعلم الوصول من ضرائب طنطا تطلب منى دفع مبلغ ثلثمائة وخمسة وسبعين جنيهًا كضرائب عن مؤلفاتى، وعن الجوائز التى حصلت عليها فى السنوات الماضية، وكنت فى هذا الوقت أعانى من ضائقة مالية، ومدينًا للبقال الذى تبرع أبى بالدفع له، كنت أشعر بالظلم، فالذى فرض الضرائب لم يراع أننى متزوج وعندى أولاد، وعلىّ مسئوليات، ذلك لأنهم فى الضرائب زعموا بأن هناك خطابًا آخر قد أرسل إليّ، ولما لم أرد عليهم وضعوا تقديرًا جزائيًا، ولم يعد لى الحق فى التظلم، بعد أن مضت المدة القانونية، وتم ربط الضريبة، وجلست ساهمًا مغتاظًا أفكر، ماذا أفعل فى هذه البلوى التى لم تخطر لى على بال، والمبلغ يعتبر كبيرًا جدًا فى مثل تلك الأيام، ودخل أبى عليّ فى مكتبى بالوحدة الجمعة . كما سبق وأشرت . وسألنى عما يكرهنى، ولما علم بالأمر ابتسم وقال لى ما معناه، أننى أفرح عندما أنال الجوائز، وعندما تأتى الحكومة لتطالب بحقها أغضب، ولأمنى على ذلك أشد اللوم واقترح أن أذهب إلى مأمورية الضرائب، واتفق معهم على التسديد بالتقسيط .

أهل الريف يتصفون بالصبر، وتقبل الصدمات والآلام بروح عجيبة، ولديهم استسلام مذهل لقضاء الله وقدره، ولا يعرف اليأس طريقًا إلى قلوبهم، فهم يحمدون الله على كل حال، ويفكرون

فيما يجب عمله مستقبلاً، رأيت ذلك عندما دمرت الآفات الزراعية محاصيلهم، فكانوا يحزنون، لكنهم لا يشقون الجيوب، ولا يلطمون الحدود، بل ينظرون في أمل إلى العام القادم أو الذى يليه، وليسوا أبداً فى عجلة من أمرهم، لإيمانهم العميق بأن الله لن يتخلى عنهم مهما كان الأمر، ورأيت ذلك بعد أن أتى الحريق على كل شيء المأكل والمسكن وأحياناً الملبس، فأتجهوا بدعواتهم وقلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى، وكأنهم يرددون لا ملجأ من الله إلا إليه، أو كأنهم يقولون، لا راّد لقضائه، ولا معقب لحكمه. ترى هل لذلك علاقة بقلّة عدد الحالات المرضية الوثيقة الصلة بالأمراض والاضطرابات النفسية؟ أعتقد ذلك، لأن حالات ارتفاع ضغط الدم أو القرحة أو الداء السكرى، أو القولون العصبي أو الذبحات الصدرية، تعتبر قليلة جداً إذا ما قورنت بخريطة الأمراض فى المدينة.

ومن الطريف أن أذكر أن حالات الانتحار المسجلة فى قريتنا طوال أربعين عاماً مضت لم ترد عن حالتين أحدهما رجل شقق نفسه، والأخرى امرأة أشعلت الحريق فى جسدها بعد أن سكبت عليه الكيروسين. وكنت فى عملى حريصاً على الجانب الوقائى فى الخدمات الطبية، وعلى رعاية الأمومة والطفولة، ولهذا كنت أشرف بدقة على المرضات الأربع، وخاصة فيما يتعلق بالتطعيمات ضد الأمراض المعدية، وإجراء الفحوص الضرورية للأم الحامل، وعلاجها دورياً حتى يستمر الحمل، وينمو الجنين نمواً طبيعياً، وهناك فحص كنا نجريه للحامل يتعلق بإصابتها بـ «الزهرى»، وفى حالة ما إذا كان إيجابياً نعطىها بنسلين زيتى طوال مدة الحمل حفاظاً عليها وعلى الجنين على الرغم من أن الحالة ليست فى طورها الحاد. وكانت قافلة المرضات تخرج كل يوم للمرور على بيوت الفلاحين للإشراف على عمليات التوليد الطبيعية التى لا تحتاج إلى تدخل جراحى، وربط الحبل السرى، وإنعاش الوليد، وإعطاء الأدوية اللازمة للأم ولوليدها، وتزويدها بالتوعية الصحية الضرورية بخصوص الإرضاع، والاستحمام والملابس، وما إلى ذلك.

وكانت هؤلاء المرضات يعانين من الغربة والوحدة، وكانت بينهن واحدة فقط متزوجة، تذهب إلى زوجها كل أسبوع، وثانية مطلقة، أما الأخريان فلم يتزوجا بعد، وهما فى سن حرجة، فلم يكن غريباً أن تصاب إحدى الفتاتين بنوبات تشنج هستيرية فى المساء أحياناً، كما كانت تدب بينهم بعض الخلافات اليومية، وفى مثل هذه الأمور، قد يشاع عن وجود علاقات عاطفية بين هذه أو تلك، وأحد الموظفين، أو شاب من شباب القرية، وخاصة تلامذة المدارس والجامعات، ولم يكن هناك يد من أن يلزم سكنهن بالمستشفى، تحت الرقابة الدائمة، ولا يسمح بالزائرين لهن، لكن وجود عدد من المدرسات فى مساكن الوحدة، والتلاقي معهن، قد خفف الكثير من معاناة الطرفين، ولم يكن فى القرية إبان تلك الفترة وسائل التسلية أو الترفيه، فلا تليفزيون ولا سينما أو مسرح، وكانت التسلية الوحيدة هى الراديو، وأحياناً كنا نسمع البنات. ممرضات ومدرسات. يرقصن ويغنين فى مسكنهن تخفيفاً من عزلتهن وغربتهن والفراغ القاتل الذى يمتنون تحت وطأته، وخاصة أنهم لم يتعودوا على قراءة الكتب أو المجلات أو الصحف، وحتى لو فكروا فى ذلك فإنها غير متوفرة لديهم، وقد أشرت على الأخصائى الاجتماعى بتكوين مكتبة متواضعة تضم عدداً من المجلات والصحف والكتب، لكنه اعتذر لعدم وجود ميزانية لديه تكفى لذلك.



[١٢] العودة إلى المدينة



فى إحدى المرات دخلت عليّ مريضة فى الخمسين من عمرها، ولما سألتها فى البداية عن الأعراض المرضية التى تشكو منها، فوجئت بها تقول: «أطلب منك أن تتصدق على بربع جنيه، رفع الله مراتبك، أنا لا أجد ثمن الرغيف».

وأخرجت لها ما طلبت، وانتظرت أن تتحدث عن مرضها، وعدت أسأله، لكنها وقفت وهى تقول فى امتنان: «لا أشكو إلا من الجوع». وودعتنى وانصرفت، وكتمت الممرضة التى تجلس قبالتى لمساعدتى ضحككتها، وهى تقول: «لقد كان عليها أن تذهب للأخصائى الاجتماعى».

كنت أعلم أن الكثيرين يعانون الفقر فى قريتنا، والفقر قد يكون أشد وطأة من بعض الأمراض، وليس للفقر علاج من عقاقير وحقن، ولهذا صدقت المرأة فى تشخيص مرضها، وكانت مصيبة فى تحديد علاجها، وأهل الريف يعتقدون أن الطبيب لا بد وأن يكون غنياً، ولا يتصورون غير ذلك، كنت حزينا، ها هم أهل قريتى على طبيعتهم دون زيف، ومع ذلك يواصلون الحياة فى صبر واستماتة، وقد يجتمع عليهم الفقر والمرض، وهل يجدى الدواء بدون غذاء؟

ومن الطريف أن امرأة أخرى دخلت عليّ ذات يوم وأخذت تشكو من أعراض مرضية عدة، فى الرأس والظهر والقلب والساقين والمعدة، ولم أستطع أن أجمع بين هذه الأعراض فى صعيد واحد، حتى أرجح مرضاً بعينه، ووجدتها تقول فى غضب وعصبية: «كلما ذهبت إلى طبيب يقول لى أنى سليمة، وأن مرضى هو الوهم ولا يعطينى أى علاج».

فحصتها جيداً صدرها وبطنها وضغطها، وقست لها أيضاً درجة الحرارة، وعزمت على إجراء التحليلات اللازمة لها، وبرقت فى ذهنى فكرة، من المفروض أن نصدق المريض فى شكواه حتى يثبت العكس، من يدرى فقد تكون مريضة مثلاً على الرغم من أن الفحص الإكلينيكي (السريري) لم يثبت أى دليل على ذلك، ووجدتني أقول لها، وأنا أطوى جهاز الضغط: «أنت فعلاً مريضة».

ودهشت عندما رفعت يديها إلى السماء داعية لى بالستر وطول العمر، ثم قالت: «أنت الوحيد الذى عرف مرضى».

لا شك أن هذه المرأة تعاني من مشكلات نفسية أو اجتماعية أو غيرها، ومن المعروف أن الاضطرابات النفسية تنعكس بأعراض عضوية على أى جهاز من أجهزة الجسم المختلفة، وهذا يسمونه فى الطب «الأمراض النفسعضوية» أو السيكوسوماتيك، لكننا كنا فى زمن لا يحفل كثيراً بالأمراض النفسية التى يعتبرونها ترفاً أو «دللاً» كما يقول البعض، ولم أترك المريضة تخرج بدون دواء، بل صرفت لها كمية من أقراص الفيتامينات والحديد، فأغلب مرضى الريف يعانون من فقر الدم، لكننى

كُتبت لها تحويلاً إلى الأخصائي الاجتماعي ، لعل وقته يسمح بدراسة حالتها .. وجاءتني امرأة متزوجة تشكو العقم لأنها متزوجة منذ أكثر من عام ، ولم تنجب ، وفحص المرأة العقيم لا بد وأن يسبقه فحص زوجها أولاً لأنه الأسهل ، لكن زوجها كان قد تزوج من قبل وأنجب ، فلا بد إذن من التركيز على الزوجة ، وتكون البداية فحصاً دقيقاً ، وأخذنا للتاريخ المرضي ، وما إلى ذلك ، لأن الخطوة التالية تحتاج لعمل أشعاع لإكس بالصبغة ، وتحليل للهرمونات في بعض الأحيان ، واكتفيت في المرحلة الأولى لشواهد رأيتهما أن أصف لها بعض المضادات الجرثومية الخاصة بحالتها ، مع مساحيق تذاب في الماء للغسيل ، وطلبت منها العودة بعد شهر ، ونسيت الأمر تماماً لاستغراقي في العمل اليومي ، لكنها جاءتني بعد ثلاثة أشهر ، وكم كانت دهشتي عندما فحصتها ووجدتها حاملاً ولما أخبرتها بذلك أطلقت زغرودة عالية ، وخرجت من غرفة الفحص وهي تواصل زغردتها ، وتساءل الناس عما يجري ، وظن البعض أن ما حدث يعتبر كرامة من الكرامات التي يأتيها الأولياء حسب زعمهم ، وشاع الخبر في القرية ، بل وفي القرى المجاورة ، ووجدتني في الأسابيع المقبلة محاصراً بعدد ضخم من العقيقات ، ومن ورائهن جاء الرجال الذين يشكون من العقم أيضاً ، ووقعت في حيص بيص ، ولم أدر ماذا أفعل ، واستغثت بالمنطقة الطبية كي ترسل أخصائيات في النساء والولادة ، ولو مرة واحدة أسبوعياً ، ولكن المنطقة لم تعر الأمر اهتماماً ، وطلبوا مني أن أحيل الحالات التي تعاني من العقم إلى المستشفى المركزي ، وحاولت بصعوبة أن أقنع الناس بضرورة إجراء التحاليل والفحوص اللازمة لحالات العقم دون جدوى ، وأكدت لهم أن الحالة الأولى التي حملت كانت حالة بسيطة منذ البداية ، استجابت للعلاج المختصر بمحض الصدفة ، ولم ينقذني من هذا المأزق إلا إجازتي السنوية ، وبعدها يفرجها الله ..

وفي هذا الوقت . أى قبل الإجازة ، حاولت مع عدد من أهل الخير بالقرية أن نوقف بين عائلة جاب الله وعائلة أبو العطا دون جدوى ، ذلك لأن الدماء كانت قد أريقَت ، ولأن عبد الحميد جاب الله الطرف الأقوى في الصراع ، كان يعيش متخفياً في المدينة في أغلب الأوقات حفاظاً على حياته من جنون الثأر ، وقد نجا من عدد من المحاولات لقتله ، وكان الضحايا من الطرف الآخر ، فقد كان عبد الحميد لديه المال والرجال اللذان يمكنانه من البطش بعده .

أثناء الإجازة السنوية وصلت رسالة من وزارة الصحة تبدي فيها استعدادها لنقلني إلى القاهرة في عمل تابع لوزارة النقل والمواصلات أى في الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية ، وذهبت لأنقصي الأمر ، وكم كانت دهشتي عندما وجدت النقل يتم بسرعة لم أتوقعها .

عندما علم أهل قريتي بالأمر حزنوا حزناً شديداً ، وأخذوا يرددون أقوالاً لأنساها : يا فرحة ماتت . أتتخلي عن أهلِكَ في هذا الوقت ؟

- هل أغضبتك في شيء .

- يا فرحة العواذل فينا .

أما أبى فقد قال : « لماذا لا ترفض النقل وتبقى معنا .. يقولون إن « عزك تلك » . قلت له يا أبى : « إن اهتماماتى الأدبية ، ومستقبلى الأدبي يلحان على كى أذهب إلى العاصمة .. » .

- تستطيع يا بنى أن تكتب وأنت هنا .. والكتابة كما أعلم ، تأتى في أى وقت ، وفي أى مكان . لكنى كنت قد عزمت وتوكلت ، ولم يكن هناك مجال للتراجع ، إن أجيالاً جديدة من أهل القرية سيأتون بعدى ، وقد يفعلون مثلاً أفعل ، هكذا قلت لنفسى ، ولما أصبح أمر النقل مقرراً ، اتفق العاملون بالوحدة مع أهل القرية لإقامة حفل تكريم يليق بى ، اختلطت فيه التحيات والتكريمات بدموع صادقة

حارة .. ووقف أحد الشباب النابهين وهو الأستاذ عبد الحكم عطية سبالة (والمستشار حالياً) وارتجل كلمة رائعة، هزت القلوب والمشاعر، وكانت آية فى الصدق والبلاغة، أما زميلى الطبيب فقد أفاض فى الحديث، ومن ضمن ما قاله: «إن زميلنا الفاضل الدكتور نجيب الكيلانى كان حمامة السلام بيننا جميعاً ..».

كان الرحيل مشحوناً بالعواطف، احتشد الناس فى الوحدة، كانت الدموع تترقرق فى عيني، وكنت أريد أن تتم مراسم السفر البسيطة المؤثرة بسرعة، شهقت لإحدى المرضات باكية، وكذلك فعلت «زكية» الفراشة، وإبراهيم أفندى حمادة فنى المختبر، ولييب المسيحى، هممت بالدخول إلى السيارة، لكن يداً أمسكت بي، وسمعت من يقول: «ألا تودع أباك وأخاك أمين؟».

وتلفت حولي، كان أبى يقف على بعد أمتار فى ناحية من ساحة الوحدة، وإلى جواره يقف أخى، خطوت بهدوء متوتر صوب أبى، مد يده، أمسكتها بيدي الاثنين، وقبلتها بحرارة، وأنا مختنق بالدموع، حاولت أن أتكلم فلم أستطع، احتضنى الرجل الطيب البالغ من العمر آنذاك سبعة وخمسين عاماً، وتتمم: «لا تغب عنا طويلاً» حاولت أن أرد فلم أستطع أيضاً، وصافحت أخى الذى يصغرنى بعام ويعمل بالزراعة والتجارة، ثم هرولت إلى السيارة وقلت للسائق: «انطلق بسرعة، لم أعد أحتمل» وتنفس الصعداء حينما وجدت السيارة تنطلق فى الطريق الزراعى مارّة بسوق القرية، ثم المزارع الخضراء على الجانبين.

نسيت أن أذكر أن السيد المحافظ كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة منذ أسبوعين، وسافرت أنا وأبى لزيارته فى بيته، ونظرًا لأن حالته كانت حرجية، فقد منعت الزيارة، واكتفينا بتسجيل أسمائنا فى دفتر الزيارات، ودعونا له بالسلامة، فأنا لن أستطيع أن أنسى فضل هذا الرجل المنصف، الذى وقف إلى جوارى عندما اتضحت له الحقيقة، واتخذ إجراءات حاسمة فى إصلاح الأوضاع المتردية بالمنطقة الطبية، فاحتفظت له فى قلبى بأطيب الذكريات، ترى ماذا كان سيفعل الآن لو أنه علم أنى راحل عن القرية، وعن المحافظة بأكملها؟ ربما رفض الموافقة على النقل، لكن الإدارة بالمنطقة الطبية فرحوا جداً بموافقتى على النقل، إذ كانوا يتمنون التخلص منى منذ زمن طويل، ولهذا سارعوا باتخاذ إجراءات الموافقة على النقل، أملاً فى أن يعودوا إلى عبثهم القديم، وخاصة أن مرض السيد المحافظ يشكل خطورة على حياته، وقد مات المحافظ رحمه الله بعد إصابته بالجلطة القلبية بشهر واحد، وحزن كثير من الناس على وفاته، وقد قرأت عن وفاته فى الصحف وأنا بالقاهرة.

كنت قد تركت زوجتى وأولادى فى بيت أبى عند رحيلى، إذ لم يكن لدى مسكن فى القاهرة منذ أن غادرتها إلى شرشابة، ولم أكن أعلم حينها أن أزمة المساكن ستفاقم فى العاصمة إلى ذلك الحد المقلق، وأخذت أبحث عن شقة لائقة فى أحياء القاهرة دون جدوى، لأن قوانين تخفيض الإيجار ولجان الحكومة لتقدير إيجار الشقة بنسب ضئيلة، جعل الناس يتوقعون عن استثمار مدخراتهم فى إقامة المباني التى تدنى عائداتها لأقل من أربعة بالمائة، ولهذا شتت المساكن مع التزايد المستمر فى أعداد السكان، وأصبحت ظاهرة «الخلو» مخيفة، فلكى تجد شقة إيجارها سبعة جنيهات مثلاً، لا بد وأن تدفع للمالك مبلغاً كبيراً ألفاً أو ألفين أو أكثر من الجنيهات تحت بند «خلو الرجل»، وهو أمر مخالف للقانون، ويتم سرّاً باحتياطات غريبة، ولم يكن معى هذا المبلغ وبمرور السنين تضاعف هذا المبلغ مرات ومرات حتى وصل فى بعض الأحيان إلى عشرة أو عشرين ألفاً من الجنيهات، وكانت قوانين الحكومة «السيئة السمعة» المتعلقة بالمساكن هى السبب الرئيسى لأزمة المساكن الخائفة فى مدن مصر كلها ..

تسلمت عملى فى القسم الطبى بهيئة السكك الحديدية فى شارع الجلاء بالقاهرة ، كنت أذهب إلى العمل فى السابعة صباحًا ، وأعود إلى مسكن صهرى الشيخ محمود بعد الواحدة ظهرًا ، وبعد العصر أذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها ، وتنشر لى مؤلفاتى ، أو أذهب إلى نادى القصة أو مقهى الأدباء ، أو بعض الجمعيات الأدبية الأخرى ، حيث أجد الفرصة للقاء شيوخ وشباب الأدب البارزين فى تلك الفترة ، ولم أكن أكف عن البحث لعلى أجد شقة مناسبة ، حتى أصابنى اليأس .

وذات يوم استدعانى رئيسى فى العمل وطلب منى أن أذهب إلى القسم الطبى للسكة الحديد بالمدينة السكنية بأبوزعبل ، حيث يوجد هناك عدد كبير من العمال والموظفين فى الورش الكبيرة الخاصة بالقطارات ، وأخبرنى رئيسى أن الانتداب لمدة أسبوع واحد ، وأنتى أستطيع أن أركب الحافلة كل صباح بخمسة قروش ، حيث أصل إلى هناك فى أقل من ساعة ، وتضايقت فى البداية من هذا الانتداب المفاجئ ، لكننى أقنعت نفسى بأن الأمر بسيط ، وأنه مجرد تجربة جديدة قد تكون مفيدة ، وخاصة أنتى لم أر هذه المنطقة من قبل ، فتوكلت على الله وذهبت إلى هناك ، ولم أجد شقة فى الاستدلال على المستشفى الصغير هناك ، ووجدت المدينة السكنية مدينة جميلة نظيفة مرصوفة الشوارع ، ووجدت مبانيها قسمين : القسم الأول عمارات متفاوتة المساحات للعمال حسب درجاتهم الوظيفية ، والقسم الثانى « فيلات » وهى خاصة بالأطباء والمهندسين وكبار رجال الإدارة والأمن ، وعلى الرغم من أن المدينة فى منطقة صحراوية إلا أن بشوارعها الأشجار الجميلة ، وهناك حديقة ملحقة بكل « فيلا » تزرع فيها الفواكه والخضروات ، وبالمدينة أسواق ومدارس وناد رياضى . .

ولاحظت أن هناك مدينة سكنية قديمة بنيت أيام سيطرة الإنجليز على السكك الحديدية ، كما إن هناك بعض « القلل » العتيقة التى بنيت على الطراز الإنجليزى تمامًا . .

وتعرفت على جراح المستشفى وهو مديرها أيضًا وتبادلنا الأحاديث الودية ، ثم أخبرنى بعد أن شربنا الشاي معًا ، بأننى سأذهب إلى عيادة العمال داخل الورشة ، وأعود إلى المستشفى بعد أن انتهى منها ، وحذرنى من عدم الاستجابة لإلحاح العمال فى طلب إجازات مرضية ، وكان سئ الظن بهم ، كما حذرنى من الخوض فى الحديث عن السياسة ، ولقد سعدت عندما فوجئت بعدد قليل من العمال والموظفين كانوا زملائى فى المعتقل والسجن فرحبوا بى أشد الترحيب ، وأشعرونى أنتى بين أهلى وعشيرتى .. وعدت مرة أخرى إلى المستشفى فى السيارة الخاصة بها منتظرًا انتهاء العمل ، ثم العودة إلى القاهرة ، وفى فترة الانتظار قدم إليّ ممرض اسمه محمد إسماعيل وقال لى : « ما رأيك يا دكتور فى هذه المدينة السكنية » .

- فى منتهى الروعة والجمال .

فاتسم وقال : « فلماذا لا تنتقل إلينا إذن وتعيش معنا ؟ » .

- كيف ؟ » .

- هنا نقص فى عدد الأطباء ، ولو طلبت ذلك لوافق لك الإدارة فورًا .

- صحيح ؟ » .

- بالتأكيد يا بك ، ثم لا تنس أنك ستسكن فى « فيلا » لها حديقة ، ولن تدفع إيجارًا إلا خمسة

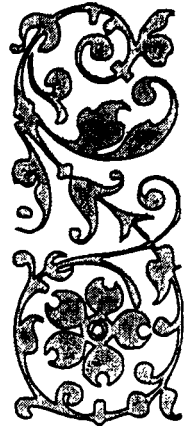
فى المائة من راتبك الأساسى ، والكهرباء والماء تقريبًا بالمجان ، والسلع التموينية متوفرة ، والعرب الساكنون فى القرى المجاورة يأتون إليك كل صباح بما تحتاج إليه من خضروات وفواكه واللبن والجبن والزبد والطيور وكل ما يخطر على بالك .. » .

نظرت إليه بإمعان ، وراقت لى الفكرة من عدة نواح ، أولاً سَحلَّ أزمة السكن ، ثانياً سيتوفر لى الهدوء واللازم للقراءة والكتابة ، ثالثاً القاهرة ليست بعيدة عنا ، وأستطيع أن أذهب إليها متى شئت وأعود بعد ثلاث أو أربع ساعات ، ثم ألا يجوز أن يكون ذلك هو الاختيار الإلهى الذى لا أعلم عنه شيئاً ؟

واختمرت الفكرة فى ذهنى ، وفى المساء أفضيت بها إلى صهرى الشيخ محمود الذى يعتبر بمثابة الأب الروحى لى ، فتفكر قليلاً ، ثم وافق بحماسة واضحة ، لكن زوجتى بعد أن علمت بالأمر ترددت فى الموافقة ، فأقنعها أبوها ، بعد أن شرح الميزات التى سنجنيها من وراء ذلك ، وخاصة أن القاهرة قد ازدحمت مواصلاتها وشوارعها ، وتلوثت أجواؤها ، وشحت فيها السلع ، وتعقدت الأمور .
عندما عرضت الأمر على رؤسائى بالإدارة الطبية لهيئة السكك الحديدية وافقوا على النقل دون اعتراض ، وأخبرونى بأننى أستطيع أن انتقل فى أى وقت أشاء .
فى غضون أسبوع حملت الشاحنة الكبيرة أثاث بيتى ، وسرت ومعى أسرتى ، وألقينا عصا الترحال فى « قفلاً » أنيقة حديثة بمدينة أبو زعبل السكنية .



[١٣] ليالى المدينة السكنية



كانت السنوات التى قضيتها فى المدينة السكنية بأبوزعل من أحلى سنوات العمر، وفى الشهور الأولى توثقت علاقتى بالعمال والموظفين، واستطعت أن أفهم الأوضاع فى هذا الموقع الصناعى الهام، بل وفى البلدان المجاورة، وقد ساعدنى على سرعة التأقلم معهم أن عددًا منهم كانوا يتابعون كتاباتى فى الصحف والمجلات، وأن جيلًا من أبنائهم كانوا يدرسون روايتى المقررة فى المدارس، فضلًا عن أن زملائى القدامى فى العمل السياسى ممن كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، ثم اعتقلوا وأفرج عنهم، نشروا كل ما يتعلق بحياتى السياسية والأدبية بين جموع العاملين، حتى أصبحت فى فترة وجيزة أشهر العاملين هناك، وقد أحبنى الشباب خاصة فكانوا يحرسون على لقائى فى بيتى، وفى المستشفى فى المساء، وفى أماكن تجمعهم المختلفة هنا وهناك، كنت بعيدًا عن العمل السياسى، ومتفرغًا تمامًا لمهنتى الطبية، ولاهتماماتى الأدبية.

وكانت منظمات الشباب والجهاز الطليعى لحزب الحكومة هم عين الثورة التى ترى كل شىء، وأذنهما التى تسمع وتسجل، ثم يفرغون ذلك فى تقارير دورية ترفع إلى مستوى أعلى، ولم يكن هذا سرًا، فقد كان أحدهم وهو مصطفى الشريينى شابًا لطيفًا يحببني، وأثق فيه، وكان يهمس فى أذنى من وقت لآخر ويخبرنى بأنهم كتبوا تقارير سرية طيبة فى حقى، فكنت أشكره على ذلك، وكان من أغرب الأمور التى مررت بها فى حياتى قصة غريبة، أرى أنه لا بأس من سردها لأنها عامرة بالدلالة العميقة على إفساد الشباب والعلاقات الإنسانية والأسرية من خلال التربية السياسية الخاطئة.

لقد لاحظت أن هناك جفوة شديدة بين الشاب مصطفى الشريينى الذى أشرت إليه آنفًا، وبين أبيه الأستاذ على الشريينى عضو نقابة العمال المهمة، وأحد أعضاء التنظيم السياسى البارزين، وحاولت جاهدًا أن أصلح بين الشاب مصطفى وأبيه على، لكن جهودى باءت بالفشل الذريع، وفكرت: لِمَ لا أتقصى أسباب القطيعة والخلاف حتى يمكن السير فى خطوات الصلح على هدى وبصيرة، لكن الابن وكذلك الأب رفضا الإنصاح عن أى سبب، فرجحت فى النهاية أن الخلاف ناجم عن زواج الأستاذ على من امرأة غير أم مصطفى، وأنه منفصل عنهم تمامًا، فلا يذهب إلى زوجته القديمة ولا يزور أولاده منها، إلا فى إطار العمل بورش السكك الحديدية، حيث يمكنه الالتقاء بهم كل يوم، وهم موظفون هناك.

جاءنى على الشريينى ذات ليلة ليناقشنى فى موضوع يخص العمال بالورشة، فقد لاحظت أن مئات العمال يأتون للعبادة فى يوم الخميس بالذات، ويلحون فى طلب الإجازة المرضية يومى الخميس والجمعة، فكنت أتعجب من هذا الطلب، فيوم الخميس قد أوشك على الانتهاء ولن يستفيدوا إذا أخذوه إجازة، ويوم الجمعة لا عمل فيه بطبيعة الحال فهو يوم الإجازة الأسبوعى، وازدادت دهشتى

عندما علمت أن العمال متضايقون جدًا من تصرفي معهم ، مع أنني كنت أفحصهم بدقة ، وأرفض إجازة المتمارضين ، ولا أحجبها عن المرضى ، وجاءني على الشرييني لهذا الغرض ، وأخذ يشرح لي القضية قائلاً : « عندنا هنا في الورش عدد كبير من « عمال اليومية » (الظهورات) ، هؤلاء لم يتم تثبيتهم بعد على درجات وظيفية ، فهم مؤقتون ، ويتقاضون عن كل يوم عمل أجرًا محددًا ، ولهذا ليس لهم أجر على يوم الجمعة ، إلا في حالة واحدة ، وهي الإجازة المرضية » .

وأفهمني على الشرييني أن الإدارة والنقابة متفقتان على مساعدة هؤلاء العمال وصرف أجر يوم الجمعة عن طريق احتسابه إجازة مرضية ، وهم لا يأتون بالعمال جميعهم ، بل يقسمونهم على دفعات أسبوعية ، فليس من المعقول أن يكون كل عمال (الظهورات) مرضى في نفس اليوم ، وفي يوم الخميس بالذات وأخيرًا قال لي على الشرييني : « هل فهمت القضية يا دكتور ؟ » .

- « نعم فهمت .. » .

- « رجائي أن تتعاون معنا في مساعدة هؤلاء المساكين .. » .

فانتهزت الفرصة على الفور وقلت : « وأنت يا عم على ، لماذا لا تتعاون معي ؟ » .

- « فيم ؟ » .

- « في الصلح مع ابنك مصطفى ، إنه جزء منك » .

ولم يتمالك على نفسه ، فانهار صارخًا في غضب وقال : « بس الابن ، لقد كاد يوصلني إلى جبل المشنقة » .

وقفت وقلت في دهشة : « ماذا قلت ؟ » .

- « هذه أسرار ولا يصح البوح بها وإلا رحننا في داهية .. » .

- « لن أتركك حتى تتكلم .. » .

جمع أوراقه وهب واقفًا ، وقال والدموع في عينيه : « لقد كتب ضدى تقريرًا رفعه لرجال

المخابرات ، ولو لم استطع إثبات براءتي لانتھيت ... » .

وخرج عم على وبقيت مسمرًا في مكاني ذاهلاً .

هل وصل الأمر بابن يكتب تقريرًا سرّيًا ضد أبيه ويفرى به السلطة التي لا ترحم ؟ أى ابن هذا ،

وأى تربية ترباها ، والغريب أن التقرير ثبت أنه غير صادق !! هزنى هذا الحادث هزًا عنيفًا ، ولم

أستطع النوم ، إن العلاقات الأسرية والاجتماعية تتدهور بصورة مريعة إلى الهاوية ، فكيف يكون

مستقبل أمة هذا شأنها ، وكيف يستطيع شعب أن يمضى في طريق التقدم والتنمية والتحرير وهو على

هذه الصورة من التفسخ والانحطاط ، وإهدار القيم الإنسانية والأسرية ؟ هل هذا حب للوطن أم تدمير

له ، إن كل المعاني النبيلة تنقلب رأسًا على عقب ، والناس يتحولون إلى ذئاب جائعة خائفة ، وكيف

تسكن الشجاعة والكرامة والحرية قلوبًا كذلك القلوب السوداء التي تشرب الحقد والجحود .

ذهبت إلى مكنتي بالورشة في الصباح الباكر ، وأرسلت الممرض لإحضار الشاب مصطفى

الشرييني على الفور ، وجاء مصطفى مبتسمًا كعادته ، وصافحنى في ود ، قلت له : « اجلس

يا مصطفى » .

قلتها بصرامة ، ثم أمرت الممرض أن ينصرف ويغلق الباب . « ماذا فعلت بأبيك يا مصطفى ؟ » .

- « لم أفعل شيئًا .. » .

- « لا تنكر ، فقد باح لي بكل شيء .. » .

انتبه إلى ما أقول ، ونظر إلى فى ارتباك ، وغمغم : « ماذا قال ؟ » .
- « التقرير ... » .

شحب وجه مصطفى وقال متلعثمًا : « هذا واجب وطنى ... » .
هتفت فى غضب لم أستطع أن أداريه : « هذا عقوق ، من قال إن أباك صاحب التاريخ النقابى الطويل يقل عنك وطنية ؟ » هل تسمون خلاف الرأى خيانة
- « نعم خيانة .. كل أعضاء النقابة لصوص بما فيهم أبى » .
نظرت إليه فى احتقار وقلت : « لولا أن مبادئى تمنعنى لصفعتك على وجهك .. قم واذهب إلى عملك ولا تنس أن تكتب ضدى تقريرًا أنا الآخر .. لا ترنى وجهك بعد اليوم ... » .
وجلست بعد أن خرج فى مقعدى أعلى وأنتفض .. هل وصل الأمر إلى هذا الحد من السوء ؟ إن الحكم البوليسى الدكتاتورى سوف يوردنا مورد التهلكة ، ولا أحد يستطيع أن يفعل أى شئ الآن لإعادة الأمور إلى نصابها ، والأيام تمضى بالناس من سىء إلى أسوأ ، والأوامر الصارمة من أعلى ، والطاعة من أسفل ، ولا حسيب ولا رقيب .

استيقظت من نومى بعد العصر فتوضأت واصلت ، وكانت زوجتى تصلى جماعة خلفى ، ثم جلست لأشرب الشاى ، ودق جرس الباب ، وحينما فتحت وجدت مصطفى أمامى بكامل لباسه ، شابكًا يديه على صدره ، خافضًا رأسه ، بدا أمامى ضحية تستحق العطف والرثاء ، ولم لا يكون مريضًا يحتاج إلى علاج ، رق قلبى له فقلت بركة : « تفضل يا مصطفى » .

دخل دون أن ينطق بكلمة ، حتى التحية لم يلحقها ، وجلس فى غرفة الضيوف كئيبيًا حزنيًا بينما ذهبت لأحضر له الشاى وبعض الفاكهة ، ترك الشاى أمامه دون أن يمسه ، ولم تمتد يده إلى الفاكهة ، وظل صامتًا فترة ، لم أشأ أن أخرجيه عن صمته .. وبعد دقائق رفع رأسه ، ونظر إليّ بعينين حزينتين وقال : « سامحنى يا دكتور .. لقد أخطأت فى حق أبى .. وفى حقك أيضًا » .

لم أشأ أن أعلق ، وتركته يمضى فى حديثه : « لقد علمونا فى المنظمة أشياء غريبة ، لا أدري كيف اقتنعنا بها وصدقناها ، لقد كتبت التقارير عن كثير من العمال ، وكنت أراهم يساقون للتحقيق ، وينالون العقاب ، ثم يعودون إلى الورشة أذلاء .. كنت أسعد لأننى انتقم منهم ، ولفقت التقارير لخصومى كى يتأدبوا .. كنت أشعر بلذة غريبة حينما أزهيمهم .. وظننت أننى أصبحت كبيرًا وذا سلطة .. وأخيرًا أردت أن أنتقم من أبى الذى أهملنا وأهمل أمى دون ذنب .. عاشت معه أيام الفقر ، ولما أثرى وأصبح لديه إمكانيات كافية ، تركها وتزوج غيرها .. صغيرة وجميلة .. ونسى المرأة التى عاشت معه الأيام المريرة ، حينما كان عاملًا يتقاضى يوميًا بضعة قروش .. إنها أمى يا دكتور ... » .
قلت : « وهو أبوك » .

- « صدقت .. وبرغم ذلك فأنا مخطئ .. وأريدك أن تصلح بينى وبين أبى لنبدأ من جديد » .
وحمدت الله ، وأخذت مصطفى إلى أبيه معذرًا تائبًا ينشد العفو ، رفض على بشدة فى البداية ، لكن ثورته هدأت رويدًا رويدًا ، وأخذ يعاتب ابنه ، ويذكره بالماضى ، كيف حنا عليه وعلمه ورباه ، وكيف فتح أمامه باب الرزق . وألحقه بوظيفة مناسبة ، وكيف كان يبكى من أجله عندما يمرض .. وبكى مصطفى لعل الدموع تغسل خطيئة قلبه .. وبكى على .. ثم أمسكت بيد كل منهما وتصافحا .. وقرأ الفاتحة ، وتعاهدا على الحب والصفاء ..
وشعرت براحة غريبة ، وأنا أمضى فى الطريق إلى مسكنى ، ونسمات الليل العليلية . المنعشة تلثم

وجهى المحتقن من شدة الانفعال .. كنت أقول فى نفسى : لسنا فى حاجة إلى ثورة جديدة ولكننا فى حاجة إلى الحب .. نعم الحب .

فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١٩٦٤ فوجئت بأعراض الوضع تظهر على زوجتى الحامل ، لم يكن لدينا فى مستشفى المدينة السكنية قسم للولادة ، فاستدعيت سائق الإسعاف ، وانطلقت بها إلى القاهرة ومعى ابنى حسام الدين البالغ من العمر ثلاث سنوات ، وابنتى عزة البالغة من العمر عامين تقريباً ، وأقل قليلاً آنذاك والدتى ، وقصدت عيادة الصديق الدكتور « عبد الفتاح شيبه الحمد » وهو أخصائى نساء وولادة بميدان « لاطوغلى » بالقاهرة وشقيق زوجة الروائى المعروف الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلاً لنا فى العمل بالقسم الطبى فى القاهرة ، وأخذت الطفلين إلى جدتهما ومعهما أمى ، بعد أن تركت الزوجة فى رعاية الله برعاية الزميل الطبيب الذى قرر أن الوضع يحتاج إلى بعض الوقت .

وعدت إلى العيادة ومعى أم زوجتى ، وفى نفس الليلة وضعت زوجتى مولودها الثالث الذى سميناه جلال الدين ، كان المولود صغيراً وأقل من الوزن الطبيعى ، يميل لونه إلى السمرة ، لكنه كان نشطاً صحيحاً بحمد الله .. ولقد كان الأصدقاء يسمونه « ترانزستور » لصغر حجمه ، إشارة إلى الراديو الصغير الذى يحمل فى اليد ..

وبعد الولادة عدت فى المساء إلى مسكن صهرى ، الذى ظل ساهراً ، وكانت والدتى هى الأخرى تنتظر على أحر من الجمر ، ودخلت وألقيت السلام فى وقت متأخر من الليل ، وكنت مرهقاً ، كانت أم زوجتى معها فى العيادة لتشرف على طلباتها ؛ إذ لم يكن هناك ممرضات أو حكيمة .. لاحظت أن أمى قلقة ، وقد كان يحلولى مداعبتها ، أحياناً ، ولما لم أتكلم سألتنى : « هل ولدت كريمة ؟ » .

- « الحمد لله يا أمى » .

- « وهل هى بخير ؟ » .

- « على ما يرام ... » .

ووجدت أمى تتحرك فى مقعدها ومظاهر القلق لا تخطئها العين ، كانت تريد أن تعرف هل المولود ذكر أم أنثى ، شأنها فى ذلك شأن أهل الريف الذين يفضلون إنجاب الذكور ، ولم تستطع الصبر أكثر من ذلك ، فقالت : « ولد أم بنت ؟ » .

قلت وأنا أرغب فى مشاكستها : « ولد .. بنت .. كله خير وفضل من الله ونعمة .. الحمد لله عندما قبل ذلك الولد والبنت » .

هزت أمى رأسها فى أسى وقالت : « فهمت .. لقد ولدت بنتاً .. هيه .. الحمد لله .. » .

قلت فى هدوء وأنا أخلع سترتى دون اهتمام ، وأنا أقصد ذلك : « من قال ذلك .. بل وضعت ولداً .. افرحى يا ست الحبايب » .

وهبت واقفة وأطلقت زغرودة عالية رغم الوقت المتأخر من الليل ، قلت لها : « سوف توقظين أهل حى السيدة عائشة .. » .

- « هذا يوم الفرحة .. ادع الله أن يسعدوا فى عز أبيهم وأمهم .. » .

- « وجدهم وجدتهم سواء فى القاهرة أو شرشابة » .

وابتسم صهرى الشيخ الجليل ، الذى لم يكف عن قراءة القرآن والأدعية وذكر الله طوال الوقت .

ثم قال : « لا تنس العقيقة يا بنى .. إنها سنة نبوية شريفة .. فلتذبح خروفين » .

قالت أمى : « خروف فى شرشابة وآخر فى القاهرة » .

وضحك الشيخ وقال : « ويمكن أن تتبرع بثالث لأهل المدينة السكنية بأبوزعل » .

ومسحت أمى رحمها الله على رأسى وظهرى وقالت : « كثر عيالك ، فليرزقك الله برزقهم » .

ولم تمكث زوجتى فى العيادة إلا ليلة واحدة ، وعادت إلى بيت أبيها ، وجاء الصغيران حسام الدين وعزة ينظران إلى أخيهما الوليد فى شغف وفضول ، ويلمسانه برقة ، ويستأذنان فى تقبيله ، لكنى نهيتهما عن ذلك ، على أن أسمح لهما بعد أن يكبرا ، وكان جلال الدين الوليد هادئاً جداً ، ينام كثيراً بعد أن يرضع ، وأحياناً يطول نومه عن المعدل فى فراشه دون أن يتحرك ، مما كان يبعث الخوف فى نفس أمه ، فتهره كى يستيقظ ، وذات مرة كانت ترضعه أثناء الليل ، ونامت ، وعندما استيقظت وجدته راقداً على أرض الغرفة فوق السجادة دون أدنى حركة ، أصابها الذعر ، لقد سقط الولد من فوق السرير دون أن تشعر به ، وكان عمره حوالى ثلاثة أشهر ، وظل راقداً دون أن يبكى أو يصرخ ، وأيقظتني فقممت أفحصه بدقة خوفاً من أن يحدث له ارتجاج فى المخ ، لكنى والحمد لله وجدته سليماً معافى . فأكدت على زوجتى ألا ترضعه ثانية إلا وهى جالسة ، ولا تيممه إلا فى سريره الصغير الذى يحفظه من السقوط ..

وعدنا مرة أخرى إلى المدينة السكنية لنستأنف حياتنا العادية من جديد ، وكان معنا الوالد والوالدة وأختى الصغيرة سميرة ، وكان لوجود الوالدين معنا فترات طويلة بإصرار منى ، ذلك أنى استشعر الأمن والألفة والاطمئنان وهما إلى جوارى وخاصة أن زوجة أختى أمين الذى يصغرنى بعام كانت تثير المشاكل مع أمى وتسبب لها النكد ، وأنا حريص على أن تنعم أمى بالاطمئنان والسعادة ، وما يكاد أبى وأمى يسافران إلى القرية حتى ألح عليهما فى العودة من جديد ، لكونى كنت أريد أن أعوض أيام الفراق الطويلة المريرة حينما كنت سجيناً ، وكذلك سنوات التعليم التى قضيتها بعيداً عنهم فى المرحلة الابتدائية والثانوية والجامعية ، وأصبح والدى رحمه الله صديقاً للكثيرين من سكان مدينة أبوزعل السكنية ، فكانوا يحبونه ويدعونه لزيارتهم ، وكان مكانه المفضل للجلوس هو محل بقالة الأخ الصديق « إسماعيل الهضيبى » ، وكانت أسرة الهضيبى التى ينتمى إليها فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى المستشار السابق فى القضاء المصرى ، وصاحب التاريخ العريق ، أقول كانت هذه الأسرة الكريمة تقيم فى قرية « عرب الصوالة » القرية منا ، وكان شقيق إسماعيل واسمه « الحاج محمد الهضيبى » عمدة القرية « المختار كما يسمى فى بعض الدول العربية » ، ويبدو أن الأمر لم يرق لرجال الأمن ، وذهب أحد المخبرين إلى أبى لينصحه بالابتعاد عن أى إنسان يمت بصلة لعائلة الهضيبى ، ولم يقتنع أبى بهذا الكلام الفارغ الذى لا معنى له وقال للمخبر بلهجته الريفية البسيطة : « جرى إيه يا بنى .. هو إحنا بنعمل مؤامرة .. دول ناس طيبين وباحبهم وبيننا وبين بعض مصالح .. هو الصداقة حرمت ؟ » .

وذهبت إلى رئيس مكتب المباحث العامة فى المدينة السكنية « يحيى بك كامل » ، وكان جازاً لى فى السكن ، كما كان يختارنى دون غيرى من الأطباء لعلاج أولاده وزوجته التى لا يراها أحد ، لأنها متمسكة بالتقاليد (فهم من الصعيد) ، وكانت تربطنى بالرجل علاقة لا بأس بها رغم أنى مدرج عنده فى « القائمة السوداء » وأن من واجبه أن يراقبنى كسجين سياسى سابق ، وناقشت موضوع أبى معه ، فأبدى تفهماً وطلب من المخبرين أن يتركوا أبى وشأنه .

والواقع أن أسرة الهضيبي في عرب الصوالحة كانوا يبالغون في احترامى وإكرامى أنا ووالدى، وكانوا ينظرون إليّ كواحد منهم، وظلت هذه العلاقة الطيبة الخفية في معظم الأحيان إلى أن رحلت عن تلك الديار.

كان مكتب المباحث العامة (أمن الدولة) في المدينة السكنية، من المكاتب المهمة لأنه يقع فى منطقة يسكن فيها الهضيبيون، ولأن المنطقة صناعية وبها عدد كبير من العمال، ومن الطريف أن بعض رجال المباحث كانوا يطلقون على هذه المنطقة «منطقة تل أبيب»، وكان رئيس المكتب يحى كامل أمين شخصية ذكية ونشطة، ولم يتهاون فى أى موضوع له علاقة بالأمن، وعلى الرغم من تاريخى وماضى الذى يعرفه هو جيدًا، لأن تحت يده «ملف كامل» عن كل شىء يتعلق بى إلا أننى وجدت نوعًا من الصداقة بيننا دون حساسية تذكر، فكنا نسهو بعضًا، نحتسى أكواب الشاي (وأنا لأحب القهوة)، ونتحدث فى كثير من الأمور حتى السياسى منهما، لكنى مهما كان الأمر كنت شديد الحرص جدًا، فلا أنزلق إلى مناطق المحرمات السياسية، لأنه مهما كان الأمر فهو رجل أمن، وإذا سقطت سقطة فمن المحتمل جدًا أن أحاسب عليها حسابًا عسيرًا.

وكان أحيانًا يستدعى بعض من تحوم حولهم الشبهات، ويستجوبهم فى مكتبه، وبعدها أسأله عما حدث، وكان أحيانًا يجيب وأحيانًا يتكتم الأمر، ولم أكن ألح عليه فى شىء، ولا أذكر أنه أفشى لى سرًا من أسرار عمله فى يوم من الأيام، فمثلًا كان يقبض على بعض الإخوان، فاستفسر منه عما جرى، فيضحك لكنه يراوغنى ويمتنع عن الإجابة.

وقد استطاع هذا الرجل أن يكشف عن بعض مظاهر الاستغلال والفساد فى المدينة السكنية، ولما تجمعت لديه كافة الخيوط ضرب ضربته وأمسك بتلابيب المتهمين فأخذوا جزاءهم بصورة أو بأخرى. وكان الجميع فى المدينة يعملون له ألف حساب وحساب، إذ كانت تصل إليه كافة التحركات والأحداث التى تدور بين العمال حتى فى مجالسهم الخاصة، ويتخذ ما يراه من إجراءات أغلبها فى إطار التهديد والتوبيخ أو العقوبات المحدودة كأن يحجز المخطئ ويأمر بضربه، ثم يتركه يعود إلى عمله، بعد أن ينبه عليه بالأمر أحدًا بما جرى له وإلا...

أذكر إننى كنت استقبل فى مسكنى بالمدينة السكنية عددًا كبيرًا من أصدقائى الأدباء والصحفيين، فكانوا يبدون إعجابهم بهذا المكان الجميل، وتلك المدينة المريحة، ويقولون إن الفرق شاسع بينها وبين القاهرة، وكنا نتحدث عن الحركة الأدبية وفرسانها، وناقش كل جديد يصدر عنها، وناقش الممارك الحامية التى تدور بين أنصار الشعر التقليدى والشعر الحديث، والممارك التى تدب بين مدارس النقد المختلفة، وكان الاتجاه السائد فى تلك الفترة هو الاتجاه الواقعى الاشتراكى (الواقعية الاشتراكية فى الأدب) يليها الاتجاه الوجودى الذى يتزعمه الفيلسوف والأديب الوجودى سارتر، والذى زار مصر فى النصف الأول من الستينيات، من القرن العشرين، على ما أذكر، وقوبل بحفاوة بالغة، ونهج المسرح نفس النهج فقد كانت قسمة بين المذهبيين الغالبين.

جاء لزيارتى الأستاذان الصديقان عاشور عليش (سكرتير تحرير جريدة المساء التى كنت أكتب فيها) والأستاذ محمد المندى (صحفى بنفس الجريدة وكاتب قصة أيضًا)، وقضا فى ضيافتى يومًا وليلة، وقد كان الأستاذ عاشور فى غاية الانبهار بهذا الجو الذى أطلق عليه «جوا صوفيًا رائعًا» على حد تعبيره، وأجرى معى حديثًا طويلًا عن الأدب نشره على أكثر من نصف صفحة فى جريدته، وقدم له بمقدمة جميلة، أما الأخ لأستاذ محمد المندى فله قصة طريفة قد يكون من المفيد أن تروى، فقد كان

مفتونًا بالأدب وهو يعيش في صعيد مصر، ويعمل بهيئة السكك الحديدية، ثم قرر التفرغ للأدب فاستقال من وظيفته، وباع أملاكه من الأراضي الزراعية، والبيت الذي كان يسكن فيه، وأتى بأسرته (زوجته وابنه مهنا وابنته) إلى القاهرة، وسكن في شقة متواضعة، وأخذ يطبع مؤلفاته على نفقته الخاصة لما لم يجد ناشراً لها، فقد كان اسمه جديداً في الساحة الأدبية، وهكذا أوشكت أمواله على النفاد، وأخذ يجرى هنا وهناك بحثاً عن وظيفة لها صلة بالأدب أو الصحافة، أو يحاول أن ينشر بعض قصصه ومقالاته نظير مكافأة مالية، والتقيت بمحمد المندى منذ أن خرجت من السجن وهو على هذه الحالة من السوء والاضطراب، وكثيراً ما كان يثور ويسب ويلعن الأوضاع المحزنة للأدب والأدباء، وفكر أن يجمع أسرته وراءه، ويمضى معهم في مظاهرة احتجاج رافقاً لافتة مكتوب عليها « هذا هو حال الأدب في مصر »، فكنا نهدئ من ثورته ونحاول قدر الاستطاعة في التهوين من الأمر، ومساعدته في حل مشاكله، وبعد سنوات من الضيق والعنت أخذه الأخ الأستاذ عاشور ليعمل معه في جريدة المساء، وبالصبر والدأب استطاع أن يحصل على عضوية نقابة الصحفيين، وبثبت على وظيفة في الجريدة بمرتب معقول، وأكرمه الله في ابنه مهنا الذي تخرج من كلية الزراعة جامعة القاهرة، وسافر للعمل في الكويت، وهكذا خلص الأخ المندى من مآسى الفقر والمعاناة.. وكان للمندى صديق شاب اسمه « حسن محسب » لمع اسمه بعد ذلك في مجال القصة وفي الكتابة للسينما، وكان من أشهر أفلامه ذلك الفيلم السياسى المبهج (وراء الشمس) الذى عالج فيه قضية الاستبداد والديكتاتورية وطغيان أجهزة المخابرات، وما يعانيه المخالفون فى رأى من اضطهاد وتعذيب، وقد لقي هذا الفيلم رواجاً ملحوظاً، وتقديراً كبيراً (ظهر الفيلم فى فترة حكم الرئيس السادات)، ومن الأمور الطريفة أن محمد المندى وحسن محسب كانا يكتبان مقالات نقدية مشتركة، وقد كتبنا مقالة عن روايتى « ليل الخطايا » فى مجلة الأدب التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ الكبير أمين الخولى (زوج الدكتور بنت الشاطى) رحمه الله، وكان التوقيع على المقالة باسم « المندى ومحسب ».

وكان الأستاذ عاشور عlish من أسرة الشيخ عlish عالم الأزهر الجليل، وقد عمل بالصحافة فترة طويلة، وكان كفاءة ممتازة، ويتميز بروح خفيفة وثابة، وصدق فى المعاملة والأداء، وتمكن فى الأسلوب الصحفى الأدبى الجميل، وتذوق عالى للأثر الأدبى، وظل يعمل بالصحافة فى موقعه حتى بلغ سن التقاعد هو والأخ الأستاذ محمد المندى.

أما رواية « ليل الخطايا » التى أشرت إليها منذ قليل فإن قرائى لا يرونها الآن، ذلك لأنى منعت إعادة طبعها، ولهذا لم تطبع إلا مرة واحدة فى « دار الفكر » بدمشق، والسبب فى منع نشرها، هو أن هذه الرواية كانت بها جرعة زائدة من تصوير المشاعر والعواطف بين المرأة والرجل، كما أنها تتعرض لمشكلة الخيانة الزوجية التى أمقتها أشد المقت، ولقد اندفعت لكتابتها تحت فورة غضب وحماس بالغين، لأنى عرفت أبطال هذه القصة، وألمت بالخيانة التى ألمتنى، فقررت أن أكتبها رواية، وكأنى أنتقم أو أحاكم هؤلاء الخونة الذين لا يراعون فى الله إلا ولاذمة، ولما هدأت مشاعرى، قلت لنفسى كان يمكن أن أكتب القصة على نحو آخر لا يثير المشاعر، وعلى الرغم من إعجاب البعض بهذه القصة التى كتبتها وأنا ما زلت طالبا بكلية الطب، بل إن أحد رجال الفكر الإسلامى أثنى عليها، بحجة أنها تعالج قضية خطيرة، أقول على الرغم من ذلك فإنى رفضت بشدة جميع العروض التى قدمت لى لإعادة طبعها، أما طلاب الماجستير والدكتوراه الذين كتبوا أطروحات عن أدبى، فقد كانوا يصرون على البحث عنها، ووضعها موضع التحليل والمناقشة، ويحصلون عليها بعد مشقة.

وهناك رواية أخرى اسمها «أميرة الجبل» كتبها عن قبائل «الشحوح» التي تعيش على جبال «إمارة رأس الخيمة» بدولة الإمارات العربية المتحدة، ونشرت سلسلة في مجلة قطرية في السبعينيات، من القرن العشرين اسمها مجلة «الفجر»، وهذه القصة لم أنشرها في كتاب بسبب اعتراض رقابة دولة الإمارات العربية المتحدة، لأن من شخصيات الرواية شخصية تقليدية لها احترامها وحيثيتها.. وكانت فترة وجودي بالمدينة السكنية من أزهى الفترات التي مرت بي فيما يتعلق بالإبداع الأدبي، فقد وضعت عددًا من المؤلفات الهامة في القصة والرواية، وكنت أرسل الممرض عبد الفتاح وهو شاب طيب مخلص إلى القاهرة كل أسبوع، ومعه إنتاجي من القصص القصيرة ليوزعها على الصحف والمجلات التي كنت أكتب فيها بصفة دورية شبه منتظمة.

وفي بيتي بالمدينة السكنية كان يفد الأصدقاء الذين تربطهم بي صلة وثيقة من مختلف أنحاء العالم العربي من سوريا ولبنان وباقي الدول العربية.

فما أجملها من أيام لا تُنسى !!



[١٤] الأيام تمضى



كان شقيقى الأصغر « محمد » يصغرنى باثنى عشر عامًا تقريبًا ،
و حينما أخذونى إلى السجن كان عمره لم يزل صغيرًا وفى نهاية
المرحلة الابتدائية ، وكان له مكانة عزيزة فى قلبى ، لذلك كنت أشرف على
تعليمه وتوجيهه الوجهة السليمة ، لكن شاء القدر أن أتركه فى عام ١٩٥٥
فحزنت لذلك أشد الحزن ، وقد انشغل أبى بمأساتى ، وذهب الصغير فى
هذه الأيام القاسية إلى مدينة زفتى القريبة ليوصل تعليمه هناك دون أن تتوفر
له الرعاية الكاملة ، وعندما كتب الله لى الإفراج حولت له إلى مدرسة
ثانوية فى القاهرة ليعيش معى وتحت إشرافى ، وعاش محمد سنوات معى ،
عرف فيها جميع معارفى وأصدقائى وأعمالى ، فكان نعم العون لى ، ولقد
كان لهذا الجو الذى عاش فيه تأثير كبير فى أفكاره وشخصيته وحكمه على
الأمر ، وخاصة أننا نعيش فى جو إسلامى بعيد عن الإكراه والضغط
النفسى ، ونتحاور فى أخوة حول كل ما نتعرض له من أمور .

وشاء الله ألا يؤهله مجموعته فى الثانوية العامة إلا لدخول كلية « التربية الرياضية » فى الهرم ،
ولاحظت عليه شيئًا من الضيق ، فقد كان يريد أن يلتحق بالطب أو الهندسة أو غيرها من كليات القمة
كما كانوا يسمونها ، لكنى أقنعت به بأن اجتهد فى أى كلية ، وتفوق بها سيفتح أمامه المستقبل الباهر ،
فالإجادة فى أى فرع من فروع المعرفة يؤهل إلى المجد ، وكان طلبة الكلية فى ذلك الوقت يقيمون
داخلها حيث يوفر لهم المسؤولون الطعام والشراب والرعاية الكاملة ، ومن حسن الحظ أنه كان بالكلية
أصدقاء مخلصون لى ، عاشوا معى سنوات السجن ، منهم الأخ الدكتور الأستاذ سليمان حجر المعروف
الآن فى الأوساط الرياضية ونقابتهم .

وتحقق الأمل فيما بعد ، وتفوق محمد فى دراسته ، ونال درجة الماجستير ثم الدكتوراه ، وتدرج
فى وظيفته حتى أصبح أستاذًا ورئيس قسم ووكيل كلية ، وهو على أبواب العمادة الآن ، ولقد كان
أخى محمد . وما زال . الأخ والصاحب والابن ، ولا أعتقد أن هناك من هو أخلص لى منه ، وهذه نعمة
من نعم الله علينا .. فهو إلى جوارى فى شيخوختى ، يسهم بجهوده المتواصلة من أجل راحتى
وإسعادى ، ولا أذكر أنه رفض لى طلبًا قط ، لقد تنكر لى بعض الأهل للأسف طمعًا وجشعًا ، لكن
أخى الدكتور محمد ظل ثابتًا على العهد ، مقيمًا على الوفاء ، لدرجة أننى أشعر وكأن أبناء أحمد
وأمانى وأسامة وطارق أبنائى ، وكان زوجته العالمة الفاضلة الأستاذة زينب الشرفاوى ابنة لى لا تقل قربًا
إلى نفسى من ابنتى الدكتور عزة .. ولقد قال أحد الأساتذة الأصدقاء لنا ذات مرة « إننى أحسدكم
على أخوتكم التى لا مثيل لها » فقرأت على الفور « سورة الفلق » وقاية من الحسد .

إن موضوع الصداقة الحقة ، وصلة الرحم الحميمة ، يشكلان أهمية قصوى فى حياتى ، وأعتبرهما
ضرورة من ضرورات الحياة ، كالطعام والشراب ، بل والماء والهواء .

فى أحد أشهر الصيف انتدبتنى الإدارة الطبية للعمل فى القسم الطبى بالإسكندرية لمدة شهر نظراً لأن الزميل القائم بالعمل هناك سافر فى إجازة سنوية ، ورجبت بالأمر لأننى قد أجد فرصة للاستمتاع بشاطئ البحر بالإسكندرية إلى جوار العمل ، وفعلاً أخذت زوجتى وأولادى وتركنا المدينة السكنية مؤقتاً ، ورحلنا إلى الثغر الجميل ، واستأجرنا شقة مفروشة ونزلنا بها ، كنت أعالج المرضى من الصباح حتى الواحدة ظهراً ، ثم اذهب إلى الشاطئ فى حى « كليوباترا » حيث أعطانى الصديق المهندس عبد الفتاح الحسينى مفتاح كбинته وهو العالم الكبير الآن فى أمريكا ، والمتخصص فى الفيزياء النووية ، والذى اكتسب الجنسية الأمريكية ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلاً لنا فى أيام سجن أسبوط المريعة . وفى « كابينه » عبد الفتاح ، كنت أجلس أنا وأسترتى نستمتع بمشهد البحر ، وذات يوم لحت الأستاذ الكبير محمد قطب قادماً من بعيد فهرولت للقاءه ، ولم يكن شقيقه الشهير سيد قطب قد أفرج عنه بعد ، وانتقلنا . أنا وهو . إلى مقهى فوقه « الكابينه » ممتد داخل البحر ، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات ، ثم أخرج كتاباً بالإنجليزية لأحد المستشرقين الغربيين ، وأخذ يقرأ لى فقرات من بعض الصفحات تشن هجوماً لاذعاً على كتابات وأفكار سيد قطب وشقيقه محمد ، ولم يكن ذلك غريباً ، فإن نسبة كبيرة من المستشرقين مهتهم الرئيسية التهجيم على الإسلام ورجاله وفكره ، مع أن هناك عدداً قليلاً آخر من المستشرقين يتصف بالإنصاف والعدل .

وأخذ الأستاذ محمد يتردد يومياً على الكابينه لنجلس معاً ونتحدث فى أمور شتى ، وبينما كنا جالسين ذات يوم رأيت رجلاً أزرق العينين ، أصفر الشعر ، أبيض البشرة يقف فوق درج « الكازينو » وينظر إلئى يامعان ولفترة طويلة ، لم أعر الأمر التفاتاً فى البداية ، ولكن استمرار الرجل فى وقوفه ، ورصده لى ونحن جلوس أمام « الكابينه » جعلنى أقف وأدقق النظر فيه يامعان ، ولما عرفته ابتسمت وهتفت به قائلاً : « أهلاً بك يا زكى بك .. تفضل معنا » .

فلوح بيده محيياً ثم هبط الدرج لينزل إلى الشارع ، ثم يهبط الدرج الآخر الموصل إلى مكان جلوسنا ، وقبل أن يصل إلينا ، قلت للأستاذ محمد قطب ولزوجتى التى تجلس فى الداخل : « احذروا .. وتحفظوا فى الحديث .. هذا رجل من رجال الحكومة .. » .

فمن يكون « زكى بك » هذا ؟

لعلنى أشرت إليه عندما تحدثت عن الفترة التى قضيتها فى سجن أسبوط ، فقد كان أحد ضباط السجن ، وهو الذى استولى على ديوان شعرى الأول « أغانى الغرباء » وكاد أن يتسبب فى تقديمى للمحاكمة لما يحتويه الديوان من أشعار تمس الحكم والنظام ..

وجلس زكى بك ، حيث قدمت له مشروباً بارداً ، وأخذنا نتحدث عن الذكريات المريعة فى سجن أسبوط ونحن نضحك ، وشر البلية ما يضحك ، وظل الأستاذ محمد قطب صامتاً يكتفى بالاستماع ، لكن زكى بك كان يشعر بالخجل الذى يخالطه شئ من الندم ، وخاصة عندما أشرت إلى « أنهم » أضاعوا من عمرنا سنوات ، وعوّقوا مسيرة مستقبلنا ، فأشار بما معناه أننا أحسن وأسعد منهم حالاً .

وبينما أنا منهمك فى العيادة صباح أحد الأيام ، جاء الممرض وقال : « لم يعد هناك مريض .. » .

حمدت الله وعولت على المسير إلى شاطئ البحر حيث تنتظر زوجتى وأولادى ، لكن الممرض

قال : « هناك رجل يريد لقاءك » .

- « مريض ؟ » .

- « لا .. » .

- « أدخله إذن » .

لم أكن أعرفه ، وأخذت أقيسه بنظراتي ، بينما أخذ هو يضيّق عينيه ويوسعهما ، ثم تنحّج وجلس ، وعلى فمه طيف ابتسامة ساخرة ، ونظرًا لأنني كنت في عجلة من أمري فقد قلت : « أحب أن أعرف على الأخ » .

- « لست بأخ .. أنا من المباحث (أمن الدولة) .. » .

شيء كالصدمة يتتابى كلما لقيت واحدًا من هؤلاء المخبرين المحدودى الثقافة ، لكننى سرعان ما أمتص الصدمة لكثرة تعودى عليها ، ذلك أمر لا مفر منه ، ولابد من التعامل معهم بمنتهى الكياسة ، وإلا فإن تقريرا واحدًا يمكن أن يسبب لى العديد من المشاكل التى أنا فى غنى عنها ، وطرح أسئلة مختلفة ، متى أتيت إلى الإسكندرية ؟ ومتى ستعود إلى القاهرة ، من هم أصدقاؤك هنا ؟ وأين تقيم ؟ وهل تقابلت مع أحد من الإخوان المسلمين ؟ وما أخبارك ، وفى النهاية طلب منى أن أحضر فى الساعة مساءً لمقابلة سيادة المفتش العام لمباحث إسكندرية فى مكتبه ، ولما سألتته عن السبب أجاب بأنه لا يعرف . وذهب من حيث أتى ..

واتجهت أنا إلى الشاطئ ..

كنت متضايقًا بعض الشيء على الرغم من أن شيئًا كهذا مُتوقع دائمًا .

فى الموعد المحدد ذهبت لكى أقابل المفتش ، وانتظرت ما يقرب من ساعتين فى غرفة الانتظار المكتظة بالتعساء من أمثالى ، وكلما استعجلت السكرتير كان يقول : « البك مشغول .. دقائق قليلة وتدخل .. »

شعرت بمزيد من الضيق والملل ، وقفت وتسلمت خارجًا قابلى « المخبر » عند الباب قال فى دهشة : « إلى أين ؟ » .

- « عندى عمل فى القسم الطبى ولا يمكننى تأخير » .

- « لكن ... » .

قاطعه قائلاً : « تستطيع أن تحدد لى موعدًا آخر » .

مشيت فى الشارع والهواء يصفاح وجهى المحتقن ، أينما ذهبت فى أى مدينة أو بلد أجدهم هناك ، المخبرون فى كل مكان ، سواء عرفناهم أم لم نعرفهم ، وعلى الرغم من أن ذلك شيء مزعج للغاية ، إلا أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا سوى الصبر ، نعم الصبر هو الصديق الحميم الذى يلازمى كظلى ، ولا يتخلف عنى دائمًا ، إننى لا أستغنى عنه ، وإلا انفجرت .. ولذلك جعل الله جزاء الصابرين كبيرًا وقال فى كتابه العزيز ﴿ إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فى صبيحة اليوم التالى دخل الممرض عليّ فى مكنتى وأخبرنى أن هناك زيارة منزلية لمرضى موظف ، وأنه يقيم فى أحد الأحياء الشعبية ، وكانت الزيارات المنزلية مرهقة ، وتستغرق وقتًا ، وقد يكون فى اليوم زيارتان أو أكثر ، هذا بالإضافة إلى عمل العيادة اليومية حيث يكون عدد المرضى كبيرًا ، نسبة كبيرة منهم من المتمارضين ، وأخبرت الممرض أننا سنذهب إلى ذلك المريض فى بيته بعد أن أتم الفحص للمرضى ..

واتخذنا طريقنا إلى بيت المريض ، كان مبنى قديمًا واسعًا ، على الحيطان ، متسع الغرف ، ودخلنا الغرفة التى يرقد فيها المريض ، فوجدتها تضاهى أربع غرف أو أكثر من البيوت الحديثة ، كان المريض

غارقاً في عرقه ، والحُمى تشعل جسده ، وقد غطى وجهه بشال رقيق ، وحينما كشف الغطاء عن وجهه ذهلت .. هل ممكن أن يكون هو ... وأمسكت « بالأورنيك » المرضى ، أو البطاقة المسجل فيها اسم المريض ، وتأكدت ، وصحت في فرح : « عبد المنعم الوزان ؟ كيف حالك .. » .

وفتح عبد المنعم عينيه بصعوبة ، ونظر إلى يامعان ، وسرعان ما أضاءت الفرحة وجهه ، وجلس في سريره فاتحاً ذراعاً على آخرهما ، وتعانقنا بحرارة ، إنه أحد زملائي بالسجن في أسبوط ، كان وديعاً طيب القلب ، على الرغم من عوده الفارع ، وجسمه القوى ، وكانت هناك ابتسامة طفولية لا تغادر محياه ، وكان دائماً يتميز بالشهامة والكرامة وإنكار الذات ، وربما كان هذا الخلق القويم هو السبب في أخذه من بيننا ، و « تغريبه » إلى سجن آخر بعيداً عنا .

كان لقاءنا عامراً بالمشاعر الحية التي لا يمكن أن يخمدتها الزمن ، وعادت الذكريات وتركزت في لحظة قصيرة من العمر ، وكان إخوة عبد المنعم وأبوه يحيطون بسريره ، ولم يكن أحد منهم يتوقع هذه المفاجأة ، وعلى الفور تحولت من طبيب إلى صديق ، ونسينا المرض لدقائق ، وقدموا ألوان شتى من الفواكه والمشروبات ، وبدا وكأن عبد المنعم قد شفى من مرضه ، قلت لعبد المنعم : « لم أكن أعلم أنك خرجت من السجن ، ولم أكن أعلم أيّماً أنك تعمل في السكك الحديدية » .

ابتسم كعادته وقال : « خرجت منذ شهرين فقط ، وعدت إلى عملي السابق الذي تركته من سنوات طويلة ، إن أبى وإخوتي جميعاً موظفون بهيئة السكك الحديدية .. وأنا سعيد أنك معنا .. لم أكن أعلم ذلك .. » .

وبدأت الفحص ، كانت درجة حرارته أقل قليلاً من أربعين درجة ، وكان يصدره التهاب شعبي حاد ، وطمأنته ، وكتبت له العلاج ، وأصر على أن أتناول معهم طعام الغداء في الغد . لكنني طلبت منه تأجيل ذلك حتى يُشفى ، ويأتى إليّ بعد الإجازة المرضية التي سمحت له بها ، وكانت لمدة أسبوع .

كانت أمى رحمها الله تقول حكمة شعبية جميلة نصها « مصير الوجوه تتلاقى » . ولذلك كنت كلما ذهبت إلى مكان أجد لى فيه إخوة وأحبائاً ، أغلبهم على شاكلة الأخ عبد المنعم الوزان ، وعندما سافرت في شهر العسل (بعد الزواج) إلى الصعيد قاصداً الأقصر (البلد السياحي المعروف) وأسوان ، كنت كلما نزلت بلداً وجدت فيها إخوة أعزاء ، وكنت أقرأ لافتات الأطباء على عياداتهم الخاصة فأفاجأ بصديق منهم ، وكلما رأنى واحد منهم أخبر الآخرين ، فلا يكاد يمر يوم إلا وأجدني وسط حشد كبير منهم وأراهم يتسابقون لدعوتى كي أنزل عليهم أو أقبل دعوتهم للغداء أو العشاء ، ألا يبعث هذا على المتعة والسعادة ؟ ألا يعنى ذلك أن الأخوة الصادقة المخلصة لا تقدر بالمال ؟

والغريب أن فى الإسكندرية أبناء خثولة وعمومة ، ولكنى كنت قليل الاتصال بهم ، والمجاملات بينى وبينهم محدودة فى تلك الفترة ، وعلى الجانب الآخر كان إخوة العقيدة دائمي الاتصال بى ، والزياره لى ، وصدقت الحكمة التي تقول : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

وأخيراً عدت بعد فترة الانتداب من الإسكندرية إلى المدينة السكنية بأبوزعبل ، واستأنفت مسيرة حياتى السابقة من جديد ، واستقبلنى الإخوة والأصدقاء بحفاوة بالغة ، ولم يكد يمضى أسبوعان حتى كلفت بانتداب آخر إلى أين ؟ إلى أسوان أقصى جنوب مصر ، حيث كان يجرى بناء السد العالى على قدم وساق ، ولم يكن يُقبل أى عذر مهما كان لأى موظف يكلف بالعمل فى السد العالى .

قلت لزوجتى :

« ماذا أفعل ؟ من انتداب إلى انتداب آخر ؟ يا قلبى لا تحزن » .

وردت على الفور قائلة: « سأتى معك » .

- « والأطفال » .

- « سنأخذ معنا حسام الدين ، ونترك عزة وجلال الدين مع أمى حتى نعود » .

واستطردت قائلة: « لم نذهب إلى أسوان منذ شهر العسل ، وأريد أن أستعيد الذكريات الجميلة ، ستكون رحلة ممتعة بإذن الله » .

- « إن مما يحزننى أن الإدارة الطبية بها عدد كاف من الأطباء ، لكن الانتداب لا يقع إلى على ، لأن الوساطة تتدخل وتفسد العدل والنظام ، أترانى أدخل فى صراع جديد معهم ؟ » .

- « يا رجل .. سنذهب فى رحلة مجانية ، وسنشاهد السد العالى حتى نستطيع فى المستقبل أن نحدث أولادنا وأحفادنا عنه بعد أن نشاهد إنشاءه بأعيننا قبل أن تتدفق فيه مياه النيل .. والسفر فى القطار بالجان ، والإقامة بالجان .. فماذا تريد بعد ذلك ؟ » .

وفى اليوم المحدد للسفر ، ذهبنا إلى القاهرة ، وقصدنا المحطة الرئيسية لقطارات السكك الحديدية ، وركبنا قطار الثامنة مساءً ، كان الطريق طويلاً ، والقطار ينطلق بسرعة ، لكنه كان يتوقف مرات عديدة ، لا ندرى لماذا ، وأحياناً كان يطول توقفه ، وبقيت متيقظاً طوال اليوم ، فأنا لا أستطيع النوم فى وسائل المواصلات مهما امتد زمن السفر ، أما طفلنا حسام الدين فقد نام ، واستيقظ بعد ساعات ، ثم وقف فى صالون الدرجة الأولى الذى نشغله وقال فى ملل : « عايز أروح بيتنا .. »

وأخذ يركب مصرّاً على أن يعود إلى بيته ، ولم يسكت إلا بعد أن أعطيناه قطعة من الشيكولاتة ، وأسمعناه بعض قصص الأطفال الشيقة التى يحبها ، ثم نام مرة أخرى ، ونامت إلى جواره أمه ، وبقيت يقظان حتى أشرقت الشمس على الدنيا ، وبسطت أشعتها على الحقول ، وتدفقت عبر نوافذ القطار ، ولم نصل إلى أسوان إلا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً .. أى بعد خمس عشرة ساعة ، وهى مدة طويلة جداً تزيد عن المدة المقررة بعدد من الساعات .

كنت أشعر بإرهاق شديد للغاية ، واستقبلنى بعض العاملين بالقسم الطبى بأسوان ، وأنزلونى فى بيت إلى جوار المحطة ، الدور الأسفل منه للعيادة ، والدور الأعلى للسكن ، مضطراً للعودة إليهم على الرغم من التعب الشديد الذى أشعر به .

وما إن انتهيت من عملى حتى طلبت من الممرض أن يأخذ نقوداً ويذهب ليشتري لنا بعض الطعام والمتطلبات المنزلية الأخرى وصعدت إلى الطابق الثانى كانت زوجتى نائمة وإلى جوارها طفلها .

كانت القطارات تشحن بأطنان كبيرة من الأسمنت والمواد الأخرى والمعدات إلى موقع السد العالى يومياً ، وبعد يومين أو ثلاثة أخذت زوجتى وطفلى لزيارة هذا العمل الضخم الذى يتحدث عنه العالم ، والذى تسبب فى إشعال حرب ضارية بينا وبين إسرائيل وحلفائها من الإنجليز والفرنسيين ، والواقع أن الإنسان يعجز عن إعطاء الوصف الشافى والدقيق للأعمال الجبارة ، والنشاط المذهل ، والجهد المتواصل الذى يبذل فى بناء السد العالى ، والذى غير وجه الحياة تماماً فى أسوان المدينة وفيما حولها من جبال وأراضٍ ، فقد رصف العديد من الطرق ، وأنشئت المدن الجديدة ، وأقيمت مصانع أساسية أو تكميلية ، ومئات الحافلات والسيارات والمركبات الميكانيكية تتحرك صاعدة نازلة ، وفى موقع السد نفسه أعداد هائلة من العمال وانفجارات وضجة كبيرة حتى ليصاب الإنسان بالذهول وأمسكت بيد طفلى ، وإلى جوارى زوجتى ، وطلبنا الإذن بالسير داخل أنفاق السد الضخمة الآمنة ، ودخلنا أحد هذه الأنفاق وقلت لزوجتى : « إن هذا المكان الذى نسير فيه سوف تغمره المياه بعد ذلك ،

ولن يمشی فيه أحد حتى مئات ، بل ربما آلاف السنين .. هذه فرصة تاريخية لأقول بأمانة وصدق إننى أخذت بروعة هذا العمل العظيم ، وكنت سعيدًا بأن أقضى فى رحابه ما يقرب من شهر ونصف على دفعتين ، وتعرفت خلال هذه الفترة على عدد من كبار المهندسين المصريين والعاملين فى شركات المقاولات وموظفى العلاقات العامة ، وفى أسوان أيضًا التقيت بعدد من الزملاء القدامى فى كلية الطب ومن الإخوان أذكر منهم الدكتور صلاح راشد وهو شخصية مرموقة فى بلده ومسقط رأسه أسوان ، والدكتور عباس نوير وهو من الكوادر السياسية ، والدكتور فايز نخلة وهو زميل مسيحي متفرغ لعمله الطبى وغيرهم .

فى أحد الأيام بعد انتهاء العمل جاءنى الممرض فى مسكنى وقال : « مطلوب تخنيط اثنتين وثلاثين جثة .. » .

صدمت لما قاله وهتفت : « اثنتان وثلاثون » .

- « نعم .. » .

- « كيف ماتوا .. » .

- « انفجار فى السد العالى أثناء العمل ، إنهم يضعون المتفجرات ليحطموا الصخور ، ولا بد أن يكون هناك ضحايا .. وكل جثة لا يسمح بتسفيرها إلى موطنها إلا بعد تحنيطها هذا هو القانون » .

- « ولماذا أنا بالذات ؟ » .

- « لأن طبيب السكك الحديدية هو المختص بذلك » .

- « وإذا رفضت ؟ » .

- « يتدبون الطبيب مفتش صحة بندر أسوان » .

- « حسنا فليفعلوا ذلك ... » .

قال الممرض فى شئ من الغضب : « هذا رزق ، فكيف ترفضه ؟ » .

- « لم أفهم .. » .

- « إن لك على كل جثة سبعة جنيهات للحنيط ، وهذا مبلغ كبير جدًا إذا حسبته ، وأنت لن تفعل شيئًا فى عملية التحنيط ، ستكون تحت إشرافك ، وسأقوم أنا بالعمل الفعلى مقابل جنيه واحد لكل جثة .. » .

لا أدرى لماذا شعرت بالحزن والغثيان ، ووجدت لذي صدودًا عن إتيان هذا العمل ، بل لم أستطع مجرد الاستمرار فى التفكير فيه ، ولم يعد لدى أدنى رغبة فى الحديث عن ذلك ، لذلك قلت للممرض : « دعنى ، ولا تعد لهذا الأمر ، ودبر الأمر مع مفتش صحة البندر » .

ولم تكد تمر ساعة ، حتى دق جرس الباب ، وعندما فتحت وجدت رجلًا أشيب طويل القامة يقف عند قمة الدرج ، ويقول : « مساء الخير يا دكتور ، أنا الدكتور « جورج » ... » مفتش صحة المركز ، جئت أعاتبك ، كيف تترك حقك لبيتلعه « ابن ال ... » مفتش صحة البندر ؟ إنه ليس من حقه .. » .

- « لكنى لا أريد ذلك يا أخى .. » .

- « أنت لم تزل صغير السن ، ولا تعرف مصلحتك .. يجب أن تنزل فورًا لتأخذ رزقك .. » .

ولم استجب لطلبه ، كانت « رزق » هنا فى غير موضعها ، بل تشير اشمئزازى ، فهبط الدرج غاضبًا متوترًا ، وهو يلقي بكلمات احتجاج وتأنيب ولوم لم أتبن ألفاظها جيدًا ، وعلمت أن هناك صراعًا

وتنافسنا بين مفتش صحة البندر، ومفتش صحة المركز، وأنهما يستشعران نحو بعضهما كراهية شديدة، وأن كلا منهما يحاول أن يكون له حق التحنيط في حالة غياب طبيب السكة الحديد.

قضينا أيامًا جميلة في أسوان، وزرنا جزيرة النباتات، و «مدفن أغا خان» الشهير، وسهرنا في فنادقها الجميلة الحديثة آنذاك مثل فندق «نيوكتاركت» الحديث والقديم، وذات يوم جاءني الممرض وقال: «هناك زيارة منزلية لا بد من الانتهاء منها الآن».

- «لماذا؟».

- «لأن المريض يدعى المرض، وهو سائق قطار، وإعطاؤه إجازة يعني عدم إرسال ثلاثة آلاف طن أسمنت إلى السد العالي، وناظر المحطة سيأتي إليك بنفسه لهذا الأمر...».

- «وأين يسكن سائق القطار؟».

- «في جبل الحكروب».

- «ماذا تقول؟».

- «أقول جبل الحكروب...».

- «وكيف الوصول إليه».

- «نركب الحافلة حتى سفح الجبل، ثم نترك الحافلة ونركب حمازًا، أو نمشي في طرق الجبل، حتى نصل إلى المدينة السكنية...».

- «إذن هيا بنا».

نزلنا من الحافلة عند الجبل، وبدأنا نصعد الطريق الضيق الملتوي، وأمامنا رجل يرتدي زيًا أزرق يسبقنا بحوالي خمسمائة متر، ولم أجد أثرًا لمباين على الجبل، ولما سألت الممرض عن الوقت الذي سنقضيه في الوصول أجاب بأنه حوالي نصف الساعة أو أقل قليلًا، وقال إن الرجل الذي يسير أمامنا متجه هو الآخر إلى المساكن الشعبية هناك، كان الجو حارًا، والعرق يسيل، وأنا أجبر ساقني جزًا، والوقت بعد الظهر، والممرض يحمل الحقبة التي بها أدوات الفحص، وبعض أدوية الإسعافات الأولية، وأخيرًا ظهرت المساكن على إحدى القمم، وكانت عبارة عن عمارات جديدة بيضاء من أربعة طوابق، وتجولنا بحثًا عن رقم العمارة، ووصلنا بعد أن نال منا التعب، كان الرجل راقدًا في فراشه، لكنه في حالة جيدة، ولا تبدو على وجهه علامات ألم أو ضيق، بل كان على فمه ابتسامة خفيفة، وحوله عدد من الأطفال والنسوة، وقبل أن أبدأ الفحص: «إن ناظر المحطة رجل ظالم، دائم يضطهدني، ويكلفني بأشق الأعمال ويترك زملائي يمحرون...».

قلت بإيجاز وأنا أجفف عرقى: «م تشكو؟».

- «صداع، وآلام عامة في الجسم».

- «وهل هذا يمنعك من الحضور للعيادة؟».

- «لم أستطع التحرك، ماذا أعمل؟».

- «الزيارة المنزلية كما تعلم للحالات الشديدة والمرضى الملازمين للفراش».

- «وهل تراني ألعب الجمباز؟ إننى ملازم الفراش كما ترى».

وقمت بفحصه بدقة استغرقت وقتًا لا بأس به، وجدت درجة الحرارة طبيعية، وأرقام ضغط الدم لا غبار عليها، والقلب والصدر سليما، والحلق والزور لا أثر فيهما للاحتقان أو التهاب، ولما تأكدت أنه ممرض، أمسكت بالبطاقة وكتبت عليها «لائق، ويعود لعمله فورًا» كنت أتكلم بما أكتب،

وكتبت له ورقة بهذا المعنى ، وسجلت في الملاحظات « تخصص مصاريف زيارة الطبيب لحساب هيئة السكك الحديدية » ، لكنني للأسف رأيت المتمارض بطرف عيني وهو يخرج لسانه استهزاء للممرض ، وتظاهرت بأنني لم أر شيئاً .

عدت أنا والممرض في نفس الطريق ، وروادتنى فكرة ، قلت : « أليس هذا هو الرجل الذى كان يسير أمامنا على الجبل » .

رد الممرض بيروود عجيب : « بلى .. إنه هو نفسه » .

- « ولماذا لم تخبرنى ؟ » .

- « وما الفائدة ، ثم إننا أبناء بلد واحد ، ولا يصح أن أعقد الأمور بسببه » .

ثم التفت إلى قائلاً : « ألا تعلم أن تقريرك هذا سيتسبب له فى قطع أجر خمسة أيام من مرتبه ؟ » .

- « أعلم ، لكنه يستحق .. » .

حينما عدت إلى المسكن ، سألتنى زوجتى عن سبب تأخيرى ، فرويت لها ما حدث وأنا أخلع ملابسى ، وارتدى منامتى ، وضحكت عندما سمعتها تقول : « جبل الحكروب اسم رائع لقصة جديدة .. رومانسى جداً .. وداعاً يا جبل الحكروب » أليس هذا عنواناً جميلاً .

- « الجبل موجود ، ولكن أين القصة » .

- « إذا لم توجد تستطيع أن ت اخترعها .. » .

- « تعرفين أننى لا أنطلق إلا من الواقع .. حتى ولو كان بسيطاً .. » .

- « الواقع أمامك .. فلتلحق بخيالك .. » .

- « لا أستطيع أن أبدع وأنا جائع .. » .

ضحكت وأخذت تعد المائدة لنأكل ، فقد اقترب وقت صلاة العصر ذكرتنى زوجتى بمنحة التفرغ التى نلتها قبل ذلك ، لكى أكتب رواية عن السد العالى ، فماذا كانت قصة هذه المنحة ؟ وكيف كنت سأكتب قصة دون أن أرى السد الذى هو موضوعها ؟ ولقد وضعت وزارة الثقافة فى مصر لائحة خاصة « بمنحة التفرغ للفنانين والأدباء » ، وشكلت لجنة من كبار الكتاب لفحص الطلبات التى ترد إليها من الأدباء الراغبين فى التفرغ لمدة عام واحد يجدد عند الضرورة ، وتقوم هذه اللجنة بتقدير راتب شهري مناسب للعضو الذى ستوافق على تفرغه ، ولا بد لطالب التفرغ أن يقدم إنتاجه الأدبى السابق الذى يرشحه لذلك ، وكان من أعضاء لجنة التفرغ الأساتذة الكبار : الأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ يحيى حقى وغيرهم ، وعزمت أن أتقدم بطلبى للتفرغ مرفقاً به مؤلفاتى السابقة ، وعلمت من سكرتير اللجنة وأظنه الأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوى ، أن اللجنة وافقت على منحى التفرغ ثم تراجع بعد أن قرأت فى البيانات المدونة بطلبى أننى « طبيب مكلف بالعمل لمدة سنتين تتجدد تلقائياً ورأت اللجنة أنه ما دام الأمر كذلك فإننى لن أستطيع ترك عملى الطبي . ولو مؤقتاً . وأتفرغ للأدب ، وكان المشروع الذى قدمته هو كتابة رواية عن السد العالى ذلك الحدث الكبير فى تاريخ مصر ، وقررت اللجنة إرجاء البت فى الطلب ، وفهمت من الصديق السكرتير أن الذى يستطيع إعادة النظر فى الموضوع هو الدكتور . طه حسين ، أو الأستاذ العقاد ، وكانت وجهة نظرى أن حق التفرغ له أمر بعيد الأثر فى وضعى الأدبى ، وأن اللجنة عليها أن توافق على تفرغى ما دامت مقتنعة . وهذا حقى ، بصرف النظر عما إذا كنت سأنفذ التفرغ أم لا ، وكانت اللجنة قد وافقت على منحة التفرغ للأستاذ الصديق على أحمد باكثير لكتابة مسرحية عن عمر بن الخطاب ، وقد كتبها فى ستة

عشر جزءاً، صدرت عن مكتبة مصر بالفجالة، وقد تفرغ لهذا العمل عامين كاملين، وعزمت على مقابلة من أستطيع من أعضاء لجنة التفرغ لأقتنعهم بإعادة النظر فى الموضوع .. وهكذا التقيت بالأستاذ يحيى حقى فوافق، ثم ذهبت إلى الأستاذ العقاد، كما سبق وشرحت فى مكان آخر، وعندما قابلته فى منزله بمصر الجديدة فى يوم جمعة أثناء ندوته الأسبوعية، قدمت نفسى إليه دون إلقاء قائلًا: «أنا نجيب الكيلانى»

فابتسم وصافحنى قائلًا: «أهلاً يا دكتور».

أدركت أن الرجل رحمه الله يذكرنى، بدليل أنه أضاف كلمة دكتور إلى اسمى، ودخلت فى الموضوع مباشرة، وشرحت له قضية تفرغى، فقال إنه تذكر ذلك الموضوع، ثم صمت برهة وقال بالحرف الواحد: «الذين قرءوا كتبك يثنون عليك، وأعدك بأن أوافق عند إعادة طرح الموضوع».

ولم يبق إلا أن أذهب إلى الدكتور طه حسين فأنأ لم أقابله منذ أن تسلمت منه الميدالية الذهبية فى عيد العلم (ديسمبر ١٩٥٩) فى حضور رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، بمناسبة فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لذلك العام، لكن الأستاذ ثروت أباطة الكاتب المعروف تكفل بذلك نيابة عني، وتمت موافقته هو الآخر وصدر القرار أخيرًا .. القرار الذى أنفذه، ذلك لأنى وجدت صعوبة لدى الجهات التى أعمل بها، ولكنى لم أشعر بالضيق لذلك، فقد كنت دائماً حريصاً على أن أظل وثيق الصلة بمهنتى الإنسانية، ولا أفرق عنها حتى أبلى سن التقاعد، وأن يكون الأدب مجرد هواية جادة وليس احترافاً أو تفرغاً، على الرغم من أن أصدقاءنا وإخواننا فى المغرب العربى، كتبوا عن ضرورة تفرغى للأدب لأهمية الاتجاه والمبادئ التى أؤمن بها، وأدعو إليها ..، استمر انتدائى فى أسوان المدينة التى أحببتها لأكثر من شهر، كنت أجد الفرصة المواتية لأتنزه فى نهر النيل الجميل، وأذهب إلى المدن الصناعية الجديدة التى تلج القلب، وأزور مواقع السد العالى التى لا أمل من مشاهدتها، وأسجل بعض القصص والخواطر عن ذلك، وفى أحد الأيام جاءنى الممرض يقول: «الدكتور (م...) وصل من الأقصر ليشاركك فى الفحص الثلاثى».

كان هناك يوم محدد كل فترة لفحص العمال الذين يعانون أمراضاً مزمنة، ولا بد لهذا الفحص أن يتم بواسطة طبيين، ونزلت ورحبت بالدكتور (م...)، وتراض العمال فى صف طويل، وبدأنا فحص النظر، وكم كان ذهولى عندما رأيت الدكتور يكتب قوة الأبصار عند الرجل الذى نفحصه أنها ٦/١٢، مع أنى لاحظت أنها ٦/٢٤، وتوقفت عن العمل وقلت له: «إنك تخطئ يا دكتور (م...)».

قال وهو يسدد إلى نظرات ذات معنى: «لقد دفع المبلغ المطلوب».

هتفت فى دهشة: «ماذا؟».

- «أقول دفع خمسة جنيهات».

- «لماذا؟».

- «لينجح .. أم تريد أن تقطع رزقه».

كان الكلام يدور بيننا همساً:

وضعت القلم، وخلعت السماعة، وقلت: «آسف .. لن أشاركك فى الفحص».

- «لماذا؟ الأمور تمشى على هذا النحو من قديم، «ويا بخت من نفع واستنفع» .. وأستطيع أن

أفحص وحدى، وبعد ذلك أحضر أحد زملاء فى الأقصر ليقع معى ..».

وعدت إلى مكنتى فى العيادة، وأنا أنتفض من الغيظ، إن المخالفات ترتكب جهازاً نهائياً، والرشوة

تُؤخذ دون خوف، تمامًا مثلما كان يحدث في المنطقة الطبية بطنطا، وما زال المذبايع يتحدث عن الثورة .. والنقاء الثورى ..، عصر الطهارة والعدالة والحرية والاشتراكية، وانتهى الفحص الثلاثى، وأخذ (م ..) الأوراق، ثم جلس معى يشرب الشاى فى هدوء غريب، ويضحك معى، ثم لاحظت مجيء فتاتين حاسرتين يسلمان علينا، وعرفنى (م ..) بأنهما أختاه، وبعد أن اتجه لأخذ القطار الذهاب إلى الأقصر، قهقه الممرض وقال: «هل صدقت أنهما أختان له؟».

- «نعم، وماذا فى ذلك؟».

- «يا دكتور أنت رجل طيب، لا تصلح لهذا الزمان».

فهمت ما يرمى إليه، إن الأمر فى غاية العجب، فهناك رجال تحت الشمس يصنعون ما يشبه المعجزة بالسد العالى، وعلى الجانب الآخر رجال يرتشون ويسرقون ويستغلون نفوذهم، وعلى امتداد الوادى ققراء لا يجدون القوت، وعلى قمة السلطة رجال أصبحوا ملوكًا أو كالمملوك بما حصلوا عليه من مال حرام، وسلطة جائرة لا ترحم، ونفوذ خرافى لا يعترضه أحد، والغريب أن عامة الناس يعرفون الكثير، لكنهم لا يستطيعون الشكوى، أو حتى مجرد الإنصاح عما يقلقهم.

انتهت أيام الانتداب الجميلة، وحملت أمتعتى، ومعى ابنى وزوجتى، وركبنا قطار الصعيد المتجه إلى الشمال.

فى الطريق بدت لنا بعد ساعات محطة قطار مكتوب عليها «بنى مر» قلت لزوجتى: «أنظرى واقربى اللافنة».

- «ماذا هناك؟».

- «ألا ترين تلك القرية البعيدة؟».

- «نعم».

- «إنها بلدة عبد الناصر بن الحاج حسين، والد الرئيس ..».

هزت رأسها قائلة: «لقد قطع مشوارًا طويلًا من هنا حتى ...».

ولم تكمل، أكانت تريد أن تقول «حتى القاهرة» أم «حتى القمة»، لا أدرى وسبحان المعطى الوهاب!

وعدنا إلى المدينة السكنية بأبوزعبل .. ذلك الحصن الدافئ المريح ..

عندما جلست فى مكتبى كنت أستشعر السعادة تملأ قلبى، أخذت الألمس بنظراتى الحانية قطع الأثاث فى المكتب، والأدوات الطبية الموضوعة أمامى، وانظر عبر الباب والنافذة إلى الناس الطيبين الذين أحبهم. وراودنى إحساس داخلى بالخوف وتساءلت: هل يمكن أن يحدث ما يعكر الصفو، وأترك هذا المكان الجميل المريح الذى اختلط بروحى وكيانى؟

لست أدرى لماذا راودنى هذا الخاطر:

يا إلهى !!! ماذا قد يحدث فى الغد؟



[١٥] أدب الحياة والحرية



دائمًا كانت تشغلني قضية الحرية، ذلك لأننا شعب ابتلى من قديم

السنين بملوك وولاة وحكام قلما يراعون حق الله وحق العباد،

ولقد كانت للتجربة المريرة التي خضتها أكبر الأثر في تعميق الإحساس

بالحرية، وأهميتها للإنسان حتى يبدع ويجدد، وللوطن حتى ينمو ويتقدم

ويزدهر، ولهذا فإن الكم الأكبر من قصصى ورواياتى، بل ومؤلفاتى

الأخرى تدور حول هذا المعنى النبيل، وذلك من خلال التصور الإسلامى

الصحيح، والواقع أننى نشأت فى أسرة من عامة الشعب، كانت تتميز

بروح الحرية والتسامح والتفاهم، ولم يكن فيها أى نوع من الإكراه أو القهر

أو القسوة، فضلاً عن أننى كنت أهتم فى عالم المفكرين والمصلحين وقادة

الرأى من خلال قراءتى المستمرة عن القادة والمثّل العليا التى تخلق فى أجواء

عالية تخلب اللب، وتثرى الروح، وتبعث على الأمل والتفاؤل والثقة،

ولهذا صدمت فى حياتى صدمة رهيبة حينما رأيت ما رأيت من قوة وإذلال

وتعذيب فى السجون، وفى السجن الحربى بالذات، ومهما كانت المبررات والأسباب لهذا الظلم

الفادح، فإنه أمر شاذ مدمر، لن يشر إلا المأسى والأحزان، والخيبة والهزيمة النكراء للأمة كلها.

أعجبت بشخصية الداعية الإسلامى والمصلح الكبير «جمال الدين الأفغانى»، وأخذت أتقصى

أفعاله وأقواله وحياته المليئة بالجهاد والعجائب، وكنت فى تلك الفترة أعزم كتابة رواية عن انعكاسات

الحرب العالمية الأولى على مصر (١٩١٤ - ١٩١٨)، وعن ثورة الشعب وسعد زغلول باشا المعروفة

بثورة ١٩ (١٩١٩)، وتجولت فى كتاب التاريخ الذى كتبه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، وفيه تسجيل

مفيد وموسع عن هذا الأحداث وغيرها، حتى أتمثل الخلفية التاريخية سياسيًا واجتماعيًا فى تلك الفترة

لأن ذلك ضرورى للقاص أو الروائى الذى يستلهم التاريخ..

وهكذا بدأت فى كتابة رواية «نداء الخالد»، وأعنى به نداء الحرية طبعًا، ولجأت إلى حيلة فنية

مقبولة، إذ جعلت «الشيخ عنبه» وهو أحد أبطال نداء الخالد مغرمًا بشخصية جمال الدين الأفغانى،

حافظًا للكثير من نصوص أقواله وكتابات، وكان من عادة الشيخ عنبه ألا يرد على سؤال إلا بقول مأثور

لجمال الدين الأفغانى، ويسبق ذلك بقوله «يقول حبيبى كذا وكذا» ويقصد بالحبيب الأفغانى وهكذا

شاعت فى أجواء القصة روح الأفغانى وفكره، ودعوته الصادقة من أجل تحرير المسلمين من الظلم

والاستعمار، وتحرير الإسلام من الخرافات والحزبيلات، ولقد كانت هذه القصة من ثمرات الحياة

الوادعة المطمئنة فى مساكن أبوزعبل.

ومن الروايات التى كتبتها فى هذه الفترة رواية «الكأس الفارغة»، هى رواية تجرى أحداثها فى

منطقة قتال السويس، والصراع الدائر هناك بين الفدائيين من الإخوان المسلمين وبين القوات البريطانية

المستعمرة، ولقد كان لى فى هؤلاء الفدائيين أصدقاء وإخوة أعزاء بعضهم ضحى بحياته فى سبيل الله،

وسلمت الرواية بعد الانتهاء من كتابتها للناسر حسن إيراني صاحب الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع بميدان إبراهيم باشا «الأوبرا سابقاً»، وسلمها على الفور لمطبعة «النزهة» وأظنها في «حى شبرا» وفعلاً بُدئ في الطبع، وصححت من التجارب (البروفات) أكثر من مائة صفحة، وفجأة توقفت مطبعة النزهة عن الطبع، ولما سألت عن السبب قيل أن الحكومة فرضت الحراسة عليها، واستولت على أموالها، واحترت ما مصير روايتي؟ وذهبت إلى البك الحارس الذى عينته الحكومة، وطلبت منه نصوص الرواية، فأخبرنى أنه لا يستطيع التصرف فى شىء الآن، وأخذت أجرى هنا وهناك بضعة شهور دون جدوى، ويشت من استرداد روايتي «الكأس الفارغة» وعدت بعد جهد جهيد بيد فارغة، وللأسف الشديد لم يكن لدى نسخة من هذه الرواية، ولم أستطع الاستدلال بعد ذلك على الحارس أو على أصحاب المطبعة الأصليين، وضاع الجهد الذى بذلته فى كتابة هذه الرواية التى كنت أعتر بها أيما اعتزاز قالت زوجتى: «لماذا لا تكتبها من جديد؟».

- يصعب ذلك .. فأنا لا أتذكر إلا إطارها العام، والشىء الذى أكتبه مرة، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدت لكتابته مرة أخرى ..».

وحزنت أشد الحزن، مثلما حزنت على كتابي «الرافعى فى موكب البعث» الذى أحرقت يد لا تقدر قيمته، ومثلما حزنت على مسرحية «حسناء بابل» التى كتبها فى السجن عن «هاروت وماروت» وصادرتها إدارة سجن أسبوط أثناء قيامها بحملة تفتيشية متعنتة، ولم يكن لدى صور لهذا الإنتاج الأدبي القيم الذى ضاع، وهناك عدد من قصائد الشعر ومن القصص القصيرة والمقالات لقيت نفس المصير المؤلم، ولقد سبق وأشرت إلى أن رواية «الظل الأسود» هى الأخرى كانت قد فقدت فى بيروت ولم نعر عليها إلا بعد خمسة عشر عاماً، ودفعنا فيها مبلغاً كبيراً من المال حتى نستردها وقد نجحنا فى ذلك والحمد لله، ومما تجدر الإشارة إليه أن الطباعات الأولى أو التالية لبعض كتيبي قد نفذت، وكنا نحاول أن نبحت عن نسخة منها لإعادة الطبع فنعجز، من ذلك كتابي عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، وكتابي عن أمير الشعراء شوقي، وديوان أغاني الغرباء وغيرها من الكتب، وذلك راجع لإهمال بعض الناشرين، وإلهمالي أيضاً فى الاحتفاظ بنسخ من مؤلفاتي، أو بصورة منها ..

كنت حريصاً أثناء عملي بالمدينة السكنية على أن أبعد عن العمل السياسى حسب قرار الحكومة بالعزل السياسى، حتى أبعد عن نفسى شبهة العداء والتآمر ضدهم، وما أسير إصااق تهم كهذه بأى معارض سياسى لسبب أو لآخر، وحدث أن أضرب عمال «الظهورات» فى ورش السكك الحديدية بأبوزعبل، مطالبين بتبثتهم على درجات وظيفية أسوء بزملائهم، وامتألت الورش برجال الأمن، وحوصر العمال، وبعثت النيابة العامة برجالها للتحقيق، وكان بعض العمال يغمى عليهم فينقلونهم إلى المستشفى، وكان مدير المستشفى رجلاً صارماً لا يحب المشاكل، ويعتقد أن حالات الإغماء ما هى إلا افتراء، وادعاء وكذب، وعلاجه لذلك كلمة يقولها ويعرفها الناس فى المدينة السكنية: «هات اثنين ستيتمتر يا عبد الفتاح». وعبد الفتاح هو الممرض، والاثنان ستيتمتر هما من الكحول، وعادة يحقنها المدير تحت جلد المريض فى فخذه، فيشعر بما يشبه النار ترعى فى جسده، فيطلق صرخة مدوية، ويقفز من فوق السرير كمن لدغته عقرب، ويفر هارباً، وهكذا عرفه المتمارضون والمدللون من أهل المدينة السكنية رجالاً ونساء، ولهذا عندما يسمعونه يقول ٢ سم يا عبد الفتاح يفرون هارين، وحاولنا إقناع المدير بعدم اللجوء لهذا الأسلوب، وخاصة أن الحقنة تترك قرحة كبيرة فى الجسم، ولكن دون جدوى، ولم يفكر أحد من الأطباء العاملين معنا فى اللجوء لتلك الطريقة، وعندما حمل بعض المغمى عليهم من العمال

المضربين إلى المستشفى قال البك المدير: « اتركوهم لى .. حقنة اثنين سنتى يا عبد الفتاح ». وهكذا قفز العمال المسجونون فى الفراش ، وأخذوا يهرولون طلباً للنجاة .

أجرى وكيل النيابة التحقيق مع كل فرد على حدة ، ثم وعدهم بالنظر فى مطلبهم العادل . وأقنعهم بأن الحكومة حريصة على مصالح العمال ، وهى فى طريقها لتدبير الدرجات والميزانية اللازمة لذلك فى أقرب وقت ممكن حسب أوامر الرئيس جمال عبد الناصر ، وانتهى الموضوع على خير ، فقد وافق العمال على العودة إلى أعمالهم مخافة اعتقالهم وطردهم ، وأبدوا ترحيباً بالوعود الجادة التى سمعوها من المسئولين ، والحقيقة أن مطالبهم قد أجيبت فيما بعد ، لكن طوال هذه المدة حرصت على ألا يكون لى أدنى صلة بتحركات العمال ، وإلا اتهمت بإثارتهم وتحريضهم على الإضراب ، وعندئذ لا قدر الله . ستتجه أصابع الاتهام نحوى ، وينسون الفاعلين الأصليين ، سألتنى يحيى بك كامل أمين رئيس المباحث بالمنطقة عن رأى فى هذا الموضوع ، قلت : « لا تجرنى لمثل هذه الأمور » .

- « أسألك كأخ ، وليس كمعزول سياسى » .

قلت له معتمداً على الله المنجى : « يجب أن تعطوهم حقهم ، وخاصة أن الثورة تعلن دائماً أنها فى صف العمال والفلاحين ، فكيف يعيش هؤلاء الناس ويعولون أسراً ، وهم يتقاضون أجراً ضئيلاً ، ومستقبلهم غير مؤمن ؟ إن « الظهورات » يعملون بصفة مؤقتة ، وقد يُسرحون فى أى وقت ، فمن أين يأكلون ؟ » .

- « أنا معلق فى هذا الرأى ، وسوف أسجله فى تقريرى » .



وفى عام ١٩٦٤ بعد ولادة ابنى جلال الدين بفترة طلبت زوجتى أن تكمل دراستها فى معهد الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، ووافقت على الفور نظراً لأنى كنت قد اتفقت مع والدها الشيخ قبل الزواج أن تتم تعليمها ، وكانت هناك عقبات منها أنها سوف تذهب إلى القاهرة يومياً بعد الظهر وتعود فى المساء لأن الدراسة مسائية ، ومنها أيضاً الأبناء الثلاثة وضرورة توفير الرعاية الكاملة لهم ، وهناك أيضاً الرعاية التى أحتاجها شخصياً ، وحاولنا تدبير الأمر بطريقة مقبولة ، وقد وفقنا الله فى ذلك والحمد له أولاً وأخيراً .. واستطاعت زوجتى بالتفاهم مع أساتذتها أن يعفوها من الحضور يومياً ، واكتفوا بأن تحضر ثلاثة أيام فى الأسبوع ، وبالنسبة للأطفال فقد كان وجود والدين وأختى الصغيرة سميرة ذا نفع كبير ، أما أنا فقد تكفلت بالأمر الخاصة بى ، خلال الأيام الثلاثة ..

أخذت أتصفح الكتب والمحاضرات التى تذاكر فيها زوجتى ، وبينما كنت أقرأ فى محاضرات المجتمع العربى ومقوماته والقومية العربية لاحظت أن مقومات هذا المجتمع هى الجنس والجغرافيا والتاريخ ووحدته الهدف والمصير ، وسألت زوجتى : « وأين الإسلام ؟ أين الدين كمقوم أساسى ، وهل كان للعروبة فى الجزيرة العربية دولة قبل الإسلام ؟ » .

- « هذا ما يدرسه لنا » .

- « ناقشنى أستاذك فى الأمر » .

وفى أحد الأيام عادت زوجتى لتخبرنى أنها ناقشت الأستاذ الدكتور فى مسألة الدين والعروبة ، فتهرب منها بحجة أن ذلك هو المنهج الذى قرره الوزارة ، وإن مثل هذه المسائل متروكة لخبراء المناهج والتربية ، لكنه همس قائلاً : « أنت على حق ولكن لا تتكلمى فى أمر كهذا ، فنحن فى أيام يسهل

تأويل الأمور، وفهمها على وجه خاطئ، والعاقل من ابتعد عن مثل تلك الأمور الشائكة .
وفى أحد الأيام استأذنت زوجتي منى فى أن تأخذ نسخة كتابي « المجتمع المريض » وهي دراسة شيقة ومؤلمة فى نفس الوقت عن المسجونين وقيمهم، وعن الجريمة والعقاب، وأساليب الإصلاح، والعلاقة بين الجريمة والاقتصاد والسياسة، وكذلك عن الفنون فى السجون، وما يبدعه هؤلاء التعساء من قصص وأشعار وفنون تشكيلية وغير ذلك . وهي جوانب طريفة لم يتناولها أحد من قبل من كتابنا المعاصرين، وكان هذا الكتاب قد نال جائزة وزارة التربية والتعليم فى مسابقة الدراسات الاجتماعية والنفسية عام ١٩٥٧، وقد تأخر نشره لسنوات .. ووافقت على أن تهدي زوجتي أستاذها نسخة من هذا الكتاب، وبعد يومين جاءها الأستاذ الدكتور وقال : « لم أتم ليلة أن تسلمت هذا الكتاب يا ابنتي، وقرأته فى ليلة واحدة، ذلك لأن أسلوبه شدني، وأحداثه استولت على مشاعري، إنه أسلوب فريد فى طرح القضايا العلمية والاجتماعية، يذكرني بكتابات وطريقة « ديل كارنيجي » الكاتب الأمريكى المعروف .. » .

ثم صمت برهة ونظر إليها بإمعان وقال : « هذا الكتاب لا يكتبه إلا رجل عاش بين المسجونين، وذاق مرارة السجن، هل سجن زوجك قبل ذلك » .
قالت : « نعم، وقضى فى السجن بضع سنوات، ووضع مؤلفه هذا وهو سجين، ونال الجائزة عنه قبل أن يفرجوا عنه .. إن ما تقوله هو نفس ما قالته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التى كانت عضو بلجنة المسابقة .. » .

- « بلغنى زوجك تحياتي واحترامى، وبلغيه رغبتي الشديدة فى التعرف إليه .. » .
الحقيقة أن كتاب « المجتمع المريض » يحتل مكانة كبيرة فى نفسى، وأنا أشعر أننى أدت جزءاً من الواجب نحو هؤلاء الذين يكابدون مر الحياة وراء الأسوار، وألقيت الضوء على قيمهم وفكرهم وسلوكهم، أملاً أن يكون ذلك بداية للاهتمام بإعادة النظر فى أمر الجريمة والعقاب، والأسباب التى تدفع إلى الجريمة، وأساليب العلاج الصحيحة للانحرافات الأخلاقية على أسس من العدالة التى تشرق فى صفحات كتاب الله . وفى السنة النبوية المطهرة، ولن أطيل الحديث عن ذلك، فنظرة إلى ذلك الكتاب « المجتمع المريض » سوف تفتح الآفاق أمام الفكرة والنظر والاعتبار .

كان الوضع المالى بالنسبة لى متأرجحاً، فأحياناً يكون لدى الكفاية من الرزق الذى يضمن الحياة الرخية المريحة، وأحياناً أخرى أُلجأ إلى الاقتراض، على الرغم من أن الراتب الحكومى معقول، وكان دخلى من الكتابة متقلباً، مرة يأتى ومرة لا يأتى، وخاصة أنه لا جوائز جديدة، والكتب التى تقررها الوزارة تكون لمدة عام أو عامين، فلم يكن غريباً أن أوافق على بيع طبعة جديدة من كتاب جديد بمائة جنيه أو أقل، وأتقاضى عن القصة القصيرة أو المقالة فى الصحف ما بين ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ جنيهًا حسب الأحوال، وذهبت ذات صيف إلى الإسكندرية مع الأسرة لقضاء ثلاثة أسابيع للراحة والترفيه، ولكنى قطعت الرحلة بعد أن نفذ ما معى من المال، وعدت إلى القاهرة قاصداً منزل صهرى كى نقضى معه ليلة، ثم نرحل إلى المساكن التى أعمل بها، وبعد صلاة المغرب، أخبرت زوجتى بأننى سأذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها لأعرف أخبارها ثم أعود بعد ساعتين تقريباً، وسألتها عما معها من المال فقالت إنها لا تملك سوى ربع جنيه فقط .. أخذته منها، وقصدت الترام، وفى مكتبة الشركة العربية جلست مع مديرها الأستاذ صلاح إبراهيم وهو صديق وزميل فى أيام الاعتقال، وجلسنا نشرب الشاي، وبعد نصف ساعة تقريباً دخل علينا حسن إيرانى صاحب المكتبة بوجهه الباش، وقال لى على

الفور: « أين كتبك الجديدة ؟ » .

- « إننى أكتب رواية ، وسأنتهى منها إن شاء الله أوائل الشهر القادم » .

وفوجئت به يقول : « عظيم .. » .

ثم التفت إلى الأخ صلاح مدير المكتبة وقال له : « ادفع يا صلاح للدكتور نجيب خمسين جنيهًا عربونًا للرواية الجديدة .. » .

وقبل أن أعلق ، وجدته يسألنى : « وكتبك القديمة ؟ » .

- « ماذا عنها ؟ » .

- « ألا تريد أن تخرج طبعات جديدة لها ؟ » .

- « لا بأس » .

- « كم عددها ؟ » .

- « بعضها لم يتم توزيع طبعاتها السابقة بالكامل ، والبعض يمكن إعادة طبعه » .

- « كم رواية جاهزة ؟ » .

- « اثنان .. » .

التفت إلى صلاح مرة أخرى وقال له : « ادفع للدكتور مائة جنيه أخرى كعربون للروائيتين » .

ثم انصرف ، معتذرًا عن الجلوس معنا ، لانشغاله بأعمال ومواعيد هامة ، وعدت إلى زوجتى ومعى مائة وخمسون جنيهًا ، وهى تضارع مرتب أربعة شهور من أجر الحكومة أو أقل قليلًا .. لكأن الله أراد أن يبعث بالناشر فى هذا الوقت بالذات ، حاملًا لى هذا الرزق دون اتفاق مسبق ، والعجيب أن حياتى مليئة بمثل هذه الوقائع ، مما جعلنى أثق فيما عند الله أكثر من ثقتى بما فى يدى ، وأذكر أننى حينما كنت أعمل فى دولة الإمارات العربية المتحدة قبل بلوغى سن التقاعد ، أن حدث وشرعت فى بناء بيت لى فى مدينة طنطا الشهيرة ، ونفدت كل مدخراتى ، وأمسكت بالقلم والورق أجمع وأطرح وأضرب وأقسم ، وانتهيت إلى نتيجة بأنه لا بد من التوقف عن العمل فى المشروع لمدة عام حتى أجد المال اللازم ، وحدثنى الصديق الأستاذ محمد مصطفى عميرة الذى يعمل بالقسم الإدارى بالمستشفى عارضًا على أن أقترض من بعض الإخوان ، وأعطيتهم شيكات فى أشهر متتالية للسداد ، ولكن الفكرة لم ترق لى ، كان ذلك يوم اثنين ... ومساء الأربعاء التالى اتصل بى من الكويت الأخ الأستاذ محسن طنطاوى ، وأخبرنى أن بالكويت شركة إنتاج تليفزيونى ، وإذاعى ، وتريد شراء بعض روايات لإنتاجها ، وقد فوضوه فى التفاهم والتعاقد معى ، وتكررت الاتصالات التليفونية فى نفس الليلة حول شروطى والمبلغ المطلوب دفعه مقدّمًا ، وفى النهاية اتفقنا على أن يأتى محسن بطائرة الجمعة للتعاقد ودفع المقدم ، وأتى فى الموعد المحدد ، وجلسنا فى بيتنا ، وكتبنا العقود ، وتسلمت الدولارات المتفق عليها ، وقد قامت زوجتى أكرمها الله بكتابة العقود على آلة الطباعة ، فقد كانت بارعة فى الضرب عليها ، وبعد أن تناولنا طعام الغداء بعد صلاة الجمعة ، قال محسن : « تعلم أنى أعمل بالنشر ، ألا تخصصنى بكتاب من تأليفك ؟ » .

- « ليس عندى كتب جديدة » .

قال : « أى شىء بركة منك » .

وفكرت قليلًا ، ثم قلت له أن لدى عددًا من القصص القصيرة المنشورة فى الصحف والمجلات ، فهل أقص لك هذه القصص من مصادرها وترتيبها أنت ، وتعددها للطبع ؟ » .

رحب محسن بالفكرة ، وفعلاً أحضرت كومة من المجلات والصحف ، وأخذت أبحث حتى

استطعت أن أجمع له كتاب « فارس هوازن وقصص أخرى » وتم التعاقد بيني وبينه ، وتسلمت مقابل حقوق النشر ، وكان محسن سعيدًا بذلك ، وسافر محسن ..

وفى المساء قلت لزوجتي : « يا سبحان الله .. عوّلت على الأرقام والحسابات ، وهكذا قررت وقف مشروع المباني ، وأراد الله سبحانه أن يلقنني درسًا عن الرزق ، نعم .. أرسل إليّ رزقًا بالطائرة رأسًا من الكويت إلى هنا في دبي .. ماذا تقولين في ذلك ؟ » أقول الحمد لله .

- « هل تذكرين قصة ذلك الأعراي الذي سمع قول الله : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قُرْبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلَى مَا أَنْكُمْ تُطْفُونَ ﴾ .

ماذا قال الأعراي ؟ قال : « من الذي أغضب الحليم حتى أقسم » .

الحقيقة أن الرزق بيد الله وحده ، لكننا كبشر نخاف ونرتعد عندما نواجه مصاعب مالية .. فماذا تقولين الآن عن هذا العون الرباني ؟ » قالت والبشر يعلو وجهها : « أقول الحمد لله .. ولا تنس حقوق العباد في مال الله الذي أتاك » .

والحقيقة أن قضية « الرزق » وارتباطها بالمشيئة الإلهية أمر حيوي في حياتي ، وهل أنسى أنني في أيام السجن السوداء التي لم أكن أجِد فيها شيئًا من المدخرات وهبني الله الجوائز العديدة التي أمنت متطلباتي في السجن ، بل وفي الفترة التي تلتها ، وساهمت في حل بعض أزمت الأسرة ، وهل أنسى أيام الحرب العالمية العظمى ، وحياتنا القاسية في الريف حتى عز القوت والملبس والعلاج ؟ إن حياتي مليئة بالعظات والعبر التي تؤكد دائمًا أن الاعتماد على الله وتقواه والعمل الجاد هم المخرج الصحيح من أية أزمة ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ ١ ﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ﴿ ٢ ﴾ صدق الله العظيم ..



دعاني الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي لحضور حفل الافتتاح لمسرحيته الجميلة والتي تحمل اسم « جميلة » وهي عن الفتاة الجزائرية « جميلة بوحريد » التي شاركت في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وحكم عليها بالإعدام ، وتحدثت عنها كل صحافة العالم ، ونقلت تفاصيل محاكمتها ، وإزاء الضغط الذي مارسه الرأي العام العالمي ، تمّ إنقاذ هذه الفتاة من جبل المشنقة ، وذهبت أنا وزوجتي لمشاهدة المسرحية الجديدة ، حيث احتشد في الافتتاح عدد كبير من رجال المسرح والأدب والصحافة ، واستقبلنا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي بعوده الفارع ، وبنائه المتين ، وابتسامته الحلوة ، ورحب بنا أيما ترحيب ، وقد أدت الممثلة « محسنة توفيق » دور جميلة تمثيلًا مؤثرًا بارعًا .

والموقع أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي كان شخصية بارزة مثيرة للجدل ، فقد كان يساريًا في شبابه ، وأصدر مجلة شهيرة اسمها مجلة « الغد » ممثلة للفكر الاشتراكي قبل الثورة ، وكتب فيها قصيدة « من أب مصري إلى الرئيس ترومان » ، وقد شاع أمر هذه القصيدة واشتهرت ، وقبل ذلك كتب عبد الرحمن رواية « الأرض » من جزئين ، وتعتبر لوناً جديدًا في القصة في هذه الأيام ، وقد نقدت هذه الرواية رغم إعجابي بها في نقطتين أساسيتين : الأولى الإفراط في اللهجة العامية في الحوار ، والثانية تصوير ما نسميه رجل الدين في القرية تصويرًا مقززًا ، وغير ذلك من الأمور ، وكتب الشرقاوي دراسته المعروفة عن الرسول « محمد رسول الحرية » ، وقد هوجم بسببه هجوماً شديداً ، واعترض الأزهر على نشره في كتاب بعد أن تم نشره في إحدى الصحف ولعلها جريدة « المصري » الناطقة بلسان

حزب الوفد آنذاك، والتي توقفت عن الصدور أيام الثورة، وكان الهجوم على ذلك الكتاب منصباً على أنه قدم شخصية الرسول ﷺ كبشر أوتى فكراً وعقلاً عظيمين، وموهبة فذة، وقدرة على الجهاد، والانتصار للفقراء، وتحقيق العدل، ولم يرجع الشرقاوى فى ذلك إلى الوحى والتكليف الإلهى، ثم سمح بنشر الكتاب بعد أن قامت الثورة المصرية بفترة. وفى سنواته الأخيرة كتب الشرقاوى عدداً من المؤلفات الضخمة عن أئمة الفقه الإسلامى منهم الأئمة الأربعة و«على إمام المتقين» و«ابن تيمية» و«ابن حزم» وغيرهم، وكالعادة أثارت هذه الكتب جدلاً واسعاً، وخاصة كتابه عن الإمام على رضى الله عنه، بل وصل الأمر إلى أن قامت ضده مظاهرات فى بعض الدول العربية مثل «قطر»، ومن الأقوال الشهيرة التى نسبتها الصحافة إلى الشيخ العلامة والكاتب الإسلامى الكبير محمد الغزالى قوله: بأن الشرقاوى يلجأ إلى «مزبلة التاريخ» ليستقى منها الوقائع، إشارة إلى أن الشرقاوى لا يقوم بفرض الروايات التاريخية ويحللها ويستبعد الموضوع أو الملفق أو الضعيف منها، وقد تعرض الشرقاوى لحملة ضارية من الإسلاميين فى مختلف أنحاء العالم العربى والإسلامى، ومع ذلك فقد كان لى رأى يعتمد على استقراء تاريخ الرجل، وخلاصة أعماله الإسلامية، الأخيرة بالذات، وخلاصة هذا رأى أنه لا يصح الحكم على مفكر من خلال موقف واحد أو موقفين فى حياته، وأن الشرقاوى رغم ما وقع فيه من أخطاء تاريخية، كان حسن القصد حينما كتب عن الأئمة، فقد قدم صورة مشرفة حية نابضة لحياة هؤلاء الأعلام وفكرهم وجهادهم العظيم، وذلك يرجع السلبات التى وردت فى هذه الكتب الأخيرة، ولم يكن الشرقاوى فى تصورى شيعياً، وقد رويت فى غير هذا المكان كيف أنى التقيت به مصادفة فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة فى موسم الحج، وأظن أن ذلك كان فى عام ١٩٨١، وكانت ترافقه السيدة حرمه، وكان يلبس جلباباً أبيض، ونظارة سمكة، وكان يتحدث حديث المؤمن الصادق، ولم يكن يشوب تصرفاته وكلماته شائبة من مراعاة أو ادعاء، ولم أكن قد رأيته منذ اثني عشر عاماً بسبب عملى بالإمارات منذ عام ١٩٦٨، إننى على يقين من أن الرجل كان طيب القلب، وكان نصيراً للحرية، مدافعاً عن حقوق الفقراء والمظلومين، ويتضح ذلك جلياً فى جميع كتاباته شعراً ومسرحاً وقصة قصيرة وروايات ونقداً، وساهم الشرقاوى فى إثراء الحياة الفكرية فى مصر وخارج مصر، وعاش فى خضم معارك الأمة قديماً وحديثاً، والرجل الذى كتب مسرحية عن جميلة الجزائرية، كتب أيضاً عن الإمام الحسين مسرحيتين هما: «الحسين ثائراً» و«الحسين شهيداً»، وقد كتبهما من منظوره الفكرى المعروف، وجدير بالذكر أن الرقابة كان لها موقف معارض من ظهور المسرحيتين على المسرح، وودع الشرقاوى الحياة، بعد أن ترك تراثاً كبيراً لا يمكن تجاهله، وساهم بقدر فيما نسميه «الأدب الإسلامى» الآن، وأعنى بذلك بعض مؤلفاته وليس كلها، وقبل أن يسلم الروح كتب البيت التالى:

أنا ذا أموت ولم أقل كل الذى كنت أريد
رحمه الله وغفر لنا وله .

ولقد دعيت أيضاً لمشاهدة العرض الذى تقيمه فرقة الفنون الشعبية التى كونها الأستاذ زكريا الحجاوى منهمكاً فى جمع التراث الشعبى من أشعار وقصص وأساطير وألحان، وجمع من مختلف أنحاء البلاد عدداً من المطربين الشعبيين، ورواة السيرة الشعبية والعازفين، ومن الشخصيات التى لمعت فى فرقه «أبو دراع» و«أبو طه»، و«خضرة»، وقد تميزت بصوت ملهى رنان ذى نبرات عذبة، ومن

أهم الملاحم التي أنشدتها ملحمة «أيوب المصري» وهي قصة أسطورية لا تتفق تمامًا مع ما ورد عن سيدنا «أيوب» عليه السلام في القرآن الكريم، ومع ذلك فقد كانت الأشعار التي تغنيها خضرة تسيل الدموع، وتحرك المشاعر، أما «أبودراع» فقد ذاع صيته في وسائل الأعلام وحفلات الأفراح، واستطاع أن يصل إلى «باريس» في فرنسا، وغنى في إحدى صالاتها المشهورة، كما اشتهر أيضًا «أبو طه»، وظهر في كثير من الأفلام السينمائية، وكتب الأستاذ زكريا الحجاوي من خلال تلك الأقاصيص الشعبية والأساطير عددًا من المسلسلات الإذاعية منها «أيوب» و«سعد اليتيم». وغيرها.

كان زكريا الحجاوي فنانًا وهب حياته للفن، بعد أن كان صحفيًا معروفًا، وكاتب قصة، وظل منهمكًا في عمله الذي ملك عليه فؤاده سنوات طويلة، حتى انتدب للعمل في قطر في مجال الفن الشعبي، وهناك في قطر لفظ أنفاسه الأخيرة، وقد ربطتني به علاقة طويلة لسنوات عدة، كنت ألحظ فيه الرقة والوداعة والتضحية، ولم يكن يشغله غير فنه الذي عشقه وتفانى فيه بصورة كنت أؤاخذه عليها، وكثيرًا ما كان يقتض مني بعد أن ينفق على فرقته كل ما معه ..

وفي تلك الفترة أيضًا فكرت في أن أنتقل من وزارة النقل والمواصلات إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة، ووافق الأستاذ المرحوم يوسف السباعي، ولكن هيئة السكك الحديدية رفضت، وكان الحل أن أستقيل من عملي، ثم أتقدم للعمل بالمجلس، ولكنني أفتكت .. وفكرت .. وتذكرت العهد الذي قطعت على نفسي، ألا وهو ألا أترك مهنة الطب أبدًا، وحمدت الله على أن النقل لم يتم.

وفي هذه الفترة أصيب ولدى البكر بحمى طالت مدتها، ولم يجد معها أى علاج، واستعنت بزميلي الدكتور عبد الحاصل والي أخصائي الأطفال، ونقلنا الطفل إلى القاهرة، وأجرينا له الفحوص اللازمة في المختبر، وكنا نشك في إصابته بمرض التيفود، ولكن الاختبارات جاءت سلبية، وكانت تجربة مريرة بالنسبة لي، فكنت أضعه على السرير، وهو يشكو من آلام في بطنه، وأبكي من أجله، وقرر الأطباء أنه مريض بسبب فيروس، وأنه سوف يستمر فترة، ويختفى دون علاج، فليس هناك مضادات حيوية أو أية عقاقير طبية تقضى على الفيروسات، وكان علينا أن نصبر، لكن الطفل المريض كان لا يكف عن الشكوى والآلام، اسمعه يقول «لماذا لا تعلمنى الصلاة يا بابا» وأقول: «أنت صغير وعمرك ثلاث سنوات، وعندما تشفى يأذن الله ستصلى معي».

أقول كانت تجربة مرض الطفل تجربة صعبة، وعلمتني شيئًا كان يجب أن أتعلمه؛ إن الأطباء عادة يعاملون المريض «كحالة» وليس «كإنسان» فقد يكون المريض في حالة سيئة، ويعانى من آلام رهيبية، في الوقت الذي ترى فيه الطبيب يفحصه وهو يتسم، أو يضحك، دون أدنى مشاركة عاطفية للمريض التمس، وكان وضعي مع المرضى فيه شيء من التعاطف، ولكن لم يكن بالقدر الكافي، وبعد أن مرض طفلي، وعانيت الأمرين من الإشفاق والخوف عليه، وكانت دموعي تنهمر كلما راودني خاطر بأن طفلي - لا قدر الله - قد يموت، بعدها تغيرت مشاعري تمامًا نحو المرضى، لدرجة أنني كنت أبكي من أجلهم أحيانًا، ولا أقصر في تقديم أقصى ما أستطيعه من عون، ومن وحى هذا الموقف كتبت قصة قصيرة تحت اسم «المعطف الأبيض» أو «النافذة»، وأشارت في آخر القصة إلى أن مرض ابني كان بمثابة النافذة التي أطلت منها لأرى آلام المعذنين والتعساء من المرضى، وهي موجودة في مجموعة قصص «حكايات طبيب».

وحكايات طبيب تضم مجموعة من القصص الفنية القصيرة عما صادفته من مآسى خلال العمل

بالمهنة في الأماكن المختلفة ، وقد أشار بعض النقاد إلى أهمية ذلك الكتاب لتفرده في موضوعه ، وحرصه على « الصورة الفنية » للقصة ، فهو ليس مجرد سيرة ذاتية سردية ، ولكنه عمل فني متميز ، وقد بدأت فكرة هذا الكتاب حينما كنت أشارك في برنامج « عيادة على الهواء » في إذاعة « الشارقة » بدولة الإمارات العربية المتحدة ، وكان في بداية البرنامج فقرة بعنوان « مذكرات طبيب » كنت أقرأ فيها قصة ذات دلالة وفائدة بصوتي ، وقد قدمت عشرات القصص ، ولكنني عندما أردت جمعها في كتاب ، اكتشفت أن الإذاعة قد أضاعت أغلبها ، ولم يبق إلا بضعة وعشرون قصة جمعتها في « حكايات طبيب » .

وفي هذه الفترة أيضًا أدخلت الطفلين حسام الدين وأخته عزة مدرسة حضانة بالمدينة السكنية في أبوزعبل ، وكانت عزة لم تزل صغيرة ، وذات يوم عاد حسام الدين وترك أخته التي تمشي ببطء ، وكانت زوجتي قد ذهبت مبكرًا ذلك اليوم إلى معهد الخدمة الاجتماعية ، وقلقت على الصغيرة ، فأسرعت بالذهاب إلى الخارج للبحث عنها ، ولكنني والحمد لله وجدتها تقترب من البيت ، وعندما حملتها اكتشفت أن قرطها الذهبي ليس في أذنيها ، قلت : « أين « الحق » يا عزة ؟ » .
شحب وجهها ونظرت إلى في خوف وقالت يتلعثم : « الحرامي خده » .
- « أي حرامي ؟ » .

- « كان يركب عجلة .. أخذه .. وأنا خفت أتكلم .. » .
ضحكت وقلت : « ماذا سأقول لماما عندما تعود في المساء ، ستتهمني بالتقصير في المحافظة عليكم » .

قالت الطفلة ببراءة وقد فهمت ما أقصده : « قل لها الحرامي خده .. » .
كانت مثل هذه الحوادث الصغيرة تسبب لي قدرًا كبيرًا من النكد ، فليس من المعقول أن يترصد لص لابنتي الصغيرة ليسرق قرطها الصغير ، وأنا الذي أسعى جاهدًا لراحة أهل المدينة ليلاً ونهارًا ، ولا أتقاعس عن تلبية أى نداء لمريض مهما كنت أشعر بالتعب أو الرغبة الشديدة في النوم ، وأمضى في عز البرد وعز الحر المراجعة المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالانتقال ، وأشارك الجميع في أفراحهم وأحزانهم حتى خيل إليّ أنه لا يوجد إنسان يفكر في إيذائي ، وعلقت زوجتي على أفكاري تلك بقولها : « ليس هناك مجتمع مثالي مائة في المائة .. لسنا ملائكة ، ويجب أن نتقبل مثل هذه الأمور بهدوء وبساطة » .
وكان كلامها مقنعًا جدًا .

من الأمور التي لا أنساها ، وأنا في المدينة السكنية ، إنني فوجئت برجل لم أكن أتوقعه ، إنه المفتش الطبي في مدينة طنطا ، رئيسي وأنا أعمل بالوحدة المجمع في قرية شرشابة ، والذي سبب لي العديد من المشاكل ، وهاجمني بعنف أمام محافظ الغربية رحمه الله ، كان العداء بيني وبينه مستحكمًا ، وظل الصراع دائرًا حتى انتقلت إلى القاهرة وتركت القرية .. ها هو يأتي أخيرًا لزيارتي مبتسمًا ، واستقبلته بكل ترحاب ، وكأن ليس بيني وبينه عداة قديم مرهق ، وأبدى اعتذاره بشجاعة عما بدر منه نحوى ، بدعوى أنه لم يكن يعرفني حق المعرفة ، وظن في يوم من الأيام أنني « مشاغب » ويحلو لي إثارة المشاكل ، وأخبرني أنه لم يقرأ كتيبى إلا مؤخرًا ، ولم يتبين حقيقة مواقفي إلا بعد أن رحلت إلى القاهرة ، وأثنى على إخلاصى وعلى المبادئ السامية والإنسانية التي أتمثلها في سلوكي ، وعزا سبب الجفوة التي نشأت بيني وبينه بسبب وشايات زميلي في العمل ، وتقبلت اعتذاره قائلاً ببساطة « عفا الله عما

سلف»، وتناولنا طعام الغذاء معاً، وكان ثالثنا الأخ فؤاد سلطان الذى يعمل رئيساً لقسم المالية بالمنطقة الطبية بطنطا، وكان صديقاً قديماً لى، وهو الذى صحب المفتش فى زيارته هذه، وقام بالدور الرئيسى فى تصفية ما شاب علاقاتنا القديمة، بعد أن ذهب كل منا إلى حال سبيله، وكنت أسعد جداً بأن يعرف خصومى حقيقة أخلاف الذى يدب بينى وبينهم، ويدركوا أننى لم أكن مخطئاً فى حقهم، أو متجنباً عليهم، وأشعر بطعم السعادة كلما حدث شئ من هذا القبيل، وقبل أن يودعنى هذا المفتش عائداً إلى طنطا، قدمت إليه أحدث كتيبى محبة وشكراً..

ومن دأبوا على زيارتى فى هذه الفترة الأخ الشاعر المعروف الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف، فقد كان من الشعراء المجيدين المجددين، كما كان يكتب النقد أحياناً، وكان مقره هو مدينة شبيهة بالقناطر التى تبعد عنا مسافة قصيرة، لكنه كان يعمل مدرساً بالقاهرة ويسافر يومياً إليها بقطار «كوبرى الليمون»، ولقد كنت أعجب بشعر عبد المنعم عواد يوسف الذى حظى بتقدير النقاد، وقد نال عبد المنعم عدداً من جوائز الشعر، وألقى عدداً من قصائده فى مهرجانات الشعر ببعض الدول العربية، وأصدر ديوانه الأول «عناق الشمس» فى وقت مبكر، وكتب فى كبريات الصحف والمجلات العربية، وعلى الرغم من تجديده فى الشعر إلا أنه لم يغرق فى الألفاظ والغموض والرموز، بل ظل شعره رقيقاً جميلاً مفهوماً معبراً تماماً عن المعانى التى يقصدها، كما اختص الأطفال بديوان شعر رقيق بعد سنوات، وشاء الله أن يذهب عبد المنعم وحرمله للعمل كمدرسين بدولة الإمارات بعد ذهابى إلى هناك فى عام ١٩٦٨ بحوالى أربعة أشهر، حيث امتدت صداقتنا وعلاقتنا الأبدية حوالى ربع قرن فى تلك البلاد الطبية، وكان عبد المنعم مستغرقاً فى شعره، يفكر فيه، ويحاول أن يبحث دائماً عن صيغ جديدة، ويرتاد الأندية والجمعيات الأدبية فى أنحاء القاهرة، ويلقى قصائده فيها، ويوثق علاقاته بمعظم الشعراء حتى إنهم أصبحوا جميعاً أصدقاءه جيلاً بعد جيل، وكان مهتماً بذلك أيما اهتمام، ويعرف الكثير عن حياة أصدقائه الشعراء وحوادثهم وطرائفهم ومواقعهم فى الساحة الشعرية، والواقع أنه كان ضليعاً فى اللغة العربية وآدابها وقواعدها، ملماً بالتراث الشعرى العربى القديم، ناجحاً تماماً فى تدريس اللغة بأسلوب سهل ميسور، ومن الغريب أنه ظل مدرساً طول حياته، ولم يرق إلى مفتش أو موجه، وكان تلامذته الذين يدينون له بالفضل، يأتون ليتفشوا عليه فى «دبى» فيخرجون من أن يفتشوا على أستاذهم، فيحيونه، ويمجدون تاريخه الأدبى العاطر وينصرفون شاكرين..

وكان عبد المنعم حلو الحديث، سريع البديهة، يحب الفكاهة أو النكتة، إذ إن طفلى الصغير أمسك بعملة معدنية من فئة القرش، مرسوماً عليها صورة الملك فاروق «سأله طفلى حسام الدين: «من هذا يا عمو؟»

- «هذه صورة الملك فاروق».

وطفلى بالطبع لم يكن يعرف الملك فاروق فقد ولد بعد خلعته بتسع سنوات، ولذا سأله. «ومن هو الملك فاروق يا عمو؟»

فكر عبد المنعم قليلاً، ولم يرد أن يفيض فى الشرح لطفل صغير لن يتفهم الأمر بسهولة، ولهذا قال عبد المنعم بأسلوب المدرس المتمكن: «إنه جمال عبد الناصر «بتاع» زمان».

وضحكنا، ولم يخف علينا ما توحى به النكتة من دلالة، ومع ذلك فقد كان عبد المنعم من المعجبين بجمال عبد الناصر، المؤيد لسياسته، وكتب فى الثورة شعراً كثيراً، لكن هذا لم يؤثر على العلاقة بيننا، فقد كان لكل آراؤه وأفكاره ومعتقداته السياسية، وبقينا طوال حياتنا وحتى اليوم أصدقاء

أوفياء، وقد خفت حدة إعجابه بجمال عبد الناصر، بعد أن مات، وتكشف الكثير عن أخطائه السياسية، وانتهاكه لحقوق الإنسان، ذلك لأن عبد المنعم عواد ظل دائماً متمسكاً بدينه، يؤدي صلواته، ويحج بيت الله الحرام، ويتغنى بقيم الإسلام الرفيعة الغالية، وييشها في الكثير من شعره.

ولقد كنت في تلك الفترة وثيق الصلة بالأخ الأستاذ حسين عاشور وأسرته، وخاصة والده الفاضل الشيخ أحمد عيسى عاشور العضو البارز في الجمعية الشرعية بالقاهرة، وصاحب كتاب «الفقه الميسر»، وصاحب مجلة «الاعتصام» التي تصدرها الجمعية، وكان حسين زميلاً لي في سجن أسبوط، ثم طابعاً وناشراً للكتب، وكان خفيف الظل، حلو المعشر، حلو الحديث، لا يمل الجلوس معه، كما كان طموحاً، ويحلم بأن تكون له دار نشر كبيرة، وأن يصدر مجلة إسلامية، وقد تحقق له ما أراد بمرور السنين، فأصدر مجلة «المختار الإسلامي»، وكذلك «مطابع المختار الإسلامي»، ومجلة نسائية اسمها «هاجر» ومجلة للأطفال اسمها «زمزم»، ونشر عددًا من الكتب لبعض أعلام الفكر الإسلامي، كما نشر لي رواية «رحلة إلى الله» التي ذاع صيتها، ورواية «رمضان حبيبي» عن حرب ١٩٧٣، التي قررت - بعد تبسيطها - على طلبة المدارس في مصر، وغيرها من الكتب الأخرى، وكنت أكتب في مجلة «الاعتصام» التي يديرها والده قصصاً إسلامية قصيرة، كانت محل رضى العاملين في الجمعية الشرعية والقراء، وقد جمعتها في كتاب «دموع الأمير»، وقد اشتركت مع الأخ حسين عاشور في نشر روايتي «عمر يظهر في القدس» في طبعتها الأولى، بعد أن أجفل الناشرون من نشرها في البداية، ثم رحبوا بها بعد أن صدرت أول مرة..

الحديث عن حسين عاشور ووالده الشيخ أحمد، وأخوته الأساتذة حسن والدكتور محمد، وطه ومصطفى وعبد اللطيف حديث يطول، ويكفي أن أقول أنها أسرة مباركة خدمت الإسلام في مجال الإعلام بصورة تدعو إلى الاعتزاز والفخر، والفضل لله..



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

[١٦] كأننا يا بدر لارحنا ولا جينا



كنت على يقين أن أيام الشقاء قد ذهبت إلى غير رجعة ، وكانت لدى الأسباب القوية لهذا اليقين ، مما جعلنى لأخشى المستقبل ، وأنطلق إلى الأمام بخطى واسعة ثابتة ، لا تعثر فيها ولا تردد ، والحمد لله فإن عملى الطبى يشهد لى بالكفاءة والإخلاص والالتزام المهنى والأخلاقي ، والعمل السياسى الرسمى لا وجود له ، فالحكومة قد فرضت علينا العزل السياسى ، والحظر الشديد قائم لا يسمح بأى نشاط للإخوان المسلمين ، وكتاباتى الأدبية تتوالى يومًا بعد يوم ، والكتب التى أنشرها تلاقى النجاح ، وقيام وزارة التربية والتعليم بتدريس بعض هذه الكتب للطلبة دليل على خلوها من كل ما يهدد النظام بطريق مباشر ، وصوتى يعلو فى المحافل الأدبية دون أن يؤخذ عليّ أى مأخذ سياسى ، وحتى الكتب التى صودرت سواء « الطريق إلى اتحاد إسلامى » (فى مصر) أو مسرحية « على أسوار دمشق » التى منع تداولها فى سوريا ، وبعض الكتب لأخرى ، لم يثبت أنها خرجت عن دستور الدولة وقوانينها ، ولم يكن يصدر أى كتاب إلا بعد سماح الرقابة به ، ولو كان فيها شبهة لما صدرت أصلًا ، حتى المنشور الذى هاجم عبد الناصر تحت عنوان « فرعون الصغير » ثبت بالدليل القاطع أننى ليس لى أدنى صلة به ، والتقارير التى يكتبها رجال الأمن الذين يرصدون تحركاتى فى أى مكان أذهب إليه ، لم تستطيع أن تسجل نقطة خروج على النظام ضدى ، فلماذا لا أطمئن ، وأمضى فى طريقى آمنًا ، واثقًا تمام الثقة أننى لن أمس بأذى .

ولهذا عندما التقيت بالأخ الصديق الأستاذ « عبد الله العقيل » بالقاهرة ، وكان يعمل مديرًا للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية ، وعرض عليّ التعاقد مع وزارة الصحة الكويت للعمل بها ، اعتذرت له شاكرًا ، وأخبرته أن نجاحى الأدبى قد تحقق لحد ما بالقاهرة ، وأن تركى لها سوف يفقدنى الكثير ، وربما نسينى الناس إذا اغتربت عنهم سنوات ، فضلًا عن أن وضعى السياسى لا يعيش على الخوف ، ولو كان لدى ذرة شك فيما أقول لوافقت فورًا على عرض أخى عبد الله العقيل ، وفررت بجلدى ، ولا أدخل تجربة السجن المريعة مرة أخرى ، واتضح فيما بعد أننى نسيت أمرًا هامًا ، ولعلنى لم أستطع أن أتوقعه فى يوم من الأيام ، فهناك أمور كثيرة فى الحياة لا يستطيع الإنسان توقعها إلا بعد التجربة والخبرة ومنازلة الأحداث ، أقول إننى نسيت أمرًا هامًا كان يجب أن أذكره ألا وهو أن النظام الدكتاتورى أو الشمولى يفتقد المنطق السليم ، ويدوس العدالة وحقوق الإنسان إذا شعر بأن وضعه مهدد ، وفى هذه الحالة يتخبط ، ويضرب ضربات عشوائية ، ولا يحترم ضميئًا ، أو يرمى حرمة شىء ، وفى ذلك الوضع لا يفرق بين حق وباطل ، وشر وخير ، وأمانة وخيانة ، ويصبح كل شىء عنده مباحًا ، ولا يفكر فى حلال أو حرام .

وبعض من اختصاصهم الله بالرؤية الواضحة يمكنهم أن يستشعروا ذلك عن بعد ، لكن حسن النية من

الناس قد تغيب عنهم هذه الرؤية، وفي لحظة من اللحظات يجدون أنفسهم وقد سقطوا فريسة الطغيان، وأحيط بهم من كل جانب، ويحاولون الإفلات دون جدوى، فلهبهم سياط الندم والحسرة، حتى يسقطوا إعياءً ويعتصمون بالصبر، صبر العاجزين المقهورين الذى ليس لهم أحد ينجدهم إلا الله ..

اكفهر الجو فجأة، وتلبدت السماء بالغيوم، وتناقل الناس همساً بعض الأخبار المزعجة التى تعنى أن كارثة ما قد تحل فى أى وقت من الأوقات، وذهلّت عندما علمت أن بعض الأصدقاء قد اعتقلوا وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب الذى لم يفرج عنه إلا منذ شهور، ومع ذلك فقد كنت واثقاً. حتى تلك اللحظة. أننى فى أمان، ولم أقترف «وزراً سياسياً» يبعث فى نفسى القلق، هذا من الناحية العقلية والمنطقية، لكننى كنت أشعر بقلق داخلى، وأن قلبى غير مطمئن لما يجرى، وأن الهواجس تطاردنى فى يقظتى ومنامى، حتى بعد أن ذهبت إلى «يحيى بك» فى مكتبه بمقر الأمن، وناقشته فى الأمر، فأكد لى أن ما يجرى يتعلق ببعض الأفراد الذين أخطأوا فى حق الحكومة، وأننى وأمثالى لا شأن لنا بهذه الأمور، وأننى يجب أن أكون مطمئناً تماماً، ولم يكشف لى عن شيء مما يجرى.

حسناً نحن الآن فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ والحرارة شديدة الوطأة، وموعد إجازتى السنوية قد أزف، وعرض على الأخ «أسعد سيد أحمد» الذى كان يعمل فى مكتبة دار العروبة «دار التراث حالياً» أن أذهب معه إلى مصيف «بلطيم» الذى يتميز بالحشمة والهدوء والجو النقى، ووافقت على الفور، وكأنى أفر من همومى الغامضة، وذهبتنا بأسرتينا، واستأجرنا عشتين قرب الشاطئ، أخذنا نجلس والأطفال يلعبون فى الماء، والنسوة يقمن بإعداد الطعام، ويجلسن فى مكان قريب خاص بهن، وكان طبيعياً أن نتناول الأمور الجارية، ونحاول دراساتها وتحليلها، ونقرأ الصحف بدقة، لكن الذى أزعجنا فعلاً، وبث الخوف فى قلوبنا تسرب أخبار عن اعتقال بعض المصطافين فى بلطيم، لكننا عزونا ذلك إلى أنهم قد يكونون متورطين فى تنظيم من التنظيمات السرية والله أعلم، وإلا لماذا يقومون باعتقالهم تحت جنح الظلام؟

وفى الأيام العشرة الأخيرة من شهر أغسطس نشرت الصحف نعى الزعيم الكبير مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول فى رئاسة حزب الوفد الذى حلتته الحكومة منذ سنوات، وكان الرجل يعيش فى بيته بحي «جاردن سيتى» بالقاهرة طوال هذه الفترة معزولاً عن الناس، وإقامته محددة، ولا يذكر اسمه فى الصحف وكل وسائل الإعلام، على الرغم من جهوده الوطنية الرائعة، وتاريخه العاطر، وانتخابه زعيماً للأمة بأغلبية ساحقة قبل قيام الثورة، وفوجئ الناس بأن الحكومة قد أصدرت بياناً تنعيه فيه، وتشيد بأعماله الوطنية المجيدة، لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، إذ تحولت جنازة الزعيم إلى مظاهرة صاخبة تهتف:

- الوداع يا نحاس .

- جعنا بعدك يا نحاس .

- لا حرية بعدك يا نحاس .. الخ هذه الهتافات .

وعلى الفور تم اعتقال عدد كبير من أعضاء حزب الوفد القدامى، وسيقوا إلى السجن، وأخذ الناس يتحدثون عن تلك الجنازة التاريخية وما حدث فيها، دون أن تشير الصحف إلى شيء من التفاصيل.

وسافر جمال عبد الناصر إلى موسكو لمقابلة زعماء الكرمليين، وأخذنا نتابع الأخبار فى الصحف

والإذاعة، ونحن على شاطئ « بلطيم »، وفي أحد الأيام قرأنا خطابًا للرئيس ألقاه في النادي الثقافي العربي للمبعوثين في العاصمة السوفيتية، وهاجم فيه التيار الإسلامي في مصر هجوماً عنيفاً جداً، وأخذ يرمى الرجعية بكل نقيصة وخيانة، وأنهم أعداء الشعب، ولا حرية لأعداء الشعب، وأنهم يتآمرون .. وأنهم .. وأنهم، وشعرنا بالإحباط الشديد، ونحن نقرأ ذلك الخطاب في الصحف المصرية .

وكان أخي أسعد سيد أحمد من الكوادر النشطة في صفوف الإخوان منذ سنوات طويلة، ومعروف لدى الجميع، مقرب من القيادة، وكان يتولى مسئوليات ضخمة، ومع ذلك فقد خرج من المعتقل بعد عامين من اعتقاله في عام ١٩٥٤، بعد أن صمد في التحقيقات وكان ذكياً وذا حجة، فأقلت منهم، وعاد لعمله في صناعة الكتب، لكنهم كانوا يعددون لاعتقاله فترات قصيرة؛ شهرين أو ثلاثة مثلاً، إذا حامت حوله شبهة، ثم يطلقون سراحه مرة أخرى، ومن أبرع عمليات أسعد سيد أحمد، أنه انتسب لحزب مصر الفتاة الذي يتزعمه آنذاك « أحمد حسين »، بعد المؤامرة التي دبرها شباب ذلك الحزب لاغتيال الشهيد حسن البنا وفشلت، ورأى الإخوان أن يكون لهم « عين » بهذا الحزب، ووقع الاختيار على أسعد، الذي أخذ يتدرج في كوادر حزب مصر الفتاة، حتى أصبح السكرتير الخاص للزعيم أحمد حسين، ولم يكتشف أمره إلا بعد أن سقطت قائمة بأسماء عدد من الإخوان فيما عرف بقضية « الأوكار » و « سيارة الجيب » والاعتداء على « حامد جودة » رئيس مجلس النواب في حكومة السعديين والأحرار الدستوريين التي كان يرأسها « محمود فهمي النقراشي باشا » ومن بعده « إبراهيم عبد الهادي باشا »، ودهش أحمد حسين زعيم مصر الفتاة عندما أبلغوه أن سكرتيره الخاص عضو نشط بجماعة الإخوان، ومن جهازهم الخاص، وأخذ يضرب كفاً بكف، ومع ذلك فقد ظل أحمد حسين محافظاً على صداقة أسعد، محباً له حتى وافاه الأجل المحتوم، وكان أسعد مخلصاً له طوال العمر، يشرف بنفسه على طباعة مؤلفاته، ويلبى له جميع احتياجاته .

قلت لأسعد ونحن في بلطيم بعد قراءة خطاب جمال عبد الناصر في موسكو: « ما رأيك في هذا الكلام ؟ » .

قال ببساطة يُحسد عليها وهو يضحك: « أشم فيه رائحة الغدر » .

- « ما معنى ذلك ؟ » .

- « ضربة جديدة عنيفة يوجهها للإخوان » .

- « أي إخوان ؟ لقد اعتقل من شك فيهم .. » .

فهقه وقال: « لا .. الإخوان جميعاً .. قديماً وحديثاً » .

- « حتى نحن دون أن نفعل شيئاً » .

- « يكفي أنك « كنت » من الإخوان .. هذه « تهمة » لا تُحمى أبد الدهر » .

قلت في غضب: « أنت متشائم جداً .. » .

- « ذلك لأنني أعرفهم .. » .

سألته: « بأي حق يعتقلون مثلاً واحداً مثلي ؟ » .

عاد يضحك ويقول: « عن أي حق تتحدث ؟ » .

أصابني غم شديد، ولم أعد أشعر بجمال المصيف، ولا نسيم البحر، ولا فرحة الأطفال، ولم يعد لدى شهية للطعام ولكن بصيصاً من الأمل كان يراودني، ذلك لأنه لا يوجد أدنى سبب لاعتقاله هذه المرة. « إيه يا أسعد .. هل الحكاية فوضى ؟ » .

- « فماذا تظنها إذن ؟ » .

ذهب كل منا إلى « عشته » التى يسكنها ، وعولت أن آوى إلى فراشى فى وقت مبكر من الليل ، وخاصة أن الأطفال الثلاثة حسام الدين وعزة وجلال الدين قد أكلوا وناموا من شدة التعب فى اللعب طوال النهار ، ولاحظت زوجتى أننى متكدر ، ولما سألتنى عن سبب ذلك أبحت لها بمكنون صدرى ، فانقبضت وبدا عليها الضيق والخوف ، وقالت : « وأين أذهب بهؤلاء الأطفال الثلاثة إذا حدث لا قدر الله و... » .

قاطعتها قائلاً : « فلنسلم أمرنا لله ، وأنا لا أتصور أن يعتقلونى هذه المرة دون سبب » .

- « ربنا كبير .. » .

وعلى الرغم مما أعانيه من قلق ، فقد وضعت رأسى على الوسادة ، ورحت فى سبات عميق ، وبعد الفجر بقليل أيقظتنى زوجتى بهدوء وهى ترجف ، وكان طبيعياً أن نصلى الصبح قبل شروق الشمس ، ووجدتها تنقف صامتة مكفهرة ، والدموع فى عينيها ، هتفت وأنا أفرك عيني : « ماذا حدث ؟ » .

- « لا تنزعج .. لقد جاء رجال الأمن ، واعتقلوا الأستاذ أسعد ، وأخذوه من « عشته » إلى القاهرة منذ ساعة » .

- « ألم يسألوا عنى ؟ » .

- « لا .. لقد كانت زوجة أسعد هنا منذ دقائق ، وطلبت منى أن أخبرك بالأمر على الفور ، لكى تتصرف مخافة أن يأتوا إليك أنت الآخر .. » .

- « وهى ، ماذا فعلت ؟ » .

- « سترحل فوراً إلى القاهرة هى وابنة أختها .. » .

قلت وأنا ذاهب للوضوء : « يجب أن نعد العدة نحن أيضاً للرحيل إلى القاهرة غداً إن شاء الله مخافة أن يأتوا ويعتقلونى هنا ، فتعانين من المتاعب مع الأطفال أثناء السفر ، وخير لنا أن يعتقلونى فى بيتى بالمدينة السكنية .. » .

ومضى ذلك اليوم كئيهاً حزناً مر المذاق ، وجلست على الشاطئ شارداً أتوقع كل لحظة أن يهبط رجال الأمن فيقيدون يدي ، ويقتادونى إلى المصير المجهول كما فعلوا منذ عشر سنوات فى عام ١٩٥٥ ، وتدور الطاحونة من جديد ، ونقاسى ألوان القهر والعذاب ، وكأننا . كما يقول أبى دائماً . يا بدر لا رحنا ولا جينا .. أى أنه لم يتغير شئ فى الحياة ، فالبؤس على حاله ، والمرارة التى فى حلوقنا وأرواحنا لم تتغير ..



كنا على عجلة من أمرنا ، ذهبنا فى الساعة السابعة صباحاً إلى موقف السيارات المتجهة إلى القاهرة ، والأطفال ما زالوا يغالبون النعاس ، وزوجتى فى حالة ارتباك وخوف شديدين ، وأنا أمضى كالمسحور ، أتوقع فى كل خطوة مفاجأة غير سارة ، وانطلقت الحافلة ، ولم أكن أشعر بمعنى للحياة ، ما أبعد الفارق بين يوم المجئ ويوم العودة ، وبعد أن وصلنا إلى القاهرة ، استأجرت سيارة لتقلنا إلى « حى السيدة عائشة » حيث يقيم صهرى ، وبعد أن دقت الجرس ، فتحت لى والدلة زوجتى ، وما إن رأتنا داخلين حتى أجهشت بالبكاء المر ، وذهلت إذ رأيتهما على هذه الحالة الحزنة ، ولما سألتها عن سر بكائها قالت : « إنهم يقبضون على الناس كل ساعة ، خفت أن تكون ممن يأخذونهم إلى المعتقل ،

وارتسمت على ثغرى ابتسامة مصطنعة مرتعشة، وقلت وأنا أحاول أن أتماسك « هذا لن يحدث لأننى لم ارتكب مخالفة » .

جففت دموعها وهى تردد مراراً : « الحمد لله ... » .

إلا أننى فى الواقع تشاءمت . وازدادت همومى ، وركبى قلق متزايد لا يعلم إلا الله مداه ، ثم رأيت صهرى خارجاً من الحمام ، وقد ساد الشحوب وجهه ويقول : « جئت فى وقتك .. الحمد لله .. استرها يارب .. البلد على فوهة بركان ، ولا ملجأ من الله إلا إليه » .

آلتنى أن أرى تلك الصورة القاتمة ، التى تشابه تماماً الصورة القابعة فى داخلى ، ووجدتنى أصافح صهرى ، ثم أخذت أشرح كيف أن الذين قبض عليهم متهمون فى قضية خطيرة كما تقول الأنباء ، وأن وضعى ووضع غيرى من قدامى الإخوان المسلمين يختلف عن ذلك تماماً ، فلسنا موضع اتهام أو شك ، وبالتالي فلم يعد هناك مبرر للخوف من الاعتقال ، وإلا أصبح الأمر مهزلة ، تتم فى أسى : « مهزلة ! ! نحن نعيش فى مهزلة كبرى » .

فى المساء اتجهنا إلى بيتنا فى المدينة السكنية ، لاحظت أن صهرى يودعنى بحرارة ويعانقنى ويحتضنى بقوة ، هذا الرجل يشعر بشيء لا أعرفه ، إنه شفاف القلب ، مستنير البصيرة ، إذا رأى فى منامه رؤيا تحققت حسب تأويله لها ، وكثيراً ما كان يفسر الرؤيا من القرآن الكريم ، وتساءلت بينى وبين نفسى هل يتوقع هذا الرجل شيئاً لم يرد الإفصاح عنه ؟

بعد أن استقر بنا المقام فى بيتنا بالمدينة السكنية ، فكرت لماذا لا أذهب إلى يحيى بك كامل أمين رئيس مباحث المنطقة ، واستفسر منه عن الوضع حتى يطمئن بالى ، وفعلًا ارتديت ملابسى وذهبت إليه فى مكتبه ، قابلنى مبتسماً ، وعلى وجهه تبدو علامات الانشغال الشديد ، وطلب لى فنجاناً من الشاي ، كان يجلس خلف المكتب ، واضعاً قبضة يمينه تحت ذقنه ، مسدداً نظراته نحوى ، وقال ضاحكاً :

- « جئت تسأل » .

- « وعندك الإجابة » .

- « حتى الآن لا خوف من شيء » .

- « لكن الاعتقالات على قدم وساق » .

- « هذا بالنسبة لفئة بعينها دأبت على العناد والتأمر .. » .

قلت له : « إننى أعيش كجار لك فى المسكن والعمل ، وتعلم عنى كل شيء » .

- « هذا صحيح ! ! » .

- « هل التقارير عنى مطمئنة ؟ » .

- « أنا لا أكتب إلا الحقيقة ، ولا أظلم أحداً ، وأعلم أن الله سيحاسبنى على كل شيء ، وأنا . رغم كونى من رجال الأمن . أخاف الله رب العالمين » .

شعرت بشيء من الارتياح ، وشربت الشاي . وأثناء جلوسى معه حاولت أن أفهم شيئاً محدداً واضحاً عن أبعاد المؤامرة التى يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، ولكن الرجل كعادته لم يبح لى بشيء ذى قيمة ، ولم يشر إلى المعتقلات التى يساق إليها الناس سوقاً ، ولا ألوان التعذيب الرهيب الذى يتناقل الناس أخباره همساً ، وخاصة أن البعض إذا مر بجوار « سجن القلعة » الذى تجرى فيه بعض التحقيقات ، سمع أصوات استغاثة وصراخ مرير ، وهذا السجن تحت إشراف المباحث العامة ، أما

السجن الحربي فقد أصبح تحت إشراف جهة أخرى وهى المخابرات العامة، وتحت إدارة « شمس بدران » الذى يعرفه جميع الناس فى مصر، والذى أصبح وزيراً للحريية فى هزيمة ١٩٦٧، ثم لجأ إلى الخارج ليعيش فى لندن بعد موت جمال عبد الناصر، وانتحار المشير عبد الحكيم عامر قبل ذلك . قلت ليحى بك وأنا فى مكتبه : « إذا مر يوم الرابع من سبتمبر (عام ١٩٦٥) بسلام ، فإنى استطيع أن أطمأن » .

- « ولماذا هذا التاريخ بالذات ؟ » .

- « مجرد إحساس .. » .

نظر إلى فى دهاء وقال : « بل نتيجة حسابات دقيقة .. أنا أعرف كيف تفكر » .

ودق جرس التليفون ، فانشغل عنى ثم نسى الموضوع بعدها .

الإنسان فى مثل هذه الأمور كالغريق الذى يتعلق بقشة ، ولهذا وجدت فى كلمات الضابط قدراً من بعث الأمل فى النفس ، دون أن ترايلنى رواسب الشك المزمع الذى يجثم على القلوب فى هذه الأيام السوداء ، وعدت أحمل البشرى لزوجتى المسكينة التى هزتها الأنباء المزعجة ، وخاصة من الإذاعات الأجنبية .

فى اليوم التالى ذهبت إلى الإدارة لتسلم راتبى الشهرى ، ثم عدت إلى البيت لأن إجازتى السنوية لم تكن قد انتهت ، وعندما جلست على المقعد قلت لزوجتى بالحرف الواحد : « خذى أربعة وأربعين جنيهاً .. حافظى عليها محافظة شديدة .. من يدرى قد يمر عليك ثلاثة أو أربعة أشهر دون أن تحصلى على الراتب » .

قالت فى خوف : « ما معنى ذلك ؟ » .

- « يعنى .. لا قدر الله ، إذا اعتقلونى فسوف يوقف الراتب .. ولن يبدؤوا مرة أخرى فى صرفه بتوكيل منى إلا بعد بضعة أشهر .. » .

صاحت فى أسى : « أنت تلعب بى ، لم أعد أحتمل ، مرة تقول إنهم لن يعتقلوك ، ومرة أخرى تزعم أنهم قد يعتقلونك ، ألا ترحمنى من هذا العذاب .. » .

- « إنها إرادة الله .. » .

اتصل بى سكرتير نادى القصة فى القاهرة ، وأخبرنى أنه وقع عليّ الاختيار لكى أكون عضو « لجنة التحكيم » فى مسابقة الرواية التى يجريها النادى كل عام ، وطلب منى الحضور فوراً لاستلام مواد المسابقة ، وكان على أن انتهى بسرعة من قراءة الروايات الخمس التى أنيط بى قراءتها وتقييمها مخافة أن تسبقنى الأحداث ، كما أننى كنت أعد مقدمة جديدة للطبعة الثانية من كتاب « إقبال الشاعر النادر » فأنتمتها على الفور تحسباً أيضاً لما قد تأتى به الأيام ، كما أننى أعددت أربع نسخ من كتاب « النداء الخالد » وقدمتها لوزارة التربية تهمةً لتقريرها على إحدى سنوات المرحلة الثانوية ، وكلفت زوجتى . فى حالة اعتقالى لا قدر الله . أن ترسل كتاب إقبال ومعه المقدمة الجديدة للنشر ، وأن تحمل روايات مسابقة نادى القصة إلى السكرتير بعد أن كتبت التقارير اللازمة لها ، وماذا أفعل غير ذلك « اعمل لدياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، وهل يجدى الخوف والحسرات والآهات والدموع ؟

التحقت بعملى فى الأول من سبتمبر ١٩٦٥ ، ومارست العمل بالعيادة والمستشفى كالمعتاد ، وألفت الوضع الراهن ، وتأقلمت عليه ، وعلمت أنهم اعتقلوا صديقى الأستاذ محمود صقر ، وهو مدرس من خريجي كلية اللغة العربية ، ومن قرية « منية البندرة » بجوار « القرشية » مركز السنطة ،

ومحمود هذا هو الذى قام بنسخ كتابي « الطريق إلى اتحاد إسلامي » بخطه الجميل ، وكان مهتماً جداً بالكتاب ، ويتمنعه وهو يكتب بإعجاب بالغ ، ولم أكن أعلم أن محمود صقر منضم إلى التنظيم الجديد للإخوان المسلمين ، وكذلك كان شقيقه الأستاذ لطفى صقر من أعز الأصدقاء ، وسمعت إشاعة تقول بأن السلطات قد أخطرت أهل محمود بأنه مات فى السجن ، وقد تحققت هذه الإشاعة ، وتركت فى نفسى أثراً عميقاً ، وأسالت دموعى .. ولم أنس محمود طوال السنوات القادمة ، وحينما كتبت روايتى « رحلة إلى الله » فى عام ١٩٧٤ بعد ذلك ، كانت مأساة محمود هى الحدث البارز فى هذه الرواية التي هزت مشاعر القراء فى كل مكان ، وإن كنت قد حوّرت فى تاريخ الواقعة فجعلتها فى عام ١٩٥٤ بدلا من عام ١٩٦٥ .

ذهبت إلى صلاة الجمعة فى مسجد « الكخيا » الشهير ، وبينما أنا أتجه إلى المسجد وجدت زوجة أخى أسعد سيد أحمد تمر بالقرب منى ، سألتها : « ما مصير أسعد ؟ » .

قالت متعجلة : « لا نعرف عنه أى شىء » .

- « والأخبار ؟ » .

- « مؤسفة ، إنهم يعتقلون الناس جميعاً » .

وانصرفت مسرعة ، وكأنها تخاف من أن يكون هناك من يراقبها أو يتبعها ، ودخلت المسجد ، وقلبي يضرب بالدموع ، ما أكثر الهموم والأنقال التي رانت على هذا القلب المعانى طوال السنين ، فى الطفولة والشباب على حد سواء ، وشعرت وأنا أجول فى شوارع القاهرة كأنى عابر سبيل يطوف بنظراته على المعالم ، ويتعمق صورها ، وكأنه يراها لآخر مرة ، آه .. الرحلة لم تنته بعد ، وآه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، والناس يسرون لا يعباون بأحد ، كل منطوي على ذاته ، يعيش فى عالمه الخاص ، وكأنه يقول مالى والآخرين ؟! أنا وبعدى الطوفان .. وتردد فى رأسى آيات من القرآن الكريم من هنا وهناك ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِى بِيْدهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) ، روحى تشرب الكلمات القدسية ، وقلبي الواجب تهدأ ضرباته .. ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .. نعم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) ..

كنت جالسا أنا وزوجتى وأطفالى نتناول طعام الفطور فى صبيحة اليوم السادس من شهر سبتمبر (١٩٦٥) ، وكنت أتحدث مع زوجتى كمادتنا فى هذه الأيام عن الاعتقالات والثورة وجمال عبد الناصر ، والتقطت ابنتى عزة اسم « جمال » الذى كانت تسمع عنه الأغاني فى التليفزيون صباح مساء ، ووجدنا الطفلة تقف وتهز رأسها وجسدها الصغير وتغنى أغنية شائعة فى ذلك الوقت تقول :

وَجَمال وإِخوانه أَلِف سَلَام
يَسْلَم لَأوطانِه أَلِف سَلَام

وضحكننا ، وأجلسناها لتكمل طعامها حتى تذهب إلى الحضانة وقلت : « الطفلة البريئة لا تعرف شيئا عن حقائق الأمور » .

ودق جرس الباب ، وهولت إلى الشرفة .

وجدت العربية السوداء واقفة ، وإلى جوارها يحيى بك كامل أمين وأحد مخبريه أطلت عليه قائلاً : « خير يا بك » .

- « انزل .. نريدك خمس دقائق » .

قلت دون تردد : « اعتقال ؟ » .

فلم يرد .

قلت : « سأنزول فوراً » .

وأسرعت بارتداء ملابسى الصيفية ، وطلبت عددًا قليلًا من ملابسى الداخلية ، وزوجتى حتى الآن لا تدرك أبعاد ما يجرى ، لم يكن لها تجربة سابقة فى هذا المجال .

قالت فى اضطراب : « ماذا يحدث ؟ » .

قلت وأنا ابتسم فى مرارة : « تشجعى يا حبيبتى .. لقد جاءوا أخيرًا لاعتقالى » .

صرخت بأعلى صوتها ، ولم تستطع أن تتمالك مشاعرها ، وأخذت تردد : « حرام ... حرام ..

والله العظيم حرام ... » .

طلبت منها بحزم أن تحفف دموعها ، وتكف عن الصراخ ، وأفهمتها أننا يجب أن نكون شجعانًا فى مواجهة الأحداث ، وأن ما تفعله لا يليق بامرأة مؤمنة مثلها .

وهبطت الدرج مسرعًا ، والأطفال يتدحرجون ورائى ، وصافحت يحيى بك ، وفتح لى المخبر الباب ، وما إن دلفت إلى السيارة السوداء ، وأدار السائق المحرك حتى وجدت طفلى الأكبر حسام الدين البالغ من العمر أربع سنوات وبضعة أشهر يجرى ويقف أمام السيارة معترضًا ويقول بأسلوبه البرىء : « أنت رايع فين يا بابا ؟ » .

قلت له وأنا أغالب دموعى : « ادخل البيت يا ولدى » .

ونظرات الصغير تائهة حائرة تُنبئ عن عدم فهم أى شىء ، ومشيت السيارة ، ثم استدار بها السائق أمام البيت ، وما إن ابتعدت قليلًا حتى سمعت صياح زوجتى وأطفالى ، أغمضت عيني ، وكان قلبى يهتف داعيًا : « اللهم أنت المنتقم الجبار » .

وران علينا الصمت ، وبعد فترة قصيرة قال يحيى بك : « كان المفروض أن يتم اعتقالك فى الفجر حسب الأوامر ، لكننى رأيت أن أتركك حتى الصباح ، ولكى تتناول إفطارك » .

قلت باقتضاب : « أشكرك » .

- أنا لم أقصر نحوك ، وكان تقريرى عنك طيبًا ، لكن ماذا نفعل ، لقد صدر القرار الجمهورى :

(باعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره) .

وأنت سبق اعتقالك فى أغسطس عام ١٩٥٥ .

لم يكن هناك جدوى من الكلام ، لقد وقع ما كنا نخشاه ، ولم يعد هناك أمل فى النجاة من قبضة الحاكم ، ومن العبث الحديث عن العدالة والدستور والحريات ، فهذه كلها ترهات وأساطير لا معنى لها ولا قيمة ، ولست راغبًا فى أن أتحدث مع يحيى بك ، فقد تحدثنا كثيرًا وطويلاً قبل ذلك ، وذهب كل شىء أدراج لرياح ، شىء واحد أصبحت مقتنعا به تمام الاقتناع ، ذلك أن العيش فى بلادنا مستحيل ، وأن الهجرة واجبة ، وإذا لم تيسر الهجرة بالطريق الرسمى فلا بأس من الهروب ، والتسلل عبر الحدود مهما كان الثمن .. ووجدتنى أردد ما قاله أبى مرة أخرى : « كأننا يا بدر .. لا رحنا ولا جينا » ..



الجزء الخامس

[١] الوداع يا دنيا



حينما ساقونى إلى مركز شرطة «الخانكة» التابع لمحافظة «القليوبية»، صعدت الدرج بصحبة أحد العسكر، وما إن بلغت الصالة فى الطابق الثانى حتى فتح باب إحدى الحجرات قال لى العسكرى: «تفضل...».

دلفت إلى الغرفة، ثم أغلق الباب، ووجدت عددًا من الرجال جالسين صامتين، وعلى وجوههم الأسى والألم، وفى عيونهم الحيرة المتوجسة، ألقيت عليهم السلام، فردوا بفتور، ولحت ابتسامات خفيفة رغم الحزن، لكنهم حمدوا الله أن أتيت إليهم، فأغلبهم يعرفني؛ إما لأنهم كانوا رفاقي فى السجن للمرة الأولى، أو لأنهم ربما زاروني أكثر من مرة فى المستشفى لأفحصهم وأعالجهم، والمصائب تخف حداثتها عندما يكثر ويتجمع الذين يعانونها.

خلف باب الغرفة المغلق جلس عسكرى على مقعد خشبى يحمل فى يديه مدفقا رشاشًا موجهًا إلينا نحن الجالسين فى صمت وترقب، وعينا العسكرى مفتوحتان جيدًا، وليس فى الغرفة إلا نافذة مغلقة ذات قضبان حديدية، وطاقاة للنور والهواء.

حاولت أن أتكلم مع رفيقنا القديم الأخ محمود سرحان وهو من أبوزعبل البلد، لكنى لاحظت أنه عازف عن الكلام ويجيب هامسًا ببطء، ثم يدير وجهه بعيدًا عني، وأدرك الشيخ إبراهيم البلاط حيرتى، فقال: «يا دكتور... الكلام هنا ممنوع».

فعجبت، ونظرت إلى العسكرى، وكأنى استفسر منه، فhez رأسه قائلاً: «هذه هى الأوامر، ومع ذلك تستطيعون الكلام بصوت خفيض حتى لا يسمعكم المأمور».

كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر. وهم من البلدان المجاورة، تمهيدًا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التى لا يعرف أحد عنها شيئًا، وليس فيهم من يعرف ما الجرم الذى ارتكبه، ولهذا أخذوا يتساءلون ويوجهون معظم أسئلتهم إليّ، وأنا مثلهم لا أعرف السبب، ومع ذلك فإن الجميع كانوا على يقين من أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك سبب مباشر، فالسلطة تجس المشبوهين والذين سبق اعتقالهم قبل ذلك، وقاية من الفتن، وحفاظًا على هيئة الدولة واستقرارها كما يقال دائمًا، وليس علينا إلا التسليم والسمع والطاعة، وهل هناك من يمكنه الاعتراض أو تقديم تظلم؟ ثم لمن نقدم الشكوى؟ قال الشيخ إبراهيم البلاط وهو عالم دينى أزهرى الثقافة:

« أما لهذا العذاب من نهاية ؟ » .

قال محمود سرحان : « عذاب مستمر طول العمر ما بقيت ، وبقي جمال عبد الناصر » .
لم يكن لدى أدنى رغبة فى الطعام ، والوقت يمر ، ومن أن لآخر يدخلون علينا معتقلاً جديداً
أو أكثر ، حتى امتلأت الغرفة بالقادمين ، وشعرت بالإرهاق : فملت برأسى إلى جوار الحائط ، ورحت
فى نوم عميق لا أدرى كيف جاءنى ، واستيقظت فى الفجر ، لأرى باب الغرفة مفتوحاً والغرفة نفسها
مزدهمة بالجالسين ، وكذلك الصالة الواسعة التى أمامها ، وقلت مستغرباً : « ما هذا ؟ » .

قال محمود سرحان : « لقد اعتقلوا أشخاصاً جددًا لم نعرفهم فى الإخوان من قبل ، ولم يسبق
اعتقالهم .. تصور إن فيهم أخى « الحسين » وهو فلاح .. وهناك جزار ... وطبال .. وصاحب عربية
كارو مصاب بالجذام .. إنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن السباسة أو الدين اللهم إلا القليل .. » .
وعلق الشيخ البلاط فى غضب : « الحكومة أصابتها لوثة من الجنون .. إنها بداية النهاية ، لا يتصور
عاقلة أن يفعلوا ذلك .. » . واقترب منا أحد المعتقلين وقال : « هل سمعتم الخبر ؟ » .
- « ماذا ؟ » .

- « ابن « حجازى بك » مدير المركز اعتقلوه هو الآخر ، وقد وردت إشارة من الداخلية بإيقاف
حجازى بك عن العمل .. أخبرنى بذلك أحد العسكر الآن » .

لم يعد هناك شىء مستغرب فى هذه الأيام ، لكننى لاحظت أن المعتقلين هذه المرة يسيطر عليهم
خوف شديد ، وذلك بسبب الحملة المعادية فى الصحف ، ومن جراء المظاهرات المضادة للشيوخين التى
يقوم بها الشيوعيون المؤيدون للحكومة ، وكذلك اللافئات المحرصة ، والهتافات الحاقدة التى تقول :

« اقتل ... اقتل يا جمال »

« لا محاكمة ولا اعتقال »

إن النية متجهة إذن إلى إبادة وقتل الإخوان المسلمين ، أو من يتهمون بأنهم منهم ، لذلك فإن
المعتقلين هذه المرة كانوا يتوقعون أياماً سوداء ، وأحداثاً رهيبية ، ويستطيع أى مراقب أن يقرأ سطور المأساة
على وجوههم جميعاً ، وعندما أقول المعتقلين فإننى أقصد بذلك الأفراد الذين لم توجه إليهم أية تهمة
على الإطلاق ، فالمعروف أن المتهمين أخذوا إلى أماكن أخرى يجرى فيها التحقيق على قدم وساق مثل
سجن القلعة والسجن الحربى ، وسجن أبو زعبل الجديد ، ومن لا تثبت إدانته يحال إلى الأماكن التى
يوضع فيها المعتقلون الأبرياء أو « المتحفظ عليهم » كما أطلقوا عليهم فيما بعد ...

فى اليوم الثانى من وجودى بمركز شرطة « الخانكة » جاءت زوجتى وأخى الأصغر محمد ، وقفوا
فى الشارع قبالة النافذة ونادونى ، فوسع لى الإخوة الطريق كى أطل عليهما ، ولم يكن هناك مجال
للحديث سوى أننى بخير ، ولا أطلب شيئاً ، وأنى أوصيهم بالأطفال الثلاثة حسام وعزة وجلال خيراً ،
ثم نصحتهم بالانصراف ، وعدت متألماً إلى ركنى القصى : أجفف دمعات سقطت على الرغم منى ،
فى سجنى الأول كنت شاباً خالياً من الأطفال والزوجة ، ومسئولياتى محدودة ، وهمومى قليلة ، أما
اليوم فالأمر مختلف تماماً ، إن قلبى يكاد يشق صدرى وينطلق إلى الخارج ويحط حيث يكون أطفالى
ليحتضنهم ويحنو عليهم ، والوجوه الثلاثة الصغيرة البريئة تلازم مخيلتى ليل نهار ، وإلى جوارهم أهمهم
المذهولة المكشبة ، إننى أتذكر أبى الآن ، وكذلك أمى ، ماذا سيكون وقع الخبر عليهم ؟ أيبعدون رحلة
الأحزان من جديد ؟ لقد اقترب أبى من سن الستين ، وتقدمت السن بأبى أيضاً ، ولقد عانيا كثيراً فى

المرّة الأولى، فكيف يكون وضعهم هذه المرّة؟ وتذكرت أن أبي كان يقول لى كيف يخفف عني وأنا سجين: «لا تفكر فى شىء.. فكر فى نفسك.. نحن بخير ونستطيع أن نتدبر أمورنا.. كل ما يهمنا هو أنت.. ونحن راضون بقضاء الله ما دمت موجوداً.. وما دام فينا أمل بأن يفرجها الله عنك..».



قبيل الفجر جاءت سيارات، وحراس مدججون بالسلاح، وعربات نجدة ولاسلكى، ثم حشرتنا فيها، وانطلقت بنا إلى المجهول، حتى الذين يقودون السيارات لا يعرفون أين سيتجهون، إنهم يتلقون الأوامر باللاسلكى، «انحرفوا يميناً.. ادخلوا الطريق الثالث.. توقفوا ثم ارجعوا من الطريق الموازى.. إلخ».

وفى الصباح الباكر وقبل أن تشرق الشمس وقفت بنا السيارات أمام سجن عتيق لم أره قط، سألنا حارساً عن اسم هذا السجن فقال: «هذا سجن «أوردى أبوزعيل»، وهذا غير سجن أبوزعيل القديم المعروف، وهو أيضاً غير سجن أبوزعيل الجديد الذى يوجد فيه الآن بعض المعتقلين رهن التحقيق..».

ثم عبرنا البوابة الضيقة واحداً واحداً تحت الحراسة المشددة، ثم أغلق علينا باب السجن، ثم جلسنا القرفضاء صفوفاً فى باحة السجن الواسعة، وأمامنا قائد السجن الضابط «يوسف» وهو رجل طيب، ونائبه الضابط «كمال دوس» وهو صديق قديم مسيحي الديانة، وله معى قصة مؤلمة قبل ذلك، وهناك حضرة «الصول بولص»، وبينما نحن جلوس اقترب منا «الصول بولص» وفى يده دفتر كبير ثم أخذ يتفحص وجوهنا جيداً.. ثم التفت نحوى وقال: «أهلاً.. أهلاً.. شرفت يا نجيب يا كيلانى».

ثم مال نحو الشيخ إبراهيم وقال: «كيف حالك يا شيخ إبراهيم يا بلّاط؟».

واتجه ناحية أخرى وهو يقول:

«جئت مرة ثانية يا صديق يا عبد الحميد.. أنت جن مصوّر..».

وأخذ يعدد أسماء بعضنا، وهو يسخر ويمط الكلمات، وينوع العبارات، فابتسم قائد السجن وقال: «هل تعرفهم جميعاً يا صول بولص؟!».

قهقه وقال: «كلهم «سوابق» يا بك».

وكلمة «سوابق» تعنى فى السجن «معتادى الإجرام» وسمع «كمال دوس» اسمى، فهرول نحوى وقال: «أنت؟ إننى لا أصدق عينى، ما الذى أتى بك إلى هنا؟».

فابتسم قائلاً: «نصيبى يا كمال بك».

وبان الكدر على وجهه، فأردت أن أخفف عنه الحرج وقلت: «لا تحمل همّاً، ليست هذه أول مرّة».

فمصمص بشفتيه، وأعطانى ظهره وانصرف..

خلعنا ملابسنا المدنية، وتسلمنا ملابس السجن، وبدأنا فى ارتدائها، ثم أخذوا أحذيتنا وجواربنا وملابسنا الداخلية أيضاً، ووضعوها فى المخازن واسم كل واحد منا على ملابسه، كانت ملابس السجن مهترئة ممزقة، وخاصة فى الأماكن الحساسة من أجسادنا، وكان هذا شيئاً مؤلماً للنفس، وكان البعض يحاول أن يستر عورته بيديه، قلت لمن يجلس إلى جوارى: «لقد عرفوا الإنسان بأنه هو الحيوان الناطق.. ثم زعموا بأنه هو الحيوان الضاحك... وأنا عندى تعريف جديد للإنسان».

قال: «ما هو؟».

- « الإنسان هو الحيوان الذي يرتدى « كلسونا » داخليًا يستر عورته .. » .
كان سجن « أوردى أبوزعل » بناءً عتيقًا يبدو أنه بنى فى أيام حكم الأتراك قديمًا ، وهو مكون أساسًا من ستة عنابر ، يستطيع كل عنبر أن يسع ثمانين فردًا ، لكنهم ملأوا كل عنبر بعدد يفوق المائة .
وتسلم كل واحد منا « برشًا » من سعف النخيل للنوم عليه ، وبطانية قديمة للغطاء ، ووعاء من الزنك لنضع فيه الطعام يسمونه « قروانة » ، كما تسلمنا عددًا من الجرادل (حوالى خمسة عشر دلوا للشرب) وعندما دخلنا العنبر وجدناه مستطيلًا ، وفى نهايته مرحاضان ، وقاعدة خشبية موضوع فوقها زير لمياه الشرب ..

انهمكنا فى إعداد العنبر وتنظيفه وتنظيمه ، وفرش كل منا برشه ، وكذلك البطانية ، وكانت الأبراش متصلة بحيث تغطى أرضية العنبر المبلط ، وفى وسط العنبر ممشى يفصل بين جانبيه ، ويمتد هذا الممشى من الباب حتى المراحيض ، وتراص معظم المعتقلين على الجانبين فوق الأبراش ، وهدأت الحركة ، وكان الجميع فى انتظار الماء والطعام .

هنا سوف يستقر بنا المقام لا ندرى إلى متى ، فلم يعد لدينا قدرة على التنبؤ بشيء ، ومع ذلك يسود شعور عام بمستقبل مفزع غامض لا يعرف أحد أية تفاصيل عنه ، وقد يعتقد البعض أن الذى لا يزعج باسمه فى قضية أو تحقيق برىء ، ولا يصح أن يقلق على مصيره ، هذا الاعتقاد هراء ، فالكل متهم ، والكل معرض للنقمة والانتقام ، وسوط الجلاد لا يفرق بين سجين وسجين ، إن كل من يدخل إلى السجن ، ويصبح وراء الأسوار يصبح مهلر الدم ، لا وزن له ولا قيمة ، وهو إلى الحيوان الأعجم أقرب ، لكنه للأسف لا يستمتع بحقوق الحيوان ، وليس له جمعية رفق كتلك التى تهتم بالحيوان ...
يجب أن نرضى بما هو مقسوم ، ونحاول أن ننسى الدنيا خارج هذه الأسوار ، ولتكن هذه العنابر بمثابة كهوف ننزل فيها إجباريًا عن الخلق وداعًا يا دنيا .. هذا هو عالمنا الجديد ..



[٢] مشاكل وهموم



نزلنا في عنبر رقم ٦ وكنا التسعين عدداً، وكان من الضروري أن ننام على جنوبنا لضيق المساحة، وغير مسموح لأحد أن يستلقي على ظهره وهو نائم، إذ معنى ذلك أن يحرم آخر من مكان ينام فيه، ولم يكن لنا حق الاعتراض أو الشكوى، فالمفروض أن نقبل الأوضاع كما هي ولا تعرضنا للعقاب، ثم إن عدد المعتقلين أكثر من طاقة الاستيعاب في المعتقلات المخصصة لنا، وقد نتحمل الزحام، لكن واجهتنا عدة مشاكل منها أن بيننا أحد المصابين بمرض الجذام، وهو عربي مسكين كان يقيم منذ فترة طويلة في مستعمرة الجذام، ويبدو أنهم وجدوا له اسمًا في إحدى شعب الإخوان المسلمين القديمة، فاعتقلوه - هو وأخاه - وأتيا بهما إلى المعتقل، وكان الإخوة يخافون من انتقال العدوى إليهم بهذا المرض الخطير، كما وجدنا مريضين آخرين بالعنبر يعالجان من مرض السل (الدرن الرئوي)، وهذان يجب أن يستأنفا علاجهما حتى لا يتفشى المرض فيهما ويستعصى، ومن الطبيعي أن يخاف المعتقلون من انتشار العدوى، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الإخوة يعانون من ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية والزحار (الدستريا) وأمراض الكلى وتليف الكبد، ولم يكن من المتوقع والأمور متأزمة على هذا النحو أن نطالب بعلاج أحد، فحاولنا أن نقوم ببعض الإجراءات الوقائية الطفيفة حتى يفرجها الله، فهو بيده الأمر، وهو الحافظ.

واقترح بعض الإخوة عليّ - بصفتي طبيباً - أن أتكلم مع الضابط كمال دوس الذي تربطني به معرفة سابقة، لعله يساعد في نقل المرضى المصابين بالأمراض المعدية على الأقل إلى أماكن للعزل حتى ولو كانت في داخل المعتقل نفسه حفاظاً على بقية الإخوة من الإصابة بالعدوى، ربما ترددت في بداية الأمر، لأنني أعرف أن الأصدقاء - بل والأقارب - قد يتصلون منها، وينكرون معرفتهم بنا في مثل هذه الظروف حتى لا ينالهم أذى، ومع ذلك فقد جلست إلى جوار باب العنبر انتظاراً لحجيء الضابط للتفتيش، ولكن مرت أيام دون أن يأتي، وأخيراً طلبت من السجن الذي يحضر لنا الطعام وأرغفة الخبز أن يخبر كمال بك بأنني أريد أن أكلمه، فلم يرد عليّ، إذ كان المفروض أن يلقي السجن الأوامر علينا ثم ينصرف دون أن يسمح لأحد أن يكلمه، وإذا تكلم معتقل فلن يرد عليه أحد. ولقد حاولنا الحديث مرة مع (الجاويش حجازي) الذي يسكن معنا في مدينة أبو زعبل السكنية القريبة من السجن، فقال بالحرف الواحد «أنا لا أسمع.. لا أبصر.. لا أتكلم» وأعطانا ظهره وانصرف.

ويست من لقاء الضابط «كمال دوس». لكنني بعد ثلاثة أيام وجدته يأتي ويفتح الباب، كنت جالساً على مقربة منه، لكنه تظاهر بأنه لا يراني ولا يعرفني، فاعتصمت بالصبر، وبعد وقت قصير قال: «أنا هنا للمحافظة على النظام، وإحضار الأكل لكم، ولا شيء غير ذلك.. مفهوم».

وقفت وقلت مستأذناً: «لو سمحت يا أفندم».

- « ألم تسمع كلامي ؟ » .

- « سمعت ، لكن .. » .

- « لكن إيه ... » .

- « عندنا مريض جذام ، ومريضان بالسل .. » .

- « ربنا يشفي .. » .

- « نعم ، لكن العدوى .. » .

أغلق علينا الباب في عنف وغلظة مصطنعة وهو يقول : « سوف نرى .. » .

شعرت بالآلام ، ذلك لأن القضية إنسانية بحته ، فلماذا هذه المعاملة الجافة ؟ ومن حق أى إنسان أن يحمى نفسه من خطر الأمراض ، إن تعريضنا للمرض إجراء قاس لا يصح أن يحدث فى بلد متحضر يؤمن بالله .. وأصابنا قدر من الغم لفشل المسعى ، وسلمنا أمرنا لله ، فهذا ما كنا نتوقعه ، بل إننا نتوقع أكثر من ذلك ، فإن ما حدث منذ عشر سنوات ونحن فى المعتقل يتكرر بنفس الأسلوب ..

وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا « كمال دوس » يأتى بعد يومين وبصحبه حكيمباشى « مستشفى الشرطة » ، وهو رجل متقدم فى السن ، وكان له ابن معنا فى كلية طب القصر العينى منذ سنوات . قال كمال بك : « البك جاء ليتعرف على أوضاعكم الصحية .. » .

تنفسنا الصعداء ، وحمدنا الله ..

وقال كمال : « أظن أن معكم طبيب معتقل .. فليأت إلى هنا .. » .

كنت أجلس فى آخر العنبر ، فقممت وهرولت صوب الباب ، قال كمال بك وكأنه لا يعرفنى : « هل أنت طبيب ؟ » .

قلت وأنا أبتسم : « نعم .. » .

قال : « فيه إيه عندكم » .

- « مريض بالجذام ، ومريضان بالسل .. » .

قل الحكيمباشى : « أين هم ؟ » .

ودعوت المرضى الثلاثة ، فقام الحكيمباشى بفحصهم بسرعة ، واستخدم السماعة عندما فحص مريضى السل ، ثم هز رأسه بعد أن سجل الأسماء وانصرف ، وأغلق علينا الباب من جديد ، وفى خلال أسبوع واحد ، استدعى المرضى الثلاثة ، ثم نقلوا إلى مكان آخر لا نعلمه ، وبعدها استدعانى كمال وحدى ، كان يقف على مقربة من العنبر فى الباحة الواسعة ، ثم صرف العسكرى ، وبقيت معه وحدى ، تلفت يمينه ويسرة ، ثم قال بصوت خفيض : « أنا لا أنسى فضلك عليّ ، ولا صداقتنا ، لكننى فى وضع شائك ، ولا أستطيع أن أفعل لك شيئاً .. إن عيون رجال الأمن حولنا ، تصور إنهم يجندون العساكر للتجسس علينا ، ولهذا لا أحاول الاتصال بك إلا خفية ، كما أحاول أن أتجنبك ، وأظهر إننى لا أعرفك .. مع إننى مسيحي ، ولا يصح أن يشك أحد فى أمرى لكن تأكد أن قلبى معك ، وأدعو لك من كل قلبى ، فالتناس جميعاً فى المنطقة حزنوا من أجلك ، وكلهم مجمعون أنك إنسان طيب .. » .

ثم تذكر شيئاً ، فاستدرك قائلاً : « هل اعتقلوا زوجتك ؟ » .

أصابنى الخوف والاضطراب ، وهتفت : « ولماذا يعتقلونها ؟ هل حدث شيء كهذا ؟ » .

- « لا .. لا .. مجرد سؤال .. » .

ثم قال : « انصرف الآن ، فقد قدم العسكرى ، وسأحاول أن أكلمك كلما حانت الفرصة .. » .

قلت مسرعًا: «أرجوك.. أرجو أن تطمئنني على زوجتي وأولادي» وعدت إلى العنبر مكشبتًا حزنيًا، لقد داهمتني الوسواس من أجل زوجتي، فلو فرضنا أنهم اعتقلوها، فلماذا؟ ثم من هناك يعتنى بأمر الأطفال، وبقيت معتمصة بالصمت بعد أن عدت إلى العنبر، وإخواني يسألونني عن السبب، فأبحث لهم بشكوكي حول مصير زوجتي، فأكدوا أن الحكومة هذه المرة قد اعتقلت عددًا كبيرًا من النساء زوجات المتهمين وقريباتهم أو من حامت حولهن شبهات أى نشاط ديني سياسي، وذكروا من بينهن السيدة زينب الغزالي وشقيقة الأستاذ سيد قطب، وأم وأخوات المعتقل صلاح الأنور وغيرهن كثيرات، وكان هذا التصرف بمثابة حدث جديد لا مثيل له في تاريخ مصر الحديثة، وأصبح معتقل سجن القناطر الخيرية أول معتقل نسائي في بلادنا.. ومع ذلك فقد حدث أن تم اعتقال بعض النساء اليساريات أيام حكم الرئيس السادات بعد ذلك أى بعد مضي حوالى خمسة عشر عامًا، لكن يظل ما حدث أيام عبد الناصر بالنسبة لإنشاء معتقل خاص بالنساء له الأسبقية التاريخية، بل إن بعض النسوة أخذن أيضًا إلى السجن الحربى فى هذه الأيام (١٩٦٥) للتحقيق معهن فيما عرف بقضية سيد قطب رحمه الله، وصدرت ضدهن أحكام بالسجن. الحقيقة أن كلمات كمال دوس عن زوجتي قد زرعت فى نفسى قلقًا بالغًا، ذلك لأنى مؤمن بأن كل شئ ممكن الحدوث فى هذه الأيام.. وبالنسبة لمشاكل مرضى ارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية والكبد وغيرها لم نستطع أن نفعل شيئًا، فقد اعتبروها من الأمراض غير المستعجلة.

ومن المشاكل التى واجهتنا فى عنبر ٦ بسجن «أوردى أبوزعل» مشكلة أحد المدمنين على «الأفيون»، ولقد صُدم الإخوان بظهور حالة كهذه بينهم، إذ ليس من المعقول أن يقع أحد الإخوان فريسة للمخدرات، وهو يعلم أنها محرمة شرعًا، ودار الجدل حول هذا الموضوع الخطير، فرأى البعض أن يتركه وشأنه، ورأى آخرون ألا تقف مكتوفى الأيدي أمام هذه الكارثة التى تؤدى بالمدمن فيموت بسبب الأعراض الانسحابية من إسهال وأمغاص وقيء وأرق وآلام عامة، وسيولة الأنف والعينين وما إلى ذلك، وعرفنا من أهل بلد المدمن واسمه (م. غ) أن المسكين كان يعاني مغصًا كلويًا مزمن وهو فى بلده، وكان يأخذ حقن «المورفين» لتخفيف المغص، وبتكرار هذه الحقن أدمن عليها، فكان يأخذ المورفين عند أزمة المغص، وإذا لم يتيسر له ذلك يتعاطى الأفيون بديلاً عنه..

كان (م. غ) يرقد فوق البرش كالضحية، وفى عينيه الذابلتين استغاثة وضراعة، وكان معنا أحد الصيادلة المعتقلين، واثان من الأطباء غيرى، فأروا أن علاجه يبدأ بإعطائه جرعات متناقصة يوميًا من الأفيون، ويضاف إلى ذلك علاج الأمراض الانسحابية كالمغص والإسهال والضعف وغيرها، لكن كيف نوفر له ذلك؟

ولم يكن لنا حيلة فى الأمر سوى أن نستسلم لقضاء الله وقدره، إن شاء نجاه من الموت وإن شاء أماته.. ولم نكن نعلم أن هناك ما يدبر فى الخفاء، فقد حاول زملاؤه فى المصنع الاتصال بأحد السجانة (ح) ليساوموه فى إحضار كمية من المخدر لإنقاذ حياته، وتم لهم ما أرادوا، وبدأ المدمن يأخذ كمية قليلة تتناقص يوميًا، وما إن تماسك وعادت إليه عافيته، حتى قال: «إننى الآن قادر على الاستغناء عن الأفيون نهائيًا وقد أقسمت ألا أقربه مرة أخرى فى حياتى..».

وفى خلال بضعة أسابيع انتهى الإدمان بالنسبة له. ومن الطريف أيضًا أنه كان معنا فى المعتقل أحد الرجال الأثرياء، وهو رجل صالح له أيادٍ بيضاء على الجماعة إذ كثيرًا ما تبرع لها بمبالغ كبيرة بلغت عشرات الآلاف، وكان المسكين واسمه (م. د)

لا يستطيع أن يذهب إلى المرحاض دون أن تكون في فمه سيجارة يدخنها، وظل يعاني من الإمساك ثمانية أيام متصلة حتى ساءت حالته، واستطاع بعض الإخوة أن يهرب له عددًا، السجائر عن طريق أحد العسكر، ويوم أن حصل - للأسف - على السيجارة، ذهب للمرحاض وجلسنا ننتظر النتيجة، وحينما خرج منه راضيًا كنا نضحك ونقول له: «مبروك يا حاج ..».

كانت الأيام تمر بطيئة ثقيلة ودخل علينا شهر أكتوبر ١٩٦٥ ونحن نعاني مرارة الانتظار والقلق، وأتى إلينا فوج من المعتقلين الجدد، كان أحدهم قادمًا من معتقل أبو زعبل الجديد والقريب منا، وأخبرنا بأشياء كثيرة لم نكن نعلم عنها شيئًا. منها أن هناك جماعة إسلامية جديدة اسمها «جماعة التبليغ»، وهي جماعة مهمتها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترسيخ عقيدة التوحيد الصحيح في نفوس الناس، وذلك عن طريق عقد لقاءات في المساجد، وكان لديهم شيء اسمه «الخروج في سبيل الله» ومعناه أن يأخذ كل فرد متاعه البسيط، ومعه مجموعة من إخوانه، ويذهبون إلى القرى والكفور والمدن البعيدة، ويتحدثون إلى الناس دون الإشارة إلى الأمور السياسية أو الحزبية، إن مهمتهم الأساسية هي التمكين لدعوة التوحيد، وشرح «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وامتد نشاطهم حتى غطى أنحاء القطر المصري، وقطاع غزة في فلسطين، كما كانت لهم أنشطة في الدول العربية والإسلامية، بل وفي دول أوروبا نفسها، وقد نشأت هذه الجماعة أصلًا في الهند، وتكون لها فرع في مصر، وقد علمت أن أحد رجال التربية والتعليم وهو الأستاذ عبد العزيز العراقي يرأسه، وهو خريج - كما علمت - من كلية العلوم، وأخبرنا الأخ القادم من معتقل أبو زعبل الجديد، أن من بين أعضاء هذه الجماعة عدد كبير من الشباب صغار السن، وأن معهم أيضًا مذيع تليفزيوني شهير ناجح هو المرحوم الأستاذ إبراهيم عزت، الذي استضافني ذات يوم في برنامجه التليفزيوني الأدبي «كاتب.. وكاتب» أو «كاتب.. وقصة» على ما أذكر. وقد منى في البرنامج بكل حب وترحيب، وأخذ قصة قصيرة من قصصى وأخرجها تمثيلية في حوالي ربع أو ثلث ساعة، وبعدها بدأ معي الحوار عن قصصى.. وأتذكر أنه يوم تسجيل البرنامج أخذني إلى إحدى غرف مبنى التليفزيون وصلينا العصر معًا، ثم أخبرني أنه «خارج في سبيل الله» إلى مدينة المحلة، ولم أفهم عند ذاك معنى عبارة «الخروج في سبيل الله» لكنني فهمتها اليوم من أخينا القادم من معتقل أبو زعبل الجديد، عندما حدثنا عن هذه الجماعة - جماعة التبليغ - وذكر اسم إبراهيم عزت، وعلمنا أنه تعرض لتعذيب شديد، لكنه لم يكن وراء أية أسرار سياسية أو تنظيمية، فأمر جماعته واضح، ولا علاقة لها بالسياسة..

ولعله من باب استكمال قصة إبراهيم عزت، أن نقول أنه ظل وفيًا لدعوته، بعيدًا عن السياسة، عابدًا زاهدًا بعد أن ترك التليفزيون، وكان يذهب إلى الحج والعمرة ويطلب الإقامة في مكة المكرمة، وفي أحد الأعوام كان يؤم المصلين في صلاة التراويح (القيام) في البيت الحرام في شهر رمضان، ثم لقي الله ساجدًا. وهكذا مات ذلك الرجل الصالح الذي أحبه كل من عرفه، ودعا له بالرحمة..

وعلمنا ونحن أيضًا في عتبر ٦ أن هناك عددًا كبيرًا من الإخوان الذين سجنوا عشر سنوات وخرجوا في شهر مارس أو يوليو أو أغسطس عام ١٩٦٥، أقول إن هؤلاء أعيد اعتقالهم، ولم يمض عليهم شهور أو أيام، وقدموا مرة أخرى للمحاكمات بتهمة غريبة، وهي إعادة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين داخل السجن، وعرفت قضيتهم بقضية «إخوان العشرات» أي الذين قضوا أحكامًا بالسجن عشر سنوات كاملة، وكان من بين هؤلاء أخي وصديقي الدكتور رشاد بيومي الذي أكمل دراسته في كلية العلوم بعد خروجه من السجن، ونال درجة الدكتوراه وسافر إلى أمريكا، وأخبرني رشاد بعد أن

أعيد اعتقاله في عام ١٩٦٥ وهو لم يزل طالبًا بالكلية ، بأنهم ساقوه إلى التحقيق وسألوه : « ماذا رأيت في مصر بعد خروجك من السجن ؟ وهل لاحظت التقدم الكبير الذى طرأ على البلاد ؟ » .
فأخبرهم رشاد أنه لم ير شيئاً ، لأنه لم يقض إلا أياماً قليلة تقل عن الشهر ، ثم أعيد إلى السجن مرة أخرى .

سألوه : « ما رأيك في ثورة عبد الناصر » .

- « أضاعت مستقبلى ، وأذنتى شر الإيذاء ، وهل كان فى إمكانى أن أرى شيئاً وأنا سجين؟ » .
وكان نتيجة لهذا الكلام أن قاموا بتعذيب رشاد ، وخلعوا أظافر يديه ورجليه دون سبب يذكر ، ونظرت إلى أظافره وقلت له : « إن أظافرك الآن نظيفة وجميلة ، ولم يكد يمر على خلعها إلا شهران أو أكثر قليلاً .. » .

هز رأسه فى أسى وقال : « الحمد لله .. » .

ولعله من المفيد أن أشير فى هذا المقام إلى قصة حب مثيرة كان بطلها رشاد بيومى عندما كان سجيناً فى المرة الأولى [فى الستينات الأولى أى النصف الأول] ، فقد كان رشاد يشكو من ألم فى المثانة يحتاج إلى جراحة عاجلة ، فنقل إلى مستشفى بإحدى محافظات الصعيد (ورشاد رجل صعيدى من سوهاج ، وأبوه كان موظفاً بالبنك هناك ، ولقد كان رشاد معى أيام سجن أسبوط فى الخمسينات) ودخل رشاد المستشفى للجراحة ، وبقي فيها فترة طويلة .. وكانت هناك طيبة حديثة التخرج تشارك فى الإشراف على علاجه ، ومن الطبيعى أن يلفت نظرها ذلك السجين المثقف الذى يدرس بالجامعة ، ويتسم بالوقار والثقة بالنفس والاستقامة والثبات على المبدأ ، ودار بينهما حوار .. بل حوارات ، تناولت شتى القضايا فشغلها أمره ، كما أنس فيها روحاً نقية طاهرة ، ولم يقف الحراس الذين يلازمون السجين المريض رشاد ليل نهار حجر عثرة فى تطور العلاقات الإنسانية النظيفة بينهما ، ولم يغادر رشاد المستشفى - بعد الشفاء - إلى سجنه إلا وكان قد تعاهدا على الزواج بعد الإفراج عنه ، وظن البعض أن ما حدث مجرد مشاعر ودية عابرة ، سرعان ما تخفت حديثها مع الزمن ، لكن تلك العلاقة ظلت راسخة حتى تم الزواج بعد سنوات ، وأثمر البنين والبنات ، واستقرت تلك الأسرة الصغيرة سنوات فى أمريكا ، وسنوات أخرى فى دولة الإمارات العربية المتحدة حيث عمل رشاد أستاذًا فى كلية العلوم بجامعةها لبضع سنوات .

ونعود إلى هموم ومشاكل العنبر رقم ٦ ، فقد كانت مشكلة المياه من المشاكل العويصة ، وأذكر أننا قضينا ذات مرة ستاً وثلاثين ساعة دون ماء حتى جفت حلوقنا ، وكاد يقتلنا الظمأ ، ناهيك بالأمور الأخرى الحيوية التى تحتاج إلى استعمال الماء ، أما الوضوء وإزالة الجنازة فقد كنا نستعيض عن الماء بالتييم ، وفى يوم الظمأ ذاك كان أخونا « سيد غياض » الذى يعمل بورش السكك الحديدية ، يستلقى على ظهره ويحلم بمجىء الماء وهو يقظان ويقول : « إننى أرى الماء يجرى فى المواسير (الأنابيب) .. نعم يجرى . سوف يأتى الماء حالاً ويتدفق كما تدفق من الصخرة التى ضربها نبي الله موسى عليه السلام بعصاه .. » ويطول انتظار سيد غياض ، ولا يأتى الماء ، وأخيراً بعد طول انتظار سمعنا صوت الماء يتدفق من الصنبور .. فهرع الجميع صوب المرحاض ، وتزاحموا بصورة مؤلمة ، كل إنسان يريد أن يرتشف قطرات ، ويلبل وجهه ورأسه ، وكان هناك الزير الوحيد الذى يجب أن نملأه حتى يضمن لنا مدداً دائماً من الماء بقية اليوم ، لكن الزحام الشديد ، واندفاع الإخوة نحو الماء قد حرمانا من ملء الزير ، وانقطع الماء بعد ساعة ، وليس لدينا رصيد يذكر منه ، وهنا تدارس الإخوة الأمر ، وقرروا اختيار واحد منا يكون

مستولاً عن تنسيق وتنظيم توزيع المياه، وأطلقوا عليه «مسئول الزير» ووقع الاختيار عليّ كي أقوم بهذه المهمة الشاقة الحيوية في عنبر ٦ وفكرت في الأمر قليلاً، وتوصلت إلى وضع سياسة ثابتة لهذا الأمر، ثم وقفت وسط العنبر وطلبت من الإخوة أن يستمعوا إلى ما أقول، على أن يكون لهم الحق في مناقشة أفكارى بهذا الصدد.

كانت خطتي تعتمد على الآتي:

أولاً - عندما يأتي الماء، فستكون الأولوية للماء الزير تمامًا بالماء، ويمنع منعاً باتاً ذهاب المعتقلين إلى دورة المياه في ذلك الوقت.

ثانياً - بعد امتلاء الزير يسمح لممثل عن كل مجموعة بملاء دلو الشرب الخاص بهم، واحداً بعد آخر.

ثالثاً - بعد امتلاء الدلاء (الجرادل) جميعها، يُبدأ في ملء قروانات الطعام الزنك الخالية، وتوضع كل قروانة مملوءة عند صاحبها.

رابعاً - بعد ذلك يسمح للمعتقلين تباعاً بغسل أيديهم ووجوههم والوضوء كذلك.

خامساً - وفي نفس الوقت يسمح بالذهاب إلى المراض لقضاء الحاجة والاعتسال إن أمكن. وهكذا استطعنا أن نحسم أمر المياه، مع الالتزام بالاقتصاد في استهلاكها سواء أكانت متوفرة أم كميتها قليلة..

وكان الإخوة يحيونني مازحين «أهلاً.. مدير عام إدارة الزير».

وكانت أمور حياتنا تمضي رتيبة في عنبر ٦ ولنا نكاد نعرف أية أخبار عن العنابر الخمسة الأخرى، ففي الفجر نستيقظ لصلاة الفجر، ثم نقرأ ورد المأثورات شفاهاً حيث لا يسمح لنا باقتناء الكتب، والمأثورات (الصغيرة - أو الكبيرة) عبارة عن مجموعة من التسيبحات وذكر الله والدعوات والآيات القرآنية، جمعها الشهيد الإمام حسن البنا، وكانت شائعة في أوساط الإخوان، ثم نتناول طعام الإفطار، ونجلس بعد ذلك لقراءة القرآن، ومن لا يحفظ يستطيع أن يستمع لمن يحفظ، ثم نصلّي الظهر ونتناول طعام الغداء، ومن أراد أن ينام يأخذ قسطاً من النوم، ثم تأتي صلاة العصر ثم المغرب ثم العشاء، وعقبها نتناول طعام العشاء، ونجلس للسمر والترويح عن النفس ومداورة أحوالنا العامة والخاصة، وقد ناقش أمور السياسة أو الاقتصاد أو المسائل الاجتماعية المختلفة، كمشاكلنا الأسرية، والآثار الأليمة الناجمة عن اعتقالنا، ومصير زوجاتنا وأبنائنا ومعاناتهم المتوقعة.

كنا نجلس ذات مرة، ونحن مجموعة من الأطباء والمهندسين والمدرسين ومختلف الموظفين، ناقش مشكلة الإخوان مع الحكومة، واقترب منا المعتقل «إبراهيم هلال» وهو خريج المدرسة الزراعية المتوسطة، ويعمل في المنصورة، وانبهر بما يدور بيننا من حوار، وكأنه وجد ضالته المنشودة فهناك سؤال يحيره، ويريد أن يستمع إلى إجابة شافية عنه، ورفع إبراهيم هلال يديه وهو يقول: «سؤال».

قلت: «تكلم يا إبراهيم».

[إنني أعرف أنه رجل بسيط محدود الثقافة والخبرة، يعيش في عمله عيشة الفلاحين دون تعقيد أو هموم تذكر، وهو طويل القامة جداً (فوق المترين) متين البنيان، أشقر الشعر والوجه، ملون العينين...]

قال إبراهيم: «أريد أن أعرف هل ستفرج عنا الحكومة أم لا؟ ومتى يكون الإفراج إذا كان لنا نصيب فيه؟».

رد أحد الإخوة شارحاً الأوضاع السياسية العامة في مصر، وعلاقتنا بالدول العربية والأجنبية، وما يترتب على ذلك من نتائج، ولم يرغب إبراهيم للإجابة لأنها لم تتعرض لسؤاله المحدد، وانتظر إبراهيم، وأخذ ينظر إلى المتحدث الثاني، وكان موظفاً كبيراً في وزارة المالية، فأخذ يفيض في شرح الوضع الاقتصادي المتدهور، ونفاد الميزانية الخاصة بالإئفاق على السجون والمعتقلات، وبعد أن أنهى حديثه لم يجد إبراهيم أيضاً الإجابة الصريحة المحددة عن سؤاله، والتفت إلى المتحدث الثالث، وكان ضابطاً سابقاً في الشرطة قبل طرده منها واعتقاله، كان الضابط السابق يتحدث عن إسرائيل ونواياها العدوانية، ومن الغريب أن هذا الضابط واسمه «عباس أبو كرم» قد أكد أن إسرائيل لا بد وأن تضرب ضربتها العسكرية التالية في أقل من عامين، بل وأقسم على ذلك، وعباس أبو كرم من مشاهير شباب الإخوان، وكان وثيق الصلة بقيادتهم منذ سنوات طويلة.

ولم يجد إبراهيم هلال هنا أيضاً إجابة محددة على سؤاله «هل سيفرج عنا؟ ومتى؟». وهكذا دارت أحاديث النخبة المثقفة درساً وتحليلاً، وإبراهيم هلال المسكين، ينقل بصره من واحد إلى آخر، ويحاول جاهداً أن يستوعب الحديث، ويتنظر كل مرة الإجابة التي يحلم بها دون جدوى. في النهاية رفع إبراهيم هلال يده الطويلة، وكفه العريض إلى أعلى وقال: «استمعوا إليّ».

نظروا إليه جميعاً، وصاح إبراهيم: «الفرج آت قريباً إن شاء الله». وأخذوا يسألونه عن كيفية حدوث ذلك، ولماذا يعتقد هذا الاعتقاد، كانوا يظنون أنه سوف يحلل الأوضاع ويصل في النهاية إلى النتيجة التي يؤمن بها، ولهذا سأله أحدهم: «ولماذا سيفرج عنا يا إبراهيم؟».

هب واقفاً بهامته المديدة وقال بلهجته الشعبية المضحكة: «أصل الحكاية بظَوَّتْ».

وضع الجميع بالضحك.

فكلمة «بظَوَّتْ» تعني أن كل شيء أصبح فوضى، فلا منطق ولا عقل ولا نظام، وأن هذا الاضطراب والضياع وعدم فهم أي أمر من الأمور، يعني ألا يوجد أي إنسان يستطيع الجزم بشيء، وفي هذه الحالة فإن الله وحده هو القادر على الإتيان بالفرج ولا أحد سواه.. هذا ما تصوره إبراهيم هلال وعبر عنه بلهجته الشعبية البسيطة، وأخذ إبراهيم هو الآخر يضحك، ويقول لقد صدعتم رأسي بالكلام والفلسفة دون أن أفهم شيئاً، والظاهر أنه لا يوجد أحد يفهم كيف يجيب على سؤالى..

ولقد تنوعت جلساتنا في عنبر ٦، أحياناً نجلس لسماع النكت والطرائف، وأحياناً أخرى نتدارس الفقه أو تفسير القرآن، وبعض الإخوة كان يجلس بيننا ليروي لنا قصة قرأها في كتاب، أو فيلم سينمائي شاهده قبل ذلك، أو دراسة صدرت لواحد من مشاهير الفكر، وأذكر أنني رويت لهم في إحدى الليالي ملخصاً لرواية «اليوم الموعود» التي نلت عنها جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وتسلمت الجائزة - كما سبق وأشرت في الجزء الرابع - من جمال عبد الناصر نفسه، والرواية عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ملك فرنسا على المنصورة، وقيام الملكة شجرة الدر بالوقوف في وجهه..

وأذكر أن زميلنا الدكتور (م. سليم) وهو من أطباء رشيد، كان يعاني من حالة نفسية متردية فلم يكن يطيق سماع النكات والقفشات، ويثور ويرمينا بالسفه وعدم إدراك أبعاد المأساة التي نعيشها، فكنا نشفق عليه ونكف مؤقتاً عن السمر، حتى تهدأ ثورته، وينطفئ غضبه.

وكان بيننا من ساعدتهم الظروف بالقيام برحلات إلى خارج مصر، فيجلسون ويحدثوننا عن

مشاهداتهم في البلاد الأجنبية وما يدور فيها من أفكار وأحداث وقيم ..



في ليلة السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٦٥ وكان قد مضى علينا في المعتقل حوالي خمسين يوماً ، كنا نجلس في المساء حوالي الساعة العاشرة ، وإذ بالباب يفتح فجأة ، فنهب وأقفين ، ووجدنا أمام العنبر عددًا من العسكر ، وهتف أحدهم في جفاء وسرعة قائلاً : « ستة منكم .. » .
ظننا أنهم يريدون ستة معتقلين لكي يحضروا الخبز المخصص للعنبر كما يحدث عادة ، حيث يكون الخبز موضوعاً فوق عدد من البطاطين ، فيمسك المعتقلون بأطراف البطانية ، ويحملون الخبز لكي يوزع علينا ..

وخرج ستة رجال ، وأغلق الباب ، لكننا بعد دقائق قليلة سمعنا صراخاً عالياً واستغاثة ، وجمدنا في أماكننا لا ندرى ما يجري في الخارج . لكن الصراخ يزداد ونسمع ضجة كبرى تحت جناح الليل لا نعرف تفاصيلها . وخيل إلينا أن رجال الأمن يتوون قتلنا ، وسوف يأخذوننا ستة ستة للتخلص منا ، وساد القلق الجميع ، واعتصمنا بالصمت المرعب ، لقد حانت لحظة النهاية ، وليس لنا سوى أن نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الموت حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق ..

ولم يكن هناك مجال للدموع أو للتفكير في الماضي أو المستقبل ، وكيف تنسكب الدموع وقد شلت الأفكار والإرادة ، إنها حالة من الاستسلام المطلق ، وتلاشى الإحساس بالزمان والمكان ..
لم يطل بنا الوقت ، لكنها كانت لحظات قاتلة رهيبة ، وفجأة صمتت أصوات الاستغاثة ، وساد الهدوء المعتقل ، وفتح باب العنبر وارتقى الرجال الستة على الأرض وأغلق الباب ، وجاء صوت أجش من الخارج :
« ممنوع الكلام » .

أخذنا ننظر إلى الرجال الستة ، إنهم أحياء ويتحركون ، بل إن أحدهم يتسهم ، وبقينا نحو ربع ساعة ، ونحن على هذا الوضع ، وسمعنا قهقهة في الخارج ، وجاءنا صوت الجاويش حجازي يقول :
« لقد ذهبوا .. تكلموا كيف شئتم .. إن هذا الذي يحدث « يقطع الخلف » والله العظيم ..
من أين جئتم لنا ؟ أيامكم كلها كرب في كرب » .

وتجمعنا حول الرجال الستة نستفسر عما جرى ، كل ما عرفناه أنهم ضربوا ضرباً مبرحاً ، آثاره على أجسادهم ووجوههم ، وأن هناك مجموعة أخذت من كل عنبر من العنابر الخمسة الأخرى ووقع عليهم نفس العقاب المجهول السبب ، فليس في المعتقل أحد متهم في قضية سيد قطب ، أو أية قضية أخرى من القضايا ، والجميع - كما قالوا - معتقلون تحت التحفظ ، لكنني بقيت أفكر في الأمر ، فتذكرت أن هذه الليلة هي ذكرى الاعتداء على جمال عبد الناصر في حادث المنشية منذ عشر سنوات ، ويبدو أن رجال الأمن قد أرادوا الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة على طريقتهم الخاصة ، وقد علمنا فيما بعد أن إخواننا في معتقل أبو زعبل الجديد ، قد أمروا بالنزول فوق الدرج على أيديهم وركبهم كالأغنام وهم معصوبى العيون ، وضربوا جميعاً في ساحة السجن أمام مدير المباحث ومساعديه ، واتضح فعلاً أن ذلك كان بمناسبة الذكرى ..

وفي اليوم التالي استمر الضرب والتكدير للجميع في عنبر ٦ ؛ إذ وقفنا صفًا في مواجهة الحائط ،

وجاء العسكر من خلفنا بالعصى والكرايج وأخذوا يضربونا بقسوة، ومن يلتفت ليرى ما خلفه أوليتوقى الضرب يزيدون له فى العقوبة، وكان معهم « كمال دوس » الذى حاول كما يبدو أن يحمينى من الضرب، لأنى لم أتلق أية ضربات، وكان يقف إلى جوارى فى الصف المعتقل إبراهيم هلال، الذى نال قسطاً وافر من الضرب لطوله الفارع، بل إنهم أمعنوا فى إيذائه وإيذاء الآخرين حينما حلقوا له ولهم الشوارب، وكان هذا شيئاً معيئاً، وحسبت أننى نجوت، ولكن العسكرى جاء ومعه ماكينة الحلاقة وحلق شاربى أنا الآخر، وكان « كمال دوس » بعيداً عنا، ولعله تعمد ذلك ..

وفى خلال يومين ساد الهدوء المعتقل مرة أخرى، لكن فى خلال إحدى الليالي أخذ أخونا المعتقل محمود سرحان يصرخ من شدة الألم فى بطنه، وفشلت كل الجهود فى إسكات الألم، فلم تجد بعض الأقرص المخصصة لذلك، وكان معنا قليل منها فى القضاء على شكواه، فقممت وفحصت محمود فحوصاً جيداً، فتبين لى أنه مصاب بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية، وهذا يحتاج إلى جراحة عاجلة وإلا انفجرت الزائدة، ومرت الليلة شديدة الوطأة على أختينا محمود وعلينا، وكان يصرخ ويقول: « ى .. يانا .. يا غُلى .. أغيثونى يا ناس .. هموت .. » .

وفى الصباح قررت أن ندق الباب المغلق، طلباً للضابط المناوب، فليس من المعقول أن تترك محمود وهو يقترب من حافة الموت فى هذه الأوضاع التعسة التى لا تمت بصله لأى رعاية صحية .. وأخذنا ندق الباب .. جاء العسكرى وقال: « ماذا تريدون ؟ » .

- « نريد حضرة الضابط المناوب » .

- « ليه » .

- « واحد ييموت .. » .

- « يموت ولا يخفى .. فى ستين داهية .. » .

- « حرام .. » .

- « طيب اسكت أنت وهو .. سأبلغ الضابط » .

وبعد ربع ساعة، فتح الباب، ووجدنا الضابط كمال دوس يقف فى مواجهة العنبر، وظل صامئاً بعض الوقت فهرولت إليه قادماً من آخر العنبر، ثم قلت وأنا أقف بالداخل قرب الباب: « عندنا يا سعادة البك معتقل مصاب بالتهاب حاد بالزائدة الدودية » .

- « المصران الأعور ؟ » .

- « نعم .. » .

- « متأكد يا دكتور ؟ » .

- « مائة فى المائة » .

- « سأبلغ الداخلية فى القاهرة، وإذا لم يكن التشخيص صحيحاً فستكون نكبة عليك

وعلينا .. » .

- « المعتقل محمود سرحان فى حالة خطيرة .. » .

- « سأصرف .. أغلق الباب يا عسكرى » .

وجلسنا ننتظر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، ومحمود يشن ويتوجع ويتقيأ، وشمل العنبر هم ثقيل، وصمت حزين، وبعد طول انتظار جاء حكيمباشى مستشفى الشرطة، ثم أخذ المريض وفحصه، وأمر بنقله إلى مستشفى سجن طرة، وعلمنا فيما بعد أن محمود سرحان أجريت له جراحة

عاجلة بمجرد وصوله إلى طرة ، ووجدوا أن الزائدة كانت على وشك الانفجار ، مما جعل الجراح هناك يقول له بعد تماثله للشفاء : « كنت على وشك الموت ، إنهم هكذا دائماً لا يرسلون الحالات العاجلة إلا في اللحظات الحرجة » .

وفي أحد الأيام أخذونا مجموعات مجموعات إلى قاعة كبيرة بها مقاعد خشبية ، وسلمونا عدداً من الاستثمارات لكي نملأها ، كانت مكونة من عشر ورقات على ما أذكر وفيها بيانات كثيرة عن المعتقل واسمه الرابعي ومؤهلاته وأسماء أقاربه حتى الدرجة الرابعة ووظائفهم ، وتاريخ حياته السياسي وغير ذلك من البيانات ، وكانت الأوراق الأولى خاصة بالمخابرات العامة ، ثم سلمونا مجموعة أخرى من الأوراق على النمط الأول لكي نملأها لمباحث أمن الدولة .

وفي أحد العنابر المجاورة لنا كان هناك معتقل متقدم في السن . وفي إحدى الليالي اضطجع على « البرش » وهو يتنسم ويقول :
« سوف يفرجون عني غداً إن شاء الله » .

وذهل المعتقلون ، لأنه لا يتصل بأحد ، وليس لديه أية مصادر للمعلومات ، فظنوا أنه قد رأى في منامه رؤيا تشير إلى ذلك ، ولم يأخذوا الأمر مأخذ الجد ، لكن الذي حدث في اليوم التالي ، أن هذا المعتقل سقط مغشياً عليه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يستطيع أحد إسعافه ، وهكذا أفرج عنه كما توقع ونقل إلى بلده جثة هامدة ، وساد الحزن أنحاء المعتقل ..

وبعد حوالي ثلاثة أشهر من الاعتقال ، قدم إلينا الضابط كمال دوس ، ووجهه ينطلق فرحاً ، وقال بعد أن فتح باب العنبر : « أين الدكتور نجيب ؟ » .
فأسرعت إليه ، وسمعه يقول : « أتيت إليكم ببشرى عظيمة » .
هتفنا بصوت مختلط : « خير يا سعادة البك .. » .

وتخيلنا أنه يزف إلينا بشرى الإفراج عنا ، لأننا لسنا معتقلين على ذمة قضية من القضايا ، ولم نستطع التماهى في الأحلام إذ سمعناه يقول : « لقد قررت الحكومة صرف رواتب الموظفين الذين لم يوجه إليهم الاتهام ، ومعنى الآن توكيلات أرجو أن تكتبوها وتوقعوا عليها ، حتى يستطيع من توكلونه من أقاربكم صرف الرواتب عن الفترة السابقة وعن الشهر الحالي .. » .

وضج عنبر ٦ بالتصفيق والتكبير والشكر ، ثم سلمني كمال دوس توكيلات المعتقلين لكي أشرف على استكمالها ثم أسلمها له بعد ذلك ، وكان لهذه الواقعة أثر طيب في نفوس معظم المعتقلين ، ذلك لأن أسرهم سوف يجدون ما ينفقون على أنفسهم ، فيحميهم من ذل الحاجة ويستترهم ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، لكن فرحتنا لم تكتمل ، لماذا ؟ لأن بيننا عدداً كبيراً من أصحاب الأعمال الخاصة ، كالتجار وأصحاب الحرف والمزارعين والمحامين وأطباء العيادات الخاصة والصيادلة وغيرهم ، هؤلاء قد حيل بينهم وبين نشاطهم ، ولا شك أن أسرهم سوف يعانون معاناة شديدة ، بعد انقطاع دخلهم ، وتلك مأساة لن تساهم الحكومة في حلها ، فماذا ستفعل هذه الأسر التعسة ؟ لو فكر أحد في معاونتهم لوجهت إليه تهمة جمع الأموال لتمويل الجماعة الإرهابية ، وهذه جريمة في نظر المسؤولين عقوبتها السجن ، إنه حصار جائر حول تلك الأسر المسكينة التي لا حول لها ولا قوة ، فلا عجب أن تنصرف نساء الأسر الكريمة بطريقة مؤلمة فتلجأ إلى أحط الأعمال ، أو إلى الخدمة في البيوت حتى يوفروا لأنفسهم لقمة العيش ، ونفقات تعليم للأطفال ، ونفقات العلاج وما إلى ذلك .

ولعله من المحزن أن نشير أنه أثناء حرب ١٩٦٧ اعتقل عدد من اليهود والفلسطينيين ، ووضعوا في

معتقل أبو زعبل الجديد، وكان مسموحاً لليهود المصريين المعتقلين بأخذ أموال من ذويهم للإنفاق على أنفسهم داخل السجن، لشراء الطعام والدواء وغير ذلك، كما سمح أيضاً للمعتقلين المصريين. ولم يكن للفلسطينيين من يرسل إليهم أموالاً، وفيهم من يدخنون السجائر، وقد سمح لهم بها، وفيهم من يحتاجون إلى دواء أو إلى طعام إضافي، ولم يكن أمام الفلسطينيين وسيلة سوى أن يقدموا بعض الخدمات الصغيرة للمعتقلين اليهود مقابل أجر مالي أو عيني يدفع لهم، كغسل الملابس مثلاً، وقد أدى هذا الأمر شعور المعتقلين من الإخوان المسلمين، وتحذروا في الأمر مع ضباط الأمن في المعتقل، والتمسوا منهم الموافقة على إحدى الخطتين التاليتين :

١- إما إن يسمح للإخوان المعتقلين بجمع تبرعات لهم من بينهم، أو تكون المعونة على صورة أشياء عينية .

٢- وإما أن تقوم الحكومة بنفسها بمنح المعتقلين تبرعات أخوية تسد بعض احتياجاتهم .
ولم يوافق رجال الأمن على الخطة الأولى لأنها تعنى قدراً من التعاطف والترابط بين الإخوان الفلسطينيين وهذا ما لا تريده الحكومة على الإطلاق، ووعدت المجموعة الأمنية بصرف معونات عاجلة وشهرية للفلسطينيين، لكن المبلغ كان زهيداً جداً لا يفي بأقل القليل من الاحتياجات، وكانت هذه المعونات الصغيرة جزء من حصيلة أرباح مقصف السجن، مما جعل الفلسطينيين يعودون للعمل في خدمة اليهود والمعتقلين مرة أخرى، وحاول الإخوان أن يقدموا لهم خفية بعض المعونات العينية من خلف ظهر رجال الأمن بالمعتقل .

والواقع أنني شعرت براحة نفسية بالغة عندما تقرر صرف راتبي لأسترتي، فأنا لم يكن لدى دخل خارجي يذكر يضاف إلى راتبي الذي أعتمد عليه اعتماداً أساسياً وخاصة أنني توقفت عن الكتابة في الصحف والمجلات وعن تأليف الكتب، وكانت هذه تشكل دخلاً ثانوياً يساعد في تحمل أعباء المعيشة .

وبعد أن خرجت من المعتقل سألت زوجتي ذات مرة، كيف قضت الشهور الثلاثة الأولى بعد اعتقالي دون راتب، فأخبرتني بأمور عجيبة، فقد دق جرس الباب في بيتي بالمدينة السكنية بأبو زعبل، فأسرعت لترى من الباب، فوجدت رجلاً يحمل على حماره جوالاً من الأرز، وكمية من الشاي والسكر والصابون وغير ذلك من المستلزمات الضرورية للمنزل، وقال هذا الزائر الغريب الذي لم يسبق لها معرفته . « هذه البضاعة دفع الدكتور ثمنها قبل اعتقاله » .

ولم يكذب يكمل عبارته حتى سارع بالرحيل قبل أن يذكر اسمه، وكأنه يولي هارباً قبل أن تراه عين من عيون المباحث وقد تكرر ذلك مرات .

وأخبرتني زوجتي أيضاً أنها ذهبت إلى مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي، وقابلت مديرها الأستاذ سعد الدين وهبة - نقيب الفنانين الآن، والكاتب المسرحي المعروف - وطلبت منه باقى مكافأة الفيلم السينمائي الذي كانت المؤسسة تستعد لإنتاجه، وقد وافق على ذلك .

كما أرسلت إذاعة الكويت مكافأة لبضعة أحاديث إذاعية كنت قد أرسلتها إليهم عن طريق صديقي الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله، وكانت هذه المكافأة حوالى خمسين جنيهًا .

وفي فترة اعتقالى لم تبق زوجتى وأولادها وحدها، فقد ذهبت إلى والدها بحى السيدة عائشة بالقاهرة أياماً . وخاصة فى الفترة الأولى من الاعتقال وكفلها أبوها رحمه الله كفالة تامة، وبعد ذلك جاء أبى وأمى وأختى الصغيرة سميرة ليستقروا مع زوجتى فى مسكننا بالمدينة السكنية، وعاشوا معاً فترة

طويلة ، ولم يسافروا إلا قبيل خروجي من المعتقل بقليل ..
أعود مرة أخرى لأقول أن صرف راتبي لزوجتي أثناء وجودي بالمعتقل قد أزاح عني همًا ثقیلاً
والحمد لله ..

نسيت أن أذكر واقعة حدثت وأنا في عنبر ٦ من المفيد التعرض لها ، فبعد أن كتبنا الاستثمارات
الخاصة بالمخابرات وأمن الدولة ، جاء الضابط كمال دوس وفتح الباب ، وناداني ، فخرجت إليه ، وسار
فمشيت إلى جواره ، وهمست « خيرًا » .

قال : « هنا رجل من المسئولين يريد مقابلتك » .

دق قلبي خوفاً ، ماذا يريدون مني ، وأنا لا صلة لي بأية قضية ، صحيح أنني أعرف الأستاذ سيد
قطب وشقيقه الأستاذ محمد ، وبعض أفراد أسرته ، لكنها علاقة أخوية عادية ليس لها أية أبعاد سياسية
أو تنظيمية ، لكننا في هذه الأيام لا يعرف أى إنسان هل هو متهم أم برىء أم مدان ، لقد اختلطت
الأمر ، وتشوهت الحقائق ، والإنسان يتأرجح كالريشة في مهب الريح .

وأخذني كمال دوس إلى حجرة صغيرة تقع خلف عنبر ٦ ، كنت أسير حافياً ، أردتدى لباس
السجن المعهود بلونه الكالح ، رأسى حليق ، وكذلك شاربي ، والبرودة تسرى في أطرافي .

وأخيراً وجدت نفسى أمام شاب طويل قليلاً ، قمحى ، اللون يلبس نظارة شمس سوداء ، ألقيت
عليه التحية ، وبقيت واقفاً ، كان يجلس خلف مكتب خشبي متواضع ، وأخذ يوجه إلى بعض الأسئلة
العادية عن اسمى وعملى وأنشطتى وهو يقلب فى أوراق أمامه أدركت أنها هى الاستثمارات التى
ملأناها منذ ساعة ، ثم قال : « ألا تريد أن تقول شيئاً ؟ » .

- « شكراً يا بك .. » .

هز رأسه وقال : « هل أنت متضايق من اعتقالك ؟ » .

كنت أستطيع أن أجيب بأسلوب دبلوماسى ، وأزعم - كما يفعل البعض - بأننى غير متضايق ،
مادام ذلك لأمن الدولة ومصلحتها ، وأن الإنسان المخلص المضحي من أجل وطنه يجب أن يتحمل
بعض المعاناة فى سبيله ، لكننى لم أستطع أن أنافق ، واجتاحتنى موجة مباغته من الشجاعة وقلت وأنا
أتصنع الهدوء ، مع أن ضربات قلبي تتسارع ، وجسدى يرتجف ، وأنا أحاول أن أخفى ذلك كله قلت :
« كيف لا أتضايق يا بك ، وأنا لا أعرف مبرراً أو سبباً لاعتقالى هذه المرة .. لم أكن أتوقع شيئاً كهذا
بالمرة ... هل يرضيك يا بك .. أن أمشى هكذا حافياً ، وأنام على البرش ، وأضع رأسى على حجر ،
وأحرم من زوجتى وعيالى دون ذنب جنيته ؟ » .

اضطجع إلى الخلف وقال : « هذا إجراء مؤقت .. البلد كانت على وشك أن يلتهمها حريق
كبير .. فماذا نفعل ؟ لابد أن نلم بأطراف المؤامرة ونطمئن .. » .

- « إذن اقبضوا على المتهمين » .

- « لا نعرفهم كلهم ، ولهذا لابد من اعتقالكم جميعاً أولاً .. » .

- « من حقى كمواطن أن أكون آمناً على نفسى ، ورجال الأمن والتحريرات يعرفون من المشتبه فى
أمرهم .. يجب أن يكون هناك فرز قبل الاعتقال .. » .

- « لا .. لا .. الاعتقال أولاً .. ثم الفرز بهدوء ، ألا يجوز أن يكون بينكم واحد يحاول الاعتداء

على الرئيس .. » .

- « هذا احتمال قائم دائماً .. » .

وبعد فترة قال : « عمومًا سوف نبدأ بالإفراج عن من لم يتورطوا في المؤامرة بعد أيام قليلة .. بل أفرجنا فعليًا عن أعداد قليلة .. »

ثم سمح لي بالانصراف .. وأخبرني أن اسمه « ه. د. » كان كمال دوس ينتظر في الخارج وعندما خرجت قال كمال في لهفة : « لقد قضيت وقتًا طويلًا معه نسبيًا .. ماذا كان يقول لك ؟ » .
- « كان يناقشني في أمر اعتقالنا .. »

قال كمال : « حذار أن تكون قد وقعت في الفخ .. كلامهم معسول ويا ويل من تخرج منه كلمة لها معنى .. » .
- « اطمئن .. »

دخلت عنبر ٦ واحتشد حولي الإخوان وكلهم يسألون عن أين ذهبت ، ومع من كنت ، وماذا قال وماذا قلت ، جلست لألتقط أنفاسي اللاهثة ، وأردت أن أخفف التوتر السائد ، وأقلل من أهمية الأمر ، وقلت : « كيف حال الزير ؟ » .

- « زير إيه .. وهباب إيه .. الماء لم يأت بعد » .
- « الحمد لله .. خفت أن يأتي الماء في غيابي فتهدرونه » وأخذ هذا يلكرني ، وذاك يهزني ، يحرقهم الفضول لمعرفة أى شيء ، وهكذا المسجونون دائمًا ، يتسممون الأخبار ، وإذا لم يجدوها اخترعوها ، وكل شائعة أو خبر تعنى في النهاية .. الإفراج .. ولا شيء غير الإفراج ..

ولم يطل الانتظار ، فقامت بشرح تفاصيل المقابلة ، وبدأ على وجوههم الارتياح لسماع ما قلت ، وكان أهم شيء فيه ، هو أن رجل المخابرات « ه. د. » وعد ببدء الإفراج عنا في أقرب وقت ممكن ، وعلى الرغم من أننا لا نتق عادة في مثل هذه الوعود ، إلا أننا نميل دائمًا لتصديقها ، ونعيش في جنة الأمان والآمال التي تنبض بها قلوبنا ، وخاصة أننا على يقين تام ببراءتنا .

في اليوم التالي أخبرني الضابط كمال أنه رأى زوجتي وأطفالي بالحافلة (الأوتوبس) ، وأنهم بخير ، لكنه لم يستطع أن يخبرها بأنني أقيم معه في سجن « أوردى أبو زعبل » .

بدأت معرفتي بكمال دوس منذ عام ، ففي صبيحة أحد الأيام كنت أجلس في مكتبي بالمستشفى ، ودق جرس التلفون وأخبرني المتحدث بأن هناك حالة « صق كهربائي » لشاب في سن المراهقة ، وأن سيارة الإسعاف في الطريق إلى المستشفى ، ويجب الاستعداد لاستقبال الحالة الخطرة ..

أسرعت بإعداد الإسعافات الأولية اللازمة لمثل هذه الحالات على قدر الاستطاعة ، ووقفت ومعى الممرضات على الباب انتظارًا لقدومه ، وكم كان أسفنا عندما وصل المصاب ميتًا ، كان يرافقه ضابط سجون علمنا بأن اسمه كمال دوس ، وأن الشاب المصعوق بالكهرباء هو ابن أخته ، وقد جاء الشاب مجدى من الصعيد لزيارة خاله الضابط ، وفي صبيحة ذلك اليوم وضع إصبعيه (السبابة والوسطى) في « فيشة » الكهرباء الخاصة بالغسالة ، فسرى التيار الكهربائي في يده اليمنى ثم إلى باقى جسده ، فصرخ صرخة مدوية ثم ارتقى على الأرض ، كان مجدى هذا وحيد أبويه ، وعائلته من الأسر الميسورة الحال ، لم يأس رغم أن الحالة ميثوس منها ، وبذلت جهدًا خارقًا في عمل التنفس الصناعي وتديلن القلب ، وإعطاء بعض الحقن اللازمة ، فنحن يجب أن نبذل جهدًا مضاعفًا مع حالتين هما الغريق والمصاب بصعقة كهربائية ، ولكن لم تفلح الجهود التي بذلت في إنقاذه ، وكان يقف إلى جوارنا الضابط كمال ، ولما تأكد من النتيجة المؤلمة المحزنة ، مزق سترته الرسمية حتى خلعت أزرارها وأخذ يضرب رأسه ووجهه ويصيح حتى انهار تمامًا ، وكنت أواسيه وهو يقول باكيا : « عندي من الأولاد خمسة ، وهذا وحيد

أبويه ، يا ليت الرب أخذ واحدًا من أولادى ، وترك مجدى المسكين » .
 فأخذت أفهمه أنها إرادة الله ، وأنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ويجب أن نرضى بما قسمه الله ونصبر ، فليس لنا فى الأمر حيلة ، وأعطيته دواءً مهدئًا للأعصاب ، ثم أحضرت له فنجانًا من القهوة ، وأشعل الممرض له سيجارة كان يجذب أنفاسها بيد مرتعشة ، ثم طلب منى أن أكتب برقية باسم والد مجدى وأكتب فيها « احضروا بسرعة ، مجدى ابنكم فى حالة خطيرة » .
 الواقع أننى تأثرت جدًا بالحادث ، وبعدها ذهبت إلى كمال فى بيته مواسيًا ، وصحبنى فى العزاء عدد من الأصدقاء ، وظلت العلاقة الودود قائمة بينى وبينه ، وكثيرًا ما تبادلنا الزيارات ، إلى أن حدث اعتقالى هذا الأخير ، والتقيت به فى أوردى أبوزعل ، وجاء الوقت الذى حاول فيه أن يجاملنى فى حدود الإمكان ، لكن الظروف كانت قاسية وأكبر منه وأكبر منى ، قال لى ذات مرة : « لكم يؤسفنى أن أرى طبيبًا وأديبًا محترمًا مثلك يرتدى هذا الزى المحزن .. » .
 قلت بابتسامة راضية : « أنا لا أخجل أو أشمئز من هذا الملبس ، فلن يغير من حقيقتى شيئًا ، ولن يخفض من قدرى أمام نفسى ، لم أرتكب عملاً أندم عليه ، أو خطيئة أستحى منها ، وهذا أمر الله .. » .



[٣] الليالى الطويلة



قد يظن البعض أن معاناتنا تأتي كلها من تصرفات السلطة الجائرة، وقسوتها البالغة، ولا يتصور الكثيرون أن من بين المعتقلين أنفسهم من يثيرون القلاقل، ويكونون مصدر متاعب ومشاكل وآلام نفسية شديدة.

كان معنا المعتقل (س) وهو شخص محدود الموهبة، قليل الذكاء، انتهازى لا يفكر إلا في نفسه، ولهذا كان سىء السمعة، مكروهاً من الجميع، وخاصة بعد أن عرف عنه أنه يكتب تقارير سرية لرجال الأمن عمن يشك في إخلاصهم للحكومة، ولم يكن (س) يخجل من الإعلان عن ذلك حماقة منه وجهلاً، ومن المعروف أنه قد حكم عليه في الاعتقالات الأولى عام ١٩٥٤ بالأشغال الشاقة، وأودع فترة في سجن الواحات، ثم انشق عن جماعته، وتعاون مع السلطة، وقبض ثمناً لذلك، وهو العفو عنه، ولم يكن يتوقع على الإطلاق أن تأتي الحكومة مرة أخرى لتعتقله، وتضعه مع غيره من المعتقلين، ذلك لأنه أثبت إخلاصه التام لها، واستجاب لكل مطالبها، ولم تعد له أدنى صلة بالعمل السياسى فى صفوف الجماعة المنحلة، لكنه بعد تفكير فهم أن هذا الاعتقال الأخير لن يطول، وإنما هو مجرد إجراء تحفظى لا أكثر، وسوف يفرج عنه فى وقت قريب، وكان يصرح بذلك دائماً، وإذا سمع أحداً يهاجم الحكومة أو سياسة البطش السائدة، تصدى له بجرأة، وحمل عليه حملة شعواء، مما حدا بأحد المعتقلين (ص) أن يقول له بحدة: « مهما فعلت فلن تصدقك الحكومة، وستبقى معتقلاً معنا رغم أنفك، ولم يفرج عنك إلا معنا .. ».

وما إن سمع ذلك حتى استشاط غضباً، وسب ولعن، وأقسم أنه سوف يفرج عنه عاجلاً، وهدد كل من يتحدث عن الثورة بسوء إبلاغ المسئولين عنه حتى يلقي جزاءه الرادع، ومضت الأيام ثقيلة كتيبة فى عنبر ٦ وذات مساء بعد صلاة العشاء، جاء الضابط ومعه عسكري وسأل عن المعتقل (س) وأخبره بأنه يجب أن يأخذ أشياءه الخاصة ويخرج معه، وظن الجميع أن نبوءة (س) قد تحققت وأنه قد صدر أمر بالإفراج عنه مكافأة له على إخلاصه.

كان (س) يبدو فى قمة الانتعاش والسعادة، وأخذ يعثر كلمات الشماتة هنا وهناك، ويحذر كل من تسول له نفسه بالإساءة إلى الرئيس، أو التحدث عنه بما لا يليق، وقبل أن يغادر العنبر وهو يضع البقجة تحت إبطه، اتجه صوب المعتقل (ص) وقال له فى تعالي: « هل رأيت؟ هأنذا أخرج إفراجاً .. قلت لك إن الحكومة لا تنسى رجالها .. أما أنت فأبشر بالبقاء هنا إلى الأبد .. ».

وخرج (س) وجلس سكان العنبر ٦ صامتين، وكل فرد فيه يفكر ويستعيد أحداثه مع (س)، هل قال شيئاً أمامه يمكن أن يكون موضعاً للحساب والسؤال أمام رجال الأمن؟ والبعض الآخر أخذ يلوم

نفسه لأنه صرح بخبيثة نفسه ومشاعره ضد الثورة التي أذاقته ألوان العذاب ، فلماذا لم يخفي مشاعره ويعتصم بالصمت داخل المعتقل ، حتى تمر الأزمة ، ويخرج لأهله ؟

بعد مرور أسبوعين قدم إلينا معتقل جديد ، لكننا علمنا أنه اعتقل منذ شهرين ، ثم سيق إلى السجن الحربي للتحقيق معه ، وبعد أن ثبت عدم وجود علاقة بينه وبين القضية الجديدة ، نقلوه من السجن الحربي إلى معتقل أوردى أبو زعبل لينضم للمعتقلين المتحفظ عليهم - كما يسمونهم - وهم الذين ليست لهم صلة بأية قضايا أمنية مطروحة على الساحة في تلك الفترة العصيبة ، وأخذ هذا القادم الجديد يحدثنا عما يجري في السجن الحربي من تحقيقات وتعذيب واعتراقات ، ومن هم المتهمون في القضية الكبرى ، وغير ذلك من أمور ، وتحدث عن الرجل الأول المشرف على التعذيب والتحقيقات فذكر اسم « شمس بدران » المعروف جدًا لكل الناس في تلك الفترة ، ورديف المشير عبد الحكيم عامر وزير الحرية ، وذات مرة سمعنا هذا المعتقل القادم من السجن الحربي نتحدث عن (س) ، فقال : « أوه .. لقد رأيت (س) في السجن الحربي » .

لم نصدق ما نسمع ، فقد كنا موقنين أنه تم الإفراج عنه ، وذهب إلى بيته . « يا رجل قل كلامًا غير ذلك ، لقد أفرجوا عنه .. »

ضحك أخونا المعتقل وقال : « عن أي إفراج تتحدثون .. لقد أكل ضربًا بالكرابيج لم يأكله حمار في مطلع » .

وضحكنا ، ولعل البعض كان شامئًا ، لكن الأمر مثير للغاية ، فكيف تأخذ المباحث رجلها لتعذبه ؟ وأخذ أخونا يروي القصة قائلًا :

- كانت هناك قضية إخفاء الأسلحة التي حوكم فيها البعض عام ١٩٥٤ ، وصدرت ضدهم أحكام .. هذه الأسلحة كان جمال عبد الناصر قد هربها للإخوان قبل قيام الثورة ، وحفظت في مخزن بعزبة « العشماوى باشا » وكان حسن العشماوى ابن وزير المعارف الأسبق عضوًا بارزًا في مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين ، وكان ينسق العمل بين الإخوان والضباط قبل الثورة ، كما كان يلتقى مع جمال عبد الناصر كرئيس لتنظيم الضباط .. واحتفظ الإخوان بتلك الأسلحة إلى أن قامت الثورة ، ثم حدث الشقاق الكبير بين الإخوان والثورة .. وحوكم من احتفظوا بهذه الأسلحة .. وانتهى الأمر ... لكن رجال الأمن بعد تلك السنوات الطويلة أدركوا أن كمية الأسلحة المهربة لم تسلم بكاملها للحكومة .. وأن هناك قطعًا من السلاح ما زالت مفقودة ، فقرروا إعادة التحقيق في القضية عام ١٩٦٥ أى بعد أكثر من عشر سنوات .. ومن الطريف أن المعتقل (س) كان متهمًا في تلك القضية القديمة الجديدة .. وهكذا نقلوه من أوردى أبو زعبل إلى السجن الحربي للتحقيق معه مرة أخرى ، ومن الطبيعي أن يضرب ويهدد قبل أن يخضعوه للتحقيق الجديد ..

وأخذ نزلًا عنبر ٦ يضربون كفا بكف ، وهم مندهشون غاية الاندهاش لما جرى وأخذوا يتساءلون : ترى ماذا كانت مشاعر (س) الذى خرج وهو موقن بالإفراج فإذا به يساق إلى « الحمصة » وهي مكان التعذيب كما يطلق عليه المعتقلون ؟ ؟

اللهم لا شامة ..

إن أمثال (س) في السجون والمعتقلات السياسية كثيرون ، وقد يكون من حق أى إنسان أن يغير رأيه ، بعد أن يظن أنه كان على خطأ في توجهه السياسى أو تصرفاته ، فالناس يتغيرون ويتحولون لأسباب كثيرة ، بعضها حقيقى نابع من التفكير والاقتناع ، وبعضها ناجم عن الضعف البشرى ،

والبحث عن حياة آمنة مطمئنة ، بعد أن أنهكتها التجارب المريرة ، والضغط القاسية ، وهكذا يتضاءل تمسكه بالمبادئ ، فيتخفف منها ، ويلقى عن كاهله أعباءها ، وما (س) إلا مثل من هذه الأمثلة الأخيرة ، فقد كان فلاحاً مسكيناً رقيق الحال ، ينوء بأعباء الحياة الشاقة ، فباع كل شيء لينجو بنفسه ..

الأيام تمضى ..

والذكريات القاسية تراوح القلوب الصابرة ..

وهناك من يستيقظ فى الليل الطويل ، ثم ينفجر باكياً ، ماذا جرى ؟ لقد رأى فى منامه أن أحد

أطفاله مريض .. وأنه يستغيث به ..

وآخر يرى أن زوجه أتت إليه فى الرؤيا تشكو سوء الحال .. إنهم بشر يفكرون فى مصائرهم

ومصائر ذريتهم الذين يتلقون العلم ، أو الذين كانوا على وشك الزواج ، أو الحوامل اللاتي سيضعن

حملهن فى غيبة الآباء .. أذكر أن أحد إخواننا الصاعدة (من سوهاج) قال لى : « أعتقد أن زوجتى قد

ولدت الآن » .

قلت : « وأنت لن تعرف اسم المولود » .

قال بحماسة : « لا ، لقد أوصيتهم أن يسموه محمود » .

- « وإن جاءت بنتاً يا مصطفى ؟ » .

سكت برهة ، ويبدو أنه لم يعمل حساباً لذلك ، لكنه بعد تفكير قال : « لابد أنهم سوف يسمونها

« سيدة » على اسم المرحومة أمى .. »

ضحكت مداعباً وقلت : « وإذا ولدت تومين ولدين ؟ »

حار مصطفى ولم يدر بماذا يجيب ، فقلت على الفور : « إما أنهم سوف يسمون الأول محمود

والثانى محمود أيضاً ، وإما إن يسموا الأول محمود والثانى « سيدة » .

وشاركنا الحاضرون الضحك ، ذلك لأن النساء فى الصعيد يلتزمn بتوصيات الرجال دون أن

يحدثن عن ذلك ..

وتمضى الليالى الطويلة الشاقة .. وتمضى .. ونحن ننتظر فرج الله ، الذى لابد أن يأتى فى يوم من

الأيام ..



[٤] أبو زعبل الجديد



فى أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٦٥ فوجئنا بحركة غير عادية فى ساحة السجن، ثم فتحت الأبواب، ووجدنا أحد الضباط ينظر فى قوائم الأسماء، وينادى علينا اسمًا اسمًا، ثم نرص فى صفوف، وتساءلنا ماذا يجرى هنا، ولم يكن أحد من الإداريين بالسجن قادرًا على أن يجيب على تساؤلاتنا، فلا يجب أن يخبرنا أحد بأية معلومات، فمن المفروض أن نظل فى عماية تامة عن كل ما سيجرى لنا، ورأى أحد إخواننا أن هذه القوائم ما هى إلا قوائم الإفراج عنا بعد أن مضى علينا فى السجن بضعة أسابيع، ومما يرجح ذلك أنه ليس بيننا من اتهم بالاشتراك فيما يسمونه المؤامرة الجديدة، كما إن رجل المخابرات الذى التقيت به منذ أيام (هـ. د) قد صرح بأن الحكومة بصدد الإفراج عن من لم تلحق بهم شبهة فى وقت قريب. والحقيقة أن هذا الظن قد أوجد شعورًا عامًا بالتفاؤل، ومع ذلك فقد تراجعت عن تفاؤلى، وخاصة أن أسماء جميع المعتقلين فى أوردى أبو زعبل قد وردت فى القوائم، وليس من المعقول - كما تعودنا - أن يفرج عنا دفعة واحدة، ولهذا قلت لمن حولى من الإخوان: « لا تُفجعوا إذا وجدتم أنفسكم قد نقلتم إلى معتقل آخر .. » قال أحدهم: « ألا تظن أن هذا إفراج ؟ ». « كلا .. »

وحشرونا من جديد فى سيارات كبيرة، تحت حراسة مشددة، وانطلقت القافلة الخزينة فى طريق المجهول مرة أخرى، لكن لم يطل بنا المسير، فبعد دقائق من تحررنا وقفت السيارات بنا أمام مبنى جديد أنيق، ولم يكن من الصعب علينا أن نعرف أن هذا هو معتقل أبو زعبل الجديد، وتبخرت أحلام الإفراج أمام الحقيقة المرة الواقعة، وداهمنّا غمٌّ شديد حتى لكأننا نُعتقل مرة أخرى، ونزلنا من السيارات وجلسنا القرفصاء، وخرج علينا رجل ضخّم الجثة، مكفهر الوجه، يميل إلى السمرة، ويرتدى زى الشرطة وقال: « هل سمعتم عن « الصول » الجوهري ؟ »

كنا نسمع عنه الكثير، وخاصة ما يتعلق بقسوته وجفوته، وإمعانه فى تعذيب الإخوان الذين يجرى معهم التحقيق، ولم ننطق .. كانت نظراتنا تعبر عن مشاعرنا الخزينة، ووقف الجوهري أمامنا وقال: « الشعب لو رآكم لضربكم بالأحذية على رؤوسكم .. أنتم خونة وأعداء للشعب .. » لم ننطق.

واستطرد قائلاً: « على كل واحد منكم أن يخرج من جيبه منديلاً، ثم يعصب به عينيه جيّداً، بحيث لا يرى أى شيء .. »

قال المعتقل الحاج حامد، وهو فراش بإحدى مدارس وزارة التربية: « أنا ليس معى منديل يا أفندم » صاح الصول الجوهري بصوت أجش: « اخلع سروالك واعصب به عينيك .. » ثم أخذونا إلى الساحة الداخلية لمعتقل أبو زعبل الجديد، وأمر الصول كل واحد منا أن يخلع

ملا بسه تمامًا ويكومها إلى جواره حتى تتم عملية التفتيش على وجهها الصحيح ، وعندما تلكأ البعض في فعل ذلك انهالت عليهم السياط ، وهكذا تم بسرعة خلع الملابس ، ووضعها إلى جوار صاحبها ، وأصبحنا جميعًا عراة ، لكن من حسن الحظ أننا معصوبوا الأعين ، ولا يرى أحدنا الآخر ، وبعد أن تمت عملية التفتيش على الوجه المطلوب سمح لنا بالذهاب إلى أماكننا ، ولكن كيف نذهب إليها ونحن معصوبو العيون ؟ ولكن لم تطل بنا الحيرة ، فقد أمسك كل منا بقفا زميله حتى شكلنا سلاسل طويلة من الرجال العرايا الذين يحملون بقجهم في يدهم الأخرى ، وفي بداية كل سلسلة عسكري يمسك بيد أول واحد في الطابور .. وجرى العسكر ، وكنا نجرى معصوبى الأعين وراءه ، ولم نكن نعرف صفات الطريق الذى نجرى فيه ، وبعد لحظات أدركنا أننا نصعد درجات سلم طويل ونحن نلهث ، وفجأة أفلتت يدي من الأخ الذى يقودنى ، ولكنى لم أتوقف ، بل اندفعت جريًا ، وخلفى عدد من الإخوان ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت رأسى تصطدم بحائط ، فتوقفت ، ولم أدر ماذا أفعل ، فتوقفت ، وتوقف من خلفى ، ولم يطل انتظارى ، فقد أتى عسكري ، وأمسك بيدي ، وقادنى على الدرج ، وبدا السلم طويلًا جدًا ، ولا أدرى أين أصعد ، وفى النهاية وصلنا إلى طريق ضيق على يسارى حائط ، وعلى يمينى سور من القضبان الحديدية يرتفع حوالى مترًا ونصف المتر تقريبًا ، ثم فتح باب ، ودفعت إليه ، ثم أغلق الباب ، عرفت ذلك من خلال صوت المفتاح الحديدى الضخم ، وتحسست المكان بيدي ولكنى شعرت بأن يدًا حانية تشدنى برفق إلى حيث وضعت بقجتي ، وجلست عليها ، وبعد دقائق سمعت صوتًا رقيقًا يقول : « ارفع العصا من فوق عينيك » .

- « إنهم لم يسمحوا بذلك بعد .. » .

- « اطمئن يا أخى ، لقد ذهبوا » .

تباطأت قليلًا ، فما كان من هذا الأخ إلا أن مد يده وأزال العصا عن عيني ، وفتحت عيني لأجدنى فى عنبر كبير ، به عشرات من الرجال الذين يجلسون صامتين ، ويوجهون نظراتهم نحوى ، لم أكن أجهل أن هؤلاء معتقلون مثلى ، بل إنى أعرف البعض منهم ، ولم أكن وحدى الذى قدم إلى هذا العنبر ، فقد أتى معى ستة ، وبقيّة المعتقلين الذين كانوا معنا فى أوردى أبو زعبل توزعوا على بقية العنابر فى معتقل أبو زعبل الجديد ، فى الطابق الرابع الذى نزلت به ، كان بهذا العنبر ما يقرب من خمسة وثمانين معتقلًا ، وأنه يضم رجالًا من محافظة سوهاج والقليوبية وبور سعيد والسويس وغيرها .

ولقد كنت معروفًا لدى عدد ضخم من إخوانى منذ سجنى لأول مرة بسبب الجوائز الأدبية التى نلتها وأنا سجين ، وبعض المسلسلات الإذاعية التى أعدت عن قصصى ، وكتابتى فى الصحف والمجلات ، وما إن علم الإخوة بالعنبر باسمى حتى هرعوا إليّ يرحبون بى ويصافحوننى ويعانقوننى .

وكان العنبر نظيفًا ، وبه دورة مياه جيدة فيها مرحاضان لهما أبواب ، بعكس مرحاض أوردى أبو زعبل المكشوف ، كما كان يوجد دش للاستحمام ، لكن الازدحام كان شديدًا يكاد يضيق بعدد المعتقلين ، وكان باب العنبر من القضبان بحيث يرانا ونرى كل من يمر فى الممشى الطويل لمتمد أمام العنابر .

واستقر بنا المقام مرة أخرى فى هذا المكان ، لكن الذى ألتنى أشد الألم هو تلك التحقيقات الرهيبة التى تجرى فى ساحة الدور الأرضى طوال الليل ، وكان التعذيب مستمرًا ، وكذلك الصراخ والعويل والاستغاثة ، مما جعلنى أعانى من الأرق لبضع ليال ، ولم أكن أستطيع النوم إلا ساعتين وقت الظهر ، لكنى تعودت على المأساة بمرور الوقت ، وأمست أستطيع النوم مع صدور تلك الأصوات البائسة ، وقد

لاحظت أن الذين يجرى معهم التحقيق يرقدون في ساحة الدور الأرضي طوال النهار والليل ولا ينامون في الزنازين الصغيرة الملحقة بذلك الدور ، وقد يظل المتهم مسجى في تلك الساحة ليالي وأياماً قد تمتد من أسبوع إلى شهر ، ويأكل ويشرب حيث هو ، ولا يسمح له بالتحرك إلا عند ذهابه إلى دورة المياه أو إلى المكتب الذي يجرى معه فيه التحقيق ، وكان من بين هؤلاء الدكتور أحمد الملط وهو ذو شهرة واسعة وتاريخ عريق في جماعة الإخوان ، والأستاذ المذيع التلفزيوني إبراهيم عزت ، وإخوان « العشرات » الذين سبقت الإشارة إليهم ، ومن تثبت إدانته كان يرخل إلى السجن الحربي لاستكمال التحقيق معه ، وقد تثبت براءة البعض هناك فيعودون إلى معتقل أبو زعبل الجديد مرة أخرى .

ما أقسى ما تمر الأيام .

لقد تشوقت لرؤية أولادي .

ألم يكن من العدل أن يسمح لنا بالزيارة أو حتى المراسلات ؟

وفي هذه الأيام ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطاباً سياسياً هاماً ، وصدرت الأوامر لقائد المعتقل بأن يذيع الخطاب من خلال ميكروفون المعتقل حتى نسمعه ، كان الرئيس في هذا الخطاب يحمل بشدة على حلف الرئيس الأمريكي أيزنهاور الذي أطلقوا عليه حلف بغداد .. وأخيراً أطلقوا عليه الحلف الإسلامي ، وهو مكون من مجموعة من الدول الإسلامية تتكاتف لتجابه الشيوعية والاتحاد السوفيتي ، وصور عبد الناصر الحلف على أنه « خواجة ألبسوه عمامة » ، وكانت الجماهير وهي تستمع إلى الخطاب تهتف وتصفق وتضحك عند سماعها لسخریات الرئيس اللاذعة ..

وفي اليوم التالي لسماع الخطاب ، سألنا رجال الأمن عن رأينا في هذا الحلف وفي كلام الرئيس ، وطلبوا منا أن نكتب عريضة للرئيس نسجل فيها رفضنا للحلف ، وتأييدنا للرئيس ، ولم نكن ندرى ماذا نفعل ، فإذا تخلينا عن ذلك تعرضنا لمزيد من العذاب والقهر والإذلال ، ولم يكن أمامنا سوى أن نرفض ذلك الحلف المشبوه ، وخاصة أننا دائماً ضد تلك الأحلاف الاستعمارية من قديم الزمن ، وأخذنا رأى الدكتور « خميس حميدة » وهو وكيل جماعة الإخوان المسلمين السابق ، وكان معتقلاً معنا فقال : « إنها مسألة محيرة ، فقد نؤيد الرئيس في رفض الحلف الآن ، فيقابل تصرفنا بالرضى ، لكن ماذا نفعل إذا حدث في المستقبل ووافقت الحكومة على ذلك الحلف ؟ سنكون عرضة للمؤاخذة الشديدة .. إن رأيي هو أن نعلن أننا مع الدولة في موقفها من الحزب ، ولها أن تتخذ القرار المناسب » .

ولقد كان من الصعب أن نتبع نصيحة الدكتور خميس حميدة ، لأن المطلوب حالياً هو رفض الحلف وإدانته ..

وتم لهم ما أرادوا ووقعنا على إدانة الحلف ورفضه ، لكن الذي ألمنا هو أن الرئيس شن حملة ضارية على جماعة الإخوان المسلمين ككل ، وأكد أن كل من تطاله شبهة نشاط سوف يبقى في المعتقل طول حياته ، ونحن نعلم أن الشبهة من السهل أن تأتي من مخبر جاهل أو عدو حاقد ، أو عضو في حزب الرئيس ، وكلها أمور مقلقة تدعو إلى الحزن والأسف ..



في إحدى الليالي سمعت اسمي في الميكروفون فأصابني ارتباك شديد ، وخاصة أن اسمي جاء بين عدد من أسماء شباب الإخوان القدامى أعضاء الجهاز السري ، وبعض المتهمين في قضية السلاح ، وكان معروفاً أن من يسمع اسمه في الميكروفون عليه أن يجمع حاجاته ، ويستعد للترحيل إلى السجن

الحري ، فممت وأنا في غاية الاضطراب لأرتدى حذاءي ، وأربط بقجتي ، ومد أحد الإخوان يده لى بمنديل نظيف ، وقال لى : « اعصب عينيك جيداً » .

وكان هذا هو المؤلف لكل من ينادى على اسمه ، وجلست كالتائه لا أستطيع أن أجمع شتات نفسى ما يقرب من نصف ساعة ، أنتظر الضابط الذى سيفتح الباب وينزل بى إلى الإدارة ، ثم سمعت وقع أقدام الضابط وهو يدق الأرض بحذائه الغليظ ، وقلبى يدق أسرع من خطواته . وأخيراً وقف أمام الباب ، وكنت أنا واقفاً أنا الآخر فى وضع استعداد واستسلام تام ، لكنه لم يفتح الباب . قال : « أين نجيب الكيلانى » .

هرولت إليه ، ومعى بقجتي ..

قال : « هل زوجتك اسمها كريمة محمود شاهين ؟ »

- « نعم .. »

- « هذا شيك وصل باسمك من إذاعة الكويت بمبلغ كذا .. ونريد أن توقع على هذا التوكيل

لزوجتك كى تصرف الشيك » .

تنفست الصعداء .

هل أنا فى حلم ؟ وهل نجوت فعلاً من الترحيل إلى السجن الحري ؟ لم أكن أصدق ، لكن الضابط

يسلمنى قلماً ، ويمد لى الأوراق لكى أوقع عليها .. لم أقرأ شيئاً .. كانت يدى ترتجف بشدة ..

قال لى الضابط : « اهدأ حتى يأتى التوقيع سليماً .. »

وما إن انصرف الضابط ، حتى ضج الإخوة بالضحك ، وأخذوا يهتفون بالنجاة ، حتى لكأنى

حصلت على قرار إفراج .

شربت جرعة ماء أحضرها لى إخوانى ، واستلقيت على ظهري حتى أجمع شتات نفسى المبعثرة ،

كنت خجلاً أمام نفسى من هذا الاضطراب الزائد الذى يلم بى عند كل حدث مجهول ، لكن

ما حيلتى ؟ هكذا خلقتنى الله سريع التأثر ، شديد الانفعال ، ولا أتوقع خيراً أبداً من هؤلاء الطغاة ، الذين

ينظرون إلى الناس دون تفرقة على أنهم متطرفون .. منحرفون .. خونة .. إرهابيون .. أحياناً كان يبدو

لى أن الموت أفضل ألف مرة من هذه الحياة القاسية الرهيبة ، لكنى كنت سرعان ما أهدأ ، وأعتصم

بالصبر وأذكر نفسى بكلمات الله :

﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ... ﴾ .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ وَنَسَتْ أَلْوَجُوهَ لِلَّهِ الْقِيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ﴿ وَمَنْ يَمَلْ مِنْ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْتٍ فَلَا

يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا فَضَمًا ﴾ .

لهذا كان عزائى فى آيات القرآن الكريم .

وفى الصلاة .. وفى ذكر الله ..

أراد إخوانى من أهل الصعيد بسوهاج أن يُسرّوا عنى ، وأن يمدونى بأحداث حقيقية قد تصلح

كمادة للكتابة ، فقال لى الأستاذ عويس وهو مدرس بمدرسة « الحيام » الابتدائية (والحيام قرية فى

محافظة سوهاج) فقال : « هل سمعت عن قضية الحلبة ؟ »

فقلت فى دهشة : « حيلة ؟! إنها نبات أخضر يشبه البرسيم ، لكن أية قضية تقصد ؟ » .
وأشار عويس بيده ، فحضر عدد من الشباب الصاعدة ، بينهم رجل فلاح قح ، يصعب عليّ أن
أنهم كلمة واحدة من لهجته المخرقة فى المحلية والتي لم أسمع مثلها من قبل ، وطلب عويس منهم أن
يرووا قصة قضيتهم التى حدثت فى عام ١٩٥٦ بعد أن أصدر جمال عبد الناصر دستوراً جديداً للبلاد ،
أغلق بموجبه المعتقلات - كما زعموا - وحل محكمة الشعب التى حاكمت الإخوان فى عام ٥٤ -
١٩٥٥ وغيرها من المحاكم الاستثنائية .

واستمعت إلى القصة باهتمام ، وكان عويس يتولى شرح ما غمض عليّ من أقوال إخوانه
الصاعدة ، وقضية الحيلة تتلخص فى الآتى :

قام بعض الفلاحين بزراعة مساحة كبيرة من الحيلة ، وعند الحصاد كانوا يسجلون أسماء العمال
فى كراسة صغيرة ، ويكتبون أمام كل اسم ما أخذه من الأجر المتفق عليه بالقروش ، وكان يتولى أمر
الكتابة فى الكراسة طالب بالسنة الأولى فى مدرسة الزراعة المتوسطة ، وفى أثناء سير هذا الطالب بالليل
عائداً من الحقول إلى بيته صادفه كمين من رجال الشرطة يترصدون لصوفاً سرقوا بعض المواشى ،
فأمسكت الشرطة بذلك الطالب ووجدت معه الكراسة وأسماء الفلاحين ، كما قرءوا أيضاً عبارة على
غلاف الكراسة تقول « يسقط جمال عبد الناصر ، ويعيش الهضيبي » فما كان من الضابط المسئول إلا
أن أمسك بالطالب الصغير وأرسله مخفواً إلى أمن الدولة بسوهاج ، وصدر الأمر بالقبض على الطالب
وعلى كل من وردت أسماؤهم فى الكراسة بتهمة تكوين تنظيم سرى ضد الحكومة لقلب نظام الحكم .
وأمام دهشة الناس سيق الفلاحون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة إلى القاهرة . ولكن محكمة الشعب
كانت قد ألغيت ، والمعتقلات أغلقت ، وهكذا قدموا لنياية أمن الدولة لمحاكمتهم ، ووضعوا فى سجن
القاهرة رهن التحقيق ، واستمر التحقيق ثلاثة أسابيع تبين خلالها أن الفلاحين الفقراء الأميين لا يعرفون
شيئاً عن السياسة ولا يعرفون من يكون الهضيبي ولا من الإخوان المسلمين ، الطالب الصغير وحده البالغ
من العمر ستة عشر عاماً هو الذى لديه فكرة مبسطة عن الإخوان والهضيبي ، وتبين للمحققين أن
الأسماء التى وردت فى الكراسة لأجراء يعملون فى الزراعة وأخذ المحققون يضحكون ثم أصدروا أمراً
بحفظ القضية والإفراج عن الجميع .

من العجيب أنه بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على هذه الواقعة ، جاء رجال وزارة الداخلية ،
 واعتقلوا أصحاب قضية الحيلة مرة أخرى ، وهم الفلاحون الأميون ومعهم طالب الزراعة الذى أصبح
مدرساً الآن بعد أن تخرج منذ سنوات وحصل على دبلوم الزراعة المتوسطة ، وكانوا مجرد معتقلين
ينطبق عليهم قرار « اعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره » .

ومن سوهاج أيضاً تم اعتقال رجل يدعى « عبد الرحيم المهندس » سألته : « ما هى قصتك يا عبد
الرحيم » .

عدّل من وضع منظاره الأبيض فوق عينيه وقال : « نحن أصلاً من عائلة « أبو برسيم » .
لم أستطع أن أمسك نفسى من الضحك ، لكنه استطرد فى جديّة وقال : « أبو برسيم حوّرت بعد
ذلك إلى عائلة « البيرشمى » وهى أسرة معروفة فى المنوفية .. ونحن أصلاً ننتمى إلى عائلة البيرشمى
هذه ، لكن جدى الكبير إبراهيم كان مهندساً ذائع الصيت ، وأرسلته الحكومة إلى الصعيد لكى يحمى
شطآن نهر النيل من التآكل ، وأقام هناك (فى المنيا) وأطلق عليه الناس اسم (إبراهيم المهندس) هل تعرف
يا سيدى الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة ؟ »

- « نعم أعرفه يا عبد الرحيم ، وهو من أساتذتي في كلية الطب » فابتسم عبد الرحيم ابتسامة عريضة وقال : « هذا الوزير هو ولد عمي .. وهو من أحفاد جدنا الكبير إبراهيم المهندس طبيب الله ثراه .. لكن كما تعلم أصبح في أسرتنا الأغنياء والفقراء .. وأنا يا أخى من الفرع الفقير .. لكننا شرفاء محترمون .. ونحن لسنا فى حاجة إلى ابن عمنا الوزير ولا غيره .. لن أطيل عليك .. أنا لم أتعلم تعليماً نظامياً كافياً ، حفظت القرآن ، وأجدت القراءة والكتابة ، وأخذت أبحث عن وظيفة ... أرسلت عشرات الرسائل إلى جمال عبد الناصر دون جدوى ، ثم جاء اليوم الحاسم .. انتبعت إلى عبد الرحيم وقلت : « متى كان ذلك » ؟ « عندما أرسلت رسالة إلى جمال عبد الناصر وقلت له فيها : إذا لم تأمر لى بوظيفة ، فسوف أهتف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى وليّ عهد الملك المخلوع فاروق الأول ... وعندها قامت الدنيا ولم تقعد ، وجاء العسكر بالسلاح والعربات المصفحة وقبضوا عليّ فى عام ١٩٥٦ بتهمة التآمر على الثورة وزعيمها .. ووضعوني فى سجن مصر ، وبدأت نيابة أمن الدولة تحقق معى ... لم يستمر التحقيق أكثر من ستة عشر يوماً .. وعرفوا أن المسألة تهدد أجوف ، وهزار فى هزار . وهكذا أفرجوا عنى .. وعدت إلى بلدي بعد أن تلقيت درساً موجعاً فى الأدب .. وقد تعجب كثيرًا جدًا ... »

- « لماذا أعجب يا عبد الرحيم » ؟ « لقد صدر أمر بتعيينى فى وظيفة حكومية على الفور وأصبحت أقرأ أعدادات المياه فى المنازل .. والحمد لله لقد جعلونى موظفًا محترمًا .. ولو لم أهدد بالهتاف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى لما نلت بغيرتى .. »

قلت : « لماذا اعتقلوك هذه المرة يا عبد الرحيم ؟ »

- « أنا شخصيًا لا أعرف .. لقد أخذت ألخ وأسأل الضابط عن السبب دون جدوى ، وأكدت لهم أنني لم أكن من الإخوان المسلمين فى يوم من الأيام .. وكان الضابط مقتنعًا بكلامى .. وبعد أن تعب من كثرة أسئلتى ومناقشتى .. قال لى فى سخرية : لقد اعتقلناك يا عبد الرحيم « كمالة عدد » ، وهى كما ترى كلمة تعنى الاستهزاء بى ، ولما لاحظ الضابط أسفى وغضبى أخبرنى بأن القرار الجمهورى الصادر يقرر اعتقال كل من سبق اعتقاله أو المشتبه فى أمره ... »

ولم تكن حادثة « الحلبة » أو حادثة « عبد الرحيم المهندس » هى المثل الوحيد لعشوائية الاعتقالات ، فقد كان هناك مئات الحالات الشبيهة بذلك ، مثال ذلك الرجل الذى طلب ترشيح نفسه ضد الرئيس فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، وكنا نطلق عليه فى المعتقل « سيادة الرئيس » ، والمعتقل محمد جبالي الذى اعتقل لمدة يوم واحد فى الخمسينات ، من القرن العشرين ، لمجرد تشابه اسمه مع معتقل هارب ، ثم أفرج عنه بعد معرفة حقيقته ، لكنهم جاءوا واعتقلوه فى عام ١٩٦٥ لأنه سبق اعتقاله خطأ يومًا واحدًا قبل ذلك ، والإخوان شاهين وهما محاميان ، بل والأغرب من ذلك اعتقال رجل من أصدقاء « الخطّ » مجرم الصعيد واسمه محمد عبد اللطيف ، ومن المضحك أن هذا الرجل كان فى المعتقل الجنائى (معتقل الأشقياء) فى قنا ، وفى الحقيقة أن هذا الرجل كان يبدو طيبًا سمحًا ، ولا يكف عن القراءة فى المصحف ، ويعمل اعتقاله مع الإخوان هذه المرة ، بأنه كان فى شبابه يتردد على شعبة الإخوان فى بلده ليسمع الدروس الدينية التى كانت تعجبه ، وكان يضحك ويقول : « يومان فى معتقل الجرمين بقنا ، ويومان فى معتقل الإخوان المسلمين فى أبو زعبل .. حتى لكأن كتب علينا أن نقضى معظم أيامنا فى المعتقلات .. »

وكان فى المعتقل أيضًا رجل « حشاش » ضليع وهو الذى كان يجلس « مسطولاً » فى إحدى المقاهي ، وسمع فى الإذاعة تسجيل حادث الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر فى المنشية ، فعلق

قائلاً وهو تحت تأثير المخدر: «ست رصاصات وما تجيش واحدة منهم فى قلبه؟» وسمعه أحد المخبرين فقبض عليه، ثم قدم للمحاكمة بتهمة غريبة وهى «تمنى اغتيال سيادة الرئيس» وحكم عليه من محكمة الشعب فى قضايا ١٩٥٤ بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ ... ويخرج ... وتمر الأيام ثم يعاد اعتقاله مع الإخوان، مع أنه لم يكن عضواً بالجماعة فى يوم من الأيام.

وقد يشتد العجب عندما نعلم أن الداخلية اعتقلت عدداً من «العمد» فى قرى سوهاج، أغلبهم قد تخطى السبعين من عمره، وقصة هؤلاء العمدة أنه بعد قيام الثورة بأيام، جاءهم مأمور المركز وجمعهم فى صعيد واحد، وقال لهم: «إن الثورة التى قامت هى ثورة الإخوان المسلمين، وعلى كل عمدة فيكم أن ينشئ شعبة للإخوان فى بلده، ويكون رئيساً لها، وهذه هى أوامر الحكومة».

وتم للأمر ما أراد، وتمر سنوات، ثم يأتى عام ١٩٦٥ أى بعد الثورة بثلاثة عشر عاماً، ويصدر أمر باعتقال هؤلاء العمدة المساكين، هذا وقد رأينا بعض كبار السن القادمين من أقصى الجنوب، والذين اعتقلوا لأول مرة فى عام ١٩٦٥، وكان أحدهم - وقد اقترب من الثمانين من عمره - يقول: «لماذا لا يتفاهم حسن البنا مع الحكومة حتى يفرجوا عنا؟» ولم يكن هذا الرجل يعلم أن حسن البنا مات منذ سنوات طويلة ..

الواقع أن عملية الاعتقال التى اجتاحت مصر فى تلك الأيام كانت عملية طائشة عشوائية على نطاق واسع، ولم يكن لها ما يبررها، ولقد كتب صلاح نصر مدير المخابرات فى عهد عبد الناصر فى مذكراته أنه رفض أن يتولى قضية سيد قطب، معللاً ذلك بأنها ليست قضية، مما ضايق منه عبد الناصر وقال له: «إحنا كل ما نقول لك امسك حاجة تقول لأ.. خلاص شمس بدران هيمسك القضية» وقال صلاح نصر فى مذكراته أيضاً أنه بعد صدور الحكم بإعدام سيد قطب، طلب صلاح من الرئيس عدم التصديق على الحكم لأن إعدامه (ومجموعته) حرام .. فتبرم عبد الناصر من كلامه وقال له: كفاية .. مراتى بتقول حرام .. وأنت بتقول حرام .. خلاص .. أنا صدقت على الحكم، هذا بعض ما جاء فى مذكرات مدير مخابرات عبد الناصر، وقد حاولت أعبر عنه من الذاكرة، ومن يرد الرجوع إلى هذه المذكرات فإنه يسهل عليه ذلك، لأنها صدرت فى كتاب، بالإضافة إلى أنها نشرت فى مجلة أسبوعية كبيرة فى مصر قبل ذلك، وهى حسبما أعتقد مجلة المصور، والواقع أن الاعتقالات شملت عدداً من الإخوان الذى استقالوا من الجماعة منذ سنوات، وبعضهم كان على خلاف شديد مع قيادتها، ولم تفرق الحكومة بين من بقوا فى الجماعة ومن تركوها نهائياً.

وخلال هذه الفترة اعتقلت الحكومة مجموعة من أعضاء حزب الوفد، كما اعتقل الصحفى الشهير مصطفى أمين وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وكذلك حوكم حسين توفيق الذى اتهم فى قضية مقتل «أمين عثمان باشا» وزير المالية فى حكومة الوفد، وكانت الثورة قد أفرجت عنه بعد قيامها، وأسقطت بقية سنوات العقوبة عنه، وفى هذا الوقت أيضاً اعتقل أصدقاء السيد كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، بعد اختلافه فى رأى مع جمال عبد الناصر، الذى حدد إقامته فى مكان معين، وعقب الرسالة التاريخية التى بعث بها كمال الدين حسين والتى يقول فيها لعبد الناصر: «اتق الله ..».

ومن الطريف أنه كلما جاء معتقل جديد فكنا نقول إنه: إخوانى - أو وفدى - أو شيوخى - .. إلخ وإذا لم تكن تعرف هوية المعتقل فكنا نقول عنه: «فات أخرى»

تمثلاً بما كان يطبق في قانون الانتخابات المصرى الذى يقسم ممثلى الشعب إلى عمال وفلاحين ومتقنين وفئات أخرى .

إننى كثيراً ما أتذكر كلمات الأخ المعتقل إبراهيم هلال عندما استبدت به الحيرة ، وعجز عن تفسير ما يجرى من أحداث فقال قولته المشهورة بلهجته الشعبية المحببة : « أصل الحكاية بظوتت .. »
لقد اختلط الحابل بالنابل ، وتلوثت قيم عظيمة كانت راسخة فى كيان الأمة ، وضاع الأمن والأمان وأصبحت مصر سجنًا كبيرًا . يعيش ساكنوها فى خوف ورعب واضطراب ، سواء من كانوا داخل الأسوار أو خارج الأسوار ، وأصبحت أمنية الشرفاء فى تلك الفترة أن يخرجوا من مصر ، ويحشوا لأنفسهم عن أرض آمنة ، ينعمون فيها بالحب والسلام والحرية والكرامة ..

كان أخونا « عويس عبد الوهاب » معتقلًا مميزًا فى سلوكه وتصرفاته ، كنت تنظر إلى وجهه فترى فيه وجه المصرى المسلم الأصيل ، وكانت كلماته تدل على إيمان ونبل وصدق ، وباختصار فهو عمومًا الإنسان الذى تحب أن تجلس إليه ، فتشعر بالارتياح والثقة والطمأنينة ، ومع ذلك فلم أكن أعرف عن تاريخه شيئًا سوى أنه مدرس ابتدائي بمدرسة فى قرية « الحيام » بالصعيد .. وذات مرة شاهدت الأخ الأستاذ حسن دوح يمشى أمام العنبر ، وحسن - كما سبق وأشارت - زعيم الجامعة على أيامنا ، ومجاهد كبير فى حرب فلسطين ، وحرب القنال قبل الثورة ، وقدم حسن إلى باب عنبرنا وقال : « أين عويس عبد الوهاب » .

وهبّ عويس واقفًا ، وجرى عند الباب ، ومد يديه من خلال القضبان واحتضن حسن دوح فى شوق وحب . « أهلاً أخويا عويس » .
- « أهلاً أخويا حسن » .

وتساءلت بينى وبين نفسى ما الذى جمع بين عويس القادم من قرية الحيام ، وحسن دوح الذى كان اسمه على كل لسان فى المجتمعات السياسية والثقافية والإسلامية .. ألا يبدو الأمر غريبًا ؟ .
وكنت معجبًا بحسن دوح وتاريخه وخطبه الملتزمة فى المؤتمرات الجامعية الشهيرة ، وكان الناس يرددون بعض مقاطع من خطبه ، كما كانت الصحف تحتفى بأخباره وبياناته السياسية المؤثرة . وأدركت أنه لا بد وأن يكون لعويس عبد الوهاب - هذا الرجل البسيط المتواضع - شأن أى شأن ، وكان يصعب عليّ أن أجبر عويس إلى الحديث عن نفسه ، ولهذا قررت أن أبحث عن حقيقة عويس بين أهل محافظته وأصدقائه من خارج محافظته .

هذا الفلاح البسيط الذى يعمل بالتدريس كانت له قصة بطولة رائعة فى حرب فلسطين ، لم يكن يهرب الموت ، فاستطاع أن يقوم بعمليات فدائية مذهلة ، وكان آخرها معركة مصيرية خاضها هو وإخوانه . ولو لم تحسم نهاية المعركة لصالح الفدائيين لحدثت « فالوجة » أخرى ، حوصر فيها جزء آخر من الجيش المصرى ، وقد استطاعت مجموعة عويس أن تدمر الموقع ، وتضحى بعدد من الشهداء ، ونال عويس مجموعة طلقات من مدفع رشاش فى بطنه لكنها لم تخترق الجدار الخارجى للبطن ، ولقد رأيت بطن عويس خلسة وهو يغير ملابسه ، فوجدتها تشبه الغريال من أثر الإصابة ، ومن الغريب أن هذه المجموعة من الفدائيين كانت موضوعة فى معسكر الاعتقال طبقًا لأوامر رئيس الحكومة آنذاك محمود فهمى النقراشى باشا ، لكن قائد الجيش المصرى فى فلسطين اتفق معهم على أن يخرجوا من المعتقل بضمائنه شخصيًا ، ثم يؤدوا مهمتهم المقدسة ، ويعودوا إلى المعتقل مرة أخرى ، وهكذابقى عويس جريحًا يعالج حتى شفى ، وانضم إلى رهط المظلومين من المعتقلين ، ولم يكن ذلك الاعتقال إلا تحسبًا لما

قد يقدمون به من تهديد للحكم الملكي ، وهو تهديد محتمل حسبما رأى المستشارون فى السرايا وفى الوزارة .. وفى عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثى قام عويس بواجبه ، وأخذ يدرب الشباب على السلاح وحرب العصابات حتى يشتركوا مع رجال المقاومة لطرد القوات الغازية ، من منطقة القنال .. وعلى مستوى القرية لعب عويس دورًا بارزًا بين العائلات التى يلتهم الثأر شبابها ، وكاد يفقد حياته وهو يحاول إيقاف المعارك الضارية بينهم ، كما كان سباقًا إلى بذل الجهود فى مجال حل المشاكل الاجتماعية التى تعصف بقريته ، بل والقرى المجاورة .. وذات مساء ونحن فى ذلك العنبر بمعقل أبو زعبل الجديد ، قدم إلينا وافد جديد . « ما اسم الأخ ؟ » .

- « زهير قدام من مدينة غزة .. أعمل هناك مدرس لغة إنجليزية .. وتخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة » .

- « ولماذا اعتقلوك ؟ » .

- « اعتقلونى أنا ؟؟ كيف ذلك ؟ لقد أخبرونى بأنى سأقضى الليلة هنا وسأرحل فى الصباح » .

- « إلى أين سترحل ؟ » .

- « لا أدرى » .

- « وماذا قالوا لك عندما أحضروك من غزة ؟ » .

- « قالوا لى مطلوب فى الداخلية بالقاهرة لأمر بسيط ثم تعود لغزة .. إن هذا الاستدعاء كثيرًا

ما يحدث » .

واضح أن زهير قدام لا يعرف شيئًا صحيحًا عما يجرى ، ولا بد أنه أتى فعلًا يؤاخذ عليه من الناحية السياسية ، وكان على أن أتجاوز معه لعلى أستنبط الحقيقة ، وعلى ضوء ذلك يمكن توجيه بعض الإرشادات والنصائح له حتى لا يخطئ فى التحقيق الذى سيجرى معه . قلت له : « هل لك صلة قديمة بالإخوان ؟ » .

- « لا .. » .

- « هل تعرف سيد قطب أو أحدًا من تلامذته ؟ » .

- « لا ... » .

- « هل تحدثت بسوء عن الرئيس أو الثورة ؟ » .

- « لم يحدث شيء من ذلك قط .. » .

- « حسنًا .. هل تعرف أحدًا من جماعة التبليغ ؟ » .

- « التبليغ ؟ ما تلك الجماعة ؟ » . « هم فئة من الناس ، يخرجون فى سبيل الله ، وينزلون فى

المساجد يتحدثون مع الناس عن عقيدة التوحيد وترسيخ الإيمان الصحيح فى القلوب ، ولا يتكلمون فى السياسة أو الحكومة .

صمت زهير برهة ثم قال : « أذكر أن عددًا من الرجال الطيبين الأتقياء قدموا إلينا فى غزة ، وكانوا يتحدثون عن الدعوة إلى الله والإيمان به فى رقة ووداعة ، وليس لهم أدنى اتصال بالسياسة ، ولقد دعوتهم لشرب الشاي فى بيتى .. » .

قلت باهتمام : « هل شربوا الشاي عندك ؟ » .

- « نعم .. » .

قلت بثقة: « تلك هي قضيتك » .

لم يكن زهير مقتنعًا بما أقول ، وكان يصبر على أنه ليس معتقلًا ، وأنهم سيأخذونه في الصباح إلى وزارة الداخلية ، ثم يعود على الفور إلى غزة ليواصل عمله في التدريس هناك ، لأنه هو الذي سافر من غزة إلى القاهرة بتذكرة في القطار اشتراها من ماله ، ذهابًا وإيابًا ، وأخذ يذكر لي أنه يلبس بدلته كاملة تحت تلك الملابس المؤقتة التي سلمها له العسكري عند مجيئه إلى هذا المكان ، قلت له : « إن هذه الأعداد الكبيرة في هذا المبنى هم معتقلون من الإخوان ، وأنت واحد منهم ، ويجب أن تتأكد من ذلك ، ولا تصدم عندما يفوتك قطار غزة غدًا ، لأنك بالتأكيد ستقضى معنا هنا فترة من الزمن ، قد تطول أسابيع أو شهرًا .. » .

وبدا لي أنه غير مصدق لما أقول ، ونام زهير معنا في العنبر ، وعند الفجر جاءوا وأخذوه ، وأخذنا نتظر عودته طول النهار ، لكنه لم يأتِ إلا وقت العشاء ، ودخل العنبر مهرولاً يجمع حاجاته في سرعة وارتيك ، كي ينتقل إلى عنبر آخر ، وانتهزت الفرصة واقتربت منه ، ثم قلت : « ماذا فعلوا بك ؟ » .

- « ضربوني علقه ساخنة » .

- « لماذا ؟ » .

- « جماعة التبليغ كما قلت لي ، وقد أكدت لهم أنه لا صلة لي بهذه الجماعة ، وإنني عزمهم على شرب الشاي في بيتي من باب إكرام الضيف .. ولا شيء غير ذلك ، لقد التزمت في الإجابة على أسئلتهم بما نصحتني به .. » .

- « هل تؤمن الآن بأنك معتقل ؟ » .

وخرج زهير قداح إلى عنبر قريب منا في نفس الدور (الدور الرابع) ، وكنت أراه يرتدى معطفًا سميكًا عندما يخرج من العنبر وعلى وجهه ابتسامة استسلام ورضى بقضاء الله وقدره ، وهو يحمد الله لأنه لم يحبس على ذمة قضية من القضايا المعروضة على الساحة ، وإنما أصبح مجرد معتقل تحت التحفظ .

ومن بين المعتقلين الصعايدة فلاح طيب يهوى الميكانيكا ، وفكر ذات مرة في أن يصنع بندقية (غدارة) وهي عبارة عن قطعة سلاح مبسطة ، وبدأ مشروعه بحماسة ، وما إن انتهى من صنعها حتى فكر في تجربتها ، فوضع فيها بعض الطلقات ، لكن التجربة فشلت فشلاً ذريعاً ، فأمسكوا بها وبه ، وقادوه إلى المحاكمة . وعندما حاول أن يدافع عن نفسه قال لهم بثقة : « هذه ليست بندقية .. » .

- « بل هي بندقية » .

- « إذا كان الأمر كذلك ، فضعوا فيها رصاصة ، ثم أطلقوها عليّ ، فإذا أصابتنى في مقتل ، فسيكون ذلك جزائي ، وأموت وانتهى الأمر ، وإذا لم تخرج منها الطلقة فأنا بريء » .

وأجريت التجربة ، ونجا أخونا من الاتهام ، لكنهم أحالوه إلى المعتقل .. أيضًا تحت التحفظ ..

وفي المعتقل التقيت بعدد من الشخصيات منهم العلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية ، ومحقق كتاب تفسير الطبري ، كما التقيت بالأستاذ الناشر إسماعيل عبيد صاحب « دار التراث » وقد نشر لي قبل ذلك بعض الكتب ، والأستاذ الناشر وهبة حسن وهبة ، صاحب مكتبة « وهبة » ، وقد نشر عددًا كبيرًا من الكتب للأستاذ سيد قطب ومن أشهرها كتاب « معالم في الطريق » الذي أثار ضجة كبرى ، كما نشر للأستاذ محمد قطب وخالد محمد خالد وفتحى عثمان ، ولّى أيضًا ، وكان قد سبق سجن الحاج وهبة في عام ١٩٥٥ بسجن بنى سويف لمدة

خمس سنوات . والتقيت بالأستاذ عطية الشيخ رئيس المكتب الإداري للإخوان بمدينة طنطا وكان يعاني مرض الكبد والبول السكري ، وقد تقدمت به السن ، رحمه الله ، وهو الذى أخبرنى عن موت الأخ العزيز الصديق محمود أحمد صقر من قرية « منية البندرة » من جراء التعذيب فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ ، وكان الشهيد شقيق صديقى الأستاذ لطفى صقر ، ورأيت فى المعتقل الشيخ كشك صاحب الخطب المؤثرة والدروس الدينية التى طار ذكرها بعد ذلك فى كل مكان ، وسجلت على أشرطة ، وكانت تسوق فى أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وخاصة فى عهد الرئيس السادات وما بعده .

وجاء شهر رمضان المبارك وأنا فى معتقل « أبو زعبل الجديد » وفى أثناء هذا الشهر الفضيل توقفت التحقيقات والتعذيب مؤقتاً ، وبدأت الإدارة تمدنا بطعام أجود نوعاً ما ، كما قدمت لنا كمية من الخضراوات كالفجل والجرجير ، ومن الفواكه كالبرتقال واليوسفى ، وعندما رأينا الفواكه لأول مرة بعد شهور من الحرمان كنا نأكلها بقشرها حتى نستفيد أقصى استفادة من الفيتامينات التى بها ، ومن بين الإكراميات أيضاً فى هذا الشهر أن سمحت الإدارة لأحد المعتقلين أن يرتل كل ليلة ربعا من القرآن الكريم بصوت جميل مؤثر ، بدون مكبر صوت ، وكنا نستمع إليه فى سعادة ، وفى إحدى الليالى ، بينما كان المقرئ يقرأ ، ونحن نستمع فى خشوع ، صاح أحد الضباط قائلاً : « كفى يا أستاذ .. اختتم القراءة .. صدق الله العظيم » .

كان التصرف مفاجئاً وبثير التساؤل ، لكن حيرتن لم تطل ، فقد تناهى إلى سمعنا أصوات استغاثة وضرب مبرح استمر لما يقرب من نصف ساعة ، ترى ماذا جرى ، ثم ساد الصمت والهدوء مرة أخرى وصاح الضابط نفسه قائلاً : « اقرأ يا حاج .. استأنف .. الله يفتح عليك » . وهكذا بدأنا نستمع من جديد إلى الترتيل .

وفى صبيحة اليوم التالى علمنا أن هناك « إيراداً جديداً » والإيراد بمصطلح السجون يعنى دفعة جديدة من المعتقلين أو المسجونين ، ولما استفسرنا عن هويتهم علمنا - كما سبق وأشرت - أنهم أصدقاء عضو الثورة البارز الأستاذ كمال الدين حسين ، وكانوا يسهرون معه ويزورونه كأصدقاء بعد أن حدد جمال عبد الناصر إقامته ، ورأت الحكومة أن تعرف أفكاره الحالية ، وآراءه حول الحكومة وزعيمها ، وكان من المعتاد أن يُقام لمثل هؤلاء المعتقلين حفل استقبال يليق بمقامهم ، وهذا الحفل ليس فيه طقوس سوى الضرب والإهانة وألفاظ السباب البذيئة ..

وكانت صلاة التراويح تقام فى كل العنابر ، ويسمح فيها للإمام برفع صوته ، بعض المجموعات كانت تصلى بجزء كامل من القرآن (ثمانية أرباع) فى كل ركعة ربع ، والبعض الآخر وخاصة المرضى والعجزة وكبار السن يصلون فى وقت أقصر ، وبعدد من الآيات القرآنية أقل ، وهناك من كانوا يصلون التراويح عشرين ركعة ، وهناك من يصلها أقل من ذلك ، فلم يكن الإخوان ينضون تحت لواء مذهب فقهى معين ، وإنما فيهم الشافعى ، والحنبلية ، والحنفى ، والمالكية ، ولم يحدث أى خلاف قط أثناء تأدية الشعائر ، فالجميع يصلون معاً على أى مذهب ..

وفى هذه الفترة شُح لنا بالخروج والجلوس ساعة فى شمس الشتاء الجميلة فى المشى الممتد أمام العنبر ، وكان هذا التصرف من قيادة المعتقل يستحق التقدير والشكر ، وأثناء جلوسنا فى الشمس ذات يوم رأيت مجموعة من المعتقلين يخلعون ملابس السجن ، ويرتدون زيهم الخاص الذى جاءوا به من بيوتهم ، بعضهم يلبس العمامة أو الطاقية أو القبعة ، والبعض الآخر عارى الرأس سألت : « من هؤلاء ؟ وإلى أين هم ذاهبون ؟ » .

أجانبى أحد المارة : « هؤلاء دفعة إفراج » . وشعرنا بالفرح ، كان من بينهم صديقى القديم العالم الأزهرى الشيخ « محمد العوضى سلام » وهو من قرية « كفر حسين » القرية من قرينتنا « شرشابة » ، وقيل أيضًا أن معظم هذه المجموعة المفرج عنها ينتمون إلى بلدة « سنفا » التى عثر فيها على قبلة أحضرها أحد المجندين إلى القرية ، وكانت هذه القبلة سببًا فى القبض على خلق كثير من أهل القرية ، ولم يثبت فى التحقيق الذى أجرى أن هذه القبلة كانت ستستخدم ضد الحكومة أو أحد أفرادها .

عندما رأيت الرجال يجرون فى الممشى المواجه لنا فى الناحية الأخرى فى زيههم المدنى ، قلت من باب المرح : « إذا وصلتم سالمين .. فسلموا لنا على الحبايب » .

ورأيت رجلًا من أهل القليوبية كان يجلس إلى جوارى يشهق باكيا ، تأثرا بما قلته عن « الحبايب » . وجاءنى الصديق القديم الشيخ محمد العوضى سلام وقال : « إننى متألم لأننى أخرج بدونك .. لكن لكل إنسان حظ مقسوم .. وستخرج بعدنا قريبا ، فاعتصم بالصبر وسوف أذهب إن شاء الله للوالد والوالدة والزوجة والأولاد كى أطمئنهم عليك .. ألا تريد شيئا ؟ » عانقته .. ترقرت الدموع فى عيني .. لم أستطع أن أنطق بكلمة .. طافت برأسى الذكريات القديمة ، والشيخ محمد هذا يعتلى المنبر ، ويخطب فى الناس ، ويشعل الحماس فى قلوبهم ، ونحن معه ووراءه نهتف « الله أكبر ولله الحمد .. الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا .. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » يالها من أيام ويا لها من ذكريات .. ماتت كالحلم الجميل ، ولم تخلف وراءها غير الأسى والدموع ..

وقبيل يوم العيد انتقلت إلى عنبر آخر فى الجهة المقابلة (الطابق الرابع) ، وكنت سعيدًا بذلك ، إذ التقيت فيه برجل أحبه وأجله ، ذلكم هو الضابط الشجاع فؤاد جاسر رفيق عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة وأحد الضباط الأحرار الشجعان .. كان رجلاً لا يفرط فى كرامته ، وقد خرج من السجن عام ١٩٥٨ قرب نهايته ، لكنهم عادوا واعتقلوه هذه المرة أيضًا ، مع أنهم لم يعتقلوا بقية زملائه من الضباط الذين كانوا معه فى الاعتقال الأول .

وكان لفؤاد ابنان فى الكليات العسكرية أحدهما فى الكلية الحربية ، والآخر فى كلية الشرطة ، وكان يتوجس خيفة من أن رجال وزارة الداخلية قد يطردونهما من الكليات العسكرية بسبب اعتقال أيهما كما حدث للكثيرين .

وفى يوم العيد جاءه عسكري على قدر كبير من الوفاء له ، فقد كان ذلك العسكري مجندًا فى منطقة الضبعة ، وكان فؤاد جاسر ضابطًا هناك قبل الثورة ، ويعامل ذلك المجند برقته المعهودة وبالاحترام الكامل لإنسانيته ، واقترب فؤاد من باب العنبر ، فصافحه العسكري وقبل رأسه ، فى غيبة قيادة المعتقل ، وأخبره أنه ذهب إلى بيته ، وأن ولديه لم يفصلا من الكليات العسكرية ، وأن أهله جميعًا على ما يرام ، ثم أهدى ذلك العسكري لفؤاد « علبة سجائر » وهى هدية ثمينة بكل المقاييس ، لكن فؤاد لم يكن يدخن ، ولهذا تبرع بها لعدد من المدخنين المحرومين فى هذا اليوم العظيم يوم عيد الفطر المبارك ..

وجلس فؤاد بيننا يشرق وجهه بالفرحة الكبرى .. سألت الأخ الأستاذ فؤاد جاسر : « ماذا فعلت بعد أن خرجت من السجن عام ١٩٥٨ ؟ أى بعد أن قضيت فيه أربع سنوات أغلبها كان فى سجن الواحات الخارجة ؟ »

قال بابتسامته الحلوة الطاهرة : « اشتغلت مقاول مبانٍ ، لم يكن يكفينى معاشى كبكباشى » .

- « لكن زملاءك من الضباط المسجونين الذين أفرج عنهم ، عينوا فى مجالس إدارات بعض

شركات القطاع العام برواتب كبيرة » .

- « لم ألق من الرئيس القبول والرضى ، ولهذا تجاهلونى ، لقد عانيت كثيرا من أجل الحصول على لقمة العيش الشريفة ، لكنى كنت سعيدا .. ومع ذلك ، والحق يقال فقد حدث تطور مفاجئ .. »
وأخذ فؤاد يشرح قصة جديدة جرت أحداثها بينه وبين بعض رفاقه القدامى فى تنظيم الضباط الأحرار ، فقد أتى إليه عدد منهم وأخبروه أن صلاح سالم (عضو مجلس قيادة الثورة) مريض ويسأل عنه بالحاح ، واقترحوا أن يقوم فؤاد بزيارته ، لكن فؤاد اعتذر بحجة أن هذه الزيارة قد تؤول تأويلاً لا يريحه ، فقد يظن ظان أنه بهذه الزيارة يريد أن يتقرب منهم لكسب يتمناه ، أو فائدة يجنيها ، وأنه فى قرارة نفسه يدعو لصلاح سالم بالشفاء ، رغم أن فؤاد لم ينس أن صلاح سالم هو الذى وشى بهم لدى جمال عبد الناصر ، وأخبره أن فؤاد جاسر وحسين حمودة وغيرهم من ضباط الإخوان لا يزالون مصرين على تمسكهم بعقيدتهم الإخوانية ، مما دفع جمال إلى التخلص منهم ، وطردهم من الجيش ، وتقديهم للمحاكمة وإصدار أحكام بالسجن ضدهم أمام الدائرة العسكرية لمحكمة الشعب ، رغم علم جمال بأنهم أبلوا بلاءً حسناً فى إنجاح الثورة ، وقد حاول الوسطاء إقناع فؤاد بأن صلاح سالم آسف عن كل ما جرى ، وأنه يعتذر عنه بشدة ، ويريد أن يكفر عن ذلك الفعل فى حق الأصدقاء ، وفى إحدى الليالى جاء الوسطاء من أصدقاء الطرفين (وهؤلاء الوسطاء من الضباط الأحرار السابقين) وأوهموا فؤاد بأنهم ذاهبون لزيارة أحد الأصدقاء فى مكان ما ، وذهب معهم فؤاد ، وما إن وصلوا إلى المكان المنشود ، ودخلوا فيه حتى وجد فؤاد جاسر نفسه وجهاً لوجه مع رفيق الأُمس صلاح سالم ، فارتج عليه ولم يدر ماذا يفعل ، وتصافح الصديقان وتعانقا ، ودعا فؤاد لصلاح بالشفاء ، وكانت الدموع تترقق فى عيني صلاح . « أهكذا يا فؤاد لا تأتى لزيارتى إلا بحيلة ؟ » .

- « أنت تعرف ظروفى ، والله يعلم كم أدعوك » .

وبعد فترة قال صلاح : « ماذا تفعل الآن .. » .

- « ابتسم فؤاد وقال : « مقال » .

- « مقال ؟ وهل هذا يوفر لك الدخل الكافى ؟ » .

عاد فؤاد للابتسام وقال باقتضاب : « الحمد لله » .

وتبادل الجلوس شتى ألوان الأحاديث ، وفجأة قام صلاح من مكانه ، ثم غادر الغرفة ، وعاد بعد قليل ليقول : « مبروك يا فؤاد ، لقد وافق جمال عبد الناصر على أن يرفع معاشك الشهري من بكباشى إلى لواء ، لقد حادثته فى التليفون الآن » .

طأطأ فؤاد رأسه فى خجل وقال : « متشكر جداً » .

وعمت الفرحة الحضور ، وأخذوا يهتفون فؤاد على ذلك ، وبعد فترة تبلغ حوالى النصف ساعة قال صلاح سالم : « هل تقبل العمل معى فى مؤسسة التحرير للطباعة والنشر ؟ » .

وكانت دار التحرير تصدر صحيفة الجمهورية ، وصحيفة المساء ، وعدداً من الصحف باللغات الأجنبية مثل البورصة والبرجوريه والإجيشيان جازيت .

قال فؤاد : « أنا لا خبرة لى بالصحافة » .

وغادر صلاح الغرفة مرة أخرى ، وبعد دقائق عاد ليقول : « لقد وافق جمال عبد الناصر على أن تكون مديراً لمكتبنا بالإسكندرية ، وهذا المكتب مختص بالصحف التى تصدر باللغات الأجنبية فقط ، وسيكون معلن نخبة من معاونى الفنيين الأكفاء ، إذا أنت وافقت فاعتبر نفسك قد تسلمت العمل منذ الآن .. » .

وهكذا شاء الله أن تستقر أوضاع فؤاد ، وأن يعيش في الإسكندرية مع أسرته يمارس عمله الجديد بقدر كبير من الرضى ، وقضى سنوات في الثغر يذهب إلى مكتبه صباحاً ومساءً ، منهمكاً في عمله ، وقد استطاع أن يكتسب ثقة الجميع ، ويطور الأداء ، ويحقق النجاح الذى تمناه ، وظل الأمر على هذا النحو حتى فوجئ فؤاد جاسر - دون غيره من الضباط - بالاعتقال مرة أخرى فى أوائل سبتمبر عام ١٩٦٥ ، أى بعد خروجه من السجن الأول بحوالى سبع سنوات ، وهو شئ لم يكن يخطر له على بال ، بعد أن كان قد ترك السياسة وودع الجيش إلى غير رجعة .

لم يكن فؤاد جاسر متبرماً بهذا الاعتقال ، فقد كان رجل حرب ونزال وصبر ، يعرف كيف يصمد فى الملمات ولا يضعف أو يتهوى أمام النكبات ، كل الذى يقلقه هو مصير ولديه فى الكلية الحربية وكلية الشرطة ، وشاء الله أن يفلت الولدان من عسف السلطة ، وكان هذا مصدر سعادة كبرى لفؤاد جاسر فى المعتقل ، وفى يوم عيد الفطر ، ولهذا خلع فؤاد ملابس السجن ، وارتدى بدلة كاملة ورباط عنق أنيق وجلس بيننا وسط العنبر كالعمدية يبادلنا الأحاديث الأخوية المرحية ، والفكاهات الطريفة ، ويذكر بعض ذكرياته عن تنظيمات الثورة فى الجيش ، وعن قيامها والوقائع التى جرت فيها ، ولم يخرج فؤاد من المعتقل هذه المرة إلا بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمسة عشر شهراً ، وعاد بعدها إلى عمله فى الإسكندرية ، وبعد ذلك بفترة طويلة عدت فى إجازة صيفية من مدينة دى بالإمارات العربية المتحدة ، وحينما كنت أقضى بضعة أسابيع فى الإسكندرية التقيت فى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمحرر فى جريدة الإيجيشيان جازيت وسألته عن فؤاد جاسر ، فقال إنه رئيسهم ، وأستطيع أن أقابله فى الصباح إذا شئت ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى فؤاد جاسر ، وكان لقاءً عامراً بالمحبة والوفاء ، الابتسامة النقية تضىء وجهه الأسمر ، والكلمات الحلوة تنساب من بين شفتيه ، كل شئ فيه يوحى بالثقة والأمل والإيمان ، سألته عن ولديه فقال : « الأول ضابط بالجيش الآن ، والثانى ضابط شرطة ، وهما يسيران - بحمد الله - على النهج القويم .. »

قلت : « كنت قلقاً على ولدك الضابط فى الجيش أيام حرب ٦٧ . »

ضحك فى سعادة وقال : « بعد الهزيمة فوجئت به قادماً متورم القدمين منهكاً .. »

- « لا شك أنك تأملت من أجله . »

قال فى غضب واستنكار : « كيف هذا ؟ لقد أوقفته على الباب ، ولم أسمح له بالدخول ، وصرخت فيه أن يعود إلى وحدته العسكرية على الفور ليلتحق بها ، ويواصل عمله المقدس فى حرب الأعداء .. كانت أمه تبكى ، وإخوته يستعطفوننى ، لكننى لم أقبل شفاعته فى هذا الأمر .. وضعت فى يده مبلغاً من المال وأمرته أن يعود لوحده .. قال لى دعنى أسترح قليلاً فأنا لم أنم ، وأريد أن أكل لقمة وأشرب ماء .. قلت له معك النقود اشتر ما شئت .. هيا .. وأغلقت الباب فى وجهه .. »

بعد مرور العيد بدأت التحقيقات من جديد ، وبدأ التعذيب والصراخ والأرق ، لكن بدرجة أقل من السابق .

وفى إحدى الليالى سمعت صوتاً يستغيث من العذاب : « والله ما أعرف .. والله ما أعرف .. »

خيل إليّ أننى أعرف صاحب هذا الصوت ، كما تأكد لى أنه ليس مصرياً ، وساورتنى الشكوك ، ترى من يكون ؟ خيل إلى أنه ربما يكون هو الأخ الليبى « محمد نشنوش » الذى نشر لى عدداً من الكتب ، حيث كان يملك مكتبة « النور » بمدينة طرابلس بليبيا ، ومن كتبى التى نشرها :

١- الطريق إلى اتحاد إسلامى .

٢- الإسلامية والمذاهب الأدبية .

٣- العالم الضيق وقصص أخرى .

وتوجست خيفة ، ذلك لأن الكتاب الأول (الطريق إلى اتحاد إسلامي) كان قد صودر في القاهرة ، وجمعت نسخه من المكتبات التي أخذت منه ، والكتاب فيه استشهادات من بعض كتب المودودي ، وكنت قد ألفت في عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠ . في الوقت الذي كان الحديث فيه عن القومية العربية والوحدة العربية يحجب كل ما عداها ، وهناك أمر آخر أشد خطورة أقلقني جدًا ، وهو أن محمد نشنوش كان قد طلب مني أن آخذه إلى الأستاذ سيد قطب للتعرف عليه ، وحققت له ما أراد على مضض ، فلو أن محمد نشنوش ذكر هذه الواقعة^(١) فسوف يأخذونني حتمًا إلى السجن الحربي حيث يوجد الأستاذ سيد قطب ، وسوف يحققون معي بالتأكيد عن مدى علاقتي به ، ومعنى ذلك أن أتعرض لأهوال لا يعلم إلا الله مداها . وبقيت - كما يقولون - جالسًا على نار ، حتى مر علينا الأخ م . عمارة ، وسألته عن ذلك الرجل الذي يعذب في الدور الأرضي فقال : « يبدو أنه من طرابلس » .

- « طرابلس الشام أم طرابلس ليبيا ؟ » .

- « لا أدري .. » .

- « إن كان من ليبيا فستكون كارثة » .

وأدرك عمارة قلقي فأراد أن يطمئنني فقال : « بل من طرابلس الشام » .

- « هل تعرف اسمه ؟ » .

- « لا أعرف .. » .

- « ربما يكون اسمه محمد نشنوش » .

قال كأنه يتدبر ما يقول : « بالضبط .. اسمه نشنوش » .

- « إذن هو من طرابلس ليبيا .. » .

وأصابني هم ثقيل .

وقلت : « يا عمارة .. بالله عليك .. اذهب إليه وقل له لا يذكر اسمي على الإطلاق ، ولا يخبر

المحققين بشيء عن زيارتنا للأستاذ سيد قطب .. » .

- « سأحاول إن شاء الله » .

ومرت ثلاثة أيام لا يعلم إلا الله كيف قضيتها ، وفجأة وجدت محمد نشنوش أمامي خلف الباب

من الخارج ، وأخذ يصفاحني ويعانقني . ووجدتني أقول له : « احذر أن تذكر اسمي في أى تحقيق

يا محمد .. » .

قال بلهجته الليبية : « أثهتا .. » .

ومعناها « كن مطمئنًا » ، واستراح بالي بعد أن سألته عن التحقيق الذي أجرى معه ، والحقيقة أن

نشنوش لم يخبرني بكل شيء ، فقد ذكر أثناء التحقيق أنه يتعامل مع بعض الناشرين في القاهرة وخص

اثنين بالذکر هما .

١- إسماعيل عبيد .

(١) تحدثت عن تفاصيل هذه الواقعة في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

٢- الحاج وهبة حسن وهبة .

وتذكرت أنني سمعت اسميهما في مكبر الصوت أثناء التحقيق مع نشنوش، ولم أكن أعلم أن لهما علاقة به، إلى أن رأيت إسماعيل عبيد في الطابور، وحدثني عن نشنوش، وأخبرني إسماعيل أنه سئل عن تعاملاته في الكتب مع نشنوش، ولما سألت إسماعيل: هل ذكر نشنوش اسمي في التحقيق قال: «نعم.. لقد ذكر أنه طبع بعض مؤلفاتك، لكن الضابط قال له: تقصد الدكتور نجيب الكيلاني الذي يعمل طبيباً بمستشفى السكة الحديد؟ فأجابه بالإيجاب.. ثم استطرد قائلاً لعلها بعض القصص فقال نشنوش نعم، ولم يشر إلى كتاب «الطريق إلى اتحاد إسلامي» أو «الإسلامية والمذاهب الأدبية». وهكذا مرت الأزمة بسلام، ولم تخفت حدة قلقي إلا بعد أن أخذوا محمد نشنوش بعد عشرة أيام إلى المطار مباشرة كي يسافر إلى بلده ليبيا.. والحمد لله.

كانت مشكلة تفشي «القمل» بيننا تؤثرنا بشدة، ذلك لأننا كنا نلبس ملابس المسجونين العاديين، وانتشار القمل يعتبر مرضاً معدياً يسمونه باللاتينية «بديكولوزس» وأذكر أن أحد المعتقلين من بور سعيد استطاع أن يجمع خمسين قملة من ملابسه (وهو رقم قياسي) ووضعها في قنينة صغيرة، ثم قدمناها إلى أحد الضباط حتى يخبر قائد المعتقل لعله يبحث لنا عن حل لهذه المأساة الصحية، وفي أحد الأيام أحضروا لنا فريقاً صحياً للرش بالمبيدات الحشرية من الخانكة، وأمروهم بأن يؤدوا عملهم دون أن يكلموا أحداً منا على الإطلاق، وفي عنبرنا كان عامل الصحة يستخدم الرشاشات المعبأة بمادة د. د. ت، فيرش البطاطين والملابس والفراش ودورات المياه، كان العامل يطلق دفعات المسحوق من الرشاشة ثم يتوقف لحظة وينظر إلى ساحة الدور الأرضي ليرى المتهمين النائمين على البلاط تغطيهم البطاطين من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ودهش عامل الصحة وقال: «ما هذا؟ جثث؟ يا ستار يارب».

ويرش، ثم يعود ليطل من الدور الرابع ليرى البؤساء الراقيدين، ويستبشع المنظر.

قلنا له: «إنهم أحياء».

- «لكنهم لا يتحركون».

- «لأنهم نائمون».

- «ولماذا لا ينامون في الغرف؟».

- «لأنهم تحت التحقيق..».

- «لا أفهم..».

ويعود للرش، ويقول: «ربنا ينجيكم من شرهم».

وكان بين المعتقلين رجل من السويس يتطوع دائماً بخدمات المحتاجين من الضعفاء والمرضى في العنبر، فكان محل ثناء وشكر وتقدير من الجميع.. ولهذا الرجل خمسة من الأطفال وعندما اعتقلوه سقطت امرأته مغشياً عليها، لكنهم ساقوه إلى المعتقل وأوصوا بنقلها إلى المستشفى لإسعافها، ولم يدر هذا المعتقل المسكين أن زوجته قد فاضت روحها. ولم يستطع المعتقلون من السويس الذين اعتقلوا بعده أن يخبروه بالحقيقة حتى لا يزيدهم همًا على همّه، ثم ماذا سيفعل لها ولأولادها إذا علم، لقد ماتت وانتهى الأمر.

في المعتقل رجال ينهشهم الألم، ويستبد بهم الندم حتى يخرجهم عن التفكير السليم، والتصرف العاقل، وكثيراً ما يكون لهم العذر فيما يأتون من أعمال لا تليق بهم كحملة لرسالة عظمى، لكنهم بشر، يتناوبهم الضعف والخوف، ولم يكن الناس في أي يوم من الأيام متساوين في طاقة الصبر

والتحمل، من هؤلاء معتقل كان يعمل ميكانيكياً في الكويت لحسابه الخاص، وقد قضى هناك ما يقرب من أربعة أعوام، وذات ليلة قال لزوجته: «أريد أن أسافر لأرى أمي وأطمئن عليها..». قالت له: «أملك بخير، ويكفى أنك ترسل إليها الراتب الشهري والهدايا والملابس وكل ما تطلبه نوفره لها».

- «لكنها أمي، والمال ليس كل شيء، وأريد أن أزورها».

- «وتتركني وتترك أولادك الأربعة؟».

- «لن أبقى في مصر أكثر من أسبوع».

وأعد حقايبه، واتجه بها إلى المطار، عندما نزل بمطار القاهرة الدولي، وجد رجال المباحث يأتون إليه ويعتقلونه، ثم يسوقونه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، لقد اعتقلوه في عام ١٩٥٤ وأفرجوا عنه بعد أكثر من عام، ثم نسي الأمر تماماً وسافر بعد فترة إلى الكويت، وعاش فيها هادئاً هائئاً مطمئناً، يأتيه رزقه رغداً.. لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يعتقل مرة أخرى، إذ لم يجد أي مبرر لذلك.. عندئذ تذكر نصيحة زوجته التي تنتظره في الكويت، وتذكر أولاده الأربعة، من سيرعاهم وينفق عليهم هناك، وإذا عادوا إلى مصر فمن أين يجدون الرزق الحلال، كان الندم يعضه بأنيابه الحادة التي لا ترحم، وهكذا اعتزل الجميع في ركن من أركان العنبر لا يكلم أحداً ولا يرد على أحد، وخاصة بعد أن أدرك أن فترة الاعتقال لا يعرف أحد نهايتها، عندئذ تناول حذاءه! نعم حذاءه! وأخذ يضرب نفسه به في شبه جنون. «ماذا تفعل يا رجل؟».

- «لا شأن لأحد بي».

- «ثق بالله يا رجل واصبر واحتسب».

- «كنت أعلم أن هذا البلد لم يعد وطناً لي، فلماذا عدت إليه بمحض إرادتي؟!».

- «إنها مشيئة الله، وهو سبحانه لن ينسى عبيده».

- «دعوني أؤدب نفسي».

- «وماذا يفيدك ذلك؟».

- «لا بد أن أتعلم وأتعلم».

وبقي على هذا الوضع أياماً حتى هدأت أعصابه، وسكنت نفسه، ثم انخرط مع الجموع يصلي، ويقرأ القرآن، ويذكر الله ويستغفره، وقال: «إن خالقهم هو المسئول عنهم، وهو الذي سيرعاهم».

ماذا كانوا سيفعلون لو أنا مت هناك في الكويت.. لله الأمر من قبل ومن بعد.. استغفر الله.. سامحني يا رب».

ومن بين الذين اعتقلوا معنا الأخ «صلاح الأنور»، وهو ممن حكم عليهم بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة في عام ١٩٥٥، ثم أفرج عنه في أوائل الستينات، من القرن العشرين، قبل أن يكمل المدة لحسن السير والسلوك، وبعد أن خرج استأنف حياته الجديدة، وأكمل دراسته، والتحق بعمل مناسب، وحاول أن ينسى أيام السجن البغيضة والعمل الشاق في قطع الصخور، وكان كما اعتقد يعيش في حي مصر القديمة (أو العتيقة)، وفوجئ ذات يوم من شهر سبتمبر برجال الأمن يأتون لاعتقاله مرة أخرى، فتذكر أيام التحقيق السوداء في السجن الحربي منذ عشر سنوات، وتذكر القسوة البالغة التي لم تكن تفرق بين مدان وبريء، فلم يستطع أن يتصور العودة مرة أخرى إلى ذلك الجحيم، ولذلك قفز من النافذة الخلفية، وهرب.. فماذا يفعل رجال الأمن؟

لقد اعتقلوا أمه وأخواته البنات ، وهددوا بالفتك بهن إذا لم يأت صلاح الأنور ويسلم نفسه .. واعتقد رجال الأمن أن صلاح ربما يكون سبب هروبه هو ضلوعه فى المؤامرة الكبرى التى تريد - كما يظنون - الإطاحة بجمال عبد الناصر ونظامه ..

وبقى صلاح هارباً لأكثر من أسبوع ، لكنه خاف أن ينفذوا وعيدهم بالاعتداء على أخواته البنات ، فكان أن عزم على تسليم نفسه للسلطات حتى يفرجوا عن الرهائن من النساء .. وسلم صلاح نفسه .

ثم أخذوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، وبدأ معه التحقيق الرهيب الذى لم ير له مثيلاً من قبل ، سألوه عن المؤامرة التى اشترك فيها عشرات المرات ، فنفى علمه بشيء من ذلك ، ظلوا يضربونه حتى تهاوى وكاد يلفظ أنفاسه ، قال لهم : « أريد أن أنام » .

- « لن نسمح لك قبل أن تعترف » .

وفكر صلاح ، وأخذ ينسج من خياله مؤامرة وهمية لا أساس لها ، استلهمها مما كان يقرؤه فى الصحف أثناء هربه ، وزعم أنه اتفق مع سيد قطب على اغتيال الرئيس وهو فى موكبه إلى مقر الرئاسة .. وأنه .. وأنه .. وقال كلاماً كثيراً .. وبعد استكمال التحقيق حول المؤامرة ، بعثوا بالاعترافات الهامة إلى « المخابرات » ونام صلاح بعدها نوماً عميقاً .. وأكل وشرب .. بل إنهم قدموا له كوباً من الشاي المضبوط ... وحينما أفاق صلاح وجد أن ما قاله (وهو كذب فى كذب) قد يوصله إلى حبل المشنقة ، فضلاً عن أنه سوف يورط آخرين ممن ذكر أسماءهم ادعاء وظلماً ، ولهذا قرر صلاح التخلص من حياته ، فقد كان فى حالة نفسية سيئة جداً ، وقفز إلى أعلى ، وكسر زجاج النافذة الصغيرة ، وأمسك بالزجاج المكسور ليقطع شريان يده ، لكن العسكر فى الخارج سمعوا الضجة فهرولوا إليه وأمسكوا به دون أن يلحق بنفسه أذى . سألوه : « لماذا تحاول الانتحار ؟ » .

- « لأتخلص من حياتى » .

- « والسبب ؟ » .

- « المؤامرة » .

- « ماذا فيها ؟ » .

- « لا أساس لها من الصحة .. » .

- « لقد اعترفت ووقعت .. » .

- « كنت أريد أن أنام .. » .

وتم ترحيل صلاح الأنور إلى السجن الحربى متهمًا بالاشتراك فى المؤامرة الكبرى ، وهنا أنكر الجميع صلتهم به ، وأنكروا كل ما جاء فى اعترافاته ، وشرح صلاح للمخابرات كيف أنه ألف تلك المؤامرة حتى ينجو من التعذيب البشع الذى ظل يعانى منه طوال ثلاثة أيام حتى كاد يموت ..

وضحك رجل المخابرات ، وأمر ببطلان اعترافاته ، وإعادته إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، ليعيش مع المعتقلين المحجوزين تحت التحفظ ..



[٥] السجون السبعة ونهاية المطاف

عندما أعود إلى الماضي خاصة عام ١٩٥٥ أذكر أن أول سجن دخلته كان السجن الحربى ، أما السجن الثانى فقد كان سجن مصر « قره ميدان » ، وبعده فى أواخر عام ١٩٥٥ تم ترحيلى إلى سجن أسيوط وهو السجن الثالث ، وبقيت فى هذا السجن حتى أغسطس ١٩٥٧ على ما أذكر ، وبعده انتقلت إلى سجن القناطر الخيرية وهو السجن الرابع ، وعدت مرة أخرى إلى سجن القاهرة حيث تم الإفراج الأول عنى منه . وفى عام ١٩٦٥ جئت مرغماً إلى أوردى أبوزعبل وهو السجن الخامس ، ثم إلى معتقل أبوزعبل الجديد الذى أكتب عنه الآن ، أما ذهابى إلى السجن السابع والأخير فقد كان فى عام ١٩٦٦ وهو سجن « مزرعة طرة » .



هذه هى السجون السبعة التى تقلبت فيها على أحر من الجمر ، وكان لكل سجن مذاقه الخاص وسجنائه وإدارته ، لكن المعاملة بالطبع بالنسبة للسجين أو السجن السياسى أسوأ معاملة ، على الرغم من التصريحات الرسمية الكاذبة التى تدعى المعاملة الإنسانية للسجناء ورفضها للتقارير الصادقة التى تصدر من منظمة حقوق الإنسان العالمية ، على الرغم من أن تلك التصريحات تصدر على أعلى المستويات ، وبالنسبة لى شخصياً فأنا لا أنكر أننى عوملت معاملة طيبة ، بعد أن نلت الجوائز الأدبية ، وتحدد وضعى بشكل عام ، لكن هذا لا ينفى ما تعرضت له فى جحيم المعتقل الحربى ، وفى أيام التكدير بالسجون المدنية التى لم تكن تستثنى أحداً أبداً ، هذه الحقائق واضحة من خلال السطور التى كتبتها فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب ، وسترى فيما بعد كيف أن وسائل الإرهاب البدنى والنفسى لم تكف أبداً ..

أعود مرة أخرى إلى معتقل أبوزعبل الجديد ، فقد تدهورت حالتى الصحية ، وأصبحت ببواسير نازفة ، أفقدتني الكثير من الدم ، حتى بدا وكأنى مصاب بالأنيميا (فقر الدم) ؛ إذ لم يكن العلاج متوفراً ، بالإضافة إلى التهاب مفاصل الركبتين ، واضطراب وظائف الكبد مما يقتضى إجراءات علاجية ووقائية لا بد من اتخاذها ، ولقد ازداد خوفى من وضعى الصحى بعد أن شاهدت المعتقل « مدبولى » وهو مدرس لغة إنجليزية فى بنها ، وكان وحيد أبويه ، أصيب بنوع من الحمى طال أمدها ، وكلما عرض على الطبيب أعطاه بضعة أقراص أسبرين حتى تدهورت حالته تماماً ، وفى اللحظات الأخيرة نقلوه إلى مستشفى سجن طرة ، ويقول الطبيب الذى استقبله هناك : « رأيت جثة تتحرك وتحمل حقيقة » .

وفعلًا مات مدبولى ، وقد أثبت تشريح الجثة أنه كان مصاباً بالتيفوئيد ، الذى سبب له ثقباً نازقاً فى الأمعاء ، تلك حالة من الحالات التى عايشناها ، وكانت قلوبنا تتمزق أسى أمام هذه المشاهد المحزنة .

من هنا كان لا بد أن أبذل أقصى الجهود لكى أنتقل من هذا المكان الكئيب إلى معتقل آخر قد تتوفر فيه الرعاية الصحية الأفضل حفاظاً على حياتى ، وانتظرت اليوم الذى يأتى فيه الطبيب إلى معتقل

أبوزعل الجديد، وطلبت النزول للعرض عليه، وشاء الله سبحانه أن يوافق الضابط ويكتب اسمي في القائمة، ولما قابلت الطبيب (وهو حكيمباشي مستشفى الشرطة التي سبقت الإشارة إليه) قام بفحصي بدقة، ورقق الله قلبه، ووعدني بكتابة تقرير طبي للداخلية يطلب فيه نقلي إلى منطقة طرة كى بتيسر إجراء جراحة البواسير لى، على أساس أنها عملية مستعجلة بسبب النزيف الذى يهدد حياتي، وكان عليّ أن أنتظر الرد على التقرير ما يقرب من أسبوعين، لدرجة أنني يئست من الموافقة على نقلي إلى طرة، وفوجئت فى إحدى الليالي بالضابط المناوب ينادى اسمي فى الميكروفون، فأصابني الاضطراب المعتاد، والقلق النفسى الذى أصبح رفيقاً لى أهد الدهر، وليس فى السجن وحده، لكنى هدأت حينما أخبرني بأن أجمع حاجاتي واستعد للرحيل إلى معتقل «مزرعة طرة»، وأخذ إخواني يهتفوننى ويودعوننى بحرارة، بل إن الدموع تقاطرت من أعين البعض ومن عيني أيضاً، لكنى كنت سعيداً بهذا الرحيل فقد قيل أن المعاملة هناك أفضل، على الرغم من سوء المبانى، ورداءة دورات المياه ..

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل، ونزلت من العنبر فى الدور الرابع، ووضعت الأغلال فى أيدينا، وكنا ثلاثة على ما أذكر، وكان من بيننا شاب فى هيئة التدريس بكلية العلوم يعانى من شلل نصفى مفاجئ فى هذه السن المبكرة، وأعتقد أن اسمه الدكتور محمود عاصى، ولست أعرف شيئاً عن مصيره بعد ذلك.

وركبنا سيارة السجن، وانطلقت بنا تحت الحراسة المشددة فى الطريق المظلم، كانت يمنأى مقيدة مع يسرى أحد العسكر حتى لا نفر أو نقاوم .. هكذا تصوروا الأمر .. وأخيراً وصلنا إلى ميدان محطة باب الحديد بالقاهرة حوالى الساعة الثالثة صباحاً .. كان الميدان فى هذا الوقت يكاد يكون خالياً إلا من نفرين أو ثلاثة .. لكأنى اشتقت للقاهرة .. للدنيا .. للناس .. إننى أنظر إلى الأماكن فى حنان وشغف، وأتذكر الأيام الخوالى حينما كنت أقطع هذا الميدان سيراً على الأقدام، كى أذهب إلى محطة قطار «كوبرى الليمون» التى ينطلق منها القطار إلى محطة أبوزعل والمدينة السكنية وشبين القناطر، أو أذهب إلى محطة مصر لأذهب إلى طنطا أو الإسكندرية .. وأنظر فأرى الدنيا كما هى .. الشوارع .. المبانى .. قضبان السكك الحديدية، هناك فى طرف الميدان المقهى الذى كنت أستريح فيه أحياناً وأشرب كوباً من الشأى .. وعلى اليسار شارع الفجالة .. نعم فى بدايته «مكتبة مصر» التى طبعت فيها أول رواياتى الفائزة .. وهى رواية «الطريق الطويل»، لكن مديرها الأستاذ غريب، وصاحبها سعيد السحار لا يوجدان الآن، فالأبواب مغلقة .. لكن كتابي ما زال كالعهد به معروضاً فى «الفتريفة» فى طبعتين: طبعة خاصة بالمدارس ..، طبعة عامة ..

وسمعت الحارس الذى قيدت يدي بيده يقول: «ألا تريد شيئاً؟» .

- «أشكر» .

- «ألا تحب أن تبلى أهل بيتك بأى شئ؟»

ورأقت لى الفكرة، إنهم لا يعرفون شيئاً عن مكانى أو حالتي، وأعتقد أنه من المفيد أن يعرفوا أننى فى معتقل مزرعة طرة، حتى يكفوا عن البحث عنى فى مختلف المعتقلات المنتشرة هنا وهناك، كما طلبت منه أن يخبرهم بأن يرسلوا إليّ بملابس داخلية عن طريق وزارة الداخلية، وليس عن طريق المعتقل مباشرة، إذ المفروض ألا يعرفوا مكانى . ولا بأس من إرسال بعض الأدوية المقوية والكولونيا، وهى أشياء مسموح بها .. وأخرج العسكرى ورقة وكتب العنوان ..

وطال الطريق، وكنت أتمنى أن يطول، حتى نرى مزيداً من الدنيا، وننهل من معين الحياة

الطبيعية، وأخيراً وصلنا إلى معتقل مزرعة طرة وقت الفجر، وما إن دلفنا عبر البوابة حتى استقبلنا ضابط طيب سمح الوجه اسمه « فتحى طلبة » من مدينة بنها، كان ييش لنا، ويتسم فى وجوهنا وهو شىء لم نألفه منذ شهور، كانت معاملته تتم عن أصالة وكرم، وسأل عنى فتقدمت إليه، فأخبرنى أن هناك مجموعة من الإخوان طلبوا أن أنزل معهم فى عنبر الملاحظة الطبية، وذكر لى بعض الأسماء وكنت أعرفهم جميعاً، ففرحت واستبشرت خيراً، وبعد أن سجل أسمائنا وساعة وصولنا أخذنا إلى العنابر التى سننزل بها، وفى العنبر إياه، استقبلنى أخى الأستاذ الدكتور إبراهيم الصياد، والحاج منصور موسى تاجر الذهب، والحاج عبد العزيز عبد الجواد (الشهيد الحى) زميلنا السابق فى سجن أسبوط، والبنهاوى بك أحد كبار الشخصيات العامة، وشوقى كحلة أستاذ اللغة العربية، وسجين الواحات السابق، وكنت قد التقيت به قبل ذلك، وهو مريض بتليف الكبد الآن، ويعانى من الاستسقاء البطنى والضعف الشديد، والدكتور عبد العزيز إسماعيل، والساعاتى الخفيف الظل عبد المنعم قنديل (وله محل إصلاح ساعات فى الدقي) ويتميز بجمال الصوت وحب المرح والضحك، وأخونا الذى يعانى من مرض الصرع « سالم »، وغيرهم كثيرون.. وصلينا الفجر جماعة، وأحضروا لنا طعاماً شهياً، ثم نمنا على أسرة حشايها من القش، لكنها كانت مريحة جداً إذا ما قورنت بالبرش الذى كنا ننام عليه فى المعتقلات والسجون السابقة، ولم أستيقظ إلا فى الثامنة صباحاً، وحوالى العاشرة صباحاً نادوا على اسمى فذهبت إلى طبيب المعتقل وهو الدكتور خليل أيوب خليل، الذى استقبلنى بترحاب، وفهمت أن لديه فكرة كاملة عنى، وكم كانت فرحتى عندما التقيت بعدد آخر من الأصدقاء القدامى، منهم الدكتور ماهر حتوت (رئيس اتحاد المسلمين الآن فى كاليفورنيا بأمريكا، ويحمل الجنسية الأمريكية، ويعمل أستاذاً للقلب بإحدى الجامعات هناك) كما قابلت الأخ اللواء كمال عبد الرازق زوج السيدة الأستاذة كريمان حمزة مديعة البرامج الإسلامية الشهيرة، والأستاذ محمد الفوال أحد زعماء الطلبة بجامعة القاهرة قديماً، والدكتور حسين عبد الدايم أستاذ الأشعة بالقصر العينى، والأستاذ الداعية والكاتب المعروف د. عبد الودود شلبى، وكثيرون غيرهم.

كان وزنى قد نقص كثيراً ربما حوالى عشرين كيلو جراماً، وبدأ الطبيب العلاج الدوائى. ولم يدخر وسعاً فى توفير الراحة لى، وذات يوم قال الدكتور خليل:

« إن لك شعبية كبيرة فى بيتنا ».

لم أفهم ماذا يقصد بهذه الكلمات، ولهذا شكرته بكلمات مقتضبة، لكنى عدت أسأله: « بأى مناسبة ».

قال: « لقد نشرت مجلة « الكواكب » صورة لك، وصورة للمثلة « فاتن حمامة » واستعرضت المجلة رواية لك اسمها « الربيع العاصف »، وقد رشح كاتب المقال الأستاذ الشاعر الصحفى « كمال النجمى » الرواية للإنتاج السينمائى، واقتراح أن تكون فاتن حمامة بطله القصة .. ».

ودهشت لذلك، على الرغم من أننى فرحت جداً، فمثل هذه الأمور تدخل البهجة على نفس المسجون، وتمد له من حبال الأمل والرجاء، ولعله من باب استكمال الواقعة أن أشير إلى أن أحد الصحفيين أخبر الأستاذ كمال النجمى أننى معتقل (ولم يكن يعرف ذلك)، فأصابه شىء من الاضطراب والكدر، وكف عن إثارة الموضوع مرة أخرى حتى لا تشوبه شبهة مجاملتى، وقد علمت ذلك من أخى وصديقى الصحفى الكبير الأستاذ مصطفى نبيل عبد الخالق رئيس تحرير مجلة « الهلال » الشهيرة والعريقة الآن، وذلك بعد أن خرجت من المعتقل.

وصرفت النظر مؤقتًا عن إجراء الجراحة العاجلة بعد أن نجحت العلاجات المبدئية في وقف النزيف المتكرر .

في هذه الفترة التقيت بالعلامة الكبير والمفكر المعروف الأستاذ محمود شاكر - مد الله في عمره - وبقيت إلى جواره طول فترة اعتقالي في مزرعة طرة ، وربطتنا علاقة وطيدة مفيدة . فكان إذا فتح باب العنبر أرى وجهه يطل علينا كأول وجه بعد وجه السجان ، ويهتف بصوته المميز القوي : « نجيب .. نجيب » .

فأقفز من فوق السرير ، وأذهب إليه لنبداً رحلة اليوم في الأحاديث الجميلة ، والمعلومات الوثيقة ، كان بمثابة مدرسة تتحرك ، لديه قناعاته الراسخة التي لا تتزعزع ، وهو محقق تفسير الطبرى الهام الذى أصدرته دار المعارف ، وله كتاب متميز عن المتنبي نال عليه جائزة الملك فيصل الكبرى ، ومن أشهر كتبه « أباطيل وأسما » الذى رد به على ترهات وأكاذيب الدكتور لويس عوض ، كما حقق كتاب « جمهرة نسب قریش » وديوان « ابن الدمينه » وغيره من الكتب الثمينه ، ولقد كان بيته فى شارع الأسود بمصر الجديدة أشبه ما يكون بجامعة كبرى ، تتلمذ على يديه فيه أعداد كبيرة من طلبة الدكتوراه والماجستير فى العالم العربى كله ، وكان صديقاً بل أستاذاً للكثيرين من قمم الأدب والفكر فى مصر وخارجها ، وعلى الرغم من أنه اعتقل ضمن الإخوان المسلمين ، إلا أنه لم يكن عضواً فى الجماعة ، ولقد اعتقل مرتين الأولى - كما علمت - بسبب صداقته للشيخ الباقورى وزير الأوقاف ، وكانا يسهران معاً ، وكان الأستاذ شاكر يروى بعض « النكات » والتعليقات التى تمس الثورة وشخصية جمال عبد الناصر ، وقد بلغت هذه الأحاديث مسامع الكبار ، فاعتقل الأستاذ محمود شاكر وعدد من الرجال معه منهم الكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، والأستاذ محمد عطا ، أما الأستاذ الباقورى فقد أعفى من منصب الوزارة ، وحددت إقامته فى بيته ، وخرج الأستاذ شاكر من المعتقل ، وتصدى لكتابات « لويس عوض » ، مما ساهم فى إعادة اعتقاله مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ .

أقول إن محمود شاكر كان موسوعة علمية متحركة ، ولقد روى لى الكثير عن قصة حياته مما لا يتسع المقام له هنا .

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس معه لنلعب الطاولة (الترد) ، وهى مصنوعة من لباب الخبز ، وكان يحتشد حولنا مجموعة من المشجعين له ولى ، وكان من أكبر المتحمسين له الأخ المعتقل « مصطفى كمال » شقيق الإخوانى الشهير الشاب « على صديق » ، وكان مصطفى حليق الرأس مثل « يول برانير » الممثل العالمى ، ومن شدة غيظى منه كنت أسميه « المأجور الأقرع » وكان الأستاذ شاكر يضحك من أعماقه عند احتدام معركة الطاولة بينى وبينه ، ويلعب دون اكتراث ويقول « دوسى » فىأتى الزهر بالدوسى ، فأتضايق وأهتف فى عصبية : « أنت يا أستاذ شاكر « تقرر » الزهر .. أنت غشاش » .

فيكاد يستلقى على ظهره من الضحك ..

وذات مرة كشف الأستاذ شاكر عن صدره وظهره فوجدته مصاباً بمرض جلدى اسمه « التينيا » ، وكان لابد من إحضار علاج لدهن به جسده ، وكان لدورة المياه « حوش » أو فناء شمس ، فأخذت الأستاذ شاكر إلى هناك ، وليس « مايو » وخلع ملابسه ، ووقف عملاقاً تحت الشمس يبشرته السوداء ، كتمثال من النحاس ، وأحضرت قينة الدواء ، وكان بغطائها فرشاة صغيرة لا تتناسب مع حجمه وطوله الفارع ، فكننت أغمس الفرشاة فى الدواء ، ثم أدهن بها جسده قطعة قطعة ، والمارون بنا من المعتقلين يتسمون ، ويكتمون ضحكاتهم .

كان الأستاذ شاكراً مشهوراً بنقده الشديد للاذع للإخوان المسلمين، وكثيراً ما يستعمل بعض الألفاظ النابية الجارحة (وهذا هو عيبه الأساسي)، وعلى الرغم من مكانته كأستاذ كبير، ووضعى كواحد من أبنائه، فهو فى مثل سن أبى تقريباً، إلا أنى كنت أكيل له الصاع صاعين، ولم يكن يغضب منى أو يخاصمنى بل كان يضحك، ويتهمنى بالغفلة وحسن النية ..

قال له أحد الإخوان : « أنت يا أستاذ شاكراً تسب الإخوان وتشتتهم، ولهذا كان عقاب الله لك أن تسجن معهم .. » .

فيرد شاكراً : « أمثالك هم سبب المصائب، ولن أغير رأى » .

ومع ذلك فقد كنت أجل الرجل وأحبه وأحترمه، ونقضى معظم الوقت - ومعنا مجموعة من الإخوة الأفاضل - فى الحديث وتبادل الآراء والأفكار، بروح ودية طيبة .

اقرب عيد ميلادى الخامس والثلاثين (أول يونيو)، وهو أمر عادى جداً لا أتوقف عنده طويلاً، لكننى فوجئت باسمى يتردد من خلال مكبر الصوت « المعتقل نجيب الكيلانى » وأنا أخاف مكبر الصوت، ولا أريد أن يتردد اسمى فيه .

وجاء العسكرى، وصحبنى إلى « المكاتب » فى الإدارة خارج العنبر، وأنا أضرب أحماشاً فى أسداس، وأتساءل بينى وبين نفسى : لماذا يريدوننى فى هذا الوقت بالذات ؟ هل جد جديد ؟ هل انكشف مستور يستدعى التحقيق معى ؟ أنا واثق أننى لم أرتكب أمراً يعاقب عليه القانون .. حتى القوانين الاستثنائية أو العسكرية لا يمكن أن تديننى بشئ، ومع ذلك فأنى أشعر بالخوف .. ذلك الخوف المزمع الذى استشرى فى كيانى وحياتى ومجتمعى منذ سنوات، والذى يبدو وكأنه مقيم معنا حتى نلقى الله ..

وجدت قائد المعتقل، والضابط الطيب أيضاً فتحنى طلبة، وعدد آخر من الضباط وضباط الصف .

قال أحد الضباط ساخراً : « مبروك عيد ميلادك » .

لم أكن أتذكره، ولا فكرت فيه، وبدت الحيرة على وجهى، قال فتحنى طلبة بابتسامته المعهودة : « زوجتك أرسلت عن طريق الداخلى غلبة من حلويات « التوفى »، وصندوقاً صغيراً من الملبس، هدية لك بمناسبة عيد ميلادك، ومعهما بطاقة تهنئة .. لكنك تعلم أن مثل هذه الأشياء ممنوعة .. » .

وعرضوا على الأشياء المرسلة لى، ثم قال الضابط فتحنى : « سوف نحفظ بها فى المخزن، وسنعطيها لك عند خروجك، أو فى الوقت الذى تأذن فيه « المباحث العامة » .. » .

وشكرتهم وعدت إلى العنبر مسرعاً، وأنا فى قرارة نفسى أشعر بشئ من الغضب والضرر، ذلك لأن زوجتى ما كان لها أن تفعل ذلك، فى هذه الأوقات العصيبة التى تجرى فيها المحاكمات على قدم وساق، والأمور تبدو فى غاية السوء، وتذكرت قول المتنبى :

عيد بأية حال عدت يا عيدُ

بما مضى أم بأمر فيك تجديدُ

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيداً دونها بيدُ

عندما عدت إلى الإخوة فى العنابر، أخذوا يضحكون، وكذلك فعل الأستاذ شاكراً الذى أخذ يضرب كفاً بكف، ويعلق بعبارة يقصد من ورائها التخفيف عني، ولم أكن أعلم أن هدية عيد الميلاد

هذه سوف تجر عليّ متاعب تستمر أكثر من شهر، وبالتأكيد لو أن زوجتي كانت على دراية تامة بما يجرى خلف الأسوار لما فعلت ذلك، فهي طيبة القلب، حسنة النية، لا تستطيع أن تتصور وجود إنسان مهذب محترم يعتدى على حقوق زوجها الذى تعرفه جيدًا. وتعرف أنه لا يستحق إلا التكريم والمعاملة الطيبة، هذا هو تصورهما ..

بعد أسبوع من هذه الواقعة تردد اسمى مرة أخرى فى مكبر الصوت .. يا إلهى ! ! ماذا هناك . أصبحت لا أطيق سماع هذا الصوت ..

أثناء سيرى مع العسكرية إلى المكاتب قال : « سيحققون معك » .

- « يا خبير أسود ! ! لماذا ؟ » .

- « لا أعلم .. لكننى سمعتهم يقولون ذلك » .

أصابنى ما يشبه الدوار، لكننى تحاملت ومضيت فى طريقى كأنى أسير فى حلم .. أعنى فى كابوس من كابوس الطفولة المربعة التى ظلت تلازمنى حتى اليوم .. ما هذا العناء يا ربى ؟ أليس له من نهاية ؟ لقد ضاق صدرى ولم أعد احتمل أكثر من ذلك، لكننى تذكرت إخوة لنا يعانون الأهوال، ولا يجدون فرصة للنوم الكافى، ولا الطعام الكافى، وينتظرون حكم القضاء فيهم، عندئذ استعذت بالله من الشيطان الرجيم، واستغفرت الله، ودعوته من كل قلبى أن يكون إلى جوارى ولا يتخلى عني أبدًا، رحمة بى ورأفة .. ووصلت إلى المكاتب .

قابلنى ضابط نحيف نسيت اسمه، كان يجلس خلف مكتبه ومعه قلم وأوراق ..

سألنى : « اسمك .. سنك .. وظيفتك .. » .

- « ... » .

- « كيف عرفت زوجتك أنك فى معتقل مزرعة طرة ؟ » .

- « لا أعرف » .

- « ألم ترسل إليها خطابًا ؟ » . « كلا، وكيف يكون ذلك ؟ » .

- « أليس لك أقرباء فى إدارة المعتقل ؟ » .

- « كلا .. » .

- « ولا فى كتبة الحراسة ؟ » .

- « أبدًا .. » .

- فكيف إذن عرفت أنك فى معتقل مزرعة طرة، بدليل أنها كتبت على طرد هدية عيد الميلاد

عنوان المعتقل ؟ إن رجال المباحث فى الداخلية طلبوا التحقيق فى هذا الموضوع ...

إذا لم تجب على سؤالى، فسوف يستدعون زوجتك ويحققون معها فى الداخلية .. وأنت تعرف أن ذلك أمر غير مريح لك ولها ..

ووقفت حائزًا لا أدري بماذا أجيب، وبرقت فى ذهنى فكرة .. سوف يكون فيها النجاة لى، إذا واقتنع بها المحقق واقتنع ضباط المباحث فى مقر وزارة الداخلية .

قلت للضابط : « ربما تكون زوجتى قد قابلت أحد المفرج عنهم، وأخبرها عن المعتقل الذى أنزل

فيه » .

- « حسنًا، فمن يكون ذلك الشخص ؟ » .

- « لا أدري » .

- « أذكر لي من تعرف من المفرج عنهم » .
- « هم كثيرون ، ولا أعرف أحدًا منهم » .
- « فكيف إذن لا تعرفهم ثم يخبرون زوجتك بمكان وجودك ؟ » .
- « الأمر بسيط .. أنا رجل مؤلف .. أكتب في الصحف والمجلات ، ونشرت عددًا من الكتب ، وأغلب الإخوان يعرفونني ، وأنا لا أعرف إلا قلة منهم » .
- وانصرفت إلى عنبري ، والضيق يستبد بي ، أما لهذا القرف من نهاية ؟ هل هي جريمة أن يعرف أهلي أين أسجن ؟ أليس من حقى أن أرسل أهلي ؟ أليس من حقهم أن يزوروني وأستقبلهم ؟ ولا يمكن لأى إنسان عاقل أن يجد مبررًا لهذا التعنت من قبل السلطة .
- وبعد أسبوع آخر ، سمعت مكبر الصوت يقول : « المعتقل نجيب الكيلاني » هتفت دون وعى ، وبصوت عالٍ يسمعه إخواني :
- « يادى الداهية السودا » .
- وجاء العسكرى ، وصحبني إلى المكاتب الكريهة ، الضابط ويده قلمه والأوراق وسين وجيم كالعادة ، شد انتباهي قول الضابط : « بسؤال زوجتك قالت إن رجلاً أتى إلى المنزل وأخبرهم أنك فى معتقل مزرعة طرة ، فمن يكون ذلك الرجل ؟ » .
- يا إلهى ، لقد وقع المخطور وتعرضت زوجتى - كان الله معها - للتحقيق وهذا ما كنت أخشاه ، لقد تأملت لذلك بشدة ، لأنها ليست ذات خبرة بالأعياب المحققين وحيلهم ، فقد تفلت منها كلمة دون قصد وتسبب لى ولها مشاكل لا يعلم إلا الله مداها ، قلت للمحقق : « لا أعرف شيئًا عن ذلك » .
- رد المحقق بجفاف :
- « إذا لم تعترف ، فسيتم ترحيلك إلى سجن القلعة ، وأنت طبقًا تعرف ماذا فى سجن القلعة » .
- « نعم أعرف ، وأقسم لك أننى لا أعرف أحدًا ذهب إليها فى عنوانها .. وما زلت أرجح أن أحدًا من الذين أفرج عنهم ربما تطوع بذلك » .
- « هل كان لك أقارب ضمن المعتقلين » .
- « نعم » .
- « من ؟ » .
- « الشيخ محمد كامل ، خال زوجتى ، وهو مدرس بالمعهد الثانوى الدينى بطنطا ، ويعانى الشلل النصفى منذ عامين ، وقد تخطى الستين من عمره ، وهناك أيضًا أحد أحوالى واسمه الحاج محمد محمد الشافعى فى سن الستين أيضًا ، ولم ألتق بهم فى المعتقل ، وقد أفرج عنهما بعد شهرين من اعتقالهما ، وكانا يعلمان أنى معتقل مثلهما .. » .
- وطلب منى التوقيع على المحضر ، ثم انصرفت ، وأنا أدعو الله من أعماق قلبى أن يصرف عنى هذه المضايقات السخيفة التى تؤرقنى ، والتى لا معنى لها سوى تعنت المسئولين .
- وفى كل مرة ينطلق اسمى من مكبر الصوت ، تصيح مجموعة من إخوانى فى العنبر وتقول معى « يادى الداهية السودا » وينفجرون ضاحكين ، بينما أكاد أنفجر غضبًا ، لقد أصبح الأمر مادة للضحك والسخرية من إخوانى ، ومع ذلك فقد بقيت مهمومًا طوال شهر كامل ، وكلما استدعوني أعادوا نفس الأسئلة ، وأنا أكرر نفس الأجوبة ، حتى نفذ صبرى ، إلى أن جاء يوم وسمعت اسمى فى مكبر الصوت ، وذهبت مع العسكرى إلى المكاتب ، لكنى هذه المرة لم أجد محققًا أو تحقيقًا ، بل وجدت

الضابط الطيب فتحى طلبة يستقبلنى بابتسامته قائلاً: «لقد وافقت المباحث أخيراً على أن نسلمك هدية عيد الميلاد بعد تفتيشها بدقة».

وفعلًا أحضروا علبة «التوفى» وفتحوها واحدة واحدة، ولمَّا تأكدوا خلوها من أى رسائل مخبأة فيها، سلموها لى، كما سلمونى علبة «الملبن»، وعدت بهديتى إلى العنبر، واستقبلنى إخوانى بالتهنئة، وزفونى من باب المبنى إلى العنبر الذى أقيم فيه، وكان من الواجب أن أوزع التوفى بواقع اثنتين لكل معتقل، أما الملبن - نظرًا لقله كميته - فقد تم توزيعه على عدد قليل من الإخوة القريبين منى، ولذلك فإن الإخوة بعد ذلك كانوا يمزحون قائلين: «إيوه ياعم.. ناس لها ملبن، ناس لها «توفى» ..».



من الأمور المؤلمة، أن زوجتى بعد أن علمت بوجودى فى معتقل مزرعة طرة انتهزت فرصة مجيء عيد الأضحى المبارك، فقررت أن تقوم بزيارتى، فأعدت لى وجبة غذائية دسمة من النوع الذى أحبه، مكونة من الحمام المحشو بالفريك، ومحشى ورق العنب ولحم البوفتيك، وهى تعلم أنني حرمت من هذه الأطعمة منذ اعتقلت، ولقد أخبرتنى أنها أخذت أولادى الثلاثة وقصدت المنطقة التى يكون بها المعتقل، وفوجئت بعدد كبير من الجنود المسلحين يحرسون المكان، واقترب منها ضابط كبير وقال: «إلى أين؟».

- «جئت لأزور زوجى المعتقل».
- «ارجعى فورًا، لأنك لو تقدمت أكثر من ذلك فسيطلق عليك الرصاص».
- «لماذا؟».
- «تلك هى الأوامر، وأنت - على ما يظهر - سيدة مثقفة، والمسألة خطيرة».
- «خطيرة؟».
- «نعم، ويجب أن تنصرفى فى الحال، ويجب أن تنسى أيضًا أن لك زوجًا ..».
- «يا مصيبتى !!».
- «تلك هى الحقيقة المرة .. انصرفى بسرعة».

وعادت زوجتى بأطفالها وطعامها إلى بيت أبيها فى حى «السيدة عائشة» ثم ألقت ما معها من أوانٍ، وشهقت باكية، إن كل ما أَلَمها، هو كلمة الضابط لها: («يجب أن تنسى أن لك زوجًا») ما معنى ذلك؟

كنت أعلم مدى المخاطرة التى أنا مقدم عليها، لقد كنت قلقًا على زوجتى وأولادى، وسمعت أن هناك سجنًا يستطيع أن يأخذ منى خطابًا، ويسلمه لزوجتى ثم يأتى بالرد، وذلك مقابل خمسة جنيهات، وقررت أن أبعث بالرسالة لأطمئن عليها وعلى الأولاد، وعلى وضعهم المالى والأمنى، وحاولت أن أكف عن هذه المحاولة، لكن دافعًا قويًا كان يهتف بى أن أستمِر فى طريقي، وليكن ما يكون، وتمت المغامرة، أو قل المقامرة، وتسلمت الرد، وكنت به سعيدًا لأن الأخبار التى وردت فى الخطاب كانت مطمئنة للغاية، الشيء الوحيد الذى أخفته عنى زوجتى هو وفاة أبيها، رحمه الله، فى مستشفى العجوزة، بعد أن تدهورت حالته الصحية عقب اعتقالى .. جاءنى طرد ملابس داخلية، وبضع قطع الصابون، وعدد من المناديل، وأثناء التفتيش عثر العسكري على خطاب من زوجتى

ملفوف حول قطعة صابون ، ومن حظي الطبيب أن المشرف على التفتيش كان فتحى بك طلبه ، الذى انتظر حتى خرج العسكرى ، ثم سلم لى الخطاب لكى أقرأه بسرعة ، كى يأخذه بعد ذلك ، ثم يمزقه فى حضور العسكرى مخافة أن يشى به العسكرى .

وفى يوم مشثوم طلبت الإدارة من جميع المعتقلين الخروج إلى فناء المعتقل الواسع كى نستمتع بالشمس ، ونجربى ونلعب حتى نشبط ، ويزول الصدا الذى ران على مفاصلنا ، وكان الأمر ملفئاً للنظر ، ولم يطل بنا التفكير ، فقد علمنا أنه تم تنفيذ حكم الإعدام فى الأستاذ سيد قطب وزميليه محمد يوسف هواش ، وعبد الفتاح إسماعيل ، والتزمنا الصمت وأخذنا نجربى ونتحرك كالدمى ، كان الأمر محزنًا ، وكان بيننا ابن أخت الأستاذ سيد رحمه الله ، وظل صامتًا مثلنا لا يعلق بشيء ، وعلى فمه ارتسمت ابتسامة غريبة يصعب تصويرها أو تفسيرها .

فى اليوم التالى دخل المعتقل وافد جديد اسمه سيد كيلانى وهو لا يمت لى بصلة قبرى ، ولم يكن من الإخوان المسلمين ولا من الشيوعيين ، ولا من الوفديين (وكان بالمعتقل عدد من الوفديين الذين اعتقلوا أثناء جنازة النحاس باشا ، كان الرجل يبدو مذهولاً مأخوذاً بما يراه ، سألناه لماذا اعتقلوك ؟ .

قال : « لقد ألفت كتاباً أدافع فيه عن الوفد ، وعن معاهدة ١٩٣٦ ، وقلت فيه لولا هذه المعاهدة لما دخل جمال عبد الناصر الكلية الحربية ، وكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة .. طبعت من الكتاب ألفين فقط .. على نفقتى الخاصة .. استولوا على الكتاب ، ومنعوني من توزيعه ، واستدعوني للتحقيق . ثم قالوا لى سوف نأخذك معنا خمس دقائق فقط .. ثم أتوا بى إلى هذا المكان ، وتركونى وذهبوا .. خلعت بدلتى ، ثم ألبسونى هذه « الهلاهيل » الكالحة .. حتى لكأنى مجرم .. » .

ثم ضحك فى شيء من السذاجة وقال : « جعلونى مجرمًا .. أظن أن هذا اسم فيلم سينمائى .. » . ثم التفت وقال : « ومن أنتم ؟ » .

- « معتقلون على ذمة قضية الإخوان المسلمين » .

- « الله أكبر .. إذن اعتبرونى أنا أيضًا « مرابطاً فى سبيل الله » .. كانت حياتى فارغة .. لا زوجة ولا أولاد ولا وظيفة .. أعيش فى كفالة أخى تاجر الأقمشة .. نلت ليسانس الآداب ، وعينت فى دار الكتب ، لكن توفيق الحكيم الكاتب الكبير كان مديرًا للدار بعد الثورة وقد عاملنى معاملة سيئة .. ثم فصلونى .. تلك قصة حياتى باختصار .. أنا لست حزينا لوجودى فى هذا المكان .. أنا مرابط فى سبيل الله » .

وأخذ يضحك ، وينثر الطرائف ، ونحن نشاركه الضحك ، كان فى الحقيقة شخصية بسيطة مرحة ، يأخذ الأمور أخذًا هيئًا ، ولا يندم من أجل فقدان شيء ، ولا يكثر لما يأتى به المستقبل ، ومن آن لآخر يقول : « إن معاهدة ١٩٣٦ هى التى فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر ليدخل الكلية الحربية ، ولولا ذلك لكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة ، ألا تصدقوننى ؟ هذه حقيقة ، لم يكن باستطاعته أن يقوم بانقلاب عسكرى وهو موظف مدنى ، ثم لماذا يغضبون منى حينما أقول ذلك ؟ » .

وسرعان ما تأقلم سيد كيلانى معنا ، لقد بدأ يتعود على الصلاة ، ويتقبل الطعام الذى نأكل منه ، ويشارك فى أحاديثنا المختلفة حتى أصبح واحدًا منا ، وكان الأستاذ محمود شاكر يسعد لوجوده ، ويحب أن يستمع إلى أحاديثه وأفكاره البريئة الجريئة ..

وفى إحدى الليالى دخل شاب إلى أحد العنابر ، كانت تبدو عليه آثار النعمة والنظافة الزائدة ، شعره أسود لامع منسق ، عيناه سوداوان واسعتان ، لكنهما قلقتان ، وعلى وجهه الخلق مسح من

وسامة، أخذ ينظر إلى العنبر المزدهم بشيء من الدهشة والاستغراب، كان سكان العنبر يجلسون صامتين تحت ضوء المصباح الكهربائي الخافت، وخطا بضع خطوات حتى أفسحوا له مكانًا يجلس فيه، وجلس وهو يلتقط أنفاسه، وبعد أن هدا قليلًا سأل: «من أنتم؟».

رد جاره قائلاً: «معتقلون من الإخوان المسلمين...».

هز رأسه وقال: «لقد ظننت في البداية أني نزلت مستشفى للأمراض العقلية...».

ضحك الرجال القرييون منه، فاستطرد: «والله العظيم حسبتمكم مجانين في البداية، لأنني رأيتمكم تجلسون وكأن على رؤوسكم الطير، وترتدون زيًا موحدًا كالحا، وتنظرون إليّ نظرات غريبة...».

سأله أحدهم قائلاً: «من أنت؟».

- «دكتور ح. م. ع.».

- «ومن أين أتيت؟».

- «من ألمانيا رأسًا، كنت في بعثة علمية هناك، أنا خريج كلية الزراعة، ونلت درجة الدكتوراه من ألمانيا، وبعدها حزمت حقائبي، واشترت سيارة «مرسيدس» من مدخراتي، وأخذت زوجتي وركبنا سيارتنا حتى إيطاليا، ثم ركبنا البحر من إيطاليا إلى الإسكندرية، وما إن أنهينا إجراءاتنا في الميناء حتى قدم رجال الأمن وقبضوا عليّ».

سأل أحد المعتقلين: «وهل أنت من الإخوان».

- «لا، ولا أعرف عنهم شيئًا يذكر».

- «فلماذا اعتقلوك إذن؟».

- «إننا لا أهتم إلا بالعلم، وفي إحدى إجازاتي السنوية عزمت على الزواج، وكان لابد أن يتم ذلك خلال شهر، حتى يمكنني العودة وأنا متزوج.. وفعلًا أخذنا نبحث عن عروس مناسبة، وأخيرًا وجدتها، وتزوجنا ثم سافرنا سعداء.. لم أكن أعلم أن عروسي هي إحدى حفيدات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، وحتى لو عرفت ذلك، فماذا يهم؟...».

والآن هل عرفتم سبب اعتقاله؟

هزوا رؤوسهم، ولم يعلق أحد.

وعاد الدكتور «ح» يقول: «شرحت لرجال الأمن موقفى، أكدت لهم أني لا أعرف شيئًا عن الإخوان، ولا عن مرشدكم، وكوني تزوجت من إحدى حفيداته لا يعنى أني متهم.. أتدرون ما قال لي الضابط؟ لقد أخذ يفقهه ويقول لى: تصوّر أنك تسير في الطريق، ثم يسقط فوق رأسك حجر من أحد البيوت دون قصد، فماذا ستقول ويقول الناس؟ سيقولون: هذا قضاء وقدر، وعليك أن تصبر.. فكيف أصبر وأنا غير مقتنع بما يجرى ويحدث، إن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث في ألمانيا.. هناك يحترمون حقوق الإنسان وحرية، لقد حاولوا إغرائى بأن أبقى معهم وأحصل على الجنسية، لكن حبي لوطني منعنى من أن أتذكر له، وهذه هي النتيجة...».

كان موضوع الدكتور «ح» محزنًا مخزياً. وبقي المسكين بين المعتقلين حزينًا كائناً، لا يستطيع أن يتكيف مع الجو القاتم الذى ألقى به فيه، وكثيراً ما يعزف عن الطعام والكلام، حتى ساءت حالته الصحية، وضعفت بنيته، ونقص وزنه، وحاولنا قدر الإمكان أن نقنع طبيب السجن الدكتور «خليل» أن يضمه في الملاحظة الطبية، حتى يقدم له الطعام الأفضل، والعلاج المناسب، ومن المحزن أيضًا أن مرور الأيام الكثيرة على (ح) في المعتقل قد أثر كثيرًا على نفسيته، مما انعكس على تصرفاته وسلوكه.

ولم يقتنع قط بمعقولية الإجراءات التي اتخذت ضده، وربما لو كان له أدنى علاقة بالإخوان، أو أقدم على بعض التصرفات التي تجلب الشبهة، لوجد الأسباب أو المبررات لما يحدث له، ولشعر بقدر من العزاء، لكن حياته العلمية وانهماكه فيها، لم يفتح له باباً تدخل إليه منه المعرفة الحقّة بأعاجيب السياسة وبلائها وعجائبها، وفي ألمانيا لم ير سوى الوجه المشرق للحياة وحقوق الإنسان التي يحترمها الجميع، ولم ير إلا معاهد العلم الجادة، ومختبراتها المتطورة، وأساتذتها الأجلاء، رآهم هناك يقدسون العلم وحرية البحث، ولا يقدسون السلطة، ولكن يحترمونها مادامت تحترم حقوقهم، وتعمل على خدمتهم.. أية صدمة أصابت (ح) في هذه الأيام المخرجة من حياته، وفكر هل يطلق زوجته؟ إن كل شيء يوحى باليأس وخيبة الأمل، أليس الموت أهون من ذلك العذاب كله؟

ولم يخف ذلك عن إخوانه، ولم يدخروا وسعاً في التخفيف عنه، وتقديم المسكنات الإرشادية له، لكن خيبة أمله كانت أقوى من أية نصائح تقدم له، وكثيراً ما كنت أجلس إليه، وأحكي له عشرات القصص والحكايات عن المظلومين، والمثل الشعبي يقول «يا ما في السجن مظالم»، وكان يرتاح لحديثي، وما يخفف عنه أن يرى ويسمع وقائع وأحداثاً تشابه إلى حد كبير ما وقع له، وأخذ ينطبق عليه قول الشاعرة الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي
لقد كان «ح» أتمودجاً من النماذج العديدة التي لا تخفى دلائلها على أى مراقب للأحداث في تلك الأيام السوداء التي امتلأت بالغرائب والأعاجيب.

كنت أذهب إلى الأستاذ محمود شاكر أحياناً في غرفته حيث كان ينام على حشية من القش، موضوعة على الأرض، ولم يكن له سرير مثلنا، وكلما ذهبت إليه أجد قبالة رجلًا يجلس صامتاً في وضع الجلوس للصلاة، كان هذا الرجل جامد النظرات، يتطلع إلى أفق بعيد، والبؤس على وجهه، لا يرد على أحد، ولا يكلم أحداً، ولاحظت أن جيرانه في الغرفة الكبيرة يقدمون له الطعام فيأكل، وكذلك الشراب فيشرب، لكنه أحياناً يرفض الطعام والشراب.

قلت لعالمنا الكبير الأستاذ محمود شاكر: «من هذا الرجل؟».

قال في اقتضاب: «مجنون».

- «غير معقول».

نظر إلى في سخرية وقال: «ألا تصدقني؟ لقد أتوا به من مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة».

- «حتى المجانين يعتقلونهم؟».

قهقه قائلاً دون أن تفارقه رنة السخرية: «كلهم مجانين».

وعجبت أشد العجب لهذا التصرف من رجال الأمن، بالأمس القريب استغربت وجود مرضى الجذام بيننا، لكنهم بعد ذلك أعادوهم إلى مستعمرة الجذام مرة أخرى تحت الحراسة، فلماذا لم يفعلوا نفس الشيء مع هذا المريض؟ وأخذت أتقصي سيرة هذا المسكين، فعلمت أنه كان يشغل وظيفة «صول» في الجيش، ثم لحقت به شبهة الانتماء للإخوان المسلمين فاعتقل في عام ١٩٥٤، وقضى في المعتقل حوالي عامين، ثم أفرج عنه في عام ١٩٥٦ وطرد من الجيش، وفجأة وجد نفسه في الشارع

لا يستطيع أن يكفل الحياة الشريفة لزوجته وأولاده، وسقط فريسة الهموم النفسية الرهيبة التي عجز عن تحملها، لقد عاف النوم والطعام، وأصبحت حياته مريرة المذاق، وتدهورت حالته حتى أخذ يهذى ويتخبط ويرتكب بعض التصرفات العدوانية الخطرة، لقد أصبح مجنوناً بالفعل، وهكذا أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية، حيث قضى عدداً قليلاً من السنوات، وجاء عام ١٩٦٥، والاعتقالات الواسعة، فبحثوا عنه ووجدوه في مستشفى الأمراض العقلية، فذهبوا إليه واعتقلوه، وأجلسوه قبالة الأستاذ محمود شاكر مباشرة، وكان الأستاذ متبرماً بهذا الوضع غاية التبرم، ولذلك فإنه يغادر غرفته منذ الصباح، ولا يعود إليها إلا في وقت «التمام» أي عند إغلاق الغرف على المعتقلين، وبينما كنت جالسا ذات يوم مع الأستاذ شاكر نتحدث عن الشعر الجاهلي، اخترقت آذاننا صرخات عالية، واتجهنا بأبصارنا إلى مصدر الصوت، كان ذلك المريض المجنون يصرخ ويضرب الأرض بكفيه في ثورة عارمة مجنونة، والدموع تندفق من عينيه، وسرعان ما عاد إلى صمته، ووضع كفيه على ركبتيه كما كان في البداية، واستعاد وضعه السابق ونظراته الجامدة، وكان لم يحدث شيء، لكن الدموع ما زالت في عينيه وعلى خده، وسألنا عن السبب قال جاره: «إنه يفعل ذلك أحياناً دون سبب معروف، لعل هناك ما يضايقه ونحن نجهله».

وهم الأستاذ محمود شاكر بالوقوف، وقال: «هيا بنا نخرج.. إنني أكاد أحتقن».

وفي أحد الأيام في النصف الأخير من عام ١٩٦٦ جاء إلى المعتقل شاب قصير القامة، حليق الرأس، مرتعش اليدين، قلق النظرات، مهتز الرأس، ينظر إلى الجميع في خوف وتوجس، ومن آن لآخر يقول في توسل «والنبي ما عملت حاجة.. والله العظيم ما عملت حاجة..».

قصة أخرى من قصص اللا معقول التي نرى أشباهاً لها كل يوم، وكان بالمعتقل بعض الإخوة الذين يعيشون في الحى الذى يعيش فيه هذا الشاب بالقاهرة، فتعرفوا عليه وأخذوا يحاولون بث الطمأنينة في نفسه، حتى ارتاح لهم، وأنس إليهم ووثق فيهم، وأخذ يستعيد هدوءه تدريجياً حتى بدا أنه قد تخلت عنه وساوسه ومخاوفه، ثم قص حكايته، فروى لنا كيف أنه دخل خطأ في الشارع الذى يقيم فيه الرئيس، وكان يقود سيارته، فأوقفوه في عنف ثم قبضوا عليه، وأخذوه إلى مكان ما للتحقيق معه عن سبب دخوله هذا الشارع، واتهموه بأنه ضالع في مؤامرة للاعتداء على الرئيس، فنفى ذلك نفياً قاطعاً، وأكد لهم أن دخوله الشارع بسيارته خطأ غير مقصود يمكن أن يقع فيه أى إنسان حسن النية، فلم يصدقوه، ثم أخذوا يوقعون عليه شتى ألوان التعذيب.. وطال تعذيبهم له أياماً حتى فقد القدرة على التحمل، فتدخلت أمام عينه الصور، واختلطت في رأسه الأفكار، ولم يعد قادراً على التمييز أو الإجابة على أية أسئلة توجه إليه، وقرر طبيب الشرطة ضرورة إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية، وخاصة أن التحريات قد أثبتت أن أباه من تجار الأقمشة المرموقين، وأن أسرته تعيش في بحبوحة من العيش، وأن ذلك الشاب متزوج، وليس لهم جميعاً أية انتماءات سياسية، كما لا يمتنون بصله قرابة أو صداقة مع أحد العاملين في الحركة الإسلامية أو غيرها، وقضى المسكين فترة من الزمن في مستشفى الأمراض العقلية، وما إن تحسنت حالته، وثبتت براءته حتى أحضروه إلى معتقل مزرعة طرة، لينضم إلى نزلائه في انتظار المجهول.

القاعدة عند السلطة أن البرىء متهم حتى تثبت براءته، وحتى بعد أن يتأكد ذلك، يظل سيف

الشك مصلاً على رؤوس الجميع.

وليس سرّاً أن أقول أنه بطول المدة ابتدأت تظهر حالات مرضية نفسية كالهستيريا والهوس

والصرع، وبعض الأمراض المزمنة الأخرى كأمراض الكبد والقلب وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة وغيرها، ولقد كان معنا معتقل أصيب بالشلل الهستيرى، كان حاد الذكاء طموحاً، يستبد به الضيق لوجوده فى السجن، وكثيراً ما يقول «إننى كالعصفور الحبس فى القفص»، هذا الرجل الآن (١٩٩٤) قد أصبح من كبار رجال الأعمال، ويمتلك الملايين رغم أنه بدأ من الصفر، ولم يكن يحمل أية مؤهلات علمية تذكر، ومثله كثيرون ..



إن الناس يختلفون فى القدرة على التحمل، وإذا ما طالت مدة الابتلاء فقد يأتون بعض التصرفات الغريبة المحزنة مثال ذلك أن أحد المعتقلين وقف ذات مساء فى وسط الغرفة وقال لهم بصراحة: «إن مشكلتنا مع الحكومة لا حل لها حسبما أرى، وما حدث فى أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٦٥ يؤكد أن الظلم قائم ولن نستطيع الخلاص منه، وقد قضيت ليالى أفكر فى حل لهذه المأساة المرعبة، ووصلت فى النهاية إلى نتيجة حتمية لا فكاك منها».

رد عليه أحدهم: «ما هذه النتيجة؟».

قال: «لن يرفعوا يدهم عنى ما دمت مسلماً».

قال قائل: «ماذا تعنى؟».

- «كلامى واضح، سوف أذهب غداً إلى قائد المعتقل، وأطلب منه أن يتخذ الإجراءات الكفيلة

بتغيير دينى».

هاج المعتقلون فى العنبر وماجوا، بعضهم اتهمه بالجنون، والبعض الآخر بالخيانة، وثالث جرده من رجولته، والبعض الآخر هم بالفتك به، وتدخل رجل صالح من المعتقلين يتسم بالهيبة والصلاح وكبر السن، وقال: «أتركوه وشأنه، إنها نوبة من نوبات اليأس».

وأخذ ينصح أخاه الجانح، وذكره بأن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وذكره بقوله الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِحَسَابٍ﴾ (١١٠) وأن العمر مهما طال قصير، وأن الإيمان الراسخ بالله من أعظم نعم الله علينا، وأن الأزمة ستمر، وسننال عليها أعظم الثواب ..

وصاح رجل فى آخر الغرفة: «إن المرتد عقوبته القتل ..».

وساد الضجيج حتى جاء خفر الليل، ودقوا على الباب وتوعدوا الجميع بالعقوبة الصارمة إذا لم يخلدوا إلى النوم، ويكفوا عن إثارة الفوضى.

فى الصباح أمسك المعتقل المتمرد بيد العسكرى، وطلب منه أن يأخذه إلى قائد المعتقل، وحينما عرض أخونا مطلبه على أحد الضباط (وكان مسيحياً) رد عليه بيرود: «ونحن لن نقبلك فى ديننا».

وغمره عرق الخجل، وقال الضابط: «وحتى لو تركت دينك، فستظل فى المعتقل .. إن الحكومة تعامل معك من الناحية السياسية، وليس الناحية الدينية، الملايين فى الخارج متمسكون بدينهم، ولا يعترضهم أحد، لكن الذين يتحركون سياسياً ضد الحكومة هم الذين تتخذ ضدهم الإجراءات القمعية .. فى سجون مصر ومعتقلاتها يهود .. ومسيحيون .. وشيوعيون وكفرة .. وفيها مسلمون، ولا يجمعهم سوى شىء واحد هو العداء السياسى للحكومة .. هل فهمت يا أخ؟ اذهب إلى غرفتك يا أخ .. فنحن لن نتطلى عليك هذه الألاعيب، وسأكتب تقريراً عنك وأرفعه إلى المسئولين .. من يدري؟ قد يلقونك درساً قاسياً فى الأدب ..».

وعاد المتمرّد إلى غرفته ، كانوا يجلسون فى صمت وهم ينظرون إليه فى حسرة ، عندما أذن الظهر ، وجدوه يذهب إلى دورة المياه ليتوضأ .. أشرفت الفرحة على وجوههم وقلوبهم ، وعندما أمّ أحد الشيوخ الصلاة كان صاحبنا يقف فى الصف الأول ، وما إن انتهت الصلاة حتى وقف صائحاً يقول :
- « أستغفر الله .. تبت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبداً ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .
ثم انفجر باكياً .

قال الشيخ الإمام : « ردها ثلاثاً .. بل سبعاً » .
وما إن انتهى من ترديدها ، حتى تجمهروا حوله ، وأخذوا يعانقونه ويقبلونه ، والدموع فى أعينهم ، كان يقول : « لقد غلبنى الشيطان ، لكننى أعود الآن إلى رحمة الله ، إن قوة شريرة سكنتنى بعض الوقت .. أنتم لا تعرفون ظروفى الخاصة .. لكن الله قادر على أن يحفظنا من كل مكروه .. » .
هذا الشاب الأسمر المعتلى .. فى بداية الثلاثينات من عمره ما زلت أذكره .. إن صورته وملامحه الدقيقة مرسمة حتى الآن فى خيالى .. وفى إحدى المرات ، ونحن نجلس فى فناء المعتقل مال أحد الإخوة هامساً ، وقال : « ألا ترى ذلك الشاب الذى يسير وحده واضحاً منديلاً أبيض فوق رأسه ؟ » .
- « من يكون ؟ » .

قال أخى : - « سبحان الله .. كان أبوه من العلماء الذين تستعين بهم الحكومة فى توعية الإخوان فى السجن الحربى فى عام ١٩٥٦ ، وكان والده يُضَيِّعُنا بما يجب أن نلتزم به فى الإسلام ، على الوجه الصحيح ، ويأخذ علينا التصرفات الجامحة - من وجهة نظره - ويعتبرها عصياناً وخروجاً على ديننا الحنيف » . ثم شرح لى الأخ كيف أن الأيام قد مرت ، ودارت الدائرة ، وأصبح ابنه بالذات واحداً منا ، وتعرض لما يتعرض له المعتقلون من معاناة ومتاعب ، هل كان يتصور ذلك العالم الطيب أن ولده سينضم إلى الذين كان بالأمس يعظهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح ، مع أن هذا الابن لم تسجل ضده أية أعمال تمس أمن الحكم والحكومة .

إن ما يجهله الناس هو أن الأمر ليس أمر جماعة شاذة تحترف المعارضة ، وتعمل على إثارة الفتنة ، وتريد أن تستولى على السلطة بالقوة الجبرية ، وتقود الناس جبراً إلى مهاوى الخطر والفساد ، إن الأمر فى حقيقته هو المنع التام لأى نشاط تشم منه رائحة الإسلام .. الإسلام بصورته الشاملة الصحيحة ، الإسلام الذى يتخلل نسيج المجتمع كله ، ويدخل فى صميم حياته ، ويلهمه القول السليم ، والفعل الصحيح ، والحركة المتزنة المحسوبة ، حتى يتحرر ذلك المجتمع من نوازع الجشع والأنانية ، ويتخلص من مظاهر الاستبداد والظلم والقمع والاستغلال ، وإهدار كرامة الإنسان ..

وذهبت ذات يوم إلى المبنى الآخر لزيارة بعض الأصدقاء القدامى هناك ، وعندما اقتربت من العنبر وقمت عيني على صديقى الأستاذ محمد العوضى سلام .. يا إلهى .. ماذا جرى ؟ لقد تركنا ونحن فى معتقل أبو زعبل الجديد على أساس أنه قد أفرج عنه ، وحملناه التحيات والسلامات للأهل والأحباب فى الخارج .. كان وداعنا يومذاك وداعاً مشحوناً بالعواطف والدموع .. ولكنى أراه الآن ، هل أفرجوا عنه ثم اعتقلوه مرة أخرى ؟ ولم تطل حيرتى ، فقد رأتى وقدم نحوى فى اشتياق ، وتعانقنا وتصافحنا ، ولعله أدرك ما يمتثل فى نفسى من تساؤلات فقال على الفور : « ضحكوا علينا ، أو همونا بالإفراج ، وإذا بنا نجد أنفسنا ، وقد انتقلنا من معتقل إلى آخر ، لقد سعدنا ساعة أو بعض ساعة ، وسرعان ما ذهبنا الفرحة ، وحل مكانها العذاب المقيم .. » .

ولاحظت أن الشيخ محمد العوضى سلام قد شحب وجهه، ونحل جسده، وبدأ أنه يعاني من مرض ما، وهو الذي عهدناه صلبًا كالصخرة قبل ذلك، رغم قصر قامته، وكنا نعهد إليه بالأعمال التي تحتاج إلى قوة، كما كنا نطلب منه أن يخطب في الناس بعباراته الملتبهة، ومنطقه القوي، وتأثيره الجماهيري الفعال.. ماذا جرى له؟؟ إنه يكاد يتهاوى من شدة الضعف والوهن، وحاولت أن أوجه إليه بعض الأسئلة الصحية، ثم فحصته فحصًا عابرًا، وتبين لي أنه مصاب بمرض في كبده، وحاولت جاهدًا لدى أصدقائي الأطباء المعتقلين أن يقتنعوا الدكتور خليل - طبيب السجن - بوضعه في الملاحظة الطبية.

وبقى محمد في المعتقل، وقد ازدادت حالته سوءًا، ولما أفرج عنه بعد شهر، وعاد إلى بيته لم يمهله القدر طويلًا، فلبى نداء ربه.

لقد كان محمد العوضى معارًا للعمل في الجزائر، وكان يغشى المحافل الفكرية والدينية هناك، فهو طاقة من نشاط لا تكل ولا تمل، وقد أصدر هناك كتيبًا يتحدث فيه عن شرع الله وضرورة أن يسود في المجتمعات الإسلامية حتى تتخلص من مظالمها وهزائمها وتأخرها، ويبدو أن أحد المصريين العاملين هناك قد كتب تقريرًا سرّيًا عنه، وبعث به إلى الجهات المسئولة، وكان ذلك يحدث في معظم البلاد التي يعمل بها المصريون، بل وفي داخل مصر نفسها، وكان من جراء هذا السلوك أن طرد بعض العاملين المصريين في دول عربية أو إسلامية بسبب ثبوت تهمة التجسس عليهم، بل إن بعض الدول قد طردت جميع العاملين بها بسبب الخلافات السياسية الكثيرة التي كثيروا ما كانت تحدث في عهد عبد الناصر، وهي أحداث مشهورة يعرفها الجميع..

المهم أن الشيخ محمد العوضى الذي كان سلاحه الخطابة والقلم، وهما من الأمور العلنية، قد فوجئ ذات يوم بأمر ترحيله من الجزائر، وتسليمه للسلطات المصرية، وما إن وطئت قدمه أرض مصر، حتى دفعوا به إلى المعتقل ضمن الآلاف الذين يعيشون وراء الشمس، وبالتحقيق معه، لم يعثر المحققون - رغم قسوتهم عليه - على أى دليل يدينه، وعاش بين المتحفظ عليهم، وكانت التحقيقات التي تعرض لها، والتعذيب الذي لقيه، مليئًا بالطرائف المضحكة المبكية على حد سواء، والتي لا يستطيع الإنسان أن يسجلها لأن بعضها يخدش الحياء، ولا يصح أن يكتب على الورق.

وكان له من الأولاد ستة، والمعاش الشهري قليل لا يكفي الأولاد وأمهم.. ولهذا لجأت الزوجة إلى فتح محل صغير للبقالة.. وكلما سألتها أحد عن حالها قالت: «أهى ماشية والحمد لله»... رحمه الله...

استيقظنا ذات صباح، وأخبرنا أحد زملاء بأن الحكومة قد اعتقلت عددًا من الشيوعيين، والغريب أن عددًا منهم كان يعمل في منظمة الشباب الحكومية، والتي يرأسها الدكتور حسين بهاء الدين، وقد لوحظ أن بينهم عددًا من الكتاب والأدباء، وقد أحضروهم من سجن القلعة مساء أمس، ووضعوهم في مكان مستقل بهم في عنبر من العنابر، وعلمت أن من بين هؤلاء المعتقلين المتهمين بالشيوعية بعض الأصدقاء القدامى الذين يكتبون في الصحف، ويغشون المنتديات الأدبية، ومن بين هؤلاء المعتقلين الجدد:

- الشاعر عبد الرحمن الأبندى.
- الكاتب الناقد غالى شكرى.
- الناقد الدكتور صبرى حافظ.

- أمين مساعد منظمة الشباب جمال حمزة [وأظن أن هذا اسمه] وقد قيل أن خاله هو شعراوي

جمعة - أحد وزراء عبد الناصر . « والشاعر الشعبي « سيد حجاب » ؟ .

- والأديب الصحفي الأردني غالب هلسا ... وغيرهم ، وأخذنا نتساءل كيف تعتقل الحكومة الشيوعيين بعد أن أفرجت عنهم عندما زار خروشوف مصر عام ١٩٦٤ لافتتاح السد العالي ، وكان شرطه أن يفرج عن جميع المعتقلين ، لأنه - أي خروشوف - لا يزور بلدًا فيها سجين شيوعي .

ولم يطل بنا التخمين ، فقد سمعت وأنا في حجرتي من يناديني فعلمت أن أحد المعتقلين الشيوعيين قد أتى من عنبرهم ويريد مقابلي ، فهرولت إلى الخارج فإذا بي وجهاً لوجه مع الناقد الأديب « صبري حافظ » ، واستقبلته بالترحاب الواجب ، والكرم المعهود ، وقبل أن أستفسر منه عن شيء أخبرني بأنهم جوعى منذ الأمس ، ولم يصرف لهم أى طعام ، ولهذا يطلب منى كمية من الأكل تكفيهم ، ثم قال هامساً : « ولا مؤاخذه .. لى طلب سخيف .. أعنى بضع سجائر لأن الجماعة « خرمانيين » وبعضهم يكاد يجن » .

لم أضيع الوقت فأحضرت كيساً من القماش ، ومشيت بين الغرف أقول فى مرح : « يا إخوان ... زملاؤنا الشيوعيون يكادون يموتون من الجوع .. فوجدوا عليهم بما تبقى عندكم من أرغفة أو جبن أو خلافة .. وأستسمح إخواننا المدخنين الذين يستطيعون تهريب السجائر أن يتنازلوا عن عدد قليل منها رحمة بأمزجتهم .. ومن قدم شيئاً يديه التقاه .. هنيئاً لك يا فاعل الخير .. »

جمعت كمية من الطعام وثلاث سجائر ، وقدمتها للأخ صبري حافظ ، الذى سعد بها أيما سعادة ، وسارع بأخذها والذهاب إليهم ، وللشيوعيين مقولة شائعة يرددونها وهى « أعطنى خبزاً وحدثنى عن الله » قال لنا زميلنا الأستاذ شوقى كحلة : « هل حدثتهم عن الله ؟ » .

- « لا .. أعطيتهم الخبز دون مقابل » .

- « لوجه الله ؟ » .

- « نعم » .

- « وهم لا يؤمنون بالله .. » .

وأشار شوقى إلى أن التصديق بالسجائر لا يجوز شرعاً ، وأنهم يجدون الصداقة إذا كان فيها نفع مادي لهم ، ولكنهم يدوسونها إذا لم يكن لها جدوى ، وذكرنى شوقى بتلك الواقعة القديمة حينما كرمونى فى سجن مصر بعد فوزى بالجائزة ، وصدرور رواية « الطريق الطويل » فى طبعتها الأولى ، ثم قاموا بعد ذلك بتقديم شكوى ضدى ، كى يحرمونى من الخروج للعلاج فى القصر العينين أيام سجنى الأول ، لكن وجهة نظرى فى هذا الأمر تختلف عن وجهة نظر أخى شوقى ، فقد كنت أميل إلى مقابلة الإساءة بالإحسان ، وأرى أنه من الواجب أن أقدم ما أستطيع من خدمات لخصومنا السياسيين إذا ما جمعتنا الظروف التهمة فى صعيد واحد ، ولقد كنت متأثراً بالصداقة القديمة ، ثم إنى رأيت بعض الكدمات على وجوه البعض وعلى الأجزاء المكشوفة من أجسادهم ، ومن الغريب أن بعض الشيوعيين كانوا أعواناً مخلصين للحكومة ، ويشغلون مناصب هامة للغاية ، خاصة فى وسائل الإعلام ، وشركات القطاع العام ، وقد حققوا من وراء ذلك ثراءً فاحشاً يتنافى مع الاشتراكية التى يدعون إليها ليل نهار ، وفى الوقت نفسه يُقبض على عدد منهم ويوضعون فى المعتقلات ، ويستطيع أى مراقب أن يستنتج أن الحركة الشيوعية فى مصر منقسمة على نفسها ، لكن غالبية الشيوعيين يؤازرون الحكومة مؤازرة كاملة ، وذلك كى يحققوا أهدافهم فى الوصول إلى سلطة القرار ، ولينتقموا من أعدائهم التاريخيين وخاصة

الإخوان المسلمين، والواقع أن تجربتي مع الشيوعيين مريرة، فقد كنت أحاورهم في أدب، واستقبلهم مرحباً، وأقدم لهم ما أستطيع من خدمات داخل السجن وخارجه، ومن خلال عملي كطبيب، وفي المجالات الأخرى التي أستطيع أن أقدم العون فيها للآخرين، ومع ذلك فقد كانوا لا يجدون فرصة لتعويق مسيرتي، وتعطيل آمالي، والنيل مني، إلا انتهزوها، وكأنهم يقدمون إيدائي قرباناً لصلتهم الكبير المقام على قواعد من الكراهية والحقد والحسد والجحود، لكن هل كان ذلك قادراً على أن يوقف قدر الله، أو يمنع مشيئته من التحقق؟ لا.. وألف لا، إن سخافات البشر وأحقادهم الصغيرة ما هي إلا فقاعات صغيرة سرعان ما تنفجر، ويكتسحها الهواء..

إنني أعتقد أن الفساد الأكبر الذي حاق بمصر في العهد الناصري نجم أساساً عن وصول أبالسة الشيوعيين إلى صانعي القرار، والمشاركة في صنع السياسة الاقتصادية والتعليمية والحزبية. وسيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات ومسارح وإذاعة وتليفزيون، واستيلائهم على مناصب حيوية في مجلس الوزراء والمجلس التشريعي، وتكوين حزب «الاتحاد الاشتراكي»، والسلك الدبلوماسي، ومناحي الأنشطة الفنية المختلفة، وقد طال بقاء هذه العناصر المدمرة في مواقعها الحساسة، فأفسدت كل شيء في مصر «المحروسة» ولعل من أخطر الأمور التي نجمت عن تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة، سيادة نمط من القيم والأخلاق الفاسدة، والتهجم على قيم الإسلام وعقيدته ومثله الرفيعة. وحاولوا - من خلال أجهزة الأمن والمخابرات - أن يتصدوا للعناصر النظيفة، ويبعدوها عن الالتحاق ببيئات التدريس بالجامعات، ورفض موضوعات معينة لإعداد رسالات الماجستير والدكتوراه، وفرض موضوعات أخرى مضادة على الدارسين، وقد أشرت في الجزء السابق من هذه الملاحظات إلى ما حدث بالنسبة لروايتي «اليوم الموعود» الحائزة على جائزة «المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب» والتي تم التعاقد عليها مع مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي، فقام أحد الشيوعيين (ب. ش) بكتابة مذكرة للإطاحة بها، وتعطيل تنفيذها وكانت إحدى الحجج هي أن البطولة في الرواية بطولية «فردية» وليست بطولية «جماعية»، هكذا قيل.. وقيل أيضاً أنها - كرواية تاريخية - تحتاج إلى ميزانية ضخمة.. ولست أدري كيف تكون البطولة فردية في رواية عن الحروب الصليبية، يحتشد فيها أبناء الأمة للدفاع عن إسلامهم وعروبته ووطنهم، لكنها السفسطة الشيوعية التي تلعب بالألفاظ، وتقلب الحقائق، وتزيف التاريخ، وترفع الشعارات الرنانة، والعبارات الجوفاء، حتى انحدرت الثقافة، وفسد الفن، وضاعت حرية التعبير والإبداع، ولم يكن يهم السلطة القائمة سوى الاطمئنان على بقائها وحمايتها من أعدائها، وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى الجحيم، إن المخلوقات المشوهة نفسياً وعقلياً وأخلاقياً، لا يمكن أن تعيش إلا في الأجواء الموبوءة العفنة..

كان بالمعتقل جناح معين كنا نطلق عليه جناح «المعتقلون العرب» والسبب في هذه التسمية هو أن هؤلاء المعتقلين كانوا يعملون كموظفين في شركة «المقاولون العرب» التي يديرها رجل الأعمال الناجح الكبير عثمان أحمد عثمان، ولقد كان عثمان صديقاً مرضياً عنه من جمال عبد الناصر، لأن الشركة كانت تحقق لمصر دخلاً لا بأس به من العملة الصعبة؛ إذ كانت لها أعمال كثيرة في الخارج، ولقد كان بهذه الشركة عدد كبير من الإخوان المسلمين كانوا وراء النجاح الكبير الذي حققه يوماً بعد يوم، ولهذا أراد عثمان الاحتفاظ بهؤلاء الإخوان في أعمالهم واستأذن عبد الناصر في ذلك، وتعهد بأن يسلم للحكومة أي فرد من الإخوان العاملين معه عند طلبهم للتحقيق أو الاعتقال، ووافق عبد الناصر على مضمّن بعد أن أدرك أهمية هؤلاء العاملين في الشركة التي تحظى برعايته، وعندما حدثت أزمة ١٩٦٥

بين عبد الناصر والإخوان طلبت الحكومة عددًا منهم للاعتقال باعتبار أن سبق اعتقالهم أو طالتهم الشبهة، ووفى عثمان أحمد بوعدة لعبد الناصر، فأحضر المطلوبين من كل مكان سواء داخل مصر أو خارجها، ومنهم من كان في ليبيا أو السعودية أو غيرها، ثم وضعوا في أحد أجنحة معتقل طرة، ولهذا أطلقنا عليهم «المعتقلون العرب» وكان الأمر مثيرًا للضحك والتعليقات المرحية، وكان الذى يفرج عنه منهم يعود إلى موقعه فى «شركة المقاولين العرب» مرة أخرى دون حرج أو حساسية، كما استمر صرف رواتبهم أثناء الاعتقال شأنهم فى ذلك شأن موظفى الحكومة المعتقلين، وبعض هؤلاء المعتقلين استطاع بعد ذلك الصعود إلى مناصب مرموقة فى الشركة حتى يومنا هذا، والبعض الآخر استقال من الشركة، وأسس شركة مقاولات مستقلة، ونجح نجاحًا كبيرًا، وأصبح من كبار رجال المال والأعمال، أى أصبحوا مليونيرات باجتهدهم وإخلاصهم وعرقهم.

ولقد كان هناك رجال أعمال آخرون غير العاملين أو المنتسبين لشركة المقاولين العرب، بدءوا حياتهم عصاميين معتمدين على كفاءتهم وموهبتهم أذكر منهم الأخ الأستاذ محمود شعراوى وشريكه الأخ الأستاذ جودة المحلاوى، وكان الأخ جودة يروى تفاصيل وأسرار العمل مع شركات القطاع العام والحكومة، وكيف يحصلون على حصصهم من الأسمنت والحديد والزجاج والخشب ومختلف متطلبات البناء، وتبين لنا للأسف أن الأمور لا تسير إلا بطرق ملتوية، وأن رجال الحكومة فى هذه القطاعات يرتشون وينهبون ويختلسون، فى الوقت الذى يكثر فيه من الحديث عن نزاهة رجال الثورة وإخلاصهم، ونقائهم الثورى، وما إلى ذلك من العبارات الجوفاء، والشعارات الطنانة، حتى أصبحوا - كما قيل - حيتانًا فى عالم المال والأعمال، وفتحوا حسابات بالعملة الصعبة فى البنوك الأجنبية الخارجية، ولم يكن عجبًا أن يتحدث الناس، ويعقدون المقارنات بين باشاوات ما قبل الثورة، وسوبر باشاوات ما بعد الثورة، ومن هنا كان حرصهم الشديد على بقاء الأوضاع على ما هى عليه، والتمسك بمناصبهم ومكاسبهم ومشاركتهم الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن ينتقد أو يعارض أو يكشف المستور. ذلك أن أنصار الثورة الكبار من رجال الجيش أو المدنيين الذين لم يحملوا حقائب وزارية، كانوا يلحقون بقطاعات الصناعة والتجارة الخاضعة لإشراف الحكومة كأعضاء أو رؤساء فى مجالس إدارة الشركات، أو يتولون العمل كمديرين تنفيذيين ويكون تحت أيديهم الأموال الطائلة، ولهم سلطة اتخاذ القرار دون أن يعترض طريقهم أحد، وفى حالة ما إذا ظهر معترض له سلطة أو نفوذ، فمن السهل إسكاته بقدر مناسب من الغنيمة الحرام، أو بالتأمر عليه لإبعاده قهراً عن الطريق، حتى تمضى الأمور فى نطاقها المرسوم.

ولقد راجت شائعات تقول أن هناك دفعة إفراج فى عيد الأضحى المبارك أو فى عيد الثورة (لا أذكر)، وتفاعل الجميع خيرًا وخاصة بعد أن انتهت المحاكمات، وصدرت الأحكام ضد البعض ولم يعد هناك مبرر للاعتقال التحفظى، لأن إغلاق ملف المحاكمات يعنى أنه لم يعد هناك أحد ممن حامت حولهم الشبهات مطلوبًا للتحقيق أو المحاكمة، وجلسنا ننتظر، ولكن تبخرت الآمال، بعد مرور تلك المناسبة، ولم يفرج عن أحد، وقيل فى حينها أن السيارات التى كانت ستنتقل المفرج عنهم كانت جاهزة، لكن الرئيس جمال عبد الناصر لم يعتمد قوائم الإفراج المعدة لذلك حسبما أخبرنا الدكتور خليل طيبب المعتقل، وكان من المعروف أنه يستحيل الإفراج عن أى فرد إلا بموافقة رئاسة الجمهورية فى تلك الفترة.. وشعر الجميع بخيبة الأمل، ولكن ما الحيلة..

فى هذه الفترة سمعنا أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل سوف يأتى إلى المعتقل ليلقى محاضرة

عنوانها « أعمال الثورة من أجل الإسلام » ، والدكتور عبد العزيز كامل هو أستاذ الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة ، والخبير المختص بالتسلل الإسرائيلي في أفريقيا ، كما أنه كان عضواً في مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين (أعلى سلطة في الجماعة) ، وكان قد التزم الحياء في الصراع بين الثورة والإخوان ، كما كان يحسن الظن بنوايا الثورة ، وعندما جاء إلى المعتقل خرجنا إلى فناء السجن الواسع ، وجلسنا القرفصاء ، أما هو فقد جلس على مقعده خلف مكتب خشبي متواضع وأخذ يتحدث عما قدمته الثورة من أعمال مجيدة تهدف إلى رفع راية الإسلام ونشر مبادئه ، والعمل على الالتزام به ، وذلك بهدف تخفيف حدة العداء وسوء الظن بين الطرفين ؛ الإخوان والثورة ، وكان الدكتور طوال محاضراته لا يرفع عينيه عن الأوراق التي أمامه ، ويتكلم بصوت خفيض دون حماسة تذكر ، وقد كان يجلس أمامه عدد من شباب الإخوان كانوا قد تلمذوا على يديه في الماضي ، كانوا لا يرفعون أعينهم عنه ، وهم في الصف الأول ، وما إن أنهى المحاضرة حتى هبوا واقفين وصافحوه ، فكان يصفاحهم في حرارة ، دون أن تفارق شفتيه ابتسامة لها معنى لا يخفى على أحد ، وكأنه يقول إنني لم أفعل ذلك إلا من أجلكم ، أملاً في إيجاد حل للمشكلة المزمنة التي طال عليها الأمد .

ولقد علمت بعد أن خرجت أنه قدم إلى المعتقل عدد من المحاضرين الآخرين للتوعية منهم كمال رفعت أحد كبار رجال الثورة (والوزير أيضاً) ، وقد كان ممن شارك مع الإخوان في حرب القناة ضد الإنجليز قبل الثورة ، وقد أثنى على جهاد الإخوان القديم ثناء طيباً ، وجاملهم بأكثر ما يستطيع كما جاء للمحاضرة بعد ذلك عدد من علماء الأزهر منهم الشيخ فتح الله بدران وغيره .

ولقد رأى رجال الأمن في تلك الفترة ، أن يقوم الإخوان المعتقلون أنفسهم - إثباتاً لحسن النية - بدور ما في التوعية وسط صفوف الإخوان المعتقلين ، على أن يذكر فيها منجزات الثورة ، وأن يتناول الحديث أيضاً - كشرط أساسي - الأخطاء التي وقعت فيها الجماعة ، وخاصة محاولة اغتيال عبد الناصر ، وتكفير الناس ، وما اقترفه الجهاز السري (النظام الخاص) من أخطاء فادحة تتنافى مع الإسلام ، ومع القوانين السارية في الدولة ، والواقع أن هذا الأمر كان قضية شائكة للغاية ، إذ أسفر عنها انشقاقات في صفوف الجماعة ، ذلك لأن من شارك فيها كان عدداً من القيادات التي تولت مواقع حساسة في الجماعة قبل ذلك ، ومهما قيل في هذا الأمر ، فإنه تم بغير قليل من الضغط والإكراه ، كما وأن البعض شارك فيها ككتكتيك سياسي مرحلي لا يعنى سوى الخلاص من المأزق بأقل الخسائر الممكنة ، ومن جانب آخر فقد كان لذلك رد فعل سيء في البعض ، فقد رفضوا الإدعان لذلك ، واتهموا إخوانهم بالخيانة ، كما اتهموا الحكومة بالإجرام والكفر ، وهكذا نشأت « جماعة التكفير والهجرة » فيما بعد والتي أنشأها شكرى مصطفى وغيره ، ورأى الأستاذ الهضبي المرشد العام للإخوان المسلمين - وكان سجيناً في تلك الفترة التالية - أن يشكل لجنة لدراسة الوضع ، وفي النهاية صدر كتاب فضيلة المرشد وهو كتاب « دعوة لا قضاة » أنحى باللائمة على من يكفرون المجتمع ، ودعا جماهير الجماعة إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونبذ العنف وغير ذلك من الأمور التي أسندها الكتاب إلى الأدلة الشرعية الناصعة التي ليس فيها شك ..

لكن آثار هذه الفتنة - إن صح التعبير - قد خفت حدتها ، وتكاد تكون قد تلاشت مع الزمن ، والدليل على ذلك ، أن الجماعة في عهدها الجديد ، أيام المرحوم الأستاذ عمر التلمساني المرشد الثالث ، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع قد اتخذت خط الاعتدال ، ونبذ العنف ، وشاركت في العمل السياسى الشرعى تحت مظلة « حزب الوفد » في المرحلة الأولى ، ثم بالاشتراك مع حزب العمل

فى المرحلة الأخيرة ، هذا وقد حققت الجماعة فى عهدها الجديد قدراً لا بأس به من النجاح حينما دخلت الانتخابات النيابية تحت شعار « الإسلام هو الحل » ، ولولا ما شاب عملية التصويت فى الانتخابات من تزيف وتزوير وتهديد وألغى لكأنت نسبة النجاح أكبر وأكبر ، كما استطاع أنصار الجماعة الفوز بالأغلبية المطلقة فى عدد من النقابات المهنية والاتحادات وعلى رأسها نقابة الأطباء ، ونقابة المهندسين ، ونقابة المحامين ، واتحادات الطلبة .

إن الحياة تجارب ، والعمل السياسى محفوف بكثير من المشاكل والمعوقات وقلما توجد جماعة من الجماعات ، أو حزب من الأحزاب إلا وتواجهه العديد من المحاذير والمنغصات ، واحتمالات الخطأ واردة كاحتمالات النجاح ، المهم أن تتمخض مثل هذه الأحداث عن رؤية جديدة أكثر إصابة ووضوحاً وصدقاً ، ولا يصح أن تتحول تلك الأحداث إلى ضربة قاصمة تبعثر الجهود ، وتمزق الصفوف ، وتزرع اليأس فى النفوس ، وتقضى على الآمال الكبيرة التى تخفق فى قلوب الملايين .



[٦] زوجتى تقابل عبد الناصر



بلغتنى أنباء هزتنى هزاً عنيفاً ..

لقد أرسلت إلى زوجتى - وأنا فى مزرعة طرة - رسالة مخبوءة فى طرد جديد به صابون وملابس وأدوية وكولونيا، وأخبرتني فيها أنها قررت أن تذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً وتقدم إليه التماساً للإفراج عني، مستندة إلى أنني لم يرد اسمي فى القضايا الجديدة، والتي نشرتها الصحف، وأنها قد اتفقت مع شقيقتها الأصغر سناً منها الأستاذة نفيسة التي تعمل كمذيعة بإذاعة القاهرة، واتفقتا على أن تقوم زوجتى بهذه «المغامرة» دون أن يخبروا أحداً بها، وفعلًا بدأ التخطيط لذلك، ثم ذهبت فى اليوم المتفق عليه إلى بيت عبد الناصر فى «منشية البكرى» فى سيارة «تاكسى»، لكن قائد الحرس أخبرها أن الرئيس ليس موجوداً، ويمكن أن تذهب إليه فى «قصر القبة» يوم (...)، وتكرر ذهابها إلى قصر القبة، فمرة يكون مشغولاً باستقبال بعض الضيوف الأجانب، ومرة أخرى لم يحضر، وأخيراً حدد لها مدير المكتب موعداً (ولعله الأستاذ سامى شرف وهو معروف جدًا).

وفى اليوم المتفق عليه كتبت التماساً، وذكرت فيه بعض الأمور منها - كما قلت - أن زوجى لم يرد ذكره فى المحاكمات الجارية، ومنها أيضاً أن زوجى له كتب تدرس لطلبة المدارس، وهذه شهادة له لا عليه، ومنها أيضاً أن سيادة الرئيس قد سلم زوجى جائزة القصة ١٩٥٩ وجائزة المجلس لأعلى لرعاية الفنون والآداب بالنصورة، وأن رجلاً هذا شأنه لم تلحقه شبهة إدانة، من العدل أن يفرج عنه ليرعى أبناءه ويستكمل رسالته فى الحياة، وأخبرتني زوجتى أن الرئيس استقبلها وناقشها فى النقاط التي ذكرت فى الالتماس نقطة نقطة، وقالت أيضاً أنها سوف تشرح لى تفصيل المقابلة فيما بعد، وكانت مهتمة جدًا بقول الرئيس لها بأنه سوف يفرج عني مستقبلاً ..

لقد اعتبرت أن ما أقدمت عليه زوجتى عملاً مقلقاً للغاية، فهى ليست على دراية بدهاليز السياسة وأمور الأمن المعقدة، فقد تصدر منها كلمة، أو تقوم بعمل ما يفتح أمامها باباً جديداً للمتاعب، فضلاً عن أن هذه المقابلة سوف يتبعها مراقبة دقيقة لها فى البيت أو الشارع، أو معهد الخدمة الاجتماعية الذى تواصل الدراسة فيه، وقد يجند لها بعض زميلاتها أو صديقاتها، ولا يسلم الأمر من كلمة غضب تقولها، أو نقد يصدر منها للحكومة، عندئذ تقع الواقعة، وتحدث الكارثة، فمن الممكن أن تؤخذ من بين أطفالها، وتوضع فى معتقل النساء .. الحقيقة أن الأمر أزعجنى غاية الإزعاج، ولم أشعر بالارتياح إلا بعد أن بعثت إليها برسالة (سرية) أطلب فيها بإصرار عدم مقابلة أى مسئول، والاعتكاف مع أطفالها فى المنزل، وأخذ الحيلة والحذر من أية زميلة أو صديقة أو قريبة، وأخذ رأى والدها شخصياً من أى إجراء تتخذه، كما أكدت لها أن الله وحده قد حدد التاريخ الذى سوف يفرج عني فيه، ولا داعى لأن

تقلق أو تتعجل الأمور على هذا النحو، لأن العجلة كما يقولون فيها الندامة، ونجن نعيش فترة حرجة من الزمن، ولابد أن نحاط ونتصرف بحكمة ولباقة تجنبنا لأية مضاعفات نحن في غنى عنها.. وعلمت أيضًا من رسالتها المشار إليها سابقًا، أن أبى رحمه الله يسافر من بلد إلى بلد، كما كان يفعل في اعتقالي الأول، ويتصل ببعض الشخصيات ذات النفوذ أملًا في أن يستطيع أحدهم المساعدة في الإفراج عني، كما أخبرتنى أن أمى رحمه الله عادت مرة أخرى إلى الحزن والبكاء، وأنها تستغرق في البكاء كلما سمعت الأغنية التي يرددها فريد الأطرش والتي تعلم أنني كنت أحب سماعها والتي يقول فيها:

بتبكي يا عين على الغايبين
ودمعك على الخدود سطرين
بسطر تقولى راحوا فين
وسطر تقولى ليه ناسيين
كففاية يا عيين
كففاية يا عيين..

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لماذا يا أمى توجعين قلبى وقلبك، لماذا تريدن من آلامى وهمومى، بالله عليك أيتها الأم الطيبة المعذبة أن تصبرى وتحسبى، حتى تمر المحنة، وتزول الغمة، عندئذ تبسم لنا الحياة من جديد، ونجلس معًا فى الأمسيات، ونتبادل الأحاديث والذكريات والطرائف، وعند ذاك تضحكين فى سعادة، ويشرف وجهك بالفرح، وتحمدن الله على ما أسبغه علينا من النعم الكثيرة..

هذا ما كنت أحدث به نفسى، لكم أتمنى أن يطول عمر أمى وأبى ويطول عمرى أنا الآخر، حتى أستطيع أن أرد لهما جزءًا من ألف من الديون التى فى عنقى لهما، لقد كنت سببًا من الأسباب الرئيسية بخصوص ما تعرضا له من معاناة ومقاساة فى هذه السن المتقدمة من العمر، لكن ما حيلتى، إنها إرادة الله الحى الباقى، الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ومن لنا فى هذا العالم نلجأ إليه سواه؟



كنت أفكر كثيرًا فيما نجى به الأيام، وماذا سأفعل عندما يأتى فرج الله، ونغادر المعتقل، لقد فكرت طويلًا وخرجت بنتيجة ارتحت لها، وهى أنني لا بد أن أهاجر، وأترك وطنى الحبيب وأهلى وأحبابى، وقربتنا الصغيرة التى فتنت بها، لقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أنه مادام جمال عبد الناصر موجودًا، فلن يكون هناك ضمان لعدم تكرار المأساة، إن التجربة أثبتت ذلك، ومنهج الرئيس لن يتغير، وأذكر أنني كنت أقرأ فى جريدة «الجمهورية» فقرأت تصريحاً نقلته وكالات الأنباء عن معلق إنجليزى جاء فيه أن عبد الناصر قد حقق إنجازات كبيرة، وأنه إذا افترضنا أن أمامه حوالى ربع قرن فى الحكم، فإن ذلك سوف يتيح له الفرصة لكى يحقق إنجازات أكثر وأكثر، عند ذاك صحت بأعلى صوتى فى العنبر قائلاً: «ربنا يطول عمره» ودهش الإخوان وسألونى: «من تقصد؟»

- قلت: «جمال عبد الناصر» فتمعنوا، وقال أحدهم: «ولم هذا الكلام بالذات، وفى هذا

الوقت بالذات؟» قدمت لهم الجريدة ليقرأوا الخبر، فوجموا ولم يعلقوا.

و كنت أدرس إلى أى البلاد أهاجر ، لم أكن أريد العيش فى بلد أجنبى ، فأنا لا أميل إلى الذهاب إلى أوروبا أو أمريكا ، واستقر رأيى أن أسافر - إذا قدر الله - إلى إحدى الدول العربية ، كالسعودية أو الكويت أو قطر أو ليبيا مثلاً ، وبهذا أستطيع أن أعيش فى جو عربى إسلامى أنا وأولادى ، فضلاً عن أن اسمى أصبح معروفاً لحد ما فى الأوساط الأدبية ، مما يعوضنى عن تركى لمصر وأصدقائى فيها . وفى إحدى الليالى رأيت فيما يرى النائم أنتى سافرت فعلاً إلى إحدى الدول العربية ، ووجدت نفسى فى مكان صحراوى عند الحدود ، به أحجار بيضاء مزروعة فى خطوط متصلة وأثناء الرؤيا أدخل فى روعى أن هذه الأرض ليس أرض السعودية ، ولا هى أرض الكويت ، فماذا تكون ، ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد عامين تقريباً حينما سافرت إلى الكويت للعمل بها فى آخر مارس ١٩٦٨ ، ومن الطريف أنه بعد أن تقدمت بأوراقى قيل لى أن العمل سيكون فى مدينة دى بالإمارات العربية المتصالحة (أى الإمارات العربية الآن) ، ضمن أفراد البعثة الطبية الكويتية التى كانت تعمل بصفة دائمة هناك ..

وهكذا بقيت أحلم بالهجرة إلى الخارج طوال أيام الاعتقال ، على أساس أنها ربما تكون الحل للخلاص من مشاكل السياسة والاعتقالات التى لا يعرف أحد متى تبدأ ومتى تنتهى ، ولقد كنت واثقاً أن الاستقرار ضرورة حتى أستطيع أن أرعى أولادى بأسلوب صحيح ، وأن أضمن الحياة الطبية لهم ولأمهم ، وسيكون أسلوبى الجديد للعمل فى خدمة الدعوة الإسلامية هو الكتابة ، وتطوير هذا الجانب فى حياتى وحياة الآخرين من حملة الأقلام ، بعد أن قطعت شوطاً فى دراسة موضوع الأدب الإسلامى وكيف يكون ، وأهميته بالنسبة لأممتنا ، وقد يتساءل البعض هل كان ذلك تراجعاً أو وهناً ؟ لا أعتقد ذلك ، فإننى أعتقد أن لكل ظروف متطلباتها ، وأن ماقررت هو الطريق المناسب بالنسبة لى ، وبالنسبة للأوضاع الراهنة فى الداخل والخارج ، فقد كانت الدول العربية جميعاً لها توجهاتها السياسية ، وتفضل ألا تدخل فى مشاكل مع جيرانها أو شقيقاتها ، ومن ثم فإن الأمر يحتاج إلى شىء من الحكمة والحيلة والحذر .

فى أحد أيام الثلث الأخير من شهر نوفمبر عام ١٩٦٦ كان الحاج منصور تاجر الذهب المعروف يجلس أمام قدر كبير من العدس المطبوخ ، ومعه مغرفة يوزع بها حق كل معتقل بالدور ، ومن عادة الحاج منصور ، أن يثور ويرفع صوته ، ويحتج على أولئك الذين يطلبون الزيادة على اعتبار أن هذه الزيادة قد تحرم البعض من حقوقهم ، وفجأة انطلق النداء من مكبر الصوت قائلاً : « معتقلين ... كله يسمع ... » .

وساد الصمت ، وجاء النداء من مكبر الصوت : « منصور موسى منصور موسى .. » . وأخذ الشيخ منصور يهز رأسه بمنة ويسرة فى حركة عصبية ويقول : « الله ... ماذا جرى ؟ ... ما هذا ؟ .. » .

ولم يطل به التساؤل ، فقد توالى الأسماء واحداً بعد الآخر ، وزادت الأسماء على المائة عدداً ، ونحن فى حيرة من أمرنا ، هل معنى ذلك نقل بعض المعتقلين من هذا المعتقل إلى معتقل آخر مثلما يحدث عادة ؟ ولقد سمعت اسمى بعد أكثر من ثلاثين اسماً ، وكان الأخ الدكتور إبراهيم الصياد فى المستشفى لتنظيم عملية توزيع الدواء على المرضى من زملائه المعتقلين بالاتفاق مع طبيب المعتقل ، وقال إبراهيم الصياد : « أبشروا يا إخوان .. هذه هى القائمة الأولى من المفرج عنهم وأنا معهم .. الحمد لله .. سوف أخرج وأذهب إلى بعثتى المقررة فى روسيا .. » .

وساد الهرج والمرج، وحضر الضباط والعسكر فرحين، يلقون بالتهاني هنا وهناك، ولم يستطع بعض المعتقلين السيطرة على أعصابهم وأخذوا يعانقون الضباط والعسكر، وتلاشت في هذه اللحظات صورة العداء التقليدية بين المحبوس والسجان، لحظات لا يمكن وصفها بدقة، أصدق ما يقال عنها أنها نوبة من نوبات الفرح الهستيري، وتنهدت في ارتياح، أخيراً سأعود لأولادي وزوجتي وأهلي، سأذهب إلى قريتي وأبي وأمي، وسألتحق بعملى الذى أحبه، وألتقى بأصدقائى العمال، وأبدأ حياة جديدة .. سبحان مغير الأحوال ..

ولم يكن معنى ذلك أن نخرج على الفور، فأمانا يومان أو ثلاثة حتى تستوفى الإجراءات الضرورية، ولم يكن أحد من أهلينا يعرف شيئاً عن هذه الأخبار السارة الجديدة، كما لم يكن فى الاستطاعة الاتصال بهم فى هذه الفترة القصيرة ..

وفى غمرة السعادة التى شملتنا نسينا أن لنا إخوة لم ترد أسماؤهم بعد فى قوائم الإفراج، ذلك أن الإفراج يأتى كما تعودنا على دفعات متتالية، ولهذا أخذنا نواسيهم ونؤكد لهم أنهم سوف يلحقون بنا فى وقت قريب إن شاء الله ..

فى اليوم التالى جاء إلى المعتقل كبار رجال المباحث العامة (أمن الدولة حالياً)، وتكلم كبيرهم فينا ونحن جلوس أمامه، وألقى التعليمات الضرورية، وحذر من ممارسة أى نشاط حزبي وأخبرنا بأنه يجب أن نحمد الله على أن الرئيس قد عفا عنا، وصدق على قوائم الإفراج، وما إلى ذلك من الأمور الهامة التى يجب أن نلتزم بها .

فى المساء جاء أحد الإخوة وهمس فى أذنى : « هناك أمر يجب أن تعرفه » .

- « خيرًا ... » .

- « الأمر يخص الحاج منصور تاجر الذهب » .

- « ماذا عنه ؟ » .

- « أحد أطفاله سقط من الشرفة منذ شهور ومات، وأخفينا عنه الخبر، والآن نريد أن نطلعه على الأمر حتى لا يفاجأ به عند وصوله إلى أهله، واعتقد أن الوقت مناسب الآن، لأنه سوف يخرج غدًا .. » .

كان الأمر مؤلماً، والحاج منصور رجل عصبي حساس إذا ما انفعل أصيب بأزمة ربوية حادة تكاد تقضى عليه، ولهذا أعددنا العدة لذلك، وجهزنا حقنة « الأمينوفلين »، ثم ألقينا إليه بالخبر آسفين بعد مقدمات عن الصبر والرضي بقضاء الله وقدره، والأجر عند الله سبحانه، وما إن سمع الحاج منصور الخبر، حتى احمر وجهه الأشقر، وانهمرت الدموع من عينيه، واختنقت أنفاسه، فبادر أخونا الدكتور إبراهيم بحقنه بالدواء حتى هدأت أنفاسه واستكان ... ترى كم واحدًا منا سيفاجأ بأحداث عندما يعود إلى بيته بعد الليالى الطويلة التى قضاهها فى المعتقل لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد ؟ .

وأخيراً خلعنا ملابس السجن الكالحة، وارتدينا ملابسنا التى خلعناها عند الدخول، وركبنا السيارات المكشوفة، فانطلقت بنا فى الطريق إلى جوار النيل، والأغلال الحديدية فى أيدينا، وبينما نحن سائرون رأينا سيارات النجدة والشرطة ترق إلى جوارنا، تحرس « شخصية كبيرة » سألنا ما هذا ؟ قال أحد العسكر : « هذا موكب « الفريق الدجوى » رئيس المحكمة العسكرية » .

فانكمشنا فى أماكننا، فقد كان مجرد الاسم يوحى بالألم والقشعريرة ..

كل ما أتذكره بعد ذلك أننى أخذت - ومجموعة من المعتقلين المفرج عنهم معى - إلى مكتب

مباحث « شبرا الخيمة » وهو المكتب الرئيسي لمنطقتنا ، وجلسنا فى الانتظار ، وأحياناً نوقع على بعض الأوراق ، ولم نكن نفكر فى قراءة ما فيها ، إننا نريد أن نتحرر ..
جاء أحد الضباط وقال : « أين نجيب الكيلانى ؟ » .

- « أفندم .. » .

- « يحى بك كامل أمين رئيس مكتب مساكن أبو زعبل يطمن عليك ، ويسألك إن كنت تريد شيئاً » .

- « أبلغه شكرى ، وأرجو أن يتصل بيئى ويخبرهم أنى قادم إن شاء الله بعد قليل ، ولا بأس من أن يرسل لى سيارة المستشفى بدلاً من السفر فى القطار .. »

وفى أقل من ساعة وصلت السيارة البيضاء ، وهى سيارة الإسعاف ، عانقنى السائق « أنور » فى ود وحرارة ووجهه ينطلق بشراً ، وما هى إلا لحظات حتى خطوط نحو السيارة ، وإذا بأحد ضباط المباحث يقترب منى ويقول : « يجب أن تنسى ما مضى .. » .

ابتسمت له فى رقة وقلت : « وكيف أنسى يا بك ؟ » .

وجرت بنا السيارة إلى جوار ترعة الإسماعيلية وما إن اقتربنا من الطريق الذى يتفرع جهة اليسار حتى رأيت الممرض رمضان الذى عمل معنا فى المستشفى يلوح بيده ، حاملاً طفلى الصغيرة « عزة » على كتفيه ، وتوقفت السيارة ، والتقطت ابنتى الحبيبة ، وأخذت أقبليها فى حرارة وهى صامتة تماماً لا تنطق ، مأخوذة بروعة المشهد ، وتنشبت يدي ، وكأنها تخاف أن ينتزعها منى أحد .. تفرقت الدموع فى عيني . « ماما بخير يا عزة .. إخوتك بخير يا حبيبتي ؟ » .

- « آه .. » .

وبعد أن هدأت أنفاسى اللاهثة قلت للممرض رمضان : « كيف حال الأهل والأصدقاء جميعاً يا رمضان .. » .

رد قائلاً : « كلهم بخير والحمد لله .. لكن الحاج الكبير .. تعيش أنت » .

هتفت فى رعب : « من ؟ » .

- « صهرك فضيلة الشيخ محمود شاهين والد زوجتك .. » .

- « متى ؟ » .

- « أواخر العام الماضى » .

- « ولماذا لم يخبرنى أحد ؟ » .

- « وماذا كنت ستفعل ؟ أكننا نزيديك همًا على هم .. لقد كان من الصالحين ، ليتنا مثله .. » .
شهقت باكياً ..

تذكرت الرجل الطيب العارف بالله ، أيام أزمة الاعتقالات وهو يستقبلنى بوجه شاحب ، وجسد مضطرب ، ولا يكف لسانه عن الدعوات والابتهالات .. تذكرت سيرته العطرة ، وجهاده الطويل من أجل أداء رسالته ، ورعاية أسرته ، وعطفه على الآخرين ، وتذكرت أيضاً أبناءه الثمانية الذين ما زالوا فى حاجة إلى المزيد من الرعاية .. وسمعت الممرض رمضان يقول : « لقد أخطأت حينما أخبرتك ، ما كان يجب أن أفسد عليك الفرحة .. سامحنى .. » .

جففت دموعى ، ومن عجب أننى رأيت ابنتى الصغيرة عزة تبكى هى الأخرى ، فجففت لها دموعها بمنديلى وقلت : « لا تبكى يا حبيبتي لأن جدك الآن فى الجنة » .

- « عارفة يا بابا .. ماما قالت لى .. » .

وصلت إلى (القيل) التى أسكنها والتى لم يغيرها الزمان رأيت ولدى حسام الدين جالسا فى الشرفة يقول : « لا أستطيع الوقوف .. عندى دمل فى رجلي .. » .

وحملته على صدرى ، ومشاعرى لا توصف ..

ووجدت نفسى وسط حشد هائل من العمال والموظفين ، لقد تركوا أعمالهم فى ورش السكة الحديد ليكونوا فى استقبالى ، بل وجدتهم وقد أقاموا الزينات الكهربائية والأعلام ، والنسوة فى البيوت المجاورة يزغردن ، والمسجل يشدو بإحدى أغنيات الأفراح ، لكأنما كنت فى يوم عيد ، القلوب العامرة بالحب تحيط بى من كل جانب .. فهل هناك أروع من ذلك ؟ الحمد لله ...

لم أجد زوجتى .. سألت عنها قيل أنها علمت فى الصباح بنبا الإفراج عنك ، فذهبت إلى القاهرة ظنًا منها أنك ستكون فى وزارة الداخلية ، لكننا أرسلنا مندوبًا منذ ساعة ونصف إلى القاهرة كى تعود بسرعة . الصغير جلال الدين تائه فى الزحام ، يسأل أخاه الأكبر قائلاً : « فىن بابا الجديد ؟ » .

ضحك إخوته ، كان عمره عامين ونصفًا ..

دخل يبحث عنى وسط الرجال ، يبدو أنه نسى شكلى ، ورأيت يمينى حائزًا يتصفح الوجوه ولا يدرى أيها وجه أبيه ، فقممت إليه وحملته وأنا أقول : « أنا بابا يا حبيبى » .

فابتسم وارتاح على صدرى .

كانت أختى الصغيرة « سميرة » بالداخل ، ولم يتركها أهل المدينة وحدها فقد قدموا ومعهم « الشربات » والمشروبات الغازية ، والفواكه والأطعمة .. كيف يستطيع الإنسان أن يرد جميل هؤلاء الناس الطيبين .

والعاملون معى فى المستشفى تركوا مواقعهم رجالًا ونساءً ، الأطباء والمرضون والمرضات وفنى الأشعة وفنى المعمل ، والطباخ والفراشون ، بل وبعض المرضى ، وأطبَقوا عليّ عناقًا وتقبيلاً وتهانئًا .. بعد أقل من ساعة قدمت زوجتى وشقيقتها الأستاذة نفيسة المذبة بإذاعة القاهرة ، ونهضت لاستقبالهما ، نظرت إليهما وهما تدخلان .. ومن عجب أننى لم أستطيع أن أفرق بينهما ، ووقعت فى حيرة .. كانت زوجتى أكثر امتلاءً وبياضًا من شقيقتها ، لكننى الآن أكاد لا أجد فرقًا بينهما .. ورجحت أن التى اندفعت نحوى والدموع فى عينيها واحتضنتنى دون تحفظ هى زوجتى ، والثانية هى شقيقتها ..

ولم أعد أستطيع أن ألم شتات نفسى ، البيت ممتلئ بالرجال ، وهم يتكلمون فى وقت واحد ، وأنا أرد على هذا ، وابتسم لذلك ، وأشار هؤلاء فى الحديث ، حتى شعرت بإرهاق شديد .. ولم تكن لدى أدنى رغبة فى الطعام والشراب ..

كان فى نيتى أن أسافر فورًا إلى قريتى « شرشابة » حيث الوالدان والأهل ، لكننى وجدت أنه من غير اللائق أن أترك هؤلاء الناس الطيبين فى المدينة السكنية ، وأنسل من تلك الاحتفالات التى أقاموها لى ، ومن ثم بادرت بإرسال بركة إلى والدى أقول له فيها : « تم بحمد الله الإفراج عنى اليوم ، وسوف أحضر طرفكم بعد غد - الأربعاء - إن شاء الله .. تحياتى لكم جميعًا » .

وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت إلى المستشفى ، واستلمت العمل رسميًا ، ووقعت على دفتر الحضور والانصراف وتصادف أن جاء الصراف ليوزع الرواتب الشهرية على الموظفين ، فتسلمت مرتبى ، وقد كنا فى حاجة إليه .

فى يوم الأربعاء استأجرنا سيارة ، انطلقت بنا إلى قريتنا .. ما أسرع ما تمر الأيام !
كان بيتنا القديم يقع فى وسط القرية فى شارع طويل لا تستطيع السيارة أن تسير فيه ، وعلى باب الشارع كان يوجد خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال ، وزغاريد النساء تنطلق فى سماء القرية ، ثم ، ها هو « الرئيس فريد » بمزمارة الشهير ، وحوله فرقة ، إنه يسدد فوهة المزمار إلى أعلى ، ويتمايل برأسه عجباً ، وطبوله تدق بقوة ، وبقية المزامير تسنده ، وتكاثر علي الرجال يصافحون ويقبلون ويعانقون ، وتلفت فلم تقع عيني على زوجتي وأولادى ، ولا أعرف أين ذهبوا ، لاشك أنهم غرقوا فى الزحام ، وربما تسللوا إلى بيتنا ، وتركوني أنعم بوقت من أسعد أوقات حياتي ..
وأخيراً ، بعد جهد جهيد ، وصلت إلى بيتنا .. رأيت صيواناً كبيراً مقاماً فى الساحة أمام منزلنا ، وأبى يقف رافقاً هامته ، على رأسه عمامته البيضاء ، كان يتسمم والدموع فى عينيه ، والفرحة تكسو وجهه السمح ، وأمسكت يده بيدي وأخذت أقبلها مراوًا ، ثم احتضننى ولم يقل سوى . « ولدى .. حمداً لله على السلامة يا .. ولدى » .

أما أمى فلم أستطع الوصول إليها ، لأن بيتنا كان مليئاً بالنساء ، وفيهن عدد كبير من نساء الأسر المحافظة ...

وجلست فى الصيوان مثل المرة السابقة ، أى منذ ثماني سنوات تقريباً .. وأخذت أستقبل أهل القرية واقفاً ، مصافحاً ومعانقاً .. يمر بى طابور طويل يبدو بلا نهاية ...
ولم تهدأ الحركة إلا قبيل منتصف الليل ، ومن ثم دخلنا البيت ، وقصدت الغرفة التى سأنام فيها .. قلت لأمى : « هل ألفت أشعاراً جديدة » .
- « طول الليل أشعار ودموع وصلاة ودعاء » .

أيتها الصابرة الطيبة ، لطالما عانيت وثابرت ، ولم تيأسى أو تكلني .. كانت ضراعاتك تطرق أبواب الليل حتى الفجر ، ولم تكفى يوماً واحداً عن الابتهال والضراعة والاستغاثة ، يا أمة الله الساجدة الراكعة المتذلة .. لقد استجاب الله لدعائك ، وأنقذنى من براثن الوحوش .. ليس مرة واحدة .. ولكن مرتين ..
لقد كاد بصرك يكف من انهيار الدموع ، وطول السهر ، وقلة الطعام والأحزان .. لكن الله أبقاك حية صامدة ، لم تقتلعك ريح الطغيان ، أو يعصف بك طاعنى الأحزان ، كنت تنتظرين لا تملين الانتظار ، وتدقين باب الرحمة بيدك الواهنة المعروفة ، وأنت واثقة أنه سوف يفتح لك فى يوم من الأيام ، وسيأتى إليك « طفلك » الكبير .. المتزوج .. أبو أحفادك .. ليمسح لك الدموع ، ويعيد إلى قلبك الفرحة ، وإلى ثغرك البسمة .. أيتها الأم العظيمة ..

واجتمعت الأسرة بكاملها معى فى هذا الأيام ؛ أخى المرحوم أمين وزوجته وأولاده ، وأختي فوزية وزوجها وأولادها ، وكذلك أختي عائدة ، وأخى محمد الذى تخرج وأصبح معيداً بالكلية ، وكذلك عمى عبد الفتاح وعمى أحمد وأسرتهما ، واستعدنا ذكريات الماضى وآمال المستقبل ، كان أبى يجمع أفراد الأسرة تحت معنى عظيم « صلة الرحم » ، وجميع الأفراد ملتزمون بقيم الوحدة والتعاطف والتعاون ، ولعل هذه المبادئ لم تزل قائمة حتى الآن ، على الرغم من أن الآباء قد اختارهم الله إلى جواره منذ زمن ، فأرضنا الزراعية لم تقسم ، وبيوتنا شبه مشتركة ، والتكافل الاجتماعى ينشر أجنته على الجميع والحمد لله ...

سألنى أخى أمين قائلاً : « كم سجتاً دخلت ؟ » .
قلت له : « سبعة .. آخرها سجن مزرعة طرة .. وأدعو الله أن يكون خاتمة المطاف .. » .

قال أخى : « أدعو الله ألا يعيد هذه الأيام السوداء مرة أخرى » .
 - « آمين يا أخى آمين .. » .
 وضحكنا ..

وكان أبى يسمعنا ، دون أن يتكلم ، وعلى وجهه علامات الارتياح والاطمئنان ، بينما قالت أمى :
 « لا تنتقل قدم من مكان إلى مكان إلا بأمر الله » .
 وتلونت نظرات أمى بقدر غير قليل من الأسى وقالت : « أخبرتنى زوجتك بأنك تفكر فى السفر
 إلى الخارج » .
 قاطعها أبى قائلاً : « إنه مسافر دائماً » وماذا فى ذلك ؟ إذا كان فى السفر مصلحة له فلا بأس



[٧] القافلة تسير والدائرة تدور

استأنفت عملي في المستشفى والقسم الطبى بالمدينة السكنية بأبوزعيل كطبيب مقيم ، ومعنى ذلك أننى أكون على رأس عملى بالقسم (العيادة) منذ الصباح داخل الورش ، ثم أظل طوال باقى اليوم تحت الاستدعاء ، وذلك لعلاج أو إسعاف الحالات الطارئة ، ولم أكن متبرئاً بذلك فأنا أحب عملى والحمد لله ، وبعد أن أستريح قليلاً فى الظهيرة ، أذهب إلى المستشفى ، وأجلس فى مكتبى انتظاراً لما يأتى من حالات مرضية ، وهى حالات ليست كثيرة على أية حال ، وكنت انتهرز هذه الفرصة فأقرأ بعض الكتب ، أو أكتب قصة قصيرة أو فصلاً فى رواية ، وفى بعض الأحيان كنت أبقي فى مسكنى لأفعل نفس الشئ ، أستطيع أن أقول أننى كنت أنظم عملى ووقتي بالطريقة التى تروق لى ، ولم أعد أذهب كثيراً إلى المحافل الأدبية كعهدى السابق ، كما لم أعد أشارك بالكتابة فى الصحف مثلما كنت أفعل قبل ذلك ، ووجدت نفسى عازقاً عن القيام بذلك ربما كره فعل لأيام المعتقل ، وما شابها من مرارة وأسى ..



كان شغلى الشاغل هو السفر للعمل فى الخارج ، وخاصة بعد أن علمت أن بعض إخوانى استطاعوا أن ينجحوا فى ذلك ، ولهذا بقيت أحلم باليوم الذى أستطيع أن أرحل فيه عن بلدى الذى أحبه ، ولقد قامت نقابة الأطباء أثناء الاعتقال بصرف مساعدات مالية للأطباء المعتقلين ، إلا أنا ، ذلك لأننى لم أكن قد اشتركت فى النقابة طوال السنوات الست السابقة ، ولذلك ندمت أشد الندم ، وبادرت فور خروجى من المعتقل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بقيد اسمى فى النقابة العامة للأطباء ، ودفع الاشتراكات المطلوبة ، واستخراج الترخيص الخاص بمزاولة المهنة ، والحقيقة أننى كنت أمارس العمل قبل ذلك بصفتى طبيباً مكلفاً ، ولم يكن يطلب من الطبيب المكلف مسوغات تعيين أو ترخيص . وبطبيعة الحال فإن السفر إلى الخارج - إذا تيسر - يحتاج إلى أن يكون الطبيب مرخصاً ، وكان أصدقائى يعجبون كيف أسجل عضويتى فى اتحاد الأدباء ، وأنسى أن أسجلها فى نقابة الأطباء ، وللأسف لم يكن اتحاد الأدباء أو نادى القصة يصرف أية معونات للأعضاء ، ولم يزل هذا الاتحاد حتى الآن تعسلاً لم يقم بعمل أية مشاريع تخدم حملة القلم ، وهو لاشك يحتاج إلى روح جديدة نشطة تبعث فيه الروح مثلما يحدث فى نقابة الصحفيين أو المحاماة أو المهن الأخرى عامة .

ومع ذلك فقد كتبت فى هذه الفترة رواية مواكب الأحرار ، وحمامة سلام ، وعدداً من القصص القصيرة ، كما أعدت طبعات جديدة من بعض الروايات القديمة . وبعثت فى تلك الفترة ابنى حسام الدين وابنتى عزة إلى مدرسة الروضة ، وكانت زوجتى قد تخرجت فى منتصف عام ١٩٦٦ أى قبل خروجى من المعتقل من معهد الخدمة الاجتماعية ، كما تخرج أخى محمد بتفوق من كلية التربية البدنية والرياضية ، وغُيِّنَ معيداً بها ، وقد نال بعد ذلك الماجستير والدكتوراه فى المناهج وتدرج فى الوظائف الجامعية ، حتى أصبح عميداً لكلية التربية بطنطا والحمد لله ، وحقق مكانة متميزة فى كليته ، وفى

جامعة طنطا ، وفي نفس الوقت اختار الله إلى جواره زوج أختي السيدة عايده ، وهي في عامها التاسع والعشرين ، وترك لها من الأطفال ثلاثة : بنتين وولداً ، ومعاشاً شهرياً ضئيلاً ، وقطعة صغيرة من الأرض الزراعية .

كنت قد أشرت إلى ضعف صحة زوجتي ، ولقد أدركت السبب وراء ذلك ، إذ إنها أصيبت بنزيف مستمر طوال الفترة السابقة ، وشخص أطباء النساء والولادة ، بأن النزيف راجع إلى أسباب نفسية ، وفشلت جميع الجهود العلاجية لوقفه ، ولم أذكر وسقاً بعد خروجي من المعتقل في علاج حالتها لدى أفضل الأطباء المتخصصين في هذا المجال ، وتكللت جهودهم والحمد لله بالنجاح ، وبعد بضع شهور قليلة حملت لكن الله أراد أن يحدث لها إجهاض ، ورأى الطبيب المعالج أن يجري لها جراحة صغيرة ذلك لأن تشخيصه كان « إجهاض غير كامل » مما يستدعي عملية يسمونها « كحت وتفرغ » ، حدث ذلك وأنا أعد العدة للسفر ، وأدخلناها مستشفى كلية الطب بجامعة عين شمس تحت رعاية أحد الأطباء الأصدقاء ، وخرجت من غرفة العمليات بسلام ، وأخذت تصحو من آثار التخدير (البنج) رويداً رويداً ، وهناك في إحدى مراحل الإفاقة يحدث لدى بعض المرضى أن يبيحوا بأفكار وأسرار مكبوتة ، وذهلت إذ سمعت زوجتي تصرخ بأعلى صوتها في حضور الطبيب والحكيما وتسب جمال عبد الناصر سباً صريحاً متتالياً ، وحررت في أمرى ماذا أفعل ، ووجدتني أقرب منها وأحاول جاهداً أن أضع يدي على فمها إذ لو تسرب هذا الأمر إلى رجال الأمن لتعطلت عن السفر ، ولربما أعادوني إلى المعتقل ، وسجنوها هي الأخرى ، وضحكت إحدى الحكيمات وقالت : « نحن نشاركك نفس الشعور » .

وابتسم الطبيب وقال : « دعها ، وستفرغ ما في داخلها ثم تهدأ .. » .
ويبدو أنها بعد ذلك تذكرت موت أبيها ، فعادت للصباح مرة أخرى وهي ما زالت تحت تأثير التخدير باكية منتحبة على أبيها ، وكأنه قد مات الساعة ولم يمت منذ أكثر من عام ، وأخيراً زالت آثار التخدير ، وهذأت زوجتي ، وفتحت عينيها ، فحمدت الله على أن مر الأمر بسلام .
وعدنا إلى مسكننا ، ثم أخذت أشرح لها ما جرى منها ، فلم تكن تصدق ما أقوله ، وكانت تستغرب كيف يحدث ذلك منها دون أن تدري ، وتأسفت إذ سببت لي حرجاً كنا في غنى عنه .
وأخبرتني أن أباهما في أيامه الأخيرة طلب إلحاح أن يراني قبل أن يلقى الله ، وكنت أنا في المعتقل ، فانتهزوا فرصة ما كان يتنابه من شرود ونعاس وأحضروا شقيقي محمد وأوهموه أنه أنا ، فأمسك بيده مغمض العين ، وتحسسها ، ثم تركها في هدوء ، ويبدو أنه أدرك أن في الأمر خديعة ، ودمعت عيناه ..
وقبيل وفاته قال لابنته (زوجتي) : « لقد حصنتكم بقراءة القرآن ، وباسم الله الأعظم ، وبالذوات الصادقة الواردة عن رسول الله .. ولدي يقين بأن الله سيستجيب لدعائي .. فسيروا في طريقكم مؤمنين واثقين ، والله يراكم .. » .

وكانت زوجتي قد مرت ببعض الأزمات المالية مما اضطرها إلى بيع حليها الذهبية ، وأمسك أبوها بيدها العاطلة من أية حلية أو مجوهرات متألماً وقال ووجهه إلى السماء : « اللهم ألبسها الذهب والفضة ، وجد عليها برزقك الذي ما له من نفاذ » .

كان رجلاً صالحاً ، يثق فيما بيد الله أكثر مما يثق بما في يده ، ولم ييأس قط من رحمة الله وعطفه وفرجه ، قالت له ابنته ذات يوم : « رأيت يا أبى فيما يرى النائم ، أنني أشرب عصير المانجو الذي أحبه كثيراً .. » .

قال لها مبتسمًا : « مانجو؟ الله الله .. خير إن شاء الله سوف ينجو زوجك بفضل الله من الأسر .. ».

لم يكن له فى الدنيا مآرب سوى أن يربى أولاده الشمانية ويعلمهم ، ولم يطمع قط فى الحصول على مال كثير ، وكان بذلك سعيدًا راضيًا ، يقضى يومه بين مذاكرة العلم وإمامة الناس فى المسجد ، وإلقاء الدروس الدينية عليهم ، ويحاول جاهدًا إحياء السنن التى انصرفت عنها كثير من الناس . وحاولت فى النصف الأول من عام ١٩٦٧ السفر إلى الخارج ، لكننى لم أجد استجابة من رجال الأمن ، ونصحتنى يحيى بك كامل أمين ، رئيس مكتب المباحث فى منطقتنا بالتريث بعض الوقت لأن الأمر يحتاج إلى شىء من البحث والدراسة ، ولابد من وجود من يضمّننى ، وخاصة أن بعض من سمح لهم بالسفر ، أخذوا يهاجمون الرئيس والحكومة فى الصحف المعادية فى الدول العربية والإسلامية ، بل وفى الصحف الأوروبية والأمريكية ، وهناك منهم من يشاركون فى تدبير المؤامرات ، ثم إن الموقف مع إسرائيل وحلفائها متأزم ، ولأحد يدري متى يحدث الانفجار الكبير فى الشرق الأوسط ..

كان يعمل معى بالمستشفى الجراح الدكتور رياض الشنوانى وهو المدير ، وهو رجل طيب ليس لديه أية اهتمامات سوى عمله ، وكان معنا أيضًا الدكتور عبد الخالق والى أخصائى أطفال ، وهو شقيق الدكتور جميل والى أستاذ الأطفال بالقصر العينى (مستشفى أبو الريش) ، وكنا نحن الثلاثة نعمل فى وئام تام ، وعلاقات طيبة حميمة ، وفى أحد الأيام نقل المدير إلى القاهرة ، وحل محله الزميل الدكتور عصام الدين مختار للعمل كجراح فى المستشفى ، وكان يقيم فى القاهرة ، ويأتى للعمل يوميًا ، ثم يعود إلى القاهرة بعد ذلك ، وعرض عليّ بعض الأصدقاء أن أنتقل إلى مسكن الدكتور الشنوانى الذى خلا ، وكان المسكن فى فيلاً عتيقة مبنية من دورين على الطراز الإنجليزى ، ويحيط بها حديقة واسعة أستطيع أن استفيد منها فى زراعة الفواكه والخضراوات ، فضلًا عن أن إيجارها نصف إيجار الفيلاً التى أقيم فيها ، ولأقت الفكرة قبولًا لديّ ولدى زوجتى ، وتم الأمر بأسرع ما يمكن ، وبعدها حضر الوالدان وأختى الصغيرة سميرة ليقضوا معنا فترة من الزمن ، وكنت أرتاح لوجودهم وكذلك زوجتى ، والحقيقة أن وجود أبى كان يريحنى تمامًا ، ويجعلنى أتفرغ تفرغًا تامًا لأعمالى ، لأنه حكيم وذو خبرة طويلة فى تنظيم أمور حياتنا ، ذلك أنه كان على علاقة طيبة مع الجزار والبقال وبائع الخضراوات والفواكه والخبز وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانوا يحبونه جدًا ، ويعتبرونه واحدًا من المقيمين فى المدينة ، ثم إن وجوده يوفر عليّ كثرة الأسفار إلى القرية للاطمئنان على الأسرة .

ومن الطريف أن أحد عمال الورش كان يتقن عملية الزراعة ، وعرض عليّ أن يتولى شأن الزراعة فى الحديقة الكبيرة ، مقابل خمسين قرشًا فقط شهريًا ، ولبمساته السحرية أحال الأرض حولنا إلى خضرة وزهور وخيرات توحى بالجمال والسعادة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اقتنى عنزة ولدت ثلاثة ، كما اهتم بتربية عدد من الدجاج والبط ، حتى أصبحنا وكأننا نعيش لحد ما فى القرية ، وكنت أجد فى ذلك متعة وسعادة ..

وذات يوم دق جرس الباب ، ونظرت من الشرفة فإذا بى أرى الضابط « ع . س » قلت فى نفسى : « يا إلهى ! ! ما الذى أتى به ؟ هل عاد مرة ثانية ؟ » .

نزلت إليه ، وقدته إلى غرفة الضيوف ، كان معه طفل فى الثالثة من عمره يشبهه تمامًا ، وكان « ع . س » أزرق العينين أشقر الشعر والوجه ، يبدو وسيما ممتلئًا ، وكنت أعرفه جيدًا ، وله مع الإخوان تاريخ طويل ، كان ضابطًا فى سجن طرة ، ومشرفًا على عتبر الإخوان هناك حيث كانوا يقومون

بالأشغال الشاقة (تكسير صخور الجبل) وفي وجوده وقعت أحداث سجن طرة المؤلة في عام ١٩٥٧ حيث قتل بالرصاص واحد وعشرون وجرح مثلهم، ثم نقل الأحياء بعد تعذيبهم إلى سجن القناطر، وكانوا تحت إشراف (ع. س) الذي أخذ يخطط ويدبر للإيقاع بينهم، ونجح في زرع الشقاق والخلاف بينهم، حتى انقسموا على أنفسهم، ووعد المنشقين بالعمل على الإفراج عنهم، واستطاع من خلال الضعفاء والموتورين أن يتسلل إلى أسرارهم، وحقق في ذلك نجاحاً كبيراً، وبعد أن أدى مهمته نقل إلى عمل آخر في الشرطة بمنطقة القناة، وبعد فترة من الزمن تربو على العام أى في عام ١٩٦٦ تذكره، فنقلوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، ليبدأ في تنفيذ مخططاته القديمة مرة أخرى، وقدموا له مسكناً في المدينة السكنية لعمال وموظفي السكة الحديد بأبو زعبل، وكانت الشقة التي يسكن فيها على مقربة من الفيلاً التي تخصني.

لم أسأله عن سر مجيئه إليّ، فقد أخذ يبلغني تحيات إخواني وأصدقائي الذين ما زالوا قيد الاعتقال بمعتقل أبو زعبل الجديد، وفي مقدمتهم أخى الكريم محمود الجندي أخصائي الجراحة رحمه الله، وكان من الطبيعي أن يلحق إليّ أن الحكومة أرادت أن تستفيد من خبراته القيمة، ولهذا نقلته ليتولى أمر الإخوان في المعتقل، وكان بذلك فخوراً جداً، كنت أكره أسلوبه وتوجهاته وبروده وقسوته، لكنني لم أستطع أن أفصح له عما يدور في نفسي، بل كنت ابتسم مجاملاً وأنا أقدم له الشاي، وأتذكر تلك الكلمات الصادقة «إننا نيش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»، وكان منظره رغم وسامته الواضحة يرتبط في ذهني بمنظر الثعبان ..

قال: «أختي الأصغر منى مريضة، فهل لديك وقت لزيارتنا وفحصها؟».

- «بكل تأكيد ..».

مررت بالمستشفى وأخذت معي الحكيمة وأدوات الفحص الضرورية، وقصدنا بيتهم، كان البيت - أعنى الشقة - يتسم بالكآبة، والصمت يهيمن عليه، ليس فيه صوت مذياع أو تلفاز، ولا غمغمات أطفال، خيل إليّ أن السجن فيه حياة وحيوية أكثر منه، أدت مهمتي على وجه السرعة، خاصة أن الفتاة ليس بها سوى التهاب حاد بالحلق واللوزتين وارتفاع في درجة الحرارة، وسعال جاف، وكان الصدر سليماً إكلينيكيًا، وكذلك القلب.

كان واضحاً أن مملكة «ع. س» الحقيقية هي السجن وليس البيت، وكانت كل أحاديثه تنصب على أعماله وذكرياته، بين السجناء والمعتقلين، في السجن يجد ذاته، إنه سعادة البك، إنه يأمر فيطاع، العساكر يؤدون له التحية، والمعتقلون والسجناء يحنون رءوسهم أمامه، يستطيع أن يقول أى شيء ولو كان بذيئاً أو ظالماً أو كاذباً، والجميع له مصدقون أو هكذا يتظاهرون بالتصديق، حياة الزيف تسكره وترضى غروره، واستخدام العنف والقسوة تشعره بالقدرة والقوة والانتصار.

وتمر السنوات، وينهى «ع. س» مهمته في معتقل السياسيين، ويخرجون إلى عالم الحرية، ويعود هو إلى عالم الشرطة في عمله الأصلي، ويتجرد من سلطات الطوارئ التي كانت تطربه وتغريه وتسعد قلبه، ثم بدأ يشعر ببعض الأعراض المرضية المحيرة، وتوالى الفحص الطبى والتحليلات وصور الأشعة اتضح أنه مصاب بداء خطير عضال لا يرجى شفاؤه، وصارحه الأطباء بالأمر في سفره إلى الخارج للعلاج، وأخذت الوردة النضرة الجميلة تذوى وتذبل، وحطم العجز إرادته وآماله وطموحه، وهد قواه، حتى جاءه الموت .. ترى هل كان يفكر في الموت وهو يتفجر حيوية ونشاطاً، أم أن أوهام الخلود كانت لا تدع له فرصة لذلك؟ اللهم لا سماتة !

عندما قرأت نعيه في الصحف ، تذكرت ما فعله بأحد العلماء الأجلاء الشيخ « ح . أ » ، كان « ع . س » يضربه دون سبب محدد ، ويسخر من شيبته ولحيته ، ويقول له : « قل أنا عائشة . يقصد امرأة » .
فيرد الشيخ الجليل رافضاً ذلك ، ومذكراً إياه بأنه رجل علم ودين ، ولا يصح أن يصل الاحتقار لشأنه إلى هذا الحد ، فيصر « ع . س » على طلبه ويواصل الضرب ، ولم يجد الشيخ بداً من أن يستغفر الله ويحوّل ويقول : « أنا عائشة رضى الله عنها » .

ثم يتمم الشيخ بينه وبين نفسه قائلاً : « ... إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وها قد مضى على وفاة ذلك الضباط سنوات طويلة ، لكن الشيخ الجليل خرج ذات يوم من السجن ، وساح في أنحاء العالم الإسلامي والعربي يدعو إلى الله وإلى منهج الحق ، وطبقت شهرته الآفاق ، وهو حتى كتابة هذه السطور (١٩٩٤) يحيا في صحة جيدة رغم أنه في العقد التاسع من عمره ، وقد عانى الشيخ من مرض في ركبتيه كاد يقعه عن الحركة والعمل لكنه سافر إلى ألمانيا للعلاج ، وعاد بركبتين صناعيتين ، وعاد يمارس حياته الطبيعية دون مشقة ، ويتسم وهو يحمد الله ويقول : « عاد الشباب إلى ركبتي » .
وعندما يتذكر ما كان يفعله « ع . س » يقول : « غفر الله لنا وله .. البقاء لله وحده .. » .



في أحد الأيام كنت أجلس في العيادة الطبية داخل الورش ، ودق جرس التليفون ، ورفعت السماعة : « نجيب ؟ » .

- « نعم .. » .

قال بصوته القوي الواثق : « ألا تعرفني يا ... ؟ » .

قلت على الفور : « لا يجرؤ على مثل هذه الألفاظ إلا واحد فقط » .

- « من هو ؟ » .

- « الأستاذ محمود شاكر » .

وانطلقت ضحكاته الرنانة عبر التليفون ، وكانت نبراته توحى بالسعادة القصوى ، قلت : « كيف خرجت ؟ » .

- « عندما تأتى لزيارتي ستعرف ، سأنتظرك في بيتي غداً .. ولا بد أن تكون معك زوجتك .. » .

- « والعنوان ؟ » .

- « ألا تعرفه ؟ هل هناك من يجهل شارع الأسود بمصر الجديدة ؟ » .

عندما ذهبنا إليه في الموعد ، وجدت نخبة من أصدقائه وتلامذته ، منهم الأستاذ جمعة حسين الكويتي وهو من رجال التربية والتعليم ، كما وجدت صديقه الشاعر الكبير « محمود حسن إسماعيل » وهو في طليعة شعراء مصر ، بل والعالم العربي في تلك الفترة ، كما رأيت لأول مرة الطفل « فخر محمود شاكر » وهو في الثالثة من عمره ، كما التقيت بالأستاذ الدكتور عبد السلام هارون وهو أحد أقرباء الأستاذ محمود شاكر ، والحقيقة أن بيته كان أشبه بجامعة تضم عدداً من خيرة الأصدقاء والتلامذة ، وكان الأستاذ محمود معجباً بشعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، ويقول أنه أدخل « بحرًا » جديداً في الشعر العربي ، ويقول أيضاً إنه كان يكتب الشعر ، لكنه عندما قرأ شعر محمود حسن إسماعيل توقف عن ذلك ، فترك الساحة لهذا الشاعر الفحل ، لأنه أجدر وأحق بها .

وحيثما حانت ساعة تناول الغداء ، جلس جميع الحضور دون استثناء على المائدة يأكلون ، وكنت

أسأل نفسي من أين يأتي هذا العالم الكبير المتفرغ بالمال الذي يكفى لهذا كله؟ ويبدو أنه كان لديه دخل لا بأس به من مصنفاته، ومن المكتبة التي يشارك فيها آنذاك وهي مكتبة دار العروبة، كما علمت أيضًا أن هناك هبات ترد إليه من بعض تلامذته وأصدقائه القادرين، المهم في الأمر أنه يعيش في سعة من الرزق، ولا يحمل للغد همًا.

كما علمت أيضًا أن المحجوب رئيس وزراء السودان في تلك الفترة - وهو أحد تلامذته - قد توسط له لدى رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، فأفرج عنه، وكان عبد الناصر يطلق عليه «الرجل أبو دقن»، ولم يكن يحبه.

وتحدثت بعد الغداء مع الأخ الكويتي الأستاذ جمعة حسين عن طبيعة عمل الأطباء في الكويت، وعن موسم التعينات وما إلى ذلك، وأخبرته بأن أخي وصديقي الأستاذ محيي الدين عطية قد أرسل إليّ بريقة يقول فيها «احضر للتعاقد مع وزارة الصحة بالكويت» وشرحت له صعوبة الخروج من مصر في تلك الفترة بسبب الإجراءات المتعنتة، ووجود اسمي في قائمة ممنوعين من السفر (القائمة السوداء كما كانوا يسمونها)...

وهكذا قضينا يومًا ممتعًا في ضيافة هذا العالم الكبير، وكانت زوجته السيدة المتواضعة الكريمة تبذل أقصى جهودها لتحقيق لزوجها ولزواره أقصى درجات الراحة..

وكان شهر مايو عام ١٩٦٧ شهرًا عاصفًا مليًا بالأحداث الخطيرة، وكان جمال عبد الناصر في عنفوانه وشعبيته على المستوى المحلي والإقليمي، لقد حشد الكثير من السلاح والرجال وأخذ يهدد ويتوعد إسرائيل بالويل والثبور وعظائم الأمور، وطرد القوات الدولية عند الممرات في سيناء، وحشد قواته هناك، فاهتز المجتمع الدولي بأسره لما طرأ من أحداث في الشرق الأوسط، كما أصبحت المنطقة كلها على شفا الهاوية، وتوترت الأوضاع أيضًا على الحدود بين سوريا وإسرائيل، وكذلك حدود الأردن مع العدو.

كان الشعور السائد بأننا قادرون على سحق إسرائيل وتحرير فلسطين، وهو شعور الغالبية العظمى الذي يتجلى في خطابات جمال عبد الناصر الملهبة، وفي حماسة الجماهير التي تشتعل تشوقًا إلى المعركة، وفي عناوين الصحف الكبرى في مصر وعلى رأسها جريدة «الأهرام»، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحريرها يديج المقالات، ويطلق الشعارات، ويرز صور قواتنا المسلحة في صدر صحيفته، فمثلًا يضع لقطة لطائرات الميج، ويكتب بالمانشيت العريض فوقها:

«طائراتنا تحمي سماء الشرق الأوسط».

ولقد علمت أن الحماسة انتقلت أيضًا إلى بقية الإخوان المعتقلين الذين لم يفرج عنهم بعد، وأبدوا رسميًا استعدادهم للتطوع إلى جانب القوات المسلحة لمحاربة إسرائيل باعتبار ذلك جهادًا في سبيل الله، وكان ذلك شعور الكثيرين منهم، وإن كانوا على يقين بأن الحكومة لن تستجيب لرغبتهم..

لم نكن نعلم أننا نعيش في وهم كبير، صنعته الأقلام والألسنة المخدوعة المغرورة، وعقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا عالميًا كبيرًا أظهر فيه إيمانه المطلق بالنصر، وثقته الكاملة في قواته المسلحة، وهاجم أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التي تدعم إسرائيل، كما أشار إلى أنه لم يزل صغير السن لحد ما، وأنه باق لليهود وأذئابهم المستعمرين لفترة طويلة قادمة، وأنه لهم بالمرصاد، وقال عبارته التي حيرت المترجمين «أنا مش «خرع» زي مستر إيدن» الذي فشل في اشتراكه بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.

الحقيقة أن الشعب المصرى والشعب العربى أيضًا كان على ثقة تامة بالنصر ، ولم يدر بخلدهم أن تحدث هزيمة لقواتنا التى أنفقنا عليها « دم قلوبنا » كما يقول المثل الشعبى .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشير مرة أخرى إلى أن جمال عبد الناصر قد أصبح - كما يقولون - معبود الجماهير - لدرجة مذهلة ، حتى لينطبق عليه قول الشاعر القديم الفاسد الفاسق والعياذ بالله :
ما شئت لا ما شئت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهارُ
وأستغفر الله لذنبى ولذنوب المؤمنين أجمعين ، لكنها الحقيقة المرة التى يجب أن تسجل ، والتى يجب أن يعرفها الجميع ، ولم لا يصيبه الزهو والغرور وهو الذى يستطيع أن يفعل أى شئ دون أن يعترضه أحد ، أو يفكر فى مجرد مناقشته ، لكن الناس ينسون دائماً .

لو فكر أحد فى العودة إلى صحف القاهرة فى تلك الفترة وأخذ يتجول بين صفحاتها ويتمعن فيما كتب بأقلام الكتاب والشعراء والفنانين . ولو استمع أحد لما حفظه أرشيف الإذاعة والتلفزيون من أغاني وتمثيلات وشعارات ، لو فعل أحد ذلك الآن لهاله ما رأى وما سمع ، وسيجد الباحث عن الحقيقة فى تلك السجلات القديمة العجب العجاب .. نعم سيجد أفلامًا تسبح بمجد عبد الناصر وعدائه وبطولته وقيادته الملهمة .. فإذا توالى السنون .. سيجد نفس الكتاب يكيلون الذم والنقد والتجريح للزعيم الملهم ، ناصر الملايين ، وحبيب الفقراء والمساكين والمستضعفين ، وقاهر الرجعيين ، ومؤدب الخونة والمتاجرين بالدين .. ومن بين هؤلاء الكتاب الناكسين وزراء وحكماء وفلاسفة وأعضاء سابقون فى مجلس قيادة الثورة ، وشعراء وصحافيون ، وعلماء مؤمنون ، وفلاسفة اشتراكيون ، كان يمكن أن نسمى تلك الأيام « عصر الفتنة » ، لكن كيف والفتنة قائمة منذ أن أيقظها الجاهليون ، وأخذت تطل على الحقب المتتالية من زمن بعيد ..

ولا أريد أن أخوض فى تفاصيل هزيمتنا المنكرة فى شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ، فقد صدرت عنها آلاف الكتب والمنشورات والدراسات ..
فى يوم بدء المعركة قال ضابط صغير بالأمن « ف » بصوت أجش ممتلئ بالثقة والغرور : « أعتقد أننا سندخل « تل أبيب » فى أربع وعشرين ساعة » .

وكان يحى بك يجلس فى مكتبه وأنا معهما ، قلت هامسًا فى تردد . « يا « ف » بك .. نحن لا نحارب ماعزًا ولا خرافًا ، ولكننا نحارب جيشًا قويًا ذا عقيدة ، ومن الطبيعى أن المعركة لا بد وأن تكون قاسية .. » .

وصمت برهة لكننى استدركت قائلاً : « سننتصر بإذن الله .. » .

كان لا بد أن أستدرك بهذه العبارة ، فرمما ظنوا كلامى عن قوة العدو مثبتًا للهمم ، ومفرقًا للصفوف ، ولا بد أن يحذر الإنسان فى هذه الأيام حتى ولو كان بين أسرته وأصدقائه ، فما بالك بى وأنا أجلس مع رجال الأمن الرسميين الذين اعتقلونى منذ زمن ليس بالبعيد ..

عدت إلى منزلى قبل بدء المعركة ، وأشرت على زوجتى أن تأخذ الأطفال وتسافر معهم لتقيم فى قريتنا « شرشابة » نظرًا لأن المنطقة التى أعمل بها من المناطق الخطرة المعرضة لغارات الطائرات الإسرائيلية حيث يوجد بها عدد من المصانع والصناعات الهامة كمؤسسة الطاقة الذرية وبعض الأسلحة ، ومحطة إرسال الإذاعة ، ولكن زوجتى فضلت أن نعيش معًا ، ويعجرى علينا ما يعجرى على بقية خلق الله .
فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ كنت أمارس عملى بالمستشفى وسمعت أصواتًا هائلة لطائرات

حرية تطير على مستوى منخفض وتحدث ضجة لم أسمع مثلها من قبل ، وتوقفنا عن العمل لأنه أمر غير عادى .. وأصابنا الذهول ها هي الحرب قد بدأت ، وأخذ الناس يتابعون المذيع والبيانات العسكرية المتتالية ، وخاصة عدد طائرات العدو التي أسقطتها قواتنا ، وظننا أننا بدأنا خطوات النصر الأولى ، ساعات قلقه رهيبه .. إنه مصير شعب بأسره .. مصير أكبر دولة عربية .. ثم استمعنا إلى الإذاعات الأجنبية .. الأخبار متناقضة .. بدأ الشك يغزو النفوس ..

عدت فوراً إلى البيت ، وجدت أطفالى يجلسون تحت منضدة الطعام لعلها تحميهم ، قلت لطفلى الأول حسام الدين : « أخرج يا بطل .. ألم تقل بالأمس : كيف تقوم الحرب وأنا صغير ؟ يجب أن أكبر وأصبح ضابطاً حتى أحارب اليهود .. » . وضحكت وأنا أقول : « هانت تهرب تحت المنضدة » .

فخرج ، ثم وقف إلى جوارى ، وهو يرسل الأسئلة المتتالية عن الحرب ، ومن المنتصر ، وإلى متى ستستمر هذه الحرب ، لم يكن لدى الوقت لأجيب ، ولكنى أمرت زوجتى بالاستعداد للسفر إلى القرية على الفور ، فقد أعددت لهم حافلة تنقلهم إلى القاهرة ، ثم ينتقلون إلى القطار المسافر إلى طنطا ، ومن طنطا يكون من السهل السفر إلى بيت أبى فى شرشابة وتم الأمر على النحو الذى أردته فى وقت قصير ، وبقيت أنا فى المستشفى عازماً على أن أقضى فيها أيام الطوارئ حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ..

أيام ثلاثة مضت ، تأكد لنا بعدها أن الكارثة قد وقعت ، وأن الهزيمة الماحقة قد حلت بنا ، إن معظم طائراتنا قد ضربت وهى جاثمة على الأرض ، وأن قوات جيشنا البائسة تتراجع فى فوضى ، وعشرات الألوف منهم قتلوا أو جرحوا أو أسروا ، واستولى العدو على كميات ضخمة من أسلحتنا الحديثة ، وأصبحت فضيحتنا على كل لسان فى أنحاء العالم ، ولحق بنا عار أبدي ليس له مثيل فى تاريخنا القديم والحديث ، سمعنا أن مدافعنا المضادة للطائرات قد أسقطت طائرة إسرائيلية ففرحنا وجربنا إلى هناك ، والتقطت قطعة من الطائرة المحترقة ، وعدت بها فخوراً آملاً أن أحفظها للذكرى ، لكن يحى بك أمين ابتم فى مرارة وقال : « إنها ليست طائرة إسرائيلية بل طائرانا نحن » .

أصابنا الهم والكمد ، حزن لم نر مثله طول حياتنا ، وتذكرت التصريحات الرسمية منذ أيام عن قواتنا التي لا تقهر ، وطائراتنا التي تحمى سماء الشرق الأوسط ، وأسلحتنا الروسية الحديثة التي ستحقق النصر الأكبر ، ثم جاء اليوم الذى أعلن فيه جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة ، وهاجت الدنيا وماجت ، وشعر الناس باليأس والضياع ، ومن يستطيع فى هذا الوقت العصيب أن يتحمل تلك المسؤولية الكبرى لشعب تخطمت آماله ، وذاق مرارة الخيبة التي أوقعه فيها قاداته ، شعب لم يشارك فى اتخاذ قرار ، أو يعرف شيئاً عن حقائق الأمور ، وليست لديه الصورة الصحيحة عما كان يجرى ، شعب وثق فى قائده البطل عندما قال بملء صوته فى خطاب رسمى « سيونا نشتغل » ، شعب جاع ليشترى السلاح ، ويحارب فى اليمن معركة خاسرة لا ناقة له فيها ولا جمل ، شعب محاصر لا يستطيع أن يعترض أو يناقش أو يعبر عن رأيه بصدق وحرية ، وهكذا حدث ما لم يكن يتوقعه أغلب الناس فى مصر والعالم العربى ، وأخيراً خرجت منظمات الشباب وعلى رأسها زعيمها حسين كامل بهاء الدين تهتف وتطالب بعودة الرئيس إلى موقعه ، وخرج خلق كثير يطلبون نفس الشيء ، ورفض زكريا محبى الدين أن يبقى فى مكان عبد الناصر القيادى ، وسادت الفوضى الشارع المصرى ، وتناثرت الاتهامات ، وقبض على قيادات الجيش ، وعزل المشير عبد الحكيم عامر قائد الجيش ، وصديق عبد الناصر الحميم ، بعد أن أعلن عبد الناصر موافقته على الاستمرار فى عمله كرئيس للجمهورية وقائد للثورة .

ووصلت قوات إسرائيل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بعد أن احتلت سيناء بالكامل ، أفراح من

إسرائيل واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وأحزان في مصر ضحية الدكتاتورية والحكم المطلق، وضحية المخابرات ورجال أمن الدولة القساة غلاظ الأكباد، وها نحن ندفع الثمن الغالي من كرامتنا ودماء أبنائنا وإخوتنا وسمعتنا، وأخذ الشعراء والكتاب يغوصون في مآهات الضياع والحرمان واليأس الأسود، ويكتب نزار قباني عن «السلطان» وكلاب السلطان التي مزقت حذاءه، وأخذت تعد حركاته وسكناته، كما أخذ خطباء المنابر يحثون الناس على العودة إلى الله، والإكثار من الاستغفار والتوبة، واللجوء إلى ساحة الإيمان حتى يخلصنا الله مما نحن فيه من كرب، ويأخذ بيدنا لننهض من جديد، وندفع عن بلادنا وبلاد المسلمين الأذى والعدوان ..

كنت أعيش بصفة دائمة في تلك الفترة داخل المستشفى أنا ورفاق العمل من أطباء وممرضين وممرضات وفنيين وعمال، وكان معنا رجل يعمل كفني أشعة، يقال أنه حشاش، وهو سعيد جدًا لأن المستشفى يجهز لنا وجبات الغذاء الشهى، فكان «ع. م.» هذا يذهب إلى غسل يديه بعد الأكل ويقول: «يا رب احفظ لنا هذه النعمة، وأدم علينا أيام الطوارئ».

ونضحك بمرارة، فنراه يستطرد قائلاً: «ألم يقل ربنا في كتابه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ «بلى يا عم» ع. م.»

- «خلاص .. انتهى .. وقد نصر الله المؤمنين». كان كلامه ذا معنى لا يخفى على السامعين، لكنه كان مؤلماً. وكنت أقول له: «المعركة لم تنته بعد».

- «يا ترى من يعيش ..»

وفي المستشفى كان يفد إلينا أعداد من الجنود بأقدام متورمة، ووجوه شاحبة كالحة، وملابس متسخة، لأنهم ساروا على أقدامهم مسافات طويلة دون طعام وهم يتراجعون فراراً بجلودهم، وأخذوا يتحدثون عن المآسى التي رأوها، وعن الجنود الذين دفع بهم إلى ميدان القتال دون أن يتدربوا على استعمال سلاحهم، فقد استدعوا - كاحتياط - على عجل، وسط فوضى ضاربة، وحشود مبعثرة، لا تعرف لها خطة، ولا تدرى ماذا تفعل.

وقامت مظاهرات في أوروبا وأمريكا تؤيد إسرائيل، وقاد الفيلسوف والأديب الوجودي جان بول سارتر مظاهرة في باريس لتأييد إسرائيل وقال «إنني معجب بتلك الدولة العظيمة (إسرائيل) التي استطاعت أن تفلت من الفناء ببراعة، وتحقق نصراً أسطورياً».

وملاً «موشيه ديان» وزير الحرب الإسرائيلي الصحف العالمية بتصريحاته عن عبقرية إسرائيل، وعظمة جيشها الذي لا يقهر، وانهيار مصر والعرب تحت وقع ضرباته العاصفة، كما كتبت ابنته مذكرات عن الحرب ..

وكان لا بد أن يكون هناك «كبش فداء» يقدم لتبرير الهزيمة المحزنة، والتي أطلقوا عليها اسم «النكسة»، وهكذا بدأ الإعداد لمحاكمة قادة الأسلحة في الجيش، ومدير المخابرات صلاح نصر، وحزمة البسيوني قائد السجن الحربي، وغيرهم من الأسماء اللامعة الكبيرة، وتوالى الأحداث، وأعلنت الحكومة عن مؤامرة لقلب نظام الحكم في صفوف القيادات الحاكمة أنفسهم، ثم أعلن عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثاني بعد عبد الناصر، وقيل أنه قتل، واختفت وجوه، وبقيت وجوه، وطففت على السطح وجوه جديدة، وأعلن عبد الناصر عن كثير من الأخطاء التي وقعت فيها السلطة، ووعد بإصلاح الأمور، والقضاء على المظالم والسلبات والمهازل، استعداداً لمعركة جديدة لا بد منها في المستقبل ..

ويبدو أن جمال عبد الناصر قد تذكر التعماء القاهيين خلف الأسوار كمتعقلين منذ ما يقرب من عامين ، فأمر بالإفراج عن بعضهم ، أما البعض الآخر فقد بقي ما يقرب من خمس سنوات ، ولم يطلق سراحهم إلا في عهد الرئيس الراحل أنور السادات ..



لم أشعر بأدنى قدر من الشماتة في حكمانا الذين أذاقونا الأمرين ، بل كان بداخلي إحساس عميق بالحزن والألم ، إن جيلنا - جيل النكسة أو الهزيمة النكراء - تعس الحظ ، قد رأى وسمع ما لم يحدث لأحد قبله ، لكنه جيل معذور لم تتح له فرصة المشاركة بالرأى الحر ، والتفكير في صنع القرارات المصرية للبلاد ، كما أصيب الشباب المؤمنون بعبد الناصر في العالم العربي بصدمة نفسية وفكرية شديدة ، أخبرني صديقي الدكتور على محمد موسى وهو من سلطنة عمان ويعمل حالياً وزيراً للصحة في السلطنة ، قال : « لقد فجعت بعد الهزيمة في ١٩٦٧ ، وقررت ألا أقرأ أية صحيفة أو مجلة عربية ، وأنا الآن لا أقرأ سوى الصحف الأجنبية ، ذلك لأنني فقدت الثقة في أخبار وتعليقات وتحقيقات كل الصحف والمجلات .. » .

بل قال صديقنا الدكتور على أيضاً (وكان ذلك في السبعينات ، من القرن العشرين ، أى قبل توليه وزارة الصحة) : « لقد تركت العمل السياسى العربى ، بعد أن كنت متحمساً له لدرجة كبيرة منذ أن كنت أدرس في القاهرة ، لكن الهزيمة قد بعثت اليأس في قلوبنا » .

ومن عجب أن الناس رغم كل ما حدث بدءوا يعزفون على أوتار الأمل ، ويحلمون بمعركة جديدة ، ونصر أكيد ، واثقين أن الله لن يتخلى عنهم ، وإن تخلى عنهم الحكام وأعوانهم من الطغاة والمستغلين ، ومن الطريف أنه أثناء محاكمة النخبة الحاكمة السابقة ، قال حمزة البسيونى قائد السجن الحربى ، ورائد التعذيب فى عصرنا : « أخبرنى (س) أن ما أصابنا من هزيمة كان بسبب تعذيب الإخوان المسلمين وظلمهم ، وأنت يا حمزة فعلت الكثير والكثير فى إيذاهم .. » .

وأصبح « حمزة البسيونى » خارج السلطة بلا عمل ولا زوجة ولا أبناء ، وكانت نهايته فى حادث سيارة بشع فى الطريق العام بالقرب من مدينة « قويسنا » على طريق مصر إسكندرية ، وقتل معه عدد من أقربائه ، وعندما شاع الخبر ، خرج الناس فى قويسنا والبلاد المجاورة ليروا « مصرع الجلاد » بأعينهم ، ويأخذوا منه العبرة ، ولم يبق من حمزة البسيونى سوى صفحة سوداء ملعونة فى سجل الثورة المصرية ، وكنت قد نذرت لله نذراً أن أثار من هذا الطاغية حياً وميتاً بطريقتى الخاصة التى تناسبنى ، فكان أن كتبت رواية « رحلة إلى الله » عن ذلك الإنسان الشاذ ، وإن كنت قد غيرت اسمه وجعلته « عطوة الملوانى » تجنباً لمشاكل التقاضى وطلب التعويضات . هذا وقد كان لصديقنا وأخينا العالم والأديب الدكتور « يوسف القرضاوى » ملحمة من الشعر الجميل ، تناول فيها حمزة البسيونى ، وليالى التعذيب المهولة الطويلة فى السجن الحربى يقول فيها :

فى ليلة ليلاء من نوفمبر
فرّعت من نومي بصوت رنين
وإذا كلاب الصيد تهجم فجأة
وتحوطنى عن شمالٍ ويمين
إلى أن يقول :

متبلدون عقولهم بأكفهم
وأكفهم للشعر ذات حنين
وهى قصيدة فريدة فى نوعها ، شاع ذكرها فى كل مكان بالعالم العربى والإسلامى ، وطبعت

أكثر من مرة، وكان السجناء والمعتقلون ينشدونها طوال الأربعين سنة الماضية، بالإضافة إلى كثير من القصائد التي صاغها إخوة آخرون، لكنها لم تشتهر كما اشتهرت قصيدة القرضاوى، والواقع أن هذا التراث الشعري الذى يتحدث عن المحنة الكبرى جدير بأن يُجمع، ويُتناول بالدراسة ...

عادت زوجتى وأبنائى من القرية بعد أن انتهت المعركة، واستأنفنا حياتنا من جديد، لكننى لاحظت أن قبضة السلطة على السياسيين أخذت فى التراخي قليلاً، ومن ثم فكرت فى استئناف الجهود لكى يُسمح لى بالسفر إلى الخارج، وخاصة أنى أعتقد أن السنوات القادمة ستكون مليئة بالاحتمالات الأسوأ، ولا يضمن أحد تقلبات المناخ السياسى فهو عرضة دائماً لمتخلف التأثيرات الخارجية والداخلية، فما إن وصلتني برقية أخى الأستاذ محبى الدين عطية الذى أمكنه السفر إلى الكويت، حتى بادرت بتقديم طلب رسمى لوزارة الداخلية، مرفقاً به صورة من التلغراف (البرقية) طالباً فيه السماح لى بالسفر للعمل فى الكويت، كما تقدمت بطلب آخر إلى رئاستى فى الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية بالقاهرة، أطلب فيه الموافقة على إعارتى إلى حكومة الكويت، أو إعطائى إجازة بدون راتب، واستمر السعى المتواصل بضعة شهور، وفى كل فترة أجد وعوداً بالموافقة القرية، لكن الوعود لم تتحول إلى حقائق، ولم يكن أمامى سوى أن أتجمل بالصبر، وأستمر فى المحاولات، وخاصة بعد أن علمت أن عدداً من إخوانى قد نجحوا فى مساعيهم، وسافروا بالفعل، منهم أخى محبى الدين عطية، وفكرت فى أمر هام، وهو كيف أدبر ثمن تذاكر السفر لى ولزوجتى وأطفالى؟ وأخيراً اهتديت إلى حل وهو أن أبيع أثاث بيتى، لأننى لا بد، أن أخلى المسكن الحكومى الذى أعيش فيه تلك الفترة، وليس هناك مكان آخر أنقل إليه ذلك الأثاث، فضلاً عن أننى لن أخذه معى إذا سافرت، وكان الأثاث به بعض الأدوات الكهربائية كالثلاجة والغسالة والتلفزيون وغيره، وسوف أستطيع أن أجنى مبلغاً لا بأس به من المال إذا أنا بعتها، وهكذا استطعت العثور على حل لا بأس به كى أحصل على تذاكر السفر بالطائرة ..

وقامت بعض المظاهرات فى الجامعات احتجاجاً على الأحكام الهزيلة التى صدرت ضد قيادات الجيش، والتصرفات الخاطئة لحزب الحكومة، ومظاهر الاستغلال والفساد هنا وهناك، واستطاعت الحكومة أن تمتص غضب الجماهير باتخاذ بعض الإجراءات العلنية، وكان منها إعادة محاكمة قيادات الجيش مرة أخرى، وصدور أحكام أخرى قاسية عليهم، لكنها كانت دون الإعدام، ولا شك أن الحديث كان يدور همساً حول مأساة المشير عبد الحكيم عامر الذى انتحر منذ فترة، وكانت هناك شائعات قوية تؤكد أنه قتل ولم ينتحر، وأن تقرير الطب الشرعى عن موته إنما هو ملفق، وفى الوقت نفسه سقطت هيئة كثير من رجال السلطة الذين لم يكن أحد بمستطيع أن يتناولهم قبل ذلك بالنقد، وكتب الأستاذ د. عبد العزيز كامل، وهو من قيادات الإخوان البارزة، دراسة حول «دروس من غزوة أحد»، ونشر الكتاب فى دار المعارف ضمن سلسلة «اقرأ» وأعجب به الرئيس جمال عبد الناصر، وبعد فترة عين الدكتور عبد العزيز كامل وزيراً للأوقاف، وكان الأمر مثار جدل أيضاً فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين المنتحلة، وفى الوقت نفسه صعد نجم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد وهو من الإخوان أيضاً، وظل نجمه يصعد حتى عين فيما بعد وزيراً للشباب، ثم تولى بعد ذلك وزارة الإعلام وبعدها اختلف مع الرئيس السادات بعد موت عبد الناصر، فقدم استقالته .

ويلاحظ أن هناك ما يقرب من خمسين مسجوناً من الإخوان بقوا رهن السجن منذ عام ١٩٥٤ وعام ١٩٥٥، لأنهم أصرروا على موقفهم المعادى للحكومة، وبالإضافة إلى بعض المعتقلين الذين اتخذوا نفس الموقف، وظل هؤلاء وأولئك سجناء حتى جاء عهد الرئيس أنور السادات الذى أفرج

عنهم جميعاً، وكان من بين المسجونين الذين طال سجنهم الأستاذ عمر التلساني ثالث مرشد للإخوان بعد ذلك، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع للإخوان، والأستاذ مصطفى مشهور وكيل الإخوان حالياً، وكذلك صديقي ورئيس مجموعتي السابق الأستاذ عبد المنعم سليم وغيرهم.

وبدأت مرة أخرى محاولات مستميتة كي أستطيع السفر إلى الكويت، وتلقيت وعداً شفويًا بالموافقة من وزارة الداخلية، وذهبت إلى مبنى المجمع بميدان التحرير بالقاهرة لكي أعرف هل وصلت تأشيرة الخروج أم لا، لكنني علمت أنها لم تصل، فعدت مرة أخرى إلى الداخلية التي قالت أنها بعثت بها، لكنني في الأيام التالية ترددت على مبنى المجمع، فلم أجدها واستمر هذا الوضع شهرين حتى كدت أياس. وكان هناك مكان للانتظار في إدارة الجوازات، طالت جلساتي فيه، وفي يوم من الأيام سألت بعض الجالسين، فاكشفت أنهم جميعاً مثلي من السياسيين، ويتنظرون على أحر من الجمر تأشيرة الخروج، وأخيراً وبعد شهرين من بداية عام ١٩٦٨ نجح مسعاه بعون الله، وحصلت على تأشيرة الخروج، وأخذت أعد العدة للسفر، فبعت بعض الأثاث في البيت، واشترت تذكرة طائرة ذهاباً وإياباً حسب القانون على شركة مصر للطيران، وقبل أن أسافر ذهبت إلى قريتي شرشابة لكي أودع أهلي، إذ من المحتمل ألا أعود إلى مصر مرة أخرى في عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

كنا قد بعنا بيتنا القديم في وسط القرية، واشترى أبي فداناً من الأراضي الزراعية في أطراف القرية تصلح أرضاً للبناء، وبدأنا فعلاً في إقامة بيت جديد من الطوب الأحمر، كما بدأنا إدخال الماء وبعده الكهرباء، ونظرًا لأن البيت لم يكن قد اكتمل بناؤه والمشتري يريد أن يتسلم بيتنا الذي بعناه، فقد انتقلنا بصفة مؤقتة إلى بيت أحد أبناء العمومة، فأكرم ضيافتنا وهو الأخ إبراهيم بن محمد بن أحمد عبد اللطيف، ويعمل بالشرطة.

حانت لحظة الوداع، وكانت أمي تبكي بحرارة وتشبث بي. وأبي يهدئ من انفعالها ويقول لها إن هذه ليست المرة الأولى التي اغترب فيها، وأن حياتي كلها غربة، ومع ذلك فقد كانت عيناه هو الآخر مبللتين بالدموع، وأمي تقول له إن هذه هي المرة الثانية التي يذهب فيها إلى بلاد أخرى خارج القطر المصري، وكانت الأولى رحلة لمدة شهر، أما هذه فقد تطول الغيبة إلى سنين، ولا تكف عن القول: «منه لله اللي كان منه السبب».

وهي تقصد بذلك الحكومة التي تطاردنا وتضيق علينا الخناق، ونجرتنا إلى السجون والمعتقلات من آن لآخر، لكنني كنت أهدئ من روعها، وأؤكد لها أننا ذاهبون إلى بلاد جميلة مليئة بالخيرات والأمان والرزق الواسع، وليس فيها سجون لنا أو معتقلات، فكانت تقول أن الوطن غال وعزيز وتردد الحكمة الشعبية التي تقول: «عزك تلک ..».

فأضحك وأقول لها: «سيكون لنا تل جديد هناك نعرّ فيه».

احتضنتني بقوة وهي تقول: «الله معك ..».

ثم أردفت بدعائها المأثور الذي كانت تقوله جدتي دائماً: «يجعل في وسك جوهرة، وفي حنكك سكرة، ويحبب فيك خلقه .. ويردك لنا سالمًا ..».

وأبي يقف صامتًا محتقن العينين.

وقبلت يد أمي.

ثم قبلت يد أبي.

وانترعت نفسي انترعًا، وهرولت خارجًا، وبعد أن ركبت السيارة تنفست الصعداء.

أسرع بإرسال فيزة الدخول لنا حتى نلحق بك .. هذا أول شيء تفكر فيه .. سأعيش معك هناك على الحلوة والمرّة ، ولن أضيق بالحياة هناك أبداً مهما كانت صعبة .. أنا على استعداد لأن أعيش في كوخ على شاطئ الخليج العربي وأكل خبزاً وملحاً .. المهم أن نكون معاً .. أنا واثقة أن الحياة ستحلو لنا .. وسنكون أكثر سعادة وأمناً ، وسنجد الاستقرار الذي طالما حلمنا به .. » .
ودمعت عينها وهي تقول : « لا أقول وداعاً .. ولكن إلى اللقاء .. لا إله إلا الله » .
قلت لها : « محمد رسول الله » .

قبلت الأطفال الثلاثة ، وقلبي ينوح بصوت مكتوم ..
إن صورة الأحباب تتجلى في مخيلتي أبي .. أمي .. زوجتي .. أطفالي .. إخوتي وأخواتي ..
أعمامي وأقاربي .. زملاء العمل .. حتى الأماكن التي ألفتها .. ورأسي يثقل وأكاد أنام وأنا أتملى تلك المشاهد والصور .. وأنظر عبر نافذة الطائرة ، فأرى السماء الزرقاء الصافية توحى بالسلام والأمان ..
وتقدم إلينا المضيفة الجميلة ، وتقول وهي باسمه : « ماذا تطلب من الشراب .. »
قلت وأنا أتذكر الرؤيا التي رأتها زوجتي في منامها ذات مساء : - « عصير مانجو » .

وغداً يوم جديد ، وفجر جديد
والأيام تمضي ... والقافلة تسير

الدكتور نجيب الكيلاني

١٤١٤ هـ

١٩٩٤ م



فهرس المحتويات

الصفحة

الموضوع

.....	الجزء الأول
.....	مقدمة
.....	قرية شرشابة
.....	طفل فى القرية
.....	طريق بلا نهاية
.....	منعطقات
.....	ثورة الفلاحين الأولى
.....	الحب فى قرينتا
.....	إلى المدينة
.....	شعبنا المريض
.....	ذكريات شباب
.....	بعض من عرفت
.....	ذكريات سياسية
.....	الجزء الثانى
.....	المقدمة
.....	المدينة الجامعية
.....	مأساة الأقلام
.....	أشواق قلب
.....	اللواء محمد نجيب يتصدر الحركة
.....	الحل الأول أوائل عام ١٩٥٤
.....	زيارة وداع إلى القدس
.....	الحادث
.....	القضية
.....	المحاكمة
.....	الجزء الثالث
.....	فى قرّة ميدان
.....	على أسيوط
.....	ليالى السجن القاتمة
.....	عقبات فى الطريق
.....	فى التأديب
.....	مع أصدقائى المذنبين

.....	نساء مجاهدات
.....	عودة إلى الجهاز السري
.....	حادث خطير
.....	شعاع من نور
.....	اليقظة من حلم جميل
.....	الشيوعيون يكرموني في السجن ثم يقدمون شكوى في حقي
.....	ضباط.. وأطباء.. وطلبة.. في السجن
.....	مهرجان الحرية المؤقتة
.....	الوداع يا دنيا
.....	الجزء الرابع
.....	حياة جديدة
.....	دنيا الأدب والأدباء
.....	رجال الأمن يعصفون بالندوة
.....	اتحاد الكتاب ونادى القصة
.....	لقاء الأدباء مع عبد الناصر
.....	لقاء مع سيد قطب
.....	في أسواق الأدب
.....	نصف الدين
.....	الحريق الكبير
.....	الحياة الصعبة في القرية
.....	من ذكريات القرية
.....	العودة إلى المدينة
.....	ليالي المدينة السكنية
.....	الأيام تمضي
.....	أدب الحياة.. والحرية
.....	كأننا يا بدر لا رحنا.. ولا جينا
.....	الجزء الخامس
.....	مشاكل وهموم
.....	الليالي الطويلة
.....	أبوزعل الجديد
.....	السجون السبعة ونهاية المطاف
.....	زوجتي تقابل عبد الناصر
.....	القافلة تسير والدائرة تدور



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET